السيرة النبوية العطرة ﷺ
في
الآيات القرآنية المسطرة

تأليف
محمد إبراهيم شقرة

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد
الرياض

الطبعة الأولى للطبعة الجديدة

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

ح مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ١٤١٨ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شقرة ، محمد ابراهيم

السيرة النبوية العطرة في الأيات القرآنية العطرة - الرياض.

٤٨٠ ص ، ١٧ X ٢٤ سم

ردمك ٠-٦٩-٨٠٤-٩٩٦٠

١-السيرة النبوية ٢ - القرآن - مباحث عامة أ - العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٨/٠٥٠٥

رقم الإيداع : ١٨/٠٥٠٥

ردمك : ٠-٦٩-٨٠٤-٩٩٦٠

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع

هاتف: ٤١١٤٥٣٥ - ٤١١٣٢٥٠

فاكس ٤١١٢٩٣٢ - برقيا دفتر

ص.ب: ٣٢٨١ الرياض الرمز البريدي ١١٤٧١

سجل تجاري ٦٣١٢ الرياض

مقدمة الطبعة الأولى

إنَّ الحمدَ للَّهِ، نحمدُهُ ونَستعينُهُ ونَستغفرُهُ، ونعوذُ باللَّهِ مِن شُرورِ أنفُسِنا ومِن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهدِهِ اللَّهُ فَلا مُضلَّ له، ومَن يُضلِلْ فَلا هادِيَ له .

وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ .

وأشهَدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ .

أمَّا بَعدُ؛ فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللَّهِ، وخَيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، وشرَّ الأُمورِ مُحدَثاتُها، وكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وكُلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكُلَّ ضلالةٍ في النَّارِ .

وَبَعدُ :

فما كان لمؤمنٍ ولا لمؤمنةٍ، أن يكون لهم منهم إعذارٌ لأنفسهم - فضلاً عن أن يلتمسوا حجّةً أو شبهَ حجّةٍ - إما بجهل، وإما بلَبسٍ، وإما بتركٍ وهجرٍ - تُعمّى بها السبيلُ الآخذتهُم، إلى سيرة الرسول صلَّى اللَّه عليه وسلَّم - وهي المرقاة التي يَرقَوْنَ بها شُرُفات الحياة، فيُبصرون

منها مسيرة القرون الأولى، تمضي في الأرض، مكتوبةً حروفها بهدي الأعمال الماجدة، التي ألزموها أنفسهم، تصديقاً بما جاءهم به الرسول محمد عليه الصَّلاة والسلام من عند ربه، وعملاً محموداً، منظوماً بسلكِ النُّبوَّة الخاتمةِ، الواصِلِهم بنورِ الوحي، في غير غُلُوٍّ يُحيدهم عن سواء الأمر، ولا تفريطٍ يُجثيهم على أعتابِ البدع المضلَّة، فإذا هم قيامٌ في كل زمانٍ ومكانٍ ينظرون، بعيونٍ تفيضُ بالفرح الغامر، بما جاءهم من العلم، فلا يجدون في صدورهم إلّا رجاءً، يملؤها بصادقِ الولاء للوحي المنزَّل على النبي الخاتم، ولا تقودهم في أرضِ الحياةِ، إلّا أشواقٌ تَتْرى متدافعةً، تهديهم إلى الجادَّة القاصدة، وتقيمهم على أحسنِ حالٍ في أمور معاشهم كلِّها، وتَنصِب لهم غايةً واحدةً أبد الدهر، لا تغيب عن قلوبهم وعقولهم ساعةً من ليل أو نهار، لا يُعجزهم عن نوالِها إلّا ما يُمنون به من عجزٍ فيهم، يصرفهم عن التَّبصُّر في العواقب، لا بقهرٍ وغلبةٍ، بل بمحضِ إرادةٍ واختيارٍ منهم .

لكن هذا ليس فيه مَقنعٌ إلّا للنفسِ التي ألواها الشيطان إليه، وصار زمامها بيده، وطمأنها لإرادته، فصارت طوع ترغيبه ووسوسته .

وما يكون للمؤمن أن تهونَ عليه نفسه هذا الهوانَ، فيضعَ مِقوَدَ عقله، وزمامَ قلبه في يد الشيطان، وهو الذي أكرمه اللّٰه، وفضَّله على كثيرٍ ممن خلق تفضيلاً، وإلّا فأيُّ فضلٍ يميزُه من سواه، ممن ضربت الغفلةُ على قلوبهم، وزحزحتهم الغواية عن السبيل التي أبان اللّٰه معالمها، وأسال

نورَ هدايته عليها ؟!

ولقد نظرت في كتابي هذا المرة تلو المرة، فما اختلفت نظرتي إليه في كل مرة عن سابقتها، وما زادني النظر فيه إلّا إيماناً بأنَّ السيرة النبويَّة العطرةَ، عِطرُها الفوَّاح في آي الكتاب منها، فلا يَجْمُلُ بمسلمٍ لديه شيءٌ من العلم يرفعُ اللَّه به قدْره فيه، أَنْ يجهل أنَّها هي الوعاء الصَّافي لسيرةِ المصطفى صلوات اللَّه عليه، كما أنَّه لا يحسن بعاقلٍ، مكَّنه اللَّه من أداةِ المعرفة في القرون اللاحقة أن لا يصيب فيها - بما وُهبَ - ما يصيبُ من هو على شاكلته، مِن أهلِ قرون الإسلام السابقة، التي أبصر فيها العلماء الربَّانـيُّون بأطرافِ تلك السيرة في كتاب اللَّه تبارك وتعالى، فكانت البابَ الواسعَ الذي ولجوه إلى السيرة المسطورة في كتبها، يأخذون منها ويَدَعونَ، لا على أساس من السَّند، الصحيح والضعيف فقط، بل إنزالاً لنصوصها على الآيات التي لا يأتيها الباطلُ من بين يديها ولا من خلفها، وذلك على نحو ما بيَّنت هذا الأمر في صدر هذا الكتاب، والحمد للَّه على نعمائه .

ولقد وددت أن يكون بيني وبين علماء المسلمين في أرجاء الأرض حبلٌ متينٌ موصولٌ، أعرف منه وبه- ويعرفون - ما يصلح عليه حالُ الأُمة على الدهر، في كلِّ شأنٍ من شؤون حياتها، وفي كلِّ ألوان المعرفة، التي وعاها العقل المسلم، وأظهرت قَدرَهُ بما أودعَ حافظة التاريخ من هذه المعارف، المختلفة الألوان، الطيبة الثمار، فيكونُ منا جميعاً عهدٌ نُمضيه

على أنفسنا نضع به نحن تاريخاً لأنفسنا، قبل أن نفكر في تنخيل التاريخ المَديد؛ الحاوي الأحداثَ الحِقافَ والثقالَ لأُمَّة الإسلام .

وإن نحن تصوَّرنا ماذا يمكن أن ترث القرون القادمة عنّا، فإنَّنا سوفَ نعذر التاريخ الذي زوى إليه أحداثَ القرون الغابرة على تناقضها وتباينها أولاً، ثم سنحذر أشدَّ الحذر، أن نُبقي للآتين من بعدنا معه ما يُخجلنا يوم يقوم الأشهاد .

والنظر العلمي، يقضي ولا بدَّ، أنْ يُزادَ أو ينقص، فيما يكتب الكاتب، أو فيما يقول القائل، فالعقل قد يضل الصواب، وينسى الحقيقة، والرأي وحده لا يؤسِّس حقيقةً، ولا يُثبت صواباً، بل لا بدَّ من قيام الدَّليل إلى جانبه، فيكون له من التقديم والتأخير، بما يغلبُ عليه من الصواب، ويدنيه من الحقيقة، فتبرأ ذمة الكاتب حينئذٍ، إذ عمدتُه الدَّليل الصادق .

ولقد كان دليلي - والحمد للّه - الذي أقمتُ عليه كتابي هذا، هو النَّصّ القرآنيّ، وهو أوثقُ دليلٍ تثبتُ به الحقيقة، وتؤسَّس عليه، ويهدي إليها، ولعلَّه بهذا كان أول كتاب في السيرة النبويَّة، نهج فيه مُؤلِّفٌ هذا النهجَ المباركَ السديدَ، وهي نعمةٌ أنعمَ اللّه بها عليَّ، فله الحمد كلُّه، والثناء المستحقُّـه .

لكن؛ على الرَّغم من ذلك، فإنَّ القراءة الأخرى لعمل الكاتب

المؤلِّف - بما يعرض له من حاجةِ النَّقص أو الزيادة - تكادُ تفرضُ عليه أن يتمّ النّاقصَ، ويرفعَ الزائد، وأن يؤلِّف بين ما نقصَ وبين ما زادَ .

وقد كان ذلك في بعض مواطن الكتاب، التحمت كلُّها مع الأجزاء التي أُنزلت عليها في قرار معين، رَضيَت بها نفسي، وأرجو أن يكون قد رضيَ بها عنِّي ربِّي من قبل هذا، فيكون به رضا القرّاء، من كان يُبصِر - منهم - من الحقِّ، ما يوافقُ به رضا اللَّه سبحانه .

وعلى أنّي أكادُ أقول : إنِّي قد أتيت على ما يحتاجُ إليه الناظر في سيرته صلَّى اللَّه عليه وسلَّم؛ من صفاته الـخُلُقيّـة، فإنَّ خُلقاً منها شَخَصَ لي في شيءٍ من العَتْبِ - أنّي لم أُوفِّه حقَّه - وأنا أُبصر بآثاره العملية، تكادُ أن تغيبَ من حياة الأمة، وترتَحِلَ عنها - يُلحّ عليَّ أن أكتُبَ في نُصرته، ما يُبدي فيهم حقَّه فرضاً عليهم أن يحموه بحمله في قلوبهم، وبثِّه في واقعهم، وأن يتعلَّموهُ بلسان العمل لا بلسان القول، فَخَصَصتُه بفصل مستقلٍّ، غير مكلِّفٍ نفسي إلّا وسعها، فجاءَ - والحمد للّه - إطاراً حسناً للصورة النَّبويَّة الماثلةِ في عين الدنيا، بصراً وبصيرةً، ليس يشقُّ على إنسان أن يلتئمَ معها، راغباً عن كلِّ ما ينبو عنه، ولا يشاكل الآثارَ الرَّضيَّة، التي تتجلَّى سلوكاً رفيعاً، يملأُ العيون، والأسماعَ، والأفئدة بهاءً وحبّاً ورضاً .

فما أحوجَنا - نحن المسلمين - وبخاصَّةٍ في هذه الأيام، التي

انتكأت فيها جراحات القلوب، وانشمرت عنها المودّات، وتناءت – في غير أسف ولا حُزنٍ – إلى هذا الخلق النّبويِّ الكبير، نمحو به سَوْءاتِ النّفوس، ونُعلي بهِ أقدارها، ونرخيه ستراً نضِراً، يُجنُّ المودَّةَ الصافية، تتوثَّق بها عرى القلوب، وتعمرُ بالرجاءِ في رحمة اللّه، التي يرفع بها درجات المحسنين إليه .

وأسألُ اللَّه سبحانه أن يجعلنا من عباده المحسنين، وأن يُحِلّنا دار المُقامة من فضله، وأن يرزقنا الإخلاص والصدق في القول والعمل .

وصلّى اللَّه وسلَّم وباركَ على نبيِّنا وهادينا وشافعنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم بإحسان .

وكتب

محمد إبراهيم شقرة

عمان في ١٥ شوال ١٤١٣هـ

مقدمة الطبعة الجديدة

ما كانَت قريشٌ لِتُطِيقَ صبراً على محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم - وهو يَصدَعُ بأمرِ ربِّهِ، يتحدَّاها في إلفِها الطَّويلِ الذي نامَت عيونُ القُرونِ عنه - رغمَ أنَّها لم تعرفْ عنه إلّا صدقَ الحديثِ، ورجحانَ العقلِ، وجرأةَ القَولِ، وقوَّةَ القلبِ، وأداءَ الأمانَةِ، وعونَ الكَلِّ، ووصلَ الرَّحمِ، والوَفاءَ بالوَعدِ، وغيرَ ذلك من خلالِ الخَيرِ وسجايا البِرِّ، أوفى بها فيهم على الغايةِ التي تقصُرُ عنها كلُّ غايةٍ .

لم تَرَ منه قطُّ قبلَ بعثَتِهِ - وقد أتمَّ الأربعينَ - شيئاً تَلمِزُهُ به، أو تنالُ من ذاتِهِ، حتى جاءَها بما جاءَها به مِن دَعوةٍ إلى التَّوحيدِ، وأن تُقيمَ أمرَها كلَّهُ في دنياها وحياتِها على أمرِ اللَّهِ المنزَّلِ عليه منَ السَّماءِ وأن تَطَّرِحَ جاهليَّتَها برُمَّتِها تحتَ أقدامِها، غيرَ ناظرةٍ في ذلك إلّا إلى ما تَرجوهُ من رضوانِ اللَّهِ ونعيمِهِ في الآخرَةِ، فأبرَمَت مع نَفسِها عقداً - دعتِ القبائلَ إليهِ - أن تَصُدَّ النَّاسَ عن دَعوتِهِ، وأنْ لا تأذَنَ لهُ أن يتحرَّكَ في أرضِها بالكلمةِ المنزَّلةِ عليه منَ السَّماء، وأن تُصِيبَ منه قبلَ أن يُصِيبَ منها .

وتسمعُ قريشٌ محمَّداً صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم يقرأُ عليها آياتِ الكتابِ، فقالوا في تعجُّبِ : ﴿ أَأُنْزِلَ عليهِ الذِّكرُ مِن بَينِنا ﴾ ؟! فيستبينُ لنا الضَّعفُ النَّفسيُّ الذين مُنِيَت به وهي تقولُ قولتَها هذه في رجلٍ لم تعرفْ عنه قطُّ سوءاً بالغاً ما بَلَغَ في الصِّغَرِ، وإنَّهُ - لحقًّا - ضعفٌ عَرَفتهُ قريشٌ من نفسِها قبلَ أن يعرفَهُ النَّاسُ منها، لا ينفكُّ عنها إلّا أن تَرى في رسولِ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم غيرَ ما قالت - حَسَداً واستكباراً - أو لربَّما كانت قولتُها صرفاً لِلَواعجِ النَّفسِ الهائجةِ أن تُستَلَبَ منها عادةٌ استحكمَت حلقاتُها فيها، فلا تملكُ أن تقولَ غيرَ ما قالت، أو لكأنَّها رأت في ذلك اليتيمِ - يسودُها يوماً منَ الدَّهرِ - عاراً يُجلِّلُ هاماتِ كبرائِها، فهي إذاً في حلٍّ من بعضِ فضائلَ كانَت عليها .

ولكن ما قيمَةُ الكلمةِ إذا لم تكن تَستندُ إلى منطقٍ عقليٍّ صحيحٍ، أو تحكمُها رؤيةٌ واضحةٌ قادرةٌ على الرَّبطِ بين الماضي والحاضرِ ؟

وتَذْرَعُ قريشٌ أرضَ الجزيرةِ تؤلِّبُ القبائلَ على محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم لِتُصيِّرَهُ في عَينِها إلى غيرِ ما عرفتْ عنه، فلا يكونُ من تلكَ القبائلِ إلّا ما كانَ من قريشٍ نفسِها، استيقَنتهُ أنفسُها إنساناً سبقَ سبقاً بعيداً في كلِّ ما أُوتِيَ من خِلالٍ وسجايا؛ لكن أن يُنازِعَ الكبراءَ مجدَهُمُ المُسَربَلَ بالكِبْرِ فهذا لن يكونَ، وَلْيَطْوِ محمَّدٌ خَطْوَهُ، ولْيُلْقِ عن عاتِقِهِ رِداءَهُ، وَلْيُرِحْ راحلتَهُ، وقالوا : ﴿ لَولا أُنزِلَ هذا القُرآنُ على رجلٍ مِن القريَتَينِ عَظيمٍ ﴾ .

ويُمضي الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ثَلاثَ عشرةَ سنةً في مكَّةَ - تتناوشُهُ سهامُ العَداوَةِ الشَّرِسَةِ مِن كلِّ جانبٍ، وتتربَّصُ به الأحقادُ الحاسدَةُ في كلِّ منحىً، وترقبُهُ عيونُ الشَّرِّ الرَّاصدةُ في كلِّ خطوةٍ؛ والوحيُ يتنزَّلُ عليه بآياتِهِ مؤدِّباً مواسياً : ﴿ وإنْ كانَ كَبُرَ عَليكَ إعراضُهُم فإنِ استَطَعتَ أنْ تبْتَغيَ نَفَقاً في الأرضِ أو سُلَّماً في السَّماءِ فتأتِيَهُم بآيةٍ وَلو شاءَ اللَّهُ لجمعَهُم على الهُدى فلا تَكونَنَّ مِن الجاهلين ﴾، فلا يُقْعِدُهُ شيءٌ ممَّا يُصِيبُهُ عنِ المضيِّ في الدَّعوةِ، ويرى أصحابَهُ تَهوي بهم قِطَعُ العذابِ، وتأكلُ أجسادَهم سياطُ العذابِ، وتُغلَقُ في وجوهِهِم أبوابُ الرَّجاءِ، فلا يملكُ إلّا كلمةً واحدةً يُصبِّرُهم بها .

ويسجِّلُ القرآنُ في آياتِهِ البيِّناتِ هذا كلَّه؛ لتكونَ حياتُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مسطورَةً بكلِّ جوانِبها وحياً متلوَّا، فلا يَمْتَري فيها إلّا مَن رَبَا النِّفاقُ في صدرِهِ، ولا يَرتابُ فيه إلّا مَن وَفُرَ الكفرُ في قِلبِه، ولا يقولُ فيه سوءاً إلّا منِ افترَشَ السُّوءُ لسانَهُ، حتى لا يكونَ لأحدٍ من هذه الأُمَّةِ حجَّةٌ إن قصَّرَ في إدراكِ شيءٍ من سيرتِه صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه؛ في أيِّ زمانٍ عاشَ، وفي أيِّ مكانٍ وُجِدَ .

ويَصْعَدُ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم بعد رحلةٍ في الزَّمنِ دامَت ثلاثةً وستِّين عاماً، حمل في ثلاثٍ وعشرين سنةً منها همَّ الدَّعوةِ والأُمَّة - وما أثقلهُ حِملاً ! - ويجتازُ قنطرةَ الحياةِ وهو أسعَدُ ما يكونُ حالاً، وأرضى ما يكونُ نفساً أن خلَّفَ وراءَهُ جيلاً مِنَ الحواريِّينَ ساروا على

أحسنِ ما كان عليه في حياتِهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، فاستحقُّوا منه الثَّناءَ كلَّه والتَّحذيرَ للنَّاسِ أن ينالُوا من واحدٍ منهم ولو بكلمةٍ : « والَّذي نَفسي بيدِهِ؛ لو أنَّ أحدكُم أنفَقَ مِثلَ أُحدٍ ذهباً؛ ما بَلَغَ مُدَّ أحدِهِم ولا نَصِيفَهُ »[1].

وبَقِيتْ حياتُهُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم محفوظةً في صدورِ أصحابِهِ، باديةً على جوارحِهِم سيرةً مُحكمةً بكلِّ أحداثِها الجليلةِ والدَّقيقةِ، الظَّاهرِ منها للنَّاسِ جميعاً، والخفيِّ منها إلّا على النَّفرِ القليلِ منهم .

وأُتْرِعَت بهذه السِّيرةِ العظيمةِ حياةُ القرونِ الثَّلاثةِ الأولى بكلّ ما فيها من عطاءٍ نفسيٍّ وعقليٍّ، تربيةً سلوكيَّةً عمليَّةً، قامت فيها القدوةُ الإنسانيَّةُ المُثْلَى في شخصِ الرَّسولِ الأعظمِ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه تَشخَصُ إليها الأبصارُ الوالهةُ في جلالِ الحبِّ، وتشرئبُّ إليها القلوبُ الطَّائعةُ في وفاءِ الرِّضا، من قربٍ ومن بُعدٍ على سواءٍ، لا يَعْتَرِيها مَلَلٌ، ولا يُقارِبُها كَلَلٌ .

وما كادَت هذه القرونُ تَنقضي حتى أخذَ الوَهن يَنتابُ أطرافَ المسلمين، وينتقصُ من قلوبِهم وحِفْظِهِم، وطلعَت في دنيا الإسلامِ سُحُبٌ داكنةٌ نَفَثَتْها دخاناً أسودَ قاتماً أفواهُ الشُّعوبيَّةِ المحترقةِ، وسَحَّتْ

---

(١) أوَّله : « لا تَسُبُّوا أصحابي ... » ، رواه البخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد .

بوَبْلِها الكَرِيهِ، حتى كادَت أن تأتيَ على كلِّ شجرةٍ كانت قد آتَتْ أُكلَها من قبلُ حنظلاً وشوكاً، وخلَّفَت حَبَطاً مُفظِعاً .

وبدأَت عقاربُ الفتنة تجوسُ خلالَ أرضِ الإسلام؛ التي كتبَ سطورَ دينِها ولغتِها وتاريخِها المضيئةَ القرونُ الثَّلاثةُ الأُولى بما آتاها اللَّهُ من إيمانٍ وعلمٍ وصِدْقٍ وَلاءٍ، تبحثُ عن تلك السُّطورِ لتَمْحُوَها من ذاكرةِ الزَّمنِ، وتأتيَ على كلماتِها التي أَودَعَتْها تلك القرونُ صَدرَهُ، وبَذَلَتْ في ذلك كلَّ جُهدٍ مُستطاعٍ، فلم تحصُلْ منه على طائلٍ؛ إلّا حين أخذت تُفرِغُ سُمَّها في عقولِ أبناءِ الأُمَّةِ وقلوبِها تَشكيكاً في دينِها ولغتِها وتاريخِها، ولقد - واللَّهِ - أصابت من ذلك حظًّا كبيراً، وهو شيءٌ منَ العقوبةِ التي أحلَّها اللَّهُ بالأُمَّةِ عياذاً باللَّهِ تعالى .

ولستُ هنا بصددِ الكتابةِ عن السُّوءِ الذي بلغتْه تلك العقاربُ من دينِ الأُمَّةِ ولغتِها وتاريخِها بإطالةٍ وتفصيلٍ، فحسبي وحسبُ كلِّ قارىءٍ - مهما كان حظُّهُ من الثَّقافةِ والوَعي - أن يقفَ على القليلِ اليَسيرِ منه؛ ليَعرفَ جسامةَ المكرِ السَّيِّىءِ الذي كانت تلك العقاربُ تُضمِرُهُ لهذه الأُمَّةِ في دِينِها ولغتِها وتاريخِها، ولا زالت ولسوفَ تبقى ما دامَ في الأرضِ حقٌّ وباطلٌ، ولا أحسبُ أن ما بدا من سوءِ الرَّافضةِ في أيَّامِنا هذه - وما جَلَبَتْهُ على الأُمَّةِ من كوارثَ، وما تُصرُّ عليه من شرٍّ تُدمِّرُ به بنيانَ الأُمَّةِ - إلّا أنَّهُ قطعةٌ جاسيةٌ من ذلك المكر السَّيِّىءِ النَّاشبِ في تفكيرِ تلك العقاربِ، وإن هي حاوَلَت أن تُقَدِّمَها للأُمَّةِ مُغلَّفةً بالإسلامِ

الذي حيلَ بينه وبينَ أهلِهِ قروناً، فصاروا يرقبونَ يوماً يأتي فيه أحدٌ - أيُّ أحدٍ - يحملُ الإسلامَ إليهم، فلمَّا جاءَهم ذلك اليومُ حسبوا أنَّ الإسلامَ وُلِدَ من جديدٍ، ولا أدري إنْ ظلَّت الأُمَّةُ على ما هم عليه من جهلٍ في دينِها إلى من تُسلمُ قيادَها ؟!

وحتى يتبيَّنَ لنا الحقُّ؛ فإنِّي سأكتَفي بإيرادِ بعضٍ من أنباءِ السِّيرةِ النَّبويَّةِ فيما بعد؛ التي حَشَدَها المؤلِّفون في كتب السِّيرة النَّبويَّةِ حشداً أكادُ أقولُ : إنَّهُ حشدٌ عشوائيٌّ، إذْ إنَّ أُولئكَ المؤلِّفين - رحمهم اللَّهُ على ما بَذلوا من جهدٍ - لم يعتدُّوا - وهم يؤلِّفون في السِّيرةِ - القواعدَ العلميَّةَ في اختيارِ الأخبارِ جميعِها؛ من طرقٍ صحيحةٍ وأسانيدَ ثابتةٍ تجعلُ القارىءَ لها مطمئنًّا إلى سلامتِها، والتَّسليمِ لما جاءَنا من رُواتِها .

وأخبارُ السِّيرةِ هي كغيرِها من الأقوالِ والأفعالِ التي جهِدَ علماءُ الجرحِ والتَّعديلِ في وضعِ القواعدِ العلميَّةِ الضَّابطةِ لها؛ والتي هي - أي: القواعدَ العلميَّةَ - الميزانُ الدَّقيقُ في قَبولِ ما يُقبلُ منها، وردِّ ما يُرَدُّ، وهي أخبارٌ تتَّصلُ اتِّصالاً مباشراً بشخصِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولا يحسنُ عقلاً ولا أدباً ولا علماً أن يتسلَّلَ منها خبرٌ واحدٌ فيَنفُذَ إلى النَّاسِ بعيداً عن تلكَ القواعدِ العلميَّةِ؛ لأنَّهُ يكونُ - حينئذٍ - منافياً لسِمَةِ الرِّسالةِ العظيمةِ وهي : « الضَّبطُ والثِّقَةُ القائمانِ على قاعدةِ الصِّدقِ والأناةِ والتَّحرِّي » .

وإذا نحن أجَلنا النَّظرَ في أخبارِ السِّيرة التي بين أيدينا؛ وجدنا الجمَّ الغفيرَ منها غيرَ متَّفقٍ مع هذه السِّمة، ولا أجدُ عُذراً قطُّ لمن يُسلِّمُ تسليماً لهذه الأخبارِ بدعوى أنَّ الأُمَّةَ تَلقَّتْها بالقَبولِ والرِّضا، أو بدعوى أنَّهُ لا يقدرُ على تمييزِها بعضِها من بعضٍ، فهذه دعوى لا تُقْبلُ لا ديناً ولا علماً؛ إذ أنَّ التَّسليمَ على هذا النَّحوِ بمثلِ هذه الدَّعوى هو تسليمٌ لشيءٍ لا يرضاهُ ربُّنا، ولا يحبُّهُ نبيُّنا صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، وعملُ المسلمِ كلُّهُ يجبُ أن يَصدُرَ من الحرصِ على رضا اللَّهِ وحُبِّ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم .

من أجلِ هذا الحبِّ الذي يُفْضِي إلى رحابِ الرِّضوانِ؛ أُجهدُ نفسي في الوقوفِ على سيرتِهِ نقيَّةً خاليةً من كلِّ شائبةٍ، فهو حبٌّ يستأهِلُ - واللَّهِ - كلَّ جُهدٍ يبذلُهُ المسلمُ؛ لأنَّهُ يَصِلُهُ بأعظمِ محبوبٍ للَّهِ مِنَ الخَلْقِ، فيعرفُ من حالهِ ما يَقِفُهُ على دقائقِ حياتِهِ وجلائِلِها، فَيصرِّفُ وجوهَ حياتِهِ على نحوِ ما كانَت عليه حياتُهُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، فَيَنعَمُ به وهو ميِّتٌ، كما نَعِمَ به أصحابُهُ وهو حيٌّ بين ظهرانَيْهِم، فيَلتقي الأوَّلونَ والآخِرون عند قدمِهِ يومَ القيامةِ على كأسِ الرِّضا، يغرفُ لهم به من الحوضِ المورودِ .

ولا يجوزُ أن يُفرَّقَ في النَّظرةِ العلميَّةِ بين أحداثِ السِّيرةِ، فما كان منها قبلَ البعثةِ وما كان منها بعدَها سواءٌ، فهي أحداثٌ نُسِجَت منها حياتهُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم لتكونَ نِبراساً للأُمَّةِ جميعها في حياتِهِ وبعدَ

موتِهِ، فأنْ يُنسَب إليه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم أمرٌ لا يصلحُ عقلاً أن يُنسَبَ إلى مَن دونَ الأنبياءِ من سائرِ البشرِ - الذينَ لهم شأنٌ يُذكرفي أُمَمِهِم - أمرٌ إدٌّ لا يَحسُنُ أن يُفكَّرَ فيه ألبتَّةَ، فضلاً عن أن يشيعَ في النَّاسِ ليصبحَ فيما بعدُ حقيقةً عندهم يرفضونَ أن يتحوَّلوا عنها إذا ما ظَهَرَ لهم فسادُها .

وإنَّكَ لتَعجَبُ أشدَّ العجب وأنتَ تَرى نفراً ابتُليَتْ بهم هذه الأُمَّةُ في هذا الزَّمانِ - كما ابتُليَت بأشباهِهِم في أزمنةٍ أخرى مَضَت - يَحسبونَ أنفسَهم علماءَ، أو يَحسبُهم الجهلاءُ كذلك، لا يَرَونَ لأنفسِهم فضلاً على أُولئك الذين حَسبوهم علماءَ، فيغوصونَ في حمأةِ الجهلِ، ظانِّينَ أنفسَهم أنَّهم يُدافعونَ بألسنَتِهم العليمةِ وعقولِهِم السَّقيمة، عن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وسيرتِهِ، حين تراهم يُلقُونَ بهذه الأخبارِ على مسامعِ النَّاس كما يُلقي (الحكواتي !!) حكاياتٍ وقصصاً دَبَّجَتْها أقلامُ الخيالِ .

ثمَّ إنَّهم لا يَرضونَ بهذا حتى يخوضوا خوضاً بَشِعاً في أعراضِ مَنْ عَلَتْ بهم أقدارُهُم العلميَّةُ، فأنالَتهُم حظًّا من تقوى اللَّهِ، فيَستَطيلونَ في أعراضِهِم، ويُصِيبونَ - من غيرِ خَوفٍ من اللَّهِ - من دينِهِم وتقواهُم، ويسحَجون سَحجَ الغِربانِ النَّاعبةِ على المنابرِ، كلُّ ذلك وغيرهُ من سوءِ القلوبِ والألسنةِ؛ لأنَّهم لم يُقيمُوا لعقولِهم وزناً، ولم يَرَوْا حقًّا للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم عليهم أن يُنَزِّهُوهُ عمَّا لا يَليقُ بمن دونَه من سائرِ

البشِر، وأن يُبَرِّئوهُ مِن تلك الأخبارِ التي لو صحَّت ما زادت من قَدْرِه، فيكفَ وهي ممَّا نهى اللَّهُ سبحانه عنه : ﴿ وَلا تَقْفُ ما ليسَ لَكَ بِهِ علمٌ ﴾ ؟! فأينَ يَذهبُ هؤلاءِ وهم ينأونَ بأنفسِهِم عنِ الحقِّ الذي يعلمون، لا حُجَّةَ لهم فيه إلّا أنَّهم وجدوا النَّاسَ يقولون : هذا حسَنٌ. فقالوا مثلَ ما قالوا ؟! تشابَهَت منهمُ القلوبُ والأحوالُ، فَلا فَضلَ لأحدِهِم على الآخَرِ أي : لا فَضلَ للعالمِ منهم على الجاهلِ .

ثمَّ ماذا يقولون لربِّهم يوم يُعْرَضُون عليه وقد أَكَلُوا لحومَ العلماءِ أكلاً لـمًّا، ولم يكن لهم سبيلٌ إلى المجدِ في دنياهم إلّا بذلك ؟!

فَلْيَهنإِ الشَّيطانُ على ما أسلَفوا إليه، وليَهنؤُوا هم على ما أسلفَ إليهم !!

وإذا كانت قواعدُ الجرحِ والتَّعديل - التي ارتَضَتها الأُمَّةُ، وصارت طريقَها السَّالكةَ إلى مَعِينِ النُّبوَّةِ الفيَّاضِ - هي التي يجبُ أن تُعتَمَدَ في سيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم كما اعتُمِدَت في أقوالِهِ وأفعالِهِ؛ فإنَّنا واجدونَ أنفسَنا أمام حَشدٍ من أخبارِ السِّيرةِ النَّبويَّةِ - يَنُوءُ بها السِّجلُّ - لا تقوى على الوقوفِ أمامَ هذه القواعدِ .

ولا أُريدُ في هذه المقدِّمةِ استعراضَ أخبارِ السِّيرةِ جميعِها، والنَّظرَ فيها على وَفْقِ هذه القواعدِ، فذلك أمرٌ يطولُ أوَّلاً، وليس هو أساسَ البحثِ ثانياً، فالذي أُريدُهُ ضربَ أمثالٍ تُبينُ المرادَ، وتصرفُ النَّاسَ عن

التَّسليمِ المطلقِ لكلِّ أخبارِ السِّيرةِ، وهذا أمرٌ لا يُلحِقُ ضرراً بدينِ المسلمِ، ولا يُضِلُّهُ بالهوى، والعكسُ هو الصَّحيحُ، وأَكتفي بإيرادِ ثلاثةِ أمثلةٍ، فدلالةُ البعض دلالةُ الكلِّ .

□ **المثالُ الأوَّلُ :**

ما رُويَ من أن جبريلَ جاءَ إلى الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وأخبره بما تُبَيِّتُ قريشٌ له، وأمَرَه أن لا يبيتَ في فراشِهِ، فباتَ عليٌّ مكانَهُ .

هذا الحديثُ رواهُ الإمامُ أحمَدُ في « مسنده »، وأوردهُ ابنُ إسحاقَ في « سيرة ابن هشام » (١/١٥٥) بقولِهِ : « حدَّثني من لا أتَّهم » .

وشيخُ ابنِ إسحاقَ هذا لا يُعرفُ، وفي سندِه عبدُاللَّهِ بنُ أبي نجيح، وذكرَ هذا الحديثَ أيضاً ابنُ سعدٍ في « طبقاتِهِ » من طريقِ الواقديِّ، والواقديُّ متَّهم بالكذب .

وأخرجه ابنُ هشامٍ من طريقِ محمَّدِ بنِ كعبٍ القرظيِّ، وهو ليس بصحابيٍّ، فالحديثُ بذلك مرسلٌ .

وأخرجه عبدُالرزَّاق وأحمدُ من طريقِ عثمانَ بنِ عمرو بن ساج، قال في « التَّقريب » : « فيه ضعف » .

وقال عنه ابنُ أبي حاتمٍ : « لا يُحتَجُّ به » .

وقال العقيليُّ : « لا يُتابَعُ في حديثِهِ » .

فماذا يُمكنُ أن يقالَ في مثلِ هذا الخبَرِ بعدَ ما تبيَّنَ لنا وَهْيُ إسنادِهِ ؟!

□ المثالُ الثَّاني :

ما رُويَ أيضاً أنَّ شجرَةً نَبَتَتْ في وجهِ الغارِ الذي أَوى إليه النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم فستَرَت وجهَهُ، وأمَرَ اللَّهُ العنكَبوتَ فنَسَجَت على وجهِ الغارِ، وأمَرَ اللَّهُ حمامَتَينِ وَحشِيَّتَينِ فوَقَعَتا بفَمِ الغارِ .

قال ابنُ كثيرٍ في « البداية والنِّهاية » (١٨٣/١٣) : « هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا من هذا الوجهِ » .

وقال الهيثميُّ في « مجمع الزَّوائد » (٥٣/٦) : « رواه البزَّارُ والطَّبرانيُّ، وفي سندِهِ جماعةٌ لم أعرفْهم، وفيه أيضاً عمرُو بنُ ساج، وهو ضعيفٌ لا يُحتجُّ به » .

فماذا يمكنُ أن يقالَ في مثلِ هذا الخبرِ أيضاً بعد ما تبيَّنَ لنا وهْيُ إسنادِهِ أيضاً ؟!

ولا يخفى على كلِّ من يقرأ القرآنَ أنَّ هذا الخبَر مُصادِمٌ لصريحِ قولِهِ تعالى : ﴿ وَأَيَّدهُ بجنودٍ لَمْ تَرَوها ﴾ وهلِ الحمامُ والعنكبوتُ والشَّجرةُ إلّا منَ الجنودِ المرئيَّةِ ؟![1]

(١) ومن عجبٍ لنفرٍ ألقَوا بتقوى اللّه من وراءِ ظهورِهم، ولجُّوا بأصواتِهم المنكرةِ العاريةِ =

□ المثالُ الثّالثُ :

ما يذكرونه من أنّ النّبيّ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم لما قدِمَ المدينةَ جعلَ النِّساءُ والصِّبيانُ والولائدُ يقُولونَ :

طَلَعَ البَدرُ علَينا	مِن ثَنِيّاتِ الوَداعْ
وَجَبَ الشُّكرُ عَلينا	ما دَعا للّهِ داعْ
أيُّها المَبعوثُ فينا	جئتَ بالأمرِ المُطاعْ

فهذا الخبرُ إسنادُهُ ضعيف، وذلك بسبب إعضالِهِ كما قال الحافظُ العراقيُّ في « تخريج الإحياء » (٢/٢٧٧)، فقَد سقطَ من إسنادِهِ ثلاثةُ رواةٍ أو أكثرُ .

وأيّةُ علّةٍ أفسدُ للسَّندِ مِنَ الإعضالِ ؟!

قال ابنُ القيِّمِ رحمه اللّهُ في « زاد المعاد » :

« وبعضُ الرُّواةِ يقولُ : إنَّ ذلك كان عندَ مقدمِهِ من مكَّةَ. وهو وهْمٌ ظاهرٌ؛ لأنَّ ثنيّاتِ الوداعِ إنّما هي ناحيةَ الشّام، لا يراها القادِمُ من مكَّةَ إلى المدينةِ، ولا يمرُّ بها إلّا إذا توجّه إلى الشّامِ » .

قلتُ : ومن المعلومِ يقيناً أنَّ الرّسولَ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم حينَ قَدِمَ

= من العلمِ والتّقوى من فوقِ المنابرِ، يَستَعدون الشيطانَ على أنفسِهم - وهو معهم بسوئِهِ أينما كانوا - وذلك حين ذهبوا يَرْجُمُونَ بإفكِهِم وجهلِهِم ما ليسوا ببالغي به آرابَهم الخبيثةَ .

المدينةَ دَخَلَها من جهةِ قُباءَ - وهي التي تلي مكّةَ من الجنوب - ولا يُعرَفُ أنَّ في هذه الجهةِ من المدينة مكاناً يُعرفُ بِـ « ثنيّات الوداع »، بل إنَّ هذا المكانَ - كما ذكر ابنُ القيِّم رحمه اللَّه - من الجهةِ التي تلي الشَّامَ، وهو جهةُ الشَّمال .

فماذا يمكنُ أن يُقالَ في هذا الخبَرِ أيضاً بعدَ ما تبيَّنَ لنا فيه ما تبيَّنَ ؟![1]

إنَّ في هذا القَدْرِ من الأمثلةِ ما يكفي، وقِسْ عليها الكثيرَ الكثيرَ ممَّا راجَ في المسلمين سوقُهُ، وكَثُرَ ذكرُهُ وحِفظُهُ، ونحن واجدونَ أنَّ في صنيعِ أهلِ مِلَلِ الكُفر كافَّةً ما يُشبِهُ مثلَ هذه الأُمورِ في غرابتِها، بل ربَّما فاقَتْها فيها، فهل نَعُدُّ ذلك للكفَّار معجزاتٍ وكراماتٍ ؟!

وإذِ الأمرُ كذلك؛ فلا بدَّ أن نعلمَ أن لو اجتَمَعَت كلُّ غرائبِ الدُّنيا ما رفعَت من قَدْرِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، ولو أنَّها انحسَرَت عنه وزالت ما نَقَصَت من قَدْرِهِ، فهو رسولُ اللَّهِ وكفى، وأيُّ قَدْرٍ يمكنُ أن يصيبَه الإنسانُ أعظمُ من أن يكونَ رسولَ اللَّه إلى خلقِهِ ؟ وأيَّةُ منزلةٍ يبلُغُها بشرٌ أرفعُ من أن يَبعَثَهُ اللَّهُ نبيًّا إلى عبادِهِ ؟! وأيُّ شرفٍ أوفرُ لعبدٍ من أن يُكرِمَهُ ربُّهُ باصطفائِهِ للنَّاسِ كافَّةً بشيراً ونَذيراً ؟!

---

(١) يأبى بعضُ السُّفهاءِ الجهلاءِ الأغبياءِ إلَّا الإمعانَ في غبائِهم وجهلِهم وسفاهتِهم وهم يخطبون النَّاسَ، أو يحدِّثونهم - بما ليس لديهم به علمٌ - أنَّ الثَّنيَّاتِ كثيرةٌ في المدينةِ ! ومعلومٌ أنَّ ثنيَّةَ الوداعِ اسمُ علمٍ على مكانٍ في المدينةِ .

إنَّ كُلَّ أقدارِ البَشرِ ومنازِلَهُم وشرفَهُم لو حِيزَت جميعُها لإنسانٍ واحدٍ؛ ما بلغت شيئاً يُذكرُ بجانبِ ما بَلَغَهُ نبيُّنا صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم من قَدْرٍ ومنزلةٍ وشرفٍ؛ باصطِفاءِ ربِّهِ إيَّاهُ نبيًّا رسولاً إلى النَّاس كافَّةً، أفَلَيسَ هو مُقدَّمَ الأنبياءِ وإمامَهم، وصاحبَ الشَّفاعةِ العظمى فيهم ؟ أفليسَ هو سيِّدَ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ؟ فلماذا إذاً مثلُ هذه الأخبارِ والحكاياتِ التي تفيضُ بها كتبُ السِّيرة ؟! إنَّ في كونِهِ ما كان عند ربِّهِ ما يكفي إنَّهُ رسولُ اللَّه وكفى !!

إذاً فالسَّبيلُ الأقومُ لسيرةِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم - لِتَمَثُّلِها سلوكاً وتصوُّراً، وعملاً وشعوراً، واقتداءً وإجلالاً - هو القرآنُ، فيظلُّ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم بذلك في سويداء القلوب، لا يقاربُهُ في الحبِّ والولاءِ بشرٌ، مهما دَنَت قرابتُهُ، ونَأَتْ عداوتُهُ، ومهما سَلِمتْ سريرَتُهُ، واستضاءَت بصيرتُهُ، ومهما رُضِيَت خليقتُهُ، وصَفَتْ خلتُهُ !!

إنَّ القرآنَ الذي فيه ذِكرُنا، ونبأُ من قبلَنا، وخبرُ من بعدَنا ليس بِضَنينٍ علينا أن يُتِمَّ لنا سيرةَ نبيِّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من يومِ مولِدِهِ إلى يوم وفاتِهِ، فتَسلَمَ لنا كما سَلِمَت لنا فيه سيرةُ الأنبياءِ السَّابقين مع أُمَمِهم، هذا إلى جانبِ وفرةٍ وافرةٍ من الأنباءِ الصَّحيحة التي نقلها إلينا أصحابُ كتبِ السُّنَّةِ من جوامعَ، وسُننٍ، ومسانيدَ - وأصحابُ كتبِ السِّيرةِ، فيكونُ ذلك كلُّه مُجزيًا في معرفةِ السِّيرةِ النَّبويَّةِ والحمدُ للَّهِ، وذلك فضلٌ من اللَّهِ عظيمٌ، والحمدُ للَّهِ .

وإذا كانَ بعضُ العلماءِ العارفين بمواقعِ النُّصوصِ القرآنيَّةِ ومعانِيها قد أَلَمُّوا بقَدْرٍ لا بأسَ به من سيرةِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من هذه النُّصوصِ؛ فإنَّني - والحمدُ للَّهِ - قد أتيتُ عليها - فيما أحسبُ - كاملةً، سرداً، واستنباطاً، وتَنسيقاً قَدْرَ ما أسعَفَني جهدُ البشَرِ الرَّاجي الثَّوابَ من ربِّهِ فيما فَعلَ .

وأسألُ اللَّهَ سبحانه أن يُنِيلَني من حبِّ نبيِّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم شَفاعَتَهُ، وأن يَجعَلَني من السَّائرين على هديِهِ، البارِّينَ بسُنَّتِهِ، القائمينَ في النَّاسِ بحَقِّ دَعوتِهِ، وأن يجعَلَ عملي هذا متقبَّلاً، وأن يكونَ وسيلةً رَضيَّةً إلى الرَّوضةِ النَّديَّةِ .

والحمدُ للَّهِ أوَّلاً وآخراً، والصَّلاةُ والسَّلامُ على الهادي بإذنِ ربِّهِ إلى صراطٍ مستقيمٍ .

كتبه

محمَّد إبراهيم شقرة

« أبو مالك »

○ ○ ○ ○ ○

السِّيرةُ النَّبويَّةُ مِنَ القُرآنِ

السِّيرةُ النَّبويَّةُ هي الصُّورةُ السُّلوكيَّةُ العمليَّةُ للرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، من خلالِها يستطيعُ المسلمُ أن يتعرَّفَ حياتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويتمثَّلَ هذه الحياةَ فكراً في عقلِهِ، وشعوراً في وجدانِهِ، وعملاً مطابقاً يظهرُ على جوارحِهِ، لكن يجبُ التَّنبُّهُ إلى أمرٍ هامٍّ جدًّا غفلت عنه جماهيرُ المسلمين؛ وهو أنَّ سيرةَ الرَّسولِ الكريمِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم المدوَّنةَ في كتبِ السِّيرةِ المعروفةِ تحتاجُ إلى تنخيلٍ وتنقيةٍ ليَصفوَ له القدرُ الذي يستطيعُ أن يطمئنَّ إليه المسلمُ حينما يريدُ أن يأخذَ من السِّيرةِ لنفسِهِ صورةً كاملةً واضحةً مشرِّفةً للرَّسولِ العظيمِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، وهذا شيءٌ لا يجهلُهُ طلَّاب العلمِ، وكلمةٌ قالها أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه اللَّهُ : « ثلاثةٌ لا إسنادَ لها : التَّفسيرُ والمغازي والسِّيَرُ » تدلُّ على هذا، ولا يَهُولنَّكَ ما قال، فليسَ يعني بها أنَّ الأخبارَ الصَّحيحةَ الصَّادقةَ التي جاءَت فيها ليست صادقةً أو صحيحةً بل يعني أنَّ كثيراً من أخبارِ السِّيَرِ تدخلُ في عدادِ القصصِ التي نشأت عند بني إسرائيلَ، ثمَّ انتقلَت لهذه الأُمَّةِ، وليتها أخذت فقط ما سَمِعَتهُ أو تلَّقته من غيرِها، بل أخذَ

كثيرٌ ينسجون على منوالِ هذه الأخبارِ، ويَنسِبُونها إلى السِّيرةِ وغير السِّيرةِ، حتى غَدَت مع الأيَّام مقبولةً محبَّبةً إلى النَّفسِ، وظنَّ أولئكَ أنَّ ما نَسجُوهُ سيظلُّ قويًّا لا يهترىءُ على الأيَّامِ، ولكن سُرعانَ ما قَيَّضَ اللَّهُ لسيرةِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وأحاديثِهِ وسنَّتِهِ بعامَّةٍ مَن يَنْفي عنها الدَّخيلَ، ويعضُدُ الأصيلَ، لكنَّ مرورَ زمنٍ على تلك الأخبارِ، وتدوينِها في كتبٍ، وشيوعِها بين النَّاسِ كلُّ ذلك أحدثَ لها في نفوسِ جماهير المسلمين قبولاً وحبًّا شديدين، حتى أصبحَ لا بدَّ أن يكون مِن المسلمينَ اليومَ مَن يحملُ في عقلِهِ العبءَ الذي حَمَلَهُ السَّابقون - كابنِ عُيَينةَ، ويَحيى بنِ مَعين، ويحيى بن القطَّان، والبخاريّ، وغيرِهم - لينبِّهَ من جديدٍ إلى الخطرِ الذي يتهدَّدُ الأُمَّةَ المسلمةَ بسببِ جهلِها سيرةَ نبيِّها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويوقظَ فيها الشُّعورَ الصَّادقَ بحبِّه صلواتُ اللَّهِ عليه، ولن يَتِمَّ للأُمَّةِ هذا كلُّه إلّا إذا هي عرفَتِ السِّيرةَ الصَّحيحةَ للنَّبيِّ الكريمِ .

وإذا كنَّا قادرين على أن نُنقِّيَ سيرةَ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، ونخلِّصَها من كلِّ الشَّوائبِ التي عَلَقَت بها حتى أوهنتِ الأخبارَ التي صحَّت منها - ونحن قادرون على ذلك بإذنِ اللَّهِ - فلماذا لا نلتفتُ إلى السِّيرةِ في مصدرِها الكبيرِ الذي لا تحومُ حوله شبهةٌ، ولا تنزلُ درجتُهُ في قلوبِ المسلمين، وهو القرآنُ العظيمُ ؟ وآيةٌ منه واحدةٌ نستطيعُ منها أن ننفذَ إلى كلِّ جوانبِ السِّيرةِ مع الأخذِ بما صحَّ من أخبارِها،

وهي قولُهُ سبحانه : ﴿ لَقَدْ كانَ لَكُم في رَسولِ اللّهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كانَ يَرْجو اللّهَ واليَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللّهَ كثيراً ﴾[1]، وسوف نعرضُ لهذه الآيةِ بالتَّفصيلِ الكاملِ في فصلٍ مستقلٍّ بها، ولكن نشيرُ هنا إلى الأمرِ الذي انقدحَ في ذهني، فقلتُ : نستطيعُ أن ننفذَ منها إلى كلِّ جوانبِ السِّيرةِ، ذلكم هو أنَّ هذه الآيةَ أعْلَمَتْنا أنَّ القدوةَ هو رسولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم، وهذه القدوةُ لا تكونُ ولا تتمُّ إلّا إذا كانت فيها العصمةُ، إذاً فكيفَ تكونُ القدوةُ والأخبارُ لها وعنها وفيها ومنها ؟! حينئذٍ لا بدَّ أن نتلمَّسَ هذه القدوةَ في الأخبارِ، وأولى من هذا أن نتلمَّسَها في آياتِ القرآنِ، فتقومَ هذه القدوةُ أمامَنا واضحةً مشرقةً صافيةً، تُشْغَفُ بها القلوبُ، وتَرْتَوي منها العقولُ والأرواحُ، وتأخذُ منها الأُمَّةُ زاداً لها لا ينفدُ .

عرفنا آنفاً أنَّ قولَهُ تعالى في سورةِ الأحزابِ : ﴿ لَقَدْ كانَ لَكُم في رَسولِ اللّهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كانَ يَرْجو اللّهَ واليَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللّهَ كثيراً ﴾ هي البابُ الذي نستطيعُ أن نَلِجَ منه إلى شخصِ رسولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم في القرآنِ الكريمِ، فنقفَ على جوانبِ سيرتِهِ العظيمةِ العَطِرَةِ من خلالِ الآياتِ التي تناولت سيرتَهُ صلواتُ اللّهِ عليهِ وسلامُهُ بالتَّصريحِ أو بالإشارةِ، بالتَّفصيلُ أو بالإيجازِ، بذاتِهِ الشَّريفةِ العظيمةِ وحدَهُ أو مع أصحابِهِ، وإن كان القرآنُ كلُّهُ هو الصَّفحةَ الكبيرةَ

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

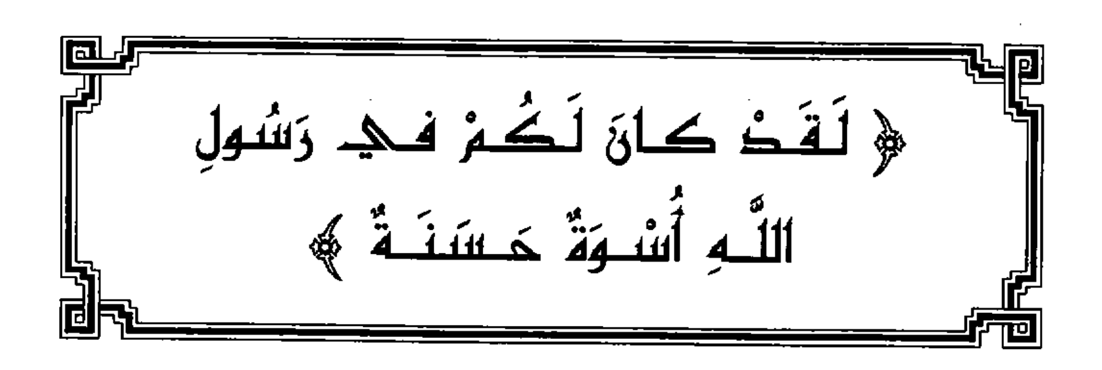
التي تقرأُ في كلّ سطرٍ منها - بل في كلّ كلمةٍ - نبذةً من سيرتِهِ عليه الصّلاةُ والسّلامُ، ونستطيعُ أن نقوله : إنّنا لو ذهبنا نستقصي السّيرةَ النّبويّةَ من خلالِ القرآنِ كلِّهِ لاجتمعَ لدينا جمٌّ غفيرٌ من الأوراقِ والرّسائلِ والمجلّداتِ، بل إنّكَ تستطيعُ القولَ : إنَّ ما كتبَ العلماءُ خلالَ القرونِ الطّويلةِ من كُتبِ التّفسيرِ - إذا نُقّيَت من الإسرائيليّاتِ والآراءِ الفاسدةِ - هو سيرةُ رسولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم، لكن ليسَ هذا مطلوبَنا؛ لأنّهُ لا يُطيقُهُ إلّا مَن أُوتيَ حظًّا كبيراً من العلومِ والمعارفِ، والملَكَةَ الوافيةَ التي يقتدرُ بها على الممايزةِ والمقارنةِ ثمّ التّرجيحِ بين ما يعرضُ له من آراءٍ ومذاهبَ، فمطلوبُنا إذاً غيرُ هذا، وهو أن نقفَ أوّلاً على الآياتِ التي عرضت لحياةِ الرّسولِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم في أحوالِهِ المختلفةِ، ثمّ نَعمَدَ إلى تَفسيرِها في ضوءِ ما صحّ من أخبارٍ وأقوالٍ من غيرِ إطالةٍ مُملَّةٍ ولا إيجازٍ مُخلٍّ، ثمّ نلمّ بالآياتِ التي عرضت لسيرتِهِ عليه الصّلاةُ والسّلامُ عرضاً غيرَ مباشرٍ، ونضمّها إلى الأُولى، وبذلك يكونُ قد اكتملَت لنا الصُّورةُ المطلوبةُ التي نريدُ الحصولَ عليها للرّسولِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم .

وقد يقولُ قائلٌ : ألا يكفي للحصولِ على الصُّورةِ الكاملةِ لحياةِ الرّسولِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم أخبارُ السّيرةِ المدوّنةِ في كتبِها المعروفةِ، بعدَ التّمحيصِ والنّظرِ واعتبارِ قواعدِ أصولِ الحديثِ في ذلك ؟

والجوابُ : إنَّ هذا أمرٌ ممكنٌ، ولا أحسبُ أنَّ فيه عُسراً ومشقّةً إذا

تناولتَ هذه الأخبارَ يدٌ بارّةٌ عَليمةٌ تَقيّةٌ تُقصي الغثَّ الباطلَ، وتُبقي على الطَّيِّبِ الصَّحيحِ؛ لكنَّ النَّظرَ في آياتِ القرآنِ واستنباطِ السِّيرة منها أوْفى على المرادِ، وأرْضى للقلبِ، وأرغبُ للعقلِ، وذلك أنَّ للقرآنِ قُدسيَّةً عاليةً لا تبلغُها قُدسيَّةُ الأخبارِ والأحاديثِ الصَّحيحةُ، فيكونُ لها من التَّأثيرِ ما لا يكونُ لتلك الأخبارِ والأحاديثِ الصَّحيحةِ التي تكوَّنت منها سيرةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، ثمَّ إنَّ في ذلك نمطاً جديداً من أنماطِ التَّفكير العلميِّ، وقد يفتحُ أمامَ التَّفكيرِ الإسلاميِّ باباً واسعاً يُفضي منه إلى القرآن - فيأتي بعلمٍ جديدٍ من علوم القرآن لم يكن معروفاً من قبلُ - يُضافُ إلى العلومِ الكثيرةِ التي صارت تُعرَفُ بعلومِ القرآنِ، يمكنُ أن يُسَمَّى : (علمُ التَّفكيرِ القرآني)، أو : (عِلمُ مناهجِ القرآن)، أو : (علمُ المطابقاتِ القرآنيَّة) .

○ ○ ○ ○ ○



ذكرنا آنفاً أنَّ هذه الآيَةَ - وهي من سورةِ الأحزاب - هي البابُ الذي نستطيعُ أن نَلِجَ منه إلى شخصِ الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأُريدُ هنا أن أُذكِّرَ كيف يمكنُ اعتبارُ هذه الآيةِ باباً ندخلُ منه إلى شخصِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم .

اشتملت هذه الآيةُ على ثلاثِ مسائلَ هامَّةٍ :

الأولى : اختصاصُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم بالقُدوةِ وحدَهُ، وَقصرُها عليه، وهي تُؤخَذُ من طريقِ الحصرِ .

الثَّانية : أنَّ هذه القدوةَ للمؤمنين بالرَّسولِ لهم وحدهم .

الثَّالثة : تقييدُ الأُسوةِ بوصفِ (الحسنة) .

■ المسألة الأُولى :

إنَّما قُصِرَتِ القدوةُ على رسولِ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم لأنَّهُ مناطُ

الرِّسالةِ، وموضعُ الوحي، واللَّهُ سبحانه أعلمُ حيث يجعلُ رسالتَهُ، ومَن كان هذا حالُه فلا بدَّ أن يكونَ في معدنِهِ وجبلَّتِهِ الاستعدادُ الكاملُ لنقلِ ما يتلقَّى عن ربِّهِ إلى النَّاسِ مِن غيرِ نقصٍ أو زيادةٍ، وهذا يقتضي أن يكونَ فيه من المواهبِ النَّفسيَّةِ والعقليَّةِ ما لا يكونُ عند الآخرين، بحيث يقدرُ على نقلِ ما يُوحَى إليه فلا ينسى منه شيئاً، فبهذه المواهبِ وبذلك الاستعدادِ استحقَّ أن يكونَ للنَّبيِّ العظيم عليه الصَّلاة والسَّلام درجةٌ لا يستحقُّها غيرُه، فضلاً عن أن يكونَ مُمكناً أن ينالَها؛ تلكم هي العصمةُ.

وإذا كانت هذه الدَّرجةُ قد فُضِّلَ بها رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم على الخلق بعامَّةٍ؛ فقد فُضِّلَ بها على الأنبياء بخاصَّةٍ؛ لما ناله من شرفِ السَّبقِ بالفضلِ على إخوانِهِ الأنبياءِ عليهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ بكونِهِ وارثَ النُّبوَّاتِ كلِّها، ومصدِّقاً لما بين يديه منَ الكُتُبِ، وخاتَمَ النَّبيِّين، وقد أخذَ اللَّهُ الميثاقَ عليهم أن يؤمنوا به ويَنصروهُ إن هم أدركوه: ﴿ وإذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبيِّينَ لَما آتيتُكُم مِن كتابٍ وحِكمةٍ ثمَّ جاءَكُم رسولٌ مُصدِّقٌ لما معَكُم لتؤمِنُنَّ بهِ ولَتَنصُرُنَّه قال أأقْرَرْتُم وأَخَذْتُم على ذلكُم إصري قالوا أَقرَرْنا قالَ فاشهَدوا وأنا مَعَكُم مِنَ الشَّاهدين ﴾[1].

وهناكَ حِكمةٌ عظيمةٌ من قَصْرِ القدوة على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، وهي إسباغُ الطُّمأنينةِ على قلبِ الإنسان المُسلمِ في أنَّ ما يُقلِّدُ فيه لا يحومُ حوله الخطأُ، ولا يتطرَّقُ إليه الشَّكُّ به، لكونِ المُقلَّدِ

---

(١) آل عمران : ٨١ .

محلَّ العصمةِ، وهذه الطُّمأنينةُ لا تتحقَّقُ لهذا الإنسانِ لو لم يكنِ المقلَّدُ معصوماً، فإن قامَ في صدرِ الإنسانِ المقلِّدِ تعظيمُ إنسانٍ آخَر مثلِهِ ورآه أهلاً أن يأخذَ عنه علماً، ثمَّ رآهُ يقارفُ أمراً لا يليقُ بعلمِهِ؛ فإنَّهُ حينئذٍ لا يَعظُمُ عنده أمرُهُ، ولا يَرى إلّا بشريَّتَهُ المجرّدةَ التي يكونُ منها الخطأُ كما يكونُ منها الصَّوابُ، ثمَّ لا يكونُ هذا السُّوءُ الذي رآه من ذلك الإنسانِ حاملاً له على ذمِّ الطَّيِّبِ من قولِهِ وفعلِهِ ومساواتِهِ بالسُّوءِ الذي وقعَ منه، فإنَّهُ ليس إلّا بشَراً مثلَهُ، والعصمةُ لا تكونُ إلّا لنبيٍّ ورسولٍ، وقد أكرمَ اللَّهُ هذه الأُمَّةَ بأن بَعَثَ فيها نبيًّا من أنفُسِها يُزَكِّيها ويعلِّمُها ويَهديها .

□ المسألة الثَّانية :

وهي : أنَّ هذه القُدوةَ للمؤمنين وحدَهم، وذلك قولُهُ سبحانه : ﴿ لَقَدْ كانَ لكُم ﴾، وقولُهُ أيضاً : ﴿ لِمَن كانَ يَرجو اللَّهَ واليَومَ الآخِرَ ﴾، وهي كرامةٌ من اللَّهِ سبحانه لهم، فقد استحقُّوا هذا بإيمانِهم الذي به يرجون اللَّهَ نجاتَهم، أمَّا غيرُهُم ممَّن خالفَ عن طريقِ الإيمانِ؛ فمحرومٌ هذه النِّعمةَ العظيمةَ عقوبةً على خلافِهِ عن طريقِ الإيمانِ، فلا يُصيبُ بذلك إلّا الشَّقاءَ الدَّائمَ، ومن أعظَمِ الشَّقاءِ ألّا ينالَ شرفَ الاقتداءِ برسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، ولن يخلُصَ من هذا الشَّقاءِ كلِّه إلّا بأن يسلُكَ نفسَهُ في نظامِ الإيمانِ، ويُسلمَ قيادَ نَفسِهِ لهُدى العزيزِ الرَّحمنِ، وإذا عَجزَ فردٌ أو أفرادٌ عن التَّأسِّي والاقتداءِ برسولِ اللَّهِ صلَّى

اللَّهُ عليهِ وسلَّم؛ ففي الأُمَّةِ آخَرون يُحقِّقون في أنفسِهم شرفَ هذا الاقتداءِ، وإذا أصابَ الأُمَّةَ في مجموعِها وهنٌ عنِ القيامِ بشرفِ التَّأسِّي والاقتداءِ؛ فسوفَ يبقى قدرٌ من القُدرةِ فيها - لما استقرَّ فيها من بَقيَّةِ إيمانٍ - تَنالُ به شرفَ التَّأسِّي برسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ .

وَيَقوى هذا التَّأسِّي والاقتداءُ ويضعفُ بقربِ الزَّمانِ وبُعدِهِ عن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، ولذا فإنَّ أشرفَ القرونِ وأفضَلَها القرونُ الثَّلاثةُ الأولى؛ كما جاءَ ذلك على لسانِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم نفسِه : « خَيرُ النَّاس قَرني، ثمَّ الذينَ يَلُونَهم، ثمَّ الذين يَلُونَهم، ثمَّ يجيءُ أقوامٌ تسبقُ شهادةُ أحدِهِم يمينَهُ، ويمينُهُ شهادتَهُ »[(١)]، غير أنَّهُ عليه الصَّلاة والسَّلام حدَّثَ أصحابَه أنَّهُ سيكونُ في هذه الأُمَّةِ قومٌ لم يَرَوهُ، ينالُ الواحدُ من الأجر ما ينالُهُ خمسونَ يعملون بمثلِ عمله[(٢)]، وعلَّلَ ذلك صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم بأنَّ أصحابَهُ يجدونَ على الخيرِ أعواناً، أمَّا أُولئكَ فلا يجدون على الخير أعواناً .

من هذين النصَّينِ يظهرُ لنا أنَّ تحقق القدوةِ للرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم في النَّاس المؤمنين لا يكونُ بمجرَّدِ رُؤيتهِ عليه الصَّلاة السَّلام؛ وإنَّما يكونُ بالتَّمسُّكِ بالوَحيِ الذي أُنزلَ عليه، والاهتداءِ بالهديِ الذي أبانَ به

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه الطَّبراني من حديث ابن مسعود، وصحَّحه الألباني .

الحقَّ ومازَهُ من الباطل، وتحقيقاً لهذا يقولُ عليه الصَّلاة والسَّلام : « تركتُ فيكم شَيئين لَن تَضِلُّوا بعدهما: كتابَ اللَّهِ وسُنَّتي، ولن يتفرَّقا حتى يَرِدا عليَّ الحَوضَ »[1].

□ **المسألة الثَّالثة :**

تَقييدُ القدوةِ بوصفِ « الحسنة »، وهذا ظاهرٌ من قولِهِ سبحانه : ﴿ أُسوَةٌ حسنةٌ ﴾، وهو وصفٌ يُخْرِجُ غيرَه من الأوصافِ، وكأنَّ النَّصَّ فيه الذَّمُّ لهذا الغيرِ، وإن كان لم يُصرَّح به فقد فُهِمَ من القيدِ ﴿ حَسَنةٌ ﴾، كما فُهِمَ أيضاً من سياقِ الآيةِ كلِّها، إذْ إنَّ الآيةَ جعَلَتِ القُدوةَ في رسولِ اللَّهِ، ثمَّ جعلَتها نعمةً لمن كان يرجو اللَّهَ واليومَ الآخِرَ .

ولا ريبَ أنَّ القدوةَ لها من قوَّةِ التَّأثيرِ ما يُدْرَكُ بالحسِّ، فلا يُمارَى فيه، وسواءٌ أكانَت القدوةُ حسنةً أم سيِّئةً، ومن هنا كانت القدوَةُ الحسنةُ للمؤمنين لا لسواهم، وكانت نعمةً عظيمةً اختصَّ اللَّه بها نبيَّه عليه الصَّلاة والسَّلام - وهو موضعُ الحُسنِ كلِّه - كما جعلها سبحانه للمؤمنين فحسب، يرون فيها بعقولِهم وقلوبِهم ما لا يراه غيرُهُم، بل إنَّهُ ليُحالُ بينهم وبينَ ذلك الذي يراهُ المؤمنون إمعاناً في الشَّقاء، وإبطالاً لفضلِ العقلِ الذي لا يكونُ إلّا من اللَّهِ، وحسبُ أُولئكَ الأشقياء أنَّهم يظنُّونَ بعقولِهم أنَّهم قادرونَ على ما يكونُ من الوحيِ، بل على أفضَلَ

---

(١) أخرجه الحاكم في « مستدركه »، وله طرق أُخرى وشواهد تصحِّحه .

ممَّا يكونُ منه، وهذا هو أذهَبُ الشَّقاءِ بالإنسانِ وعقلِهِ .

وإذا كانَت القدوةُ الحسنةُ للمؤمنين نعمةً من اللَّه ورحمةً؛ فإنَّ القدوةَ السَّيئةَ لغيرهم نقمةٌ من اللَّه وعذابٌ، ولهذه القدوةِ السَّيئةِ تأثيرٌ على قلوبِ أُولئكَ الأشقياءِ يَعدِلُ قوَّةَ تأثيرِ القدوةِ الحسنةِ على قلوبِ المؤمنين، بل ربَّما كانتِ الاستجابةُ عند الأشقياءِ أسرعَ، إذ إنَّ الشَّقيَّ يفقدُ ما عندَهُ من قدراتٍ حِسِّيَّةٍ وعقليَّةٍ، ولا يبقى عنده منها ما يفكِّرُ به في غيرِ شقائِهِ فينجو، بخلافِ الإنسانِ المؤمنِ؛ فإنَّهُ حتى وهو يرى أسبابَ نعيمِهِ لا يُقبِلُ عليها إلَّا بعدَ أن يقيسَها بما عنده من إيمانٍ؛ ظنًّا منه أنَّ شقاءً مُثِّلَ له في هذا النَّعيمِ بما قَد يعرضُ له من فتنةٍ وبلاءٍ لأنَّ في النَّعيم فتنةً تعدلُ فتنةَ الشَّقاءِ، واللَّهُ يقولُ : ﴿ ونَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجَعون ﴾[1]، فإذا عَرَضَ للمؤمنِ نعمةٌ عَرَضها على إيمانِهِ؛ فإنْ وافقتهُ أخَذَها بقناعةٍ ورضا، قال تعالى : ﴿ والَّذينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهِم لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً ﴾[2]، فيكون الجمعُ بين نعمتي الإيمان والعقل، فلا يغيبُ إيمانٌ، ولا يَضلُّ عقلٌ .

ولكيلا يكونَ المؤمنُ عرضةً للضَّعفِ أمامَ القدوة السَّيئة - فلا يقوى على مقاومةِ ما تُفرزُ من شرٍّ وفتنةٍ - أُمِرَ أن يجعَلَ نفسَه في منأىً عنها وعن الأسبابِ الدَّانيةِ منها، فأمره النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ألَّا يصحبَ

---

(١) الأنبياء : ٣٥ .   (٢) الفرقان : ٧٣ .

إلّا مؤمناً[1]، وأن يكونَ خليلُهُ مُعِيناً له على ذكرِ اللّهِ وطاعتِهِ، وأن يجتنبَ مواطنَ الفتنةِ كلِّها، كما أمرَ اللّهُ سبحانه الجماعةَ كلَّها أن تحرصَ على إشاعةِ الخيرِ فيها، وأن تُقيمَ من نفسِها حَرَساً قويًّا شديداً على هذا الخيرِ، فلا تسمحَ للشَّرِّ كلِّه - في أيَّةِ صورةٍ وعلى أيَّةِ حالٍ - أن يغلبَ هذا الخيرَ، والنُّصوصُ الدَّالَّةُ على هذا كثيرةٌ في ا لكتابِ والسُّنَّةِ، وإذا ما كانَ هذا من الفردِ ومن الجماعةِ؛ تهيَّأَ المناخُ الصَّالحُ للقدوةِ الحسنةِ أن تقوى وتشتدَّ وتعلوَ، وأن يكونَ لها الهيمنةُ التَّربويَّةُ التي لا تُنازَعُ .

○ ○ ○ ○ ○

(١) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي سعيد، وهو حديث حسن .

ابنُ الذَّبِيحَيْنِ

﴿ لقَد كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ ﴾[1].

تمضي القرونُ الموقورةُ بأحداثِها الخفافِ والثِّقالِ في رحلةِ الزَّمنِ المرهقةِ الطَّويلةِ، تمدُّ آذانَها في إصغاءٍ إلى حيثُ كانت قَد نبتَت من قبلُ فَلا تُنسى، وعيونَها إلى حيثُ ترقُبُ أن تَستقَرَّ من بعدُ فَلا تَضِلَّ، وأفئدتَها إلى حيثُ ترجو أن توردَ أمرَها، فلا تَحارَ ولا تَحورَ، والكونُ ينظُرُ إليها بكلِّ عيونِهِ، ويُصغي إليها بكلِّ آذانِهِ، ويُحكمُ فكرتَه فيها بِجُمَعِ فُؤادِهِ، فَلا يَرى فيها إلّا ما تَرى هي في ذاتِها متجرِّدةً من كلِّ الأنانيَّاتِ، بريئةً من كلِّ سوءٍ، نقيَّةً من كلِّ الشَّوائبِ، ليسَ في حَدَثٍ من أحداثِها ما يُريبُ، ولا في جزءٍ من أجزائِها ما يُحدِثُ لُبساً في النَّظَرِ والتَّفكيرِ، ولا في فترةٍ من فتراتِها ما يَغمُضُ على العقلِ أن يُبصرَ به .

وكم كان الإنسانُ ظلوماً لنفسِهِ، جهولاً بعاقبةِ أمرِهِ، وهو يُقحمُ نفسَهُ في أحداثِ هذه القرونِ، يَصرِفُها عن مسارِها الذي أحدثَتهُ لنفسِها

---

(١) يوسف : ١١١ .

في أرضِ الحياةِ، ليَحملَها على تَغييرِ ما قدَّرَ اللَّهُ أن تكونَ له في حياةِ الكونِ، أو ليُجرِّدَها من الحقائقِ التي زَرَعَتها يَدُها الصّناعُ قبلَ أن تَشيعَ في الأرضِ ثمارُ الشَّرِّ بالشِّركِ، وقتلِ النَّفسِ، والاختلافِ في الدِّينِ والكتابِ، وليسَ يُنكَرُ أن شيئاً ممَّا أرادَ كانَ، والشَّواهدُ على ذلك قائمةٌ في صحائفِ التَّاريخِ المقروءِ منها والمسموعِ .

لكنَّ قطعةً من هذه الأحداثِ لم يكُن في وسعِ الإنسانِ أن ينالَ منها بشيءٍ من الصَّرفِ أو التَّغييرِ، فقَد تكفَّلَ اللَّهُ بحفظِها كي تبقى دليلاً ظاهراً على عجزِ الإنسانِ في قُدراتِهِ الإراديَّةِ، ولولا ما كانَ من حكمةِ اللَّهِ في خلقِهِ ومن إرادتهِ الكونيَّةِ فيه - ما كان حظُّ الإنسانِ فيما جَعَلَ اللَّهُ منه بإرادتِهِ الكونيَّةِ إلّا كحظِّهِ منَ العَجزِ عن متعَلَّقاتِ قُدراتِهِ الإراديَّة، فلا يكونُ منه إلّا التَّسليمُ والظَّنُّ في نفسِهِ أنَّهُ عاجزٌ ليسَ إلّا، فلا يَسلكُها في متعلَّقاتِ القوَّةِ المنظورةِ في آفاقِ الكونِ والحياةِ - تشبُّهاً، أو إلحاقاً، أو مُحاكاةً - فيكونُ منه بذلك تطلُّعٌ إلى ذاتِهِ بالإقرارِ بالعجزِ، وإلى غيرِها بالاعترافِ بالقوَّةِ الباسطةِ يدَها في أرجاءِ الحياةِ والكونِ، والتَّفوُّقِ والاقتدارِ عليه، وإن كانَ يغلبُ على ظنِّه أنَّهُ - بتقدير الخبيرِ الحكيمِ - أَوْفى الخلائق المشهودةِ قدرةً، وأوفرُها استطاعةً، وأوعَبُها طاقةً .

لكنَّه لا يلبَثُ إلّا قليلاً حتى يرى حقيقةَ ذاتِهِ في ذاتِه، وبذاتِهِ، ومن ذاتِهِ، فلا يُعْوِزَه الدَّليلُ على أنَّهُ ممتلئٌ عجزاً وضعفاً، وأنَّهُ حتى لو أرادَ

إدراكَ ضعفِهِ بعجزِهِ الذَّاتيِّ الـجِبلِّيِّ؛ لكانَ بضعفِهِ عاجزاً عن إدراكِ أنَّهُ ضعيفٌ بِضَعْفِهِ، ثمَّ لا يكونَ من بعدُ إلّا مشغولاً بضعفِهِ عن ضعيفِهِ، حتى يأتيَه الموتُ وهو على ذلك .

وتظلُّ هذه القطعةُ سليمةً غيرَ منقوصةٍ؛ لأنَّها جزءٌ من الوحيِ المنزَّلِ على الأنبياء والرُّسُلِ .

وممَّا زادَ في نقائِها وبراءَتِها وتماسُكِها انتهاؤُها إلى سورِ القرآنِ العظيمِ الممنَّعِ، ﴿ إنَّا نَحنُ نَزَّلنا الذِّكرَ وإنَّا لهُ لَحافِظون ﴾[1].

وإذا كان اللّهُ سبحانه - على الرَّغم من تكرارِ محاولاتِ الإنسانِ الظَّلومِ الجهول بعجزِهِ وضعفِهِ - قد تكفَّلَ بحفظِ هذه القطعةِ من تاريخِ الأنبياءِ والرُّسلِ؛ فإنَّهُ - ومناطُه آخرَ المطافِ - محمَّدٌ عبدُاللّه ورسولُهُ أكرمُ الخلق على ربِّهِ، سيجعَلُ منه أوَّلَ محمودٍ بالثَّناءِ، وأوَّلَ مجلُوٍّ بحسنِ الذِّكرِ المقدَّمَ على الأنبياءِ والرُّسلِ جميعاً في عُلُوِّ الشَّأنِ، ونباهةِ الذِّكرِ، غيرَ مُسْتَأْنىً عليه في أمرٍ يُرى فيه بزيادةِ صلاحٍ له، صلاحُ أمرِ الأُمَّة التي صارَت بكرامتِهِ أوفى الأُمَم بحقِّ اللّهِ عليها طاعةً، وقياماً بأمرِهِ، ورعايةً لما استرعاها اللّهُ إيّاه، وأَوفَرَها حظًّا بحكم اللّهِ لها في تحقيقِ مرادِهِ الكاملِ في هذه الطَّاعةِ والرِّعايةِ، والقيامِ بأمرِهِ بما تُطيقُ من ذلك، فكان الخطابُ التَّكليفيُّ لها لئلّا يكونَ فيه من حرجٍ عليها ولا إعناتٍ، ولا

---

(١) الحجر : ٩ .

اشتباهٍ في الطَّرائقِ والسُّبلِ الواصلةِ إلى تحقيقِ مُرادِ اللَّهِ سبحانه بهذا الخطابِ التَّكليفيِّ .

وأوَّل ما يجبُ على الأُمَّةِ أن تعرفَه عن نبيِّها أنَّهُ ابنُ الذَّبيحينِ البارَّين - وإن كان اختلافٌ بين برورِ الأوَّلِ وبين برورِ الثَّاني - وأنَّهُ بنسبتِهِ إليهِما ابنُ معجزةٍ تقفُ على فمِ التَّاريخِ الموثَّقِ النَّضرِ المكنونِ، دونَها معجزةُ خَلقِ آدمَ ومعجزةُ مولدِ المسيحِ عليهما الصَّلاة والسَّلام .

والمعجزةُ مهما عظُمت في عيونِ البشرِ وقصُرَت عقولهم عن الإحاطةِ بمدارِكها ومُدركاتِها الحسيَّةِ والمعقولةِ؛ فهي متساويةٌ جميعُها في إرادةِ اللَّهِ سبحانه ومشيئتِهِ، ﴿ إنَّما أَمرُهُ إذا أرادَ شَيئاً أنْ يَقولَ لهُ كُن فَيكون ﴾[1].

وهل في طوقِ الإنسانِ بضعفِهِ وعجزِهِ أن يستخفيَ من ورائِهما ليَحجُبَ عن عقلِهِ جزءاً من هذه القطعةِ من التَّاريخِ المكنونِ؛ فلا يكونَنَّ على ذكرٍ منها لأنَّهُ - وحسبهُ ذاك - لا يريدُ أن يكونَ على ذكرٍ منها ؟!

هذا الجزءُ هو : أنَّ اللَّهَ سبحانه كَتَبَ على التَّاريخِ أن يكتبَ في سجلِّهِ المكنونِ - الذي لا يَنسى ولا يُنسى - أن يكونَ عبدُهُ ورسولُهُ محمَّدٌ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم في مولِدِهِ معجزةً تَنبَجِسُ منها معجزةُ المعجزاتِ التي أجراها اللَّهُ سبحانه على يدِ رسلِهِ المُكرَمين تأييداً، ونُصرةً،

---

(١) يس : ٨٢ .

وكرامةً، وهي القرآنُ العظيمُ المنزَّلُ على قلبِهِ نوراً وهدىً للنَّاسِ أجمعين .

وُلِدَ محمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم كما يولدُ سائرُ البشَرِ لكنَّه انبثقَ من بين دمِ ذبيحين تفجَّرت دماؤُهما تحت لهيبِ شفرةٍ حادَّةٍ، لولا قضاءٌ قضاهُ اللَّهُ فيهما لحكمةٍ آتيةٍ مع القرونِ ظهرت بمولدِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم عامَ الفيل، فلكأنَّما وُلِدَ مرَّتين: مرَّةً حينَ فدى اللَّهُ إسماعيلَ بذبحٍ عظيمٍ، ومرَّةً حين انتهتِ القُرعةُ بمئةٍ من الإبلِ إلى عبدِاللَّهِ بنِ عبدِالمطَّلبِ - والدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم،- في نذرٍ نذرَهُ أبوهُ أن يذبحَ واحداً من ولدِهِ إن بلغوا عَشَرَةً، وقد بلغوها، وكان الوفاءُ بالنّذورِ أمراً يتعبدُ به أهلُ الجاهليَّةِ، وأيُّ نذرٍ هذا الذي يكونُ القربانُ فيه واحداً من فلذاتِ الكبدِ ؟!

انبثقَ الوجودُ الإنسانيُّ والرّساليُّ لمحمَّد عليه السَّلام من دمِ ذبيحين طاهرين، كاد أن يُهراقَ من أوداجِهما بشفرةِ سكِّينٍ قُدَّت من صوتِ القدرِ الهادرِ ليلقيَ بها من - وراءِ القرونِ الآتياتِ الذَّاهباتِ - في يدِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ثمَّ في يدِ عبدِالمطَّلبِ، أو كادت، ليقضيَ في كلِّ مرَّةٍ من المرَّتين قضاءَها، في إسماعيلَ أوَّل مرَّةٍ، ثمَّ في عبدِاللَّهِ ثانيَ مرَّةٍ، فلا يكونُ لصوتِ القدرِ في كلا المرَّتين من رادٍّ؛ إلّا صوتٌ آخرُ للقدرِ يعلو الأوَّلَ ليمسكَ عليهِ نفاذَهُ في كلا المرَّتين، فينجو إسماعيلُ، ثمَّ ينجو عبدُاللَّهِ، ليهيِّئَ القدرُ الحكيمُ المبرمُ من صُلْبَيهِما ولداً يكونُ نبيَّ الدُّنيا ورسولَ ربِّ العالمينَ للعالمينَ .

وتكونُ بنجاتِهما سُنَّتانِ عظيمتانِ يقترنانِ بهما، ويظلّان على الدّهر مذكورَيْنِ بهما: الأُضحيةُ شُكراناً للّهِ وزُلفى إليه، والدِّيَةُ كفًّا للعُدوانِ على الأنفسِ البريئةِ، وصيانةً لدمائِها، وتحريزاً لها من جماحِ النُّفوسِ الغاوية المحتقنةِ بالإثمِ والعدوانِ .

وتمشي هاتان السُّنَّتانِ في دربِ القرونِ الطَّويلِ لِتَحُطّا رَحْلَيهِما في الجزيرةِ، التي أكرمَها اللّه بابنِ الذَّبيحين؛ لتكونا من شعائرِ الإسلامِ، وأحكامِ الدِّينِ، وشُعَبِ الإيمانِ، لا تَنضَوَانِ عنهما ذكرى مولدِهما إلّا عندَ أعتابِ الأرضِ التي حرَّمَها اللّهُ، فتكسبانِ منها حُرمةً إلى حرمتِهما، وتكونان إيذاناً بوحدةِ النُّبوّاتِ وشخوصِها جميعِها في محرابٍ واحدٍ، ترنو بلهفٍ قلوبُها إلى معدنِ الوحيِ أن يكونَ ملتقى الأُمَمِ، ومذهبَ الشُّعوبِ، وفكرتَها الدِّينيَّةَ الواحدةَ التي لا تختلفُ، بل تأتلفُ عليها ائتلافاً يعيدُها إلى الأُمَّةِ الواحدةِ التي كان النَّاسُ عليها مدَّةَ ألفِ عامٍ، وهي التي من أجلِها بُعِثَ محمَّدٌ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولن يذهبَ الزَّمانُ حتى تكونَ الأُمَمُ كلُّها أُمَّةً واحدةً .

لقد كانت نجاةٌ قدَّرَ اللّهُ أن تكونَ لإسماعيلَ وعبدِاللّهِ؛ لتكونَ بها ولادةٌ معجزةٌ لابنِهما، معجزةٌ فاقَت في حسابِ البشَرِ معجزةَ خلقِ آدمَ ومعجزةَ ميلادِ عيسى؛ كي يكتبَ اللّهُ بهذه النَّجاةِ في سجلِّ الإنسانِ، معجزةً لأشرفِ خلقِهِ وأنبلِهم محمَّدٍ صلّى اللّه عليهِ وسلّم، تكونَ قصَّةً فيها عبرةٌ تتلوها أُمّته تستظهرُ منها حقيقةَ وجودِها الإنسانيِّ والرِّساليِّ،

تتجلَّى في قسَماتِها صورةُ الطَّاعةِ الملهمةِ - شفقةً، وحبًّا، وصبراً، ورجاءً، واحتساباً، وابتلاءً يغيبُ معه كلّ ابتلاءٍ - التي أبدَعَتها يدُ القدرةِ الإلهيَّةِ في شخصِ إسماعيلَ عليه السَّلام - صادقِ الوعدِ، رمزِ البرورِ والطَّاعةِ - ثمَّ في عبدِاللَّهِ، فيظفرُ الوجودُ الإنسانيّ من هذه الصُّورةِ بإنسانٍ يَضَعُ للبشريَّةِ في كلِّ أعصارِها معالمَ النُّورِ، ويصوغُ آياتِ المعرفةِ، ويقيم بيِّناتِ الهدى والحقِّ، تميزُ بها الخيرَ من الشَّرِّ، والعَدلَ من الظُّلم، والاستقامةَ من العَوجِ، فتستقي من الخيرِ ما يُطفيءُ لهيبَ الشَّرِّ، وتأخذُ من العَدلِ ما يدرأُ نُذُرَ الظُّلمِ، وتفيدُ من الاستقامةِ ما يُخفي كلّ ذي عوج .

وبذا يكونُ الخيرُ والعدلُ والاستقامةُ في حياتِها وِرْداً ثرًّا لا يغيضُ ولا ينقصُ، ويكونُ الشَّرُّ والظُّلمُ والعوجُ بئراً غائرةً في الأرضِ، لا ينالُ قَعرَها إلّا من دثَّرَ نفسَه بثوبِ الهلاكِ، وأصابَ فيها شِرَّةً جامحةً إلى السُّوءِ فغويَت به، وأجاءَته إلى جذعٍ خاوٍ لا يستندُ إليه حتى يسقطَ .

من هنا؛ كان ابنُ الذَّبيحين - بحقيقةِ وجودِهِ الإنسانيِّ والرِّساليِّ لأُمَّتِهِ ولسائرِ الأُممِ صورةً ماثلةً في أذهانِها تَستَنبطُ منها « حضارَتَها الذِّهنيَّةَ » تصوُّراً وعقيدةً وتسليماً، و « حضارتَها العقليَّةَ » علماً واستنباطاً وامتثالاً، و « حضارتَها العمليَّةَ » دعوةً وجهاداً وبناءً، فتمثَّلت لها حضارةً كاملةً نضَّرَتِ الوجودَ الإنسانيَّ كلَّه، وأَعلَت من قدرَ الإنسانِ حيث كان، وأَولَتِ الإنسانَ في ذاتِهِ وحياتِهِ وفكرِهِ ما لم يُصِبْ

إلّا اليَسيرَ منه ممَّا جاءَ به الأنبياءُ من قبلُ، ويبقى بهذه الصُّورة الماثلةِ في أذهانِها شاهداً عليها أن قد بلَّغَ ما أَنزَلَ إليه ربُّه، وسَعِدَ هو ببلاغِهِ، وسَعِدَت هي ببلاغِها، ثمَّ هو يومَ القيامةِ يكونُ أيضاً شهيداً عليها وقد أُحضرَت أعمالُها، وبُلِيَت سرائرُها، وكانت لها من أنفسِها شُهداءَ عليها .

هذه هي المعجزةُ الحقيقيَّةُ لمولدِ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم تظهرُ في النَّاسِ ظهورَ الشَّمسِ، وتظلُّ حاضرةً فيهم حضورَ اللَّيلِ والنَّهارِ، وتَهَبُهُم من إعجازِها نوراً وهدايةً ما تعجزُ عنه كلُّ المعجزاتِ التي طوَّفت بإعجازِها - ظهوراً وخفاءً - في آفاقِ الأرضِ والحياةِ إلى أن يَرِثَ اللَّهُ الأرضَ ومَن عليها .

○ ○ ○ ○ ○

الطَّريقَةُ القُرآنيَّةُ في السِّيرةِ

ليسَ أدلَّ على عظمةِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم من أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى أنزلَ عليه القرآنَ ليكونَ به للعالمين نذيراً وبشيراً، وجعلَه صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه المحورَ العمليَّ الذي تدورُ عليه العقائدُ والأحكامُ، فيرى النَّاسُ في شخصِهِ الشَّريفِ القدوةَ العمليَّةَ لما يدعوهم إليه، ومن هنا نستطيعُ الجزمَ بالقولِ : إنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم هو التَّعبيرُ القرآنيُّ المنظورُ، وإنَّ القرآنَ بكلِّ سُوَرِهِ وآياتِهِ هو السِّيرةُ المقروءةُ التي نرى فيها سيرةَ رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، ونُحسُّ بالقوَّةِ الرُّوحيَّةِ تُفيضُ علينا الرَّوح والأمنَ .

والنَّاظرُ المتأمِّلُ في آياتِ القرآنِ العظيمِ يستطيعُ أن يُبصِرَ بالطَّريقةِ التي اعتمدها القرآنُ في تكوينِ صورةٍ كاملةٍ لشخصِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم في عقولِ النَّاسِ وقلوبهم، يمكنُ أن نسمِّيَها « السِّيرة النَّبويَّة القُرآنيَّة »، تَقرَؤُها في خلالِ السُّوَرِ والآياتِ التي أُنزلَت سعادةً ورحمةً ونوراً، وهذه الطَّريقةُ تعتمدُ على أربعةِ أُصولٍ :

الأوَّل : الحركةُ التَّصويريَّةُ التَّعبيريَّةُ .

الثَّاني : السُّلوكيَّةُ المثاليَّةُ .

الثَّالث : المحاسبةُ التَّربويَّةُ الصَّارمةُ .

الرَّابع : الشُّموليَّةُ الوافيةُ .

وسوف نتناولُ كلَّ أصلٍ من هذه الأربعةِ بشيءٍ من البسطِ والإيضاحِ، مشيرين - إن شاءَ اللَّهُ - إلى الموضعِ أو المواضعِ التي استَنبَطنا منه أو منها هذا الأصلَ أو ذاك .

□ الأصلُ الأوَّلُ : الحركةُ التَّصويريَّةُ التَّعبيريَّةُ :

ونعني به أنَّ القرآنَ وهو يعرضُ بآياتهِ للحديث عن الرَّسولِ الكريمِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم يعرضُ له عرضاً يجعلُكَ تُحسُّ معه إحساساً حقيقيًّا أنَّ كلَّ جملةٍ من آياتِهِ تفيضُ بالحركةِ، حتى إنَّهُ ليُخَيَّلُ إليك وأنتَ تقرؤُها أنَّكَ ترى الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أمامكَ رَأْيَ العينِ؛ في جهادِهِ، في سلوكِهِ، في عبادتِهِ، وفي كلِّ أمرٍ من أُمورِهِ، ويمتدُّ بك الخيالُ إلى ما وراءَ القرونِ، فيجمعُها كلَّها في هذه الجملةِ التي تقرؤُها أو تلك، ويطويها بكلِّ أحداثِها ومواقعِ هذه الأحداثِ، فتبصرُ بها أمامَكَ في كلماتٍ معدوداتٍ، وإذا ما فَرغتَ من تلاوتِها تذكَّرتَ أنَّكَ كنتَ مع القرآنِ في إعجازِهِ الباهرِ القاهرِ، وتظلُّ هذه الأحداثُ ومواقعُها قائمةً في ذِهْنِكَ تَنبُضُ بالحركةِ والحياةِ؛ لتَعيشَ من خلالِها مع الرَّسولِ صلَّى

اللَّه عليهِ وسلَّم، في ظلالٍ من الحبِّ والسَّعادةِ والرَّجاءِ، وتلك هي بعضُ روعةِ القرآنِ الحكيمِ .

تأمَّلْ قولَه سبحانه : ﴿ فَاسْتَقِم كَما أُمِرتَ ومَن تابَ مَعَكَ وَلا تَطغَوْا إنَّهُ بما تَعْمَلونَ بَصيرٌ ﴾[١].

وقولَه سبحانه : ﴿ وَاصْبِر نَفْسَكَ مَعَ الَّذينَ يَدْعونَ رَبَّهُم بالغَداةِ والعَشيِّ يُريدونَ وَجْهَهُ وَلا تَعدُ عَيناكَ عنهُم تُريدُ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ولا تُطِع مَن أغفَلنا قَلبَهُ عن ذكرنا واتَّبعَ هواهُ وكانَ أمرهُ فُرُطاً ﴾[٢].

وقولَه سبحانه : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ حَرِّضِ المؤمنينَ على القتالِ إنْ يَكُن منكُم عِشرونَ صابِرونَ يَغلِبوا مِئتَينِ وإن يَكُن منكُم مئةٌ يَغلِبوا ألفاً مِن الَّذينَ كَفَروا بأنَّهم قومٌ لا يَفقَهون ﴾[٣].

وقولَه سبحانه : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافقينَ واغْلُظْ عليهم ومأواهم جهنَّمُ وبئسَ المصيرُ ﴾[٤].

وقولَه سبحانه : ﴿ يا أيُّها المُزَّمِّلُ . قُم اللَّيلَ إلَّا قَليلاً . نِصفَهُ أو انْقُصْ منهُ قَليلاً . أوْ زِدْ عَليهِ ورَتِّلِ القُرآنَ تَرتيلاً . إنَّا سَنُلقي عَلَيكَ قَولاً ثَقيلاً ﴾[٥]، وغيرَ ذلك من الآياتِ التي استُنْبِطَ منها هذا الأصلُ ممَّا

(١) هود : ١١٢ .
(٢) الكهف : ٢٨ .
(٣) الأنفال : ٦٥ .
(٤) التوبة : ٧٣ .
(٥) المزمل : ١ - ٥ .

سنأتي عليه إن شاءَ اللَّهُ فيما بعد؛ فإذا بالإنسانِ المؤمنِ يقفُ بكلِّ وجدانِهِ وفكرِهِ أمامَ شخوصٍ كاملةٍ رائعةٍ تتحرَّكُ في حبٍّ وشوقٍ، تخترقُ حُجُبَ الزَّمانِ؛ لتُطِلَّ بك على أرضِ مكَّةَ والمدينةِ، فتُبصِرَ في كلِّ واحدٍ من هذه الشخوصِ النَّبيَّ الأعظمَ في إخباتِ طائعٍ لا يعرفُ الرِّضا إلّا في أمرِ اللَّهِ نفاذاً، يأتيه كلَّه، فيعرفُ منه العملُ الآتيه نفسُه أنَّهُ نبيٌّ حقًّا، يعطي من ذاتِهِ ما لا قِبَله لأُمَّةٍ أن تأتيَهُ، وكيف لا، وهو نبيٌّ ترى الأُمَّةُ فيه نفسَها، ويرى هو لها ذلك حقًّا عليه ؟

□ الأصلُ الثَّاني : السُّلوكيَّةُ المثاليَّةُ :

ونعني به أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بلغَ في مضمارِ السُّلوكِ الإنسانيِّ مبلغاً تقصُرُ عنهُ طاقةُ البشَرِ، فهو نبيٌّ اصطفاهُ اللَّهُ لهدايةِ البشَرِ، فلا جَرَمَ أن تجتمعَ فيه الخصائصُ الإنسانيَّةُ الفاضلةُ التي تفرّقت في البشر كافَّةً؛ ليكونَ بها الأُنموذجَ الكاملَ الذي تصدرُ عنه البشريَّةُ، وتأخذُ من فَيضِهِ العظيمِ لتُنشىءَ به لنفسِها غايةً تَسعى إليها في رغبةٍ وطُموحٍ .

وبهذه السُّلوكيَّةِ عاشَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم في ربَّانيَّةٍ شفيفةٍ، يرى النَّاسَ من حولِهِ رَعيَّةً أوجبَ اللَّهُ عليه رعايتَها، وملأَ قلبَهُ رأفةً ورحمةً عليها، ينظرُ لكلِّ واحدٍ منهم نظرةَ الأبِ المُشفقِ على ولدِهِ، فهو مع النَّاسِ في المسجدِ والسُّوقِ والسَّفرِ ومعَ أهلِهِ في الليلِ والنَّهارِ، ومع الرَّجلِ الكبيرِ والمرأةِ والطِّفلِ؛ في رضاهُ وغَضَبِهِ، في حُبِّهِ وبُغضِهِ، في

جوعِهِ وشِبَعِهِ، في صحَّتِهِ ومرضِهِ، وفي كلِّ حالٍ من أحوالِهِ، القمَّةُ العاليةُ السَّامقةُ في السُّلوكِ، بشرٌ يُوحى إليه : ﴿ قُل إنَّما أنا بَشرٌ مثلُكُم يُوحى إليَّ ﴾[1].

تأمَّلْ قولَه سبحانه : ﴿ لَقَد جاءَكُم رَسولٌ مِن أنفسِكم عَزيزٌ عليهِ ما عَنِتُّم حَريصٌ عَليكُم بالمُؤمنينَ رَؤوفٌ رحيمٌ ﴾[2].

وقولَه سبحانه : ﴿ فَبِما رَحْمَةٍ مِن اللَّهِ لِنْتَ لَهُم وَلو كُنتَ فَظًّا غَليظَ القَلبِ لانفَضُّوا مِن حَولِكَ فاعفُ عنهُم واستغفِرْ لهُم وشاوِرهُم في الأمرِ فإذا عَزَمْتَ فتوَكَّل على اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يحبُّ المتوَكِّلين ﴾[3].

وقولَه سبحانه : ﴿ لَقَد كانَ لكُم في رَسولِ اللَّهِ أُسوةٌ حَسَنةٌ لِمَنْ كانَ يَرجو اللَّهَ واليومَ الآخرَ وذكرَ اللَّهَ كثيراً ﴾[4].

وقولَه سبحانه : ﴿ وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾[5]، وغيرَ هذه الآياتِ التي تَضَعُ الإنسانَ المؤمنَ أمامَ العَظَمةِ السُّلوكيَّةِ المحمَّديَّةِ التي طُوِيَتْ فيها النُّبوَّاتُ كلُّها .

□ الأصلُ الثَّالث : المحاسبةُ التَّربويَّةُ الصَّارمةُ :

ما من نبيٍّ من الأنبياءِ إلّا وكان له من هذا الأصلِ حظٌّ، بَيْدَ أنَّ

(١) الكهف : ١١٠ .
(٢) التوبة : ١٢٨ .
(٣) آل عمران : ١٥٩ .
(٤) الأحزاب : ٢١ .
(٥) القلم : ٤ .

حظٌّ نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم منه كان أوفرَ حظٍّ، ولا غرابَةَ في ذلك؛ فهو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جِماعُ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ، وخاتمُ النُّبوَّاتِ التي وفدَت إلى أرضِ البشريَّةِ، فَحَرِيٌّ إذاً أن يَلقى من المحاسبةِ والمعاتبةِ والتَّربيةِ من ربِّهِ سبحانه ما يجعلُ عطاءَهُ في التَّربيَةِ ثرًّا غيرَ مجذوذٍ، حتى لا تكونَ حجَّةٌ لهم بعده عند ربِّهم، فتكونَ القِوامةُ له عليهم في الدُّنيا والآخرةِ بنصِّ القرآنِ الحكيمِ : ﴿ وأنزَلنا إليكَ الكِتابَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بينَ يَديهِ من الكتابِ ومُهَيمناً عليه ﴾[1]، ﴿ وكذلكَ جَعَلناكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ على النَّاسِ ويَكونَ الرَّسولُ عليكم شَهيداً ﴾[2].

تأمَّل قولَ اللَّهِ : ﴿ ما كانَ لِنَبيٍّ أن يكونَ لهُ أسرى حتَّى يُثخِنَ في الأرضِ تُريدونَ عَرَضَ الدُّنيا واللَّهُ يريدُ الآخرةَ واللَّهُ عزيزٌ حَكيمٌ ﴾[3].

وقولَه سبحانه : ﴿ عَفا اللَّهُ عنكَ لِمَ أَذِنتَ لهُم حتى يَتبيَّنَ لكَ الَّذينَ صَدَقوا وَتَعلَمَ الكاذبين ﴾[4].

وقولَه سبحانه : ﴿ وتُخفي في نَفْسِكَ ما اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾[5]، وغيرَ هذه الآياتِ التي تَضَعُ الإنسانَ المؤمنَ أمامَ أروعِ محاسبةٍ وأقومِها .

---

(١) المائدة : ٤٨ .
(٢) البقرة : ١٤٣ .
(٣) الأنفال : ٦٧ .
(٤) التوبة : ٤٣ .
(٥) الأحزاب : ٣٧ .

□ الأصلُ الرّابعُ : الشُّموليّةُ الوافيةُ :

وهذا الأصلُ هو الذي يكشفُ جوانبَ العظمةِ كلَّها التي وضعها اللَّهُ سبحانه في شخصِ هذا النَّبيِّ العظيم الذي بَعَثَهُ اللَّهُ رحمةً للعالمين، وما أكثرَ هذه الجوانبَ فهي أكثرُ من أَن يُحيطَ بها عَدٌّ، أو يُحصِيَها عقلٌ، أو يتقرّاها فِكرٌ، وهذه الجوانبُ تقفُ شامخةً راسخةً على الدَّهرِ، تُنْبِىءُ بكلِّ خفيٍّ وظاهرٍ منها أن صاحبَها هو الإنسانُ الكاملُ، الذي تَصغُرُ الإنسانيَّةُ إلى جانبِه، فتظلُّ شاخصةً ببصرِها إليه، ليُوجِّهَها الوِجهةَ التي ارتضاها اللَّهُ سبحانه لخَلقِهِ، فيكونوا له عباداً صادقين لا يَرَونَ حقًّا لغيرهِ في عبوديَّتِهم، وهذه الشُّموليَّةُ هي التي أوفَت بهذا النَّبيِّ الإنسانِ على مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، يشيرُ بيدِ الهدى للنَّاس بأن يكونوا مع المشارقِ ليظلُّوا سائرينَ في الضِّياءِ، وإنِ انتابهم ضعفٌ فأبلغَهم المغاربَ كان لهم في الضِّياءِ ما يقهَرُون به ظلمةَ تلكَ المغاربِ .

تأمَّل قولَه تعالى سبحانه : ﴿ وما أرسَلناكَ إلّا كافَّةً للنَّاسِ بَشيراً ونَذيراً ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ ﴾(١).

وقولَه سبحانه : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بلِّغ ما أُنزلَ إليكَ مِن ربِّكَ وإن لَم تَفعَل فما بلَّغتَ رسالَتهُ واللَّهُ يعصِمكَ من النَّاسِ إنَّ اللَّهَ لا يَهدي القَومَ الكافرين ﴾(٢).

---

(١) سبأ : ٢٨ .   (٢) المائدة : ٦٧ .

وقوله سبحانه : ﴿ ما فَرَّطنا في الكتابِ مِن شيءٍ ثمَّ إلى ربِّهِم يُحشَرون ﴾[1].

وقولَه سبحانه : ﴿ اليومَ أكمَلتُ لكُم دينكُم وأتمَمتُ عليكُم نِعمَتي ورَضيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً ﴾[2].

بهذه الآياتِ ومثلِها يشعرُ الإنسانُ المؤمنُ أنَّهُ يقف أمامَ النَّبيِّ الإنسانِ الذي جاءَ بأتمِّ دينٍ وأوفاه، يَرَى به - وهو في حياتِهِ الدُّنيا - طريقَ الجنَّةِ، تحفُّهُ من جوانبِهِ كلِّها طُيوفُ السَّعادةِ والرَّجاءِ .

بعدَ ما تقدَّمَ نستطيعُ أن نبدأَ في استقصاءِ حياةِ النَّبيِّ الكريمِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وإبرازِ كلِّ جوانبِها من خلالِ الآياتِ؛ لنتعرَّفَ في دقَّةٍ ووضوحٍ شَخصَه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم تعرُّفاً يبعَثُ على شدَّةِ التَّعلُّقِ به، واقتباسِ كلِّ ما من شأنِهِ أن يزيدَ في حُبِّه وتقديمِ أمرِهِ ونهيِهِ على كلِّ أمرٍ ونهيٍ، ولعلَّ هذا هو أهمُّ ما يمكنُ نَيلُهُ من سيرةِ الرَّسولِ القرآنيَّةِ .

وأخيراً؛ فإنَّ تعرُّفَ سيرةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام من خلالِ الآياتِ القرآنيَّةِ؛ لا يكونُ سرداً على نحوِ ما يفعلُهُ أصحابُ السِّيَرِ - الذين ما بَخِلوا على الأُمَّةِ بجهودِهِمُ الكبيرةِ المتواصلةِ في استقصاءِ أخبارِ سيرتِهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم وجمعِها والتَّأليفِ بينها - فهذا شيءٌ لا يتأتَّى، بل يكونُ تحليلاً للمواقفِ التي يعرضُ لها القرآنُ، وربطاً

(١) الأنعام : ٣٨ .   (٢) المائدة : ٣ .

للأحداثِ بعضِها ببعضٍ، ومحاولةَ تنظيمِها وترتيبِها حَسْبَ الأزمنةِ والوقائعِ، واستظهارَ أسبابِ النُّزولِ ومناسباتِهِ .

ولسَوفَ تكونُ كلمةُ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم هي الكلمةَ الأولى في كلِّ عنوانٍ من العناوينِ؛ التي توضعُ للفصولِ التي سنتناوَلُ فيها شخصيَّتَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تحليلاً وربطاً وتنظيماً وترتيباً؛ لتَبرُزَ من خلالِ ذلك كلِّهِ سيرتُهُ العطرَةُ العظيمةُ في نسقٍ واستِنباطٍ جديدين إن شاءَ اللَّهُ، فتكونَ باعثاً للمحقِّقين، وحافزاً للدَّارسين، وعطاءً هادئاً للمُبتدئين، ويكونَ لهؤلاءِ جميعاً وغيرِهم من سيرتِهِ عليه السَّلامُ عبرةٌ وعظةٌ وأُسوةٌ مقتدرةٌ .

أسألُ اللَّهَ سبحانَه العَونَ والتَّوفيقَ والتَّسديدَ، إليه يرجعُ الأمرُ كلُّهُ، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ .

○ ○ ○ ○ ○

طَـرِيــقُ الــوَحْــيِ

لو جازَ لنا أن نقول : إنَّ النُّبوَّةَ مهنةٌ لكانت أشقَّ مِهنةٍ، بل لعجِزْنا أن نتصوَّرَها، أو أن نُحيطَ بشيءٍ منها؛ لكنِ النُّبوَّةُ ليست بالمهنةِ التي يقارَنُ بينها وبين غيرِها أوّلاً، ثمَّ ليست هي بالأمرِ الذي يقبَلُ المقارنةَ بينه وبين أمورٍ أخرى غيرِها، فالنُّبوَّةُ منزلةٌ فوقَ كلِّ منزلةٍ، منزلةٌ بوَّأها اللَّهُ مَنِ اصطَفى من عبادِهِ، فليسَ من شأنِ البَشَرِ أن تَميلَ بِأَحَدِهِم نفسُه إلى المساءلةِ عنها : « لِمَ » و « كيف » ؟!

وإذا كانت النُّبوَّةُ منزلةً اختصَّ اللَّهُ بها المصطَفيْنَ من عبادِهِ؛ فهي منزلةٌ لا تتجاوزُ بهم حدودَ دائرةِ البشريَّةِ؛ غيرَ أنَّ النَّبيَّ بها يَحْظَى بعنايةٍ إلهيَّةٍ خاصَّةٍ يتمكَّنُ معها من تلقِّي الخطابِ الإلهيِّ بالوحي الذي ينقلُهُ عنِ اللَّهِ إليه، ولا يعلمُ من الغيبِ شيئاً إلَّا به : ﴿ عالِمُ الغَيبِ فَلا يُظهِرُ على غيبِهِ أحداً . إلّا مَن ارتَضى مِن رسولٍ فإنَّهُ يَسلُكُ مِنْ بَينِ يَدَيْهِ ومِن خَلفِهِ رَصَداً ﴾[1].

---

(1) الجن : ٢٦ ، ٢٧ .

وقَدِ اختصَّ اللَّهُ نبيَّنا محمَّداً صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم من بين سائرِ إخوانِهِ الأنبياء جميعاً بمنزلةٍ تَفَوَّقَ بها عليهم، فكان مُقَدَّمَهُم عندَ اللَّهِ، وكفى بذلك فخراً: ﴿ وَلَقَد فَضَّلنا بَعضَ النَّبيِّينَ على بَعضٍ ﴾[1]، كما أعلَمَنا بذلك نبيُّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن نفسِهِ في قولِهِ :

« إذا سَمِعتُمُ المؤذِّن فقولوا مثلَ ما يقولُ، ثمَّ صلُّوا عليَّ؛ فإنَّهُ من صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى اللَّهُ عليه بها عشراً، ثمَّ سَلوا اللَّهَ ليَ الوَسيلةَ؛ فإنَّها منزلةٌ في الجنَّةِ لا تنبغي إلّا لعبدٍ من عبادِ اللَّهِ، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمَن سألَ ليَ الوسيلةَ حلَّت عليه الشَّفاعةُ »[2].

وفي قولِهِ أيضاً : « أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي: نُصرتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهرٍ، وجُعلِتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطَهوراً؛ فأيُّما رجُلٍ من أُمَّتي أدرَكته الصَّلاةُ فليُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لي الغنائمُ؛ ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعْطِيتُ الشَّفاعةَ، وكانَ النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قومِهِ خاصَّةً؛ وبُعثتُ إلى النَّاس عامَّةً »[3].

وَقَد صَعِدَ نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام مُشرَّفاً منَ اللَّهِ في طريقِ الوَحيِ، فتلقَّى عن ربِّه عزَّ وجلَّ من كلامِهِ - الذي سَيظلُّ بكلِّ حروفِهِ وإعجازِهِ إلى أنْ يَرِثَ اللَّهُ الأرضَ ومَن عليها - كتاباً متشابهاً مثانيَ تَقشعِرُّ منه جُلودُ الذينَ يَخشونَ ربَّهم، ثمَّ تلينُ به جلودُهم وقلوبُهم إلى

(١) الإسراء : ٥٥ .

(٢) رواه مسلم من حديث ابن عمرو .

(٣) متفق عليه من حديث جابر .

ذكر اللَّهِ، ويبقى يكشفُ عن غياهِب الطَّريق بهُداهُ، ويصرفُ الضَّلالَ عن عَرَصاتِ المؤمنين به .

وقد سجَّلَ لنا كلامُ اللَّه سبحانه « القرآنُ » وصفاً كاملاً دقيقاً لطريقِ الوَحي الذي صَعِدَ فيه نبيُّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى رحابِ العرشِ عند سدرةِ المنتهى، فنالَ من كرامةِ ربِّهِ في هذا الطَّريقِ ما لم ينلْ أحدٌ من البشَرِ، وهذا الوصفُ الدَّقيقُ الكاملُ هو جزءٌ من سيرةِ نبيِّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وقد بلغَتِ الآياتُ التي وصَفَتْ طريقَ الوحي الإلهيِّ - الذي صَعدَ فيه نبيُّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - نيِّفاً وأربعين آيةً، وقد نسجَ منها القرآنُ الكريمُ كِلَّةً نورانيَّةً مباركةً ظلَّت تحيطُ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من كلِّ جهاتِهِ إلى أن غادرَ الدُّنيا، ثمَّ سَعِدَ بها مَن سَعِدَ مِن الأُمَّةِ مِن بعدِهِ، وشَقِيَ مَن شقيَ بالابتعادِ عنها مِن الأُمَّة مِن بعدِهِ .

◻ ثِقَلُ الوَحيِ وشدَّتُـهُ :

جاءَ في « صحيح البخاري » و « صحيح مسلم » أن الحارثَ بنَ هشامٍ رضي اللَّه عنه سأل رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم فقال : يا رسولَ اللَّهِ ! كيف يأتيكَ الوحيُ ؟ فقال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم:

« أحياناً يأتيني مثلَ صَلصَلةِ الجرَسِ، وهو أشدُّهُ عليَّ، فَيَفصمُ عنِّي

وقَد وَعَيتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثَّلُ لي الملكُ رجلاً فيُكلِّمني فأعي ما يقولُ ». قالت عائشةُ رضي اللَّه عنها : ولقد رأيتُهُ ينزلُ عليه الوحيُ في اليومِ الشَّديدِ البردِ فيفصمُ عنه وإنَّ جَبينَهُ ليتفصَّدُ عَرَقاً .

هذا الوصفُ التَّفصيليُّ للوحي أجملَهُ القرآنُ في جملةٍ قصيرةٍ فقال: ﴿ إنَّا سَنُلقي عَلَيكَ قَولاً ثَقيلاً ﴾[1]، ورُغمَ ثِقَلِ وطأتِهِ كان كلُّهُ مَصوناً بعيداً عنِ الهوى، لا يُخالِطُهُ إلّا نورُ الجلالِ الإلهيِّ : ﴿ وَما يَنطقُ عنِ الهَوى . إنْ هُوَ إلّا وَحيٌ يُوحَى ﴾[2].

□ صونُ الوحيِ وحِفظُهُ :

وسيظلُّ الوحيُ مصوناً لا يدركُهُ نقصٌ ولا يعتريهِ تحريفٌ : ﴿ إنَّا نَحنُ نَزَّلنا الذِّكرَ وإنَّا لهُ لحافظون ﴾[3]، فكان عهداً قطَعَهُ اللَّهُ على نفسِه تثبيتاً لقلبِ رسولِهِ : ﴿ كذلكَ لِنُثَبِّتَ بهِ فُؤادكَ ﴾[4]، وإذهاباً للخشيةِ من صَدْرِهِ أن يَنِدَّ عنه شيءٌ منه - قبلَ أن يُؤْذِنَهُ الوحيُ بتمامِ ما أَذِنَ اللَّه له به في كلِّ مرَّةٍ يتنزَّلُ فيها عليه بشيءٍ من القرآنِ فيتحرَّكُ لسانُهُ به - فقال له : ﴿ وَلا تَعجَلْ بالقُرآنِ من قَبلِ أن يُقضى إليكَ وَحيُهُ ﴾[5]، وقال له : ﴿ لا تُحرِّك به لِسانَكَ لِتَعجَلَ بهِ . إنَّ عَلينا جَمعَهُ وقُرآنَهُ ﴾[6].

---

(١) المزمل : ٥ .
(٢) النجم : ٣ ، ٤ .
(٣) الحجر : ٩ .
(٤) الفرقان : ٣٢ .
(٥) طه : ١١٤ .
(٦) القيامة : ١٦-١٧ .

□ الوحيُ هو النّاموسُ الموصولُ :

والوحيُ هو النّاموسُ الذي تتابعَ على الأنبياءِ جميعاً؛ لأنَّ النُّبوّةَ لا تكونُ إلّا بوحيٍ، وهي كرامةٌ اختصَّ اللَّهُ بها صفوَةَ عبادِهِ : ﴿ اللَّهُ أعلَمُ حيثُ يَجعَلُ رِسالَتَهُ ﴾[1]، قال تعالى : ﴿ كذلكَ يوحي إليكَ وإلى الَّذينَ مِن قَبلِكَ اللَّهُ العزيزُ الحكيمُ ﴾[2]، وقال : ﴿ إنَّا أوحَينا إليكَ كما أوحَينا إلى نوحٍ والنَّبيِّين مِن بَعدِهِ وَأوحَينا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأَسباطِ وعيسى وأيُّوبَ ويونُسَ وهارونَ وسُليمانَ وآتَينا داودَ زَبوراً ﴾[3]، وقال : ﴿ وَما أرْسَلنا مِن قَبلِكَ إلّا رِجالاً نُوحي إليهم مِن أهلِ القُرى ﴾[4]، وقال : ﴿ وَما أرسَلنا مِن قَبلِكَ إلّا رِجالاً نُوحي إليهم ﴾[5]، وقال : ﴿ وَما أرسَلنا قَبلَكَ إلّا رِجالاً نُوحي إليهم ﴾[6].

□ الوحيُ يَنزلُ بلسانِ قومِ النَّبيِّ :

وَلا يَحمِلُ الوحيَ إلى قومِه إلّا واحدٌ منهم؛ ليكونَ قادراً على التَّأثيرِ فيهم، فيَقبَلونَهُ إذْ يقيمُ الحجَّةَ المقنعَةَ عليهم : ﴿ أَكانَ للنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوحَينا إلى رَجُلٍ منهم أنْ أنذِرِ النَّاسَ وبشِّرِ الَّذينَ آمَنوا أنَّ لهُم قَدَمَ صدقٍ عند ربِّهم ﴾[7]، ويكونَ لسانُه لسانَهُم ولغتُه لغتَهم ليسهُلَ التَّخاطُبُ

(١) الأنعام : ١٢٤ . (٢) الشورى : ٣ .

(٣) النساء : ١٦٣ . (٤) يوسف : ١٠٩ .

(٥) النحل : ٤٣ . (٦) الأنبياء : ٧ .

(٧) يونس : ٢ .

بينهم، فلا يَشُقُّ عليهم فَهمُ ما يُلقيه عليهم : ﴿ وَما أرسَلنا مِن رَسولٍ إلّا بِلِسانِ قَومِهِ لِيُبيِّنَ لهُم فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يشاءُ ويَهدي مَن يشاءُ ﴾[1]، وقال في وصفِ القرآنِ الذي أُرسِلَ به : ﴿ وَكذلكَ أوحَينا إليكَ قرآناً عَرَبيًّا لِتُنذرَ أُمَّ القُرى ومَن حَولَها ﴾[2]، وفي هذا تقومُ الحجّةُ القاطعةُ التي لا يملكُ معها النّاسُ إلّا الاعترافَ التّامَّ بصدقِ ما جاءَهُم به نبيُّهم، قال تعالى : ﴿ لِئلّا يَكونَ للنّاسِ على اللّهِ حُجّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ وكانَ اللّهُ عَزيزاً حَكيماً ﴾[3].

▫ بالوحيِ انتَصَبَتِ العَقائِدُ والشَّرائعُ :

وببيانِ النَّبيِّ الوحيَ الذي أُرسلَ به من عند ربِّه انتَصَبَت علائمُ الدِّينِ، وقامَت شرائعُهُ وعقائدُهُ تحولُ بين النّاسِ وبين طرائقِ الشِّركِ والمعصيةِ، فلا تزيغُ قلوبُهُم ولا تَضِلُّ عقولُهم : ﴿ شَرَعَ لكُم مِنَ الدِّينِ ما وَصّى به نوحاً والّذي أَوحَينا إليكَ وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أنْ أقيموا الدِّينَ ولا تَتفرّقوا فيه كَبُرَ على المشركين ما تَدعوهُم إليه اللّهُ يَجتبي إليهِ مَن يشاءُ ويَهْدي إليهِ مَن يُنيبُ ﴾[4]، وقال : ﴿ قُلْ إنّما أنا بَشَرٌ مِثلُكُم يُوحى إليَّ أنّما إلهُكُم إلهٌ واحدٌ ﴾[5]، وقال : ﴿ قُلْ إنّما يُوحى إليَّ أنّما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ ﴾[6]، وقال : ﴿ وَما أَرْسَلنا مِن قبلِكَ

---

(١) إبراهيم : ٤ . (٢) الشورى : ٧ .

(٣) النساء : ١٦٥ . (٤) الشورى : ١٣ .

(٦) الكهف : ١١٠ . (٦) الأنبياء : ١٠٨ .

مِن رَسولٍ إلّا نُوحي إليهِ أنَّهُ لا إلهَ إلّا أنا فَاعبُدونِ ﴾[1].

وبهذا كلّه تتحقّقُ الحكمَةُ بكلِّ أبعادِها وقوّتِها ونورِها في عقلِ النّبيِّ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم : ﴿ ذلكَ ممَّا أوْحى إليكَ ربُّكَ مِنَ الحِكمةِ ﴾[2]، فَيبذِلُها لأُمَّتِهِ والنَّاسِ في حُبٍّ وإشفاقٍ كبيرَين : ﴿ قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حرَّمَ ربُّكم عَليكُم ألّا تُشرِكوا بهِ شيئاً وبالوالِدَين إحساناً وَلا تَقتُلوا أولادَكُم مِن إملاقٍ نَحنُ نَرزُقُكُم وإيَّاهُم وَلا تَقرَبوا الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ وَلا تَقتُلوا النَّفسَ التي حرَّمَ اللّهُ إلّا بالحقِّ ذلكُم وصَّاكُم بهِ لعلَّكم تَعقِلون . وَلا تَقْرَبوا مالَ اليَتيم إلّا بالتي هي أحسَنُ حتى يبلُغَ أشُدَّهُ وأَوْفوا الكَيْلَ والميزانَ بالقِسطِ لا نُكلِّفُ نَفساً إلّا وُسعَها وإذا قُلتُم فاعْدِلوا وَلَو كانَ ذا قُربى وَبِعَهدِ اللّهِ أَوْفُوا ذلكُم وصَّاكم به لعلَّكم تذكَّرونَ . وأنَّ هذا صراطي مُستقيماً فاتَّبعوهُ وَلا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فَتفرَّقَ بكُم عن سبيلِهِ ذلكم وصَّاكم بِهِ لعلَّكم تَتَّقون ﴾[3]، ﴿ قُلْ لا أجِدُ في ما أُوحيَ إليَّ مُحرَّماً على طاعِمٍ يَطعَمُهُ إلّا أن يكونَ ميتةً أو دَماً مَسْفوحاً أَو لَحمَ خِنزيرٍ فإنَّهُ رِجسٌ أو فِسقاً أُهِلَّ لغَيرِ اللّهِ به فَمَن اضطُرَّ غيرَ باغٍ وَلا عادٍ فإنَّ ربَّكَ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾[4].

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .
(٢) الإسراء : ٣٩ .
(٣) الأنعام : ١٥١-١٥٣ .
(٤) الأنعام : ١٤٥ .

□ **الوحيُ يكشفُ الغيبَ :**

والرّسولُ بشرٌ لا يَقوى بنَفسهِ البشريَّةِ وحدَها على تجاوُزِ حُدودِ بَشريَّتهِ بعِلمِ الغيبِ إلّا أن يكونَ بالوَحيِ، سواءٌ أكانَ هذا الغَيبُ ماضياً؛ أم كانَ مُستقبلاً وحاضراً، وسواءٌ أكانَ وقائعَ وأحداثاً؛ أم كانَ عقائدَ وأخباراً، قال تعالى : ﴿ ذلكَ مِن أنباءِ الغَيبِ نوحيهِ إليكَ ﴾(1)، وقال: ﴿ قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مثلُكُم يُوحى إليَّ أنَّما إلهُكُم إلهٌ واحدٌ ﴾(2)، وقال : ﴿ نَحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القَصَصِ بما أوْحَينا إليكَ هذا القرآن ﴾(3)، وقال : ﴿ تِلكَ مِن أنباءِ الغَيبِ نُوحِيها إليكَ ﴾(4).

ويأمُر اللّهُ نبيّه أن يُعلِنَ للنّاسِ أنَّهُ لا يملكُ لنفسِهِ نفعاً، ولا يَقدِرُ أن يَدفَعَ عنها ضُرًّا إلّا أن يشاءَ اللّهُ : ﴿ قُلْ لا أملِكُ لنَفسي نَفعاً وَلا ضرًّا إلّا ما شاءَ اللّهُ وَلو كُنتُ أعلَمُ الغيبَ لاستكثَرتُ مِن الخيرِ وما مسَّنِيَ السُّوءُ ﴾(5).

ويأمرُهُ أيضاً أن يُعلنَ للنّاسِ أنَّ الغيبَ للّهِ وحدَهُ، ولا يُطلِعُ عليه أحداً إلّا باصطِفائِهِ إيّاه : ﴿ عالِمُ الغيبِ فلا يُظهِرُ على غيبِهِ أحَداً . إلّا مَن ارتَضى مِن رسولٍ فإنَّهُ يَسلُكُ من بينِ يَديهِ ومِن خلفِهِ رَصَداً . لِيَعلَمَ أنْ قَد أبلَغوا رسالاتِ ربِّهم وَأحاطَ بما لَدَيهِم وأحصى كلَّ شيءٍ

(1) آل عمران : ٤٤ .
(2) الكهف : ١١٠ .
(3) يوسف : ٣ .
(4) هود : ٤٩ .
(5) الأعراف : ١٨٨ .

عَدَداً ﴾[1]، فيضَعُ الوحيُ بذلك حدًّا للبشرِ لا يجرؤُ أحدٌ منهم على مُجاوَزتِهِ، إذْ يَرَونَ أشرَفَ مقاماتِ البشَرِ لا يحدثُهم بشيءٍ من الغيب إلّا بشيءٍ يُلقيَهِ الوحيُ إليه، ثمَّ ليُلقيه هو بنفسِهِ إليهم بإذنٍ من ربِّهِ، فيأخذَ كلٌّ واحدٍ منهم من هذا الوحي ما يوثِقُهُ بحبلٍ من اللّهِ إليه، فيكونَ في أشرفِ مقاماتِ العبوديَّةِ، فيَلتقي شرفُ العبوديَّة تلقِّياً شرفَ النُّبوَّةِ وحياً وبلاغاً، فتشرقُ الأرض بنورِ ربِّها؛ نَسِيجُهُ شرفان عظيمان قضى اللّهُ سبحانه أن يَلتئما في أرضٍ وسماءٍ .

□ الوحيُ سبيلُ الثَّباتِ والهدايةِ :

والوحيُ يثبِّتُ قلبَ النَّبيِّ ويطرُدُ عن نفسِهِ ما قد يُحْدِثُهُ فيها موقفُ المعاندين؛ من هُزءٍ وسُخريةٍ واستعلاءٍ وتلَوُّنٍ، قال تعالى : ﴿ فَلَعلَّكَ تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليكَ وضائقٌ بِهِ صَدرُكَ أن يقولوا لَولا أُنزِلَ عليه كَنزٌ أو جاءَ معهُ مَلكٌ ﴾[2].

ثمَّ يأمرُ الوحيُ النَّبيَّ بلزومِهِ كامِلاً : ﴿ واتَّبع ما يُوحى إليكَ مِن ربِّكَ ﴾[3]، فلا يكونُ منه إلّا الاستجابةُ الكاملةُ المطلقَةُ، فيقولُ : ﴿ إنْ أَتَّبِعُ إلّا ما يُوحى إليَّ ﴾[4].

وممَّا يزيدُ من أُنسِ النَّبيِّ بالوحي والتَّمسُّكِ بِهِ كلِّهِ أنَّهُ سُنَّةٌ ماضيةٌ

---

(1) الجن : ٢٦-٢٨ .
(2) هود : ١٢ .
(3) الأحزاب : ٢ .
(4) يونس : ١٥ .

في الأنبياءِ والرُّسل قبلَه : ﴿ ثمَّ أوْحينا إليكَ أنِ اتَّبع مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً ﴾[1]، ﴿ وَالَّذي أوْحَينا إليكَ مِن الكتابِ هُوَ الحقُّ مُصدِّقاً لما بَينَ يَديهِ ﴾[2]، واهتداءُ النَّبيِّ مَردُّهُ إلى الوحيِ، وهو نعمةٌ منَّ اللَّهُ بها عليه جديرةٌ بالشُّكرِ : ﴿ وإنِ اهتَديتُ فبِما يُوحِي إليَّ ربِّي ﴾[3].

□ تحذيرُ الوحيِ :

ومعَ إقبالِ النَّبيِّ على الوحيِ وشدَّةِ عُلوقِ قَلبِهِ به؛ فإنَّ الوحيَ يُحَذِّرُهُ من أساليبِ أهلِ الباطلِ في مُحاوَلاتِهِم صَرفَهُ عنه : ﴿ وإنْ كادُوا ليَفتِنُونَكَ عَنِ الَّذي أوحَينا إليكَ لتَفتَريَ عَلَينا غَيرَهُ ﴾[4]، ويأمُرُه بالاستمساك به - زيادةً في الحَذَر والتَّنبُّهِ - تحذيراً وتَنبيهاً لأُمَّتِهِ في حياتِهِ وبعدَ مَوتِهِ : ﴿ فاسْتَمسِكْ بالَّذي أُوحِيَ إليكَ إنَّكَ على صِراطٍ مستَقيم ﴾[5] .

ثمَّ يُعلمُهُ في يقينٍ قاطعٍ أنَّ كلَّ ما جاءَهُ من الوحيِ بيَدِ اللَّهِ وحدَهُ، فإن شاءَ منَّ به عليه، وإن شاءَ حَجَبَهُ عنه : ﴿ وَلَئِن شِئنا لَنَذهَبَنَّ بالَّذي أوْحَينا إليكَ ثمَّ لا تجدُ لكَ به علينا وَكيلاً ﴾[6]، ذلكم أنَّ الوحيَ الذي يحملُهُ النَّبيُّ فيه التَّبشيرُ والإنذارُ، وبهما معاً تتحقَّقُ الاستقامةُ التي

---

(1) النحل : ١٢٣ . (2) فاطر : ٣١ .
(3) سبأ : ٥٠ . (4) الإسراء : ٧٣ .
(5) الزخرف : ٤٣ . (6) الإسراء : ٨٦ .

أصابَها النَّبيُّ : ﴿ إنَّكَ على صِراطٍ مُستقيم ﴾[1]، وذلكَ قولُه : ﴿ إنَّما أنتَ نَذيرٌ واللّهُ على كلِّ شيءٍ وكيلٌ ﴾[2]، وقولُه : ﴿ إنَّني لكُم منهُ نذيرٌ وبَشيرٌ ﴾[3]، وقولُه : ﴿ إنَّا أرسَلناكَ بالحَقِّ بَشيراً ونَذيراً ولا تُسأَلُ عن أصحابِ الجَحيم ﴾[4]، بل إنَّ النَّبيَّ لا يملِكُ إلّا أن يُنذرَ ويُبشِّرَ بما أُنزِلَ إليه : ﴿ وَأُوحيَ إليَّ هذا القرآنُ لأُنذِرَكُم بهِ ومَن بَلَغَ ﴾[5].

بهذا كُلِّه يكونُ النَّبيُّ قد حملَ أمانةَ الوَحيِ الذي أُنزلَ عليه، وصدعَ به وبلَّغَهُ تحقيقاً لقولِ اللّهِ سبحانه : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إليكَ مِن رَبِّكَ وإن لَم تَفعَلْ فما بَلَّغتَ رِسالتَهُ واللّهُ يَعصِمُكَ مِن النَّاسِ ﴾[6].

هذه النُّصوصُ القرآنيَّةُ - المبثوثةُ في سوَرِ القرآنِ الكريم - رسمَت طريقَ الوَحي بعلاماتِهِ وسماتِهِ وغاياتِهِ، فاستقامَ عليها النَّبيُّ صلواتُ اللّهِ عليه وسلامُه منذ أن بَدَأَهُ الوحيُ في الغارِ بقولِهِ : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ﴾[7] إلى أن أتمَّ اللّه عليه النِّعمة بقولِهِ : ﴿ واتَّقوا يَوماً تُرجَعونَ فيهِ إلى اللّهِ ثمَّ تُوَفَّى كلُّ نَفسٍ ما كَسَبَت وهُم لا يُظلَمون ﴾[8]، وتَرَكَهُ للأُمَّةِ من بعدِهِ واضحاً لا لبسَ فيه، فاستقامَت به

(١) الزخرف : ٤٣ (٢) هود : ١٢ .
(٣) هود : ٢ . (٤) البقرة : ١١٩ .
(٥) الأنعام : ١٩ . (٦) المائدة : ٦٧ .
(٧) العلق : ١ . (٨) البقرة : ٢٨١ .

على المَحَجَّةِ، فكانَ ليلُها كنهارِها، وما خَرَجَ من الدُّنيا حتى أدَّى الأمانَةَ كاملةً، وحذَّرَ الأُمَّةَ أن تَزيغَ بها الأهواءُ، أو تَضلَّ بها السُّبُلُ، فقال لها :

« تَركتُ فيكم شَيئَين لَن تَضلُّوا بَعدَهما: كتابَ اللَّه وسُنَّتي، ولن يتفرَّقا حتى يردا عليَّ الحوض »[1]، فلم يبقَ للأُمَّة من خير إلّا وقد استبانَ لها وظهرَ، ولا من شرٍّ إلّا وقد تجلَّى في ناظريها وبَدَر، فأَمِنَت العِثارَ في كلِّ ساعةٍ من ليل أو نهار، ومَضَت على محجَّة الزَّمَن تحملُ للأُمَم أسفارَ الخيرِ والعَدلِ والهدى .

□ الوَحيُ يأخُذُ على المجتمعِ الجاهليِّ منافذَ الطُّرقِ :

وحينَ بدأَ الوحيُ يتنزَّلُ بالعقائدِ والشَّرائعِ على الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم؛ بدأت بواعثُ الحسدِ والسُّوءِ تتحرَّكُ في شِدَّةٍ لا تهدأُ، وعرامةٍ لا تسكنُ ضدَّهُ عليه الصَّلاة والسَّلام، وأَخذ المُستكبرونَ يَرونَ في أنفسِهم أحقِّيَّتَها بما يدَّعِيهِ محمَّدٌ لو كان صحيحاً، فقالوا : ﴿ لَولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القَريَتَين عَظيمٍ ﴾[2]، وَرَأَوْا فيما يتلو عليهم رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم شيئاً غيرَ مألوفٍ لهم، فلا طاقَةَ لهم بمثلِهِ، وقد كانوا من قبلِ أن يَسمعوهُ يَملِكون التَّغييرَ والتَّبديلَ لما قَد يقطعونَ من أمرٍ في أنفسِهم لأنفسِهم أو لغيرِهم، فسألوا رسولَ اللَّه صلَّى

---

(١) تقدَّم تخريجه .

(٢) الزخرف : ٣١ .

اللَّه عليهِ وسلَّم أن يُغيِّرَ لهم ما يُريدونَ تَغييرَه ممَّا يَسمعونَ منَ القرآنِ؛ بأن يَجعَلَ لهم الحلالَ حراماً والحرامَ حلالاً، والوعدَ وعيداً والوعيدَ وَعداً، وذلكَ قولُه سبحانه : ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قال الَّذينَ لا يَرجونَ لقاءَنا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْهُ ﴾[1]، فأمرهُ اللَّهُ أن يقولَ لهم: ﴿ ما يكونُ لي أن أُبَدِّلَهُ مِن تِلقاءِ نَفسي إنْ أتَّبعُ إلّا ما يُوحى إليَّ ﴾[2]، ويعلِّلُ هذا فيقولُ : ﴿ إنِّي أخافُ إنْ عَصَيتُ رَبِّي عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾[3]، ثم يُتبعُ اللَّهُ تعالى ذِكْــرُهُ تعريفَ نبيِّه الحُجَّةَ على هؤلاء الذينَ قالوا له : ﴿ ائْتِ بِقُرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْهُ ﴾، فيقولُ له : قل لهم : ﴿ لَو شاءَ اللَّهُ ما تَلَوتُهُ عَليكُم ولاأدراكُم بهِ فَقَد لَبِثتُ فيكُم عُمُراً من قَبْلِهِ أفلا تَعقِلون ﴾[4].

يقولُ الإمامُ الطَّبريُّ في ذلك :

« أي : لو كنتُ مُنتَحِلاً ما ليسَ لي منَ القولِ كنتُ انتَحَلتُه في أيَّام شبابي وحَداثَتي وقبلَ الوقتِ الذي تَلوتُه عليكم، فقد كان لي اليومَ - لو لم يُوحَ إليَّ ولم أُؤْمَرْ بِتلاوَتِهِ عليكم - مَندوحةٌ عن معاداتِكم ومتَّسعٌ في الحالِ التي كنت بها منكم قبلَ أن يُوحَى إليَّ وأُؤْمَر بتلاوتِهِ عليكم »[5].

ولَم يَدَعوا سبيلاً - يرونَ أنَّ لهم فيه نهايةً إلى غايةٍ يرونها دانيةً أو

(١) يونس : ١٥ .
(٢) يونس : ١٥ .
(٣) يونس : ١٥ .
(٤) يونس : ١٦ .
(٥) « تفسير الطَّبري » الجزء الخامس عشر .

بعيدةً في محاولةِ إبطالِ الوحيِ أو صرفِ النَّبيِّ عنه - إلّا سلكوها مُتناسينَ مكانَتَهُ فيهِم، التي أقَرّوا له جميعاً بها فَسمَّوْهُ (الأمين)، فإن لم يُفلِحُوا في صَرفِ النَّبيِّ عن الوحيِ؛ فلا أقلَّ من أن يُدخِلُوا الرِّيبةَ منه في قلوبِ مَن حَولَه ممَّن آمَنَ به وممَّن لم يُؤمنْ به، ولو إلى حينٍ، لا يحملُهم على ذلك إلّا وَغرُ صدورِهم بالحسدِ، وإلّا ما أنشَبَ فيها من إلفِ الباطلِ: ﴿ إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهم مُهتَدون ﴾[1].

سَلَكوا أوَّلاً سبيلَ الاستكبارِ والإعراضِ، وجاهَرُوا به حتى يراهم الأتباعُ فيصنَعوا مثلَ ما صَنعُوا، ويجحَدُوا كما جَحَدُوا، يرجونَ أن يقعَ اليأسُ في قلبِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، ويسكتَ عن ضلالِهِم فلا يدعوهم إلى اللَّهِ : ﴿ وَقالَ الَّذينَ كَفَروا لا تَسمَعوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه ﴾[2]، قال تعالى: ﴿ لَقَد استَكبَروا في أنفسِهِم وعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً ﴾[3]، وقال أيضاً : ﴿ وقالَ الَّذينَ كَفروا لَن نُؤمِنَ بهذا القرآنِ ولا بالَّذي بينَ يَدَيهِ ﴾[4]، وقال : ﴿ وإذا ذَكَرتَ ربَّكَ في القرآنِ وحدَهُ وَلَّوْا على أدبارِهِم نُفُوراً ﴾[5]، وقصَّ اللَّه على نبيِّه ما وقعَ للأنبياءِ - من استكبارِ قومِهِم وصُدودِهم عنه، والعاقبةِ التي انتهى إليها الصِّراعُ بينهم - مواساةً له وتثبيتاً لقلبِهِ في الكثيرِ من الآياتِ؛ كقولِهِ : ﴿ قالَ

---

(١) الزخرف : ٢٢ .
(٢) فصلت : ٢٦ .
(٣) الفرقان : ٢١ .
(٤) سبأ : ٣١ .
(٥) الإسراء : ٤٦ .

الملأُ الَّذينَ استَكبَروا مِن قَومِهِ للَّذينَ استُضعِفوا لِمَن آمَنَ منهم أتَعلَمونَ أنَّ صالحاً مُرسَلٌ مِن ربِّه قالوا إنَّا بما أُرسِلَ به مؤمنون . قال الَّذينَ استَكبَروا إنَّا بالَّذي آمنتُم به كافِرون ﴾[1]، كقولِهِ : ﴿ ثمَّ أرسَلْنا موسى وأخاهُ هارونَ بآياتِنا وسُلطانٍ مُبينٍ . إلى فِرعَونَ وملإِهِ فاستَكبَروا وكانوا قوماً عالين ﴾[2].

ويخبرُ اللَّهُ نبيَّهُ أن عاقبةَ هؤلاءِ المستكبرين النَّارُ : ﴿ والَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنا واستَكبَروا عنها أولئكَ أصحابُ النَّارِ هم فيها خالدون ﴾[3]، ويكونُ بين المستكبرين والمستضعفين حوارٌ مريرٌ أليمٌ : ﴿ فيَقولُ الضُّعفاءُ للَّذينَ استَكبَروا إنَّا كُنَّا لكُمْ تَبَعاً فَهَل أنتُم مُغنونَ عنَّا نَصيباً مِن النَّارِ . قالَ الَّذينَ استَكبَروا إنَّا كُلٌّ فيها إنَّ اللَّهَ قَد حَكَمَ بينَ العِبادِ ﴾[4]، فلا يغترَّ المُستكبرون بما أصابوا في دنياهم من لذَّةِ التَّسلُّطِ والاستعلاءِ، ولا يُعذَرُ المُستَضعفونَ باستخذائِهم وتَبعيَّتِهِم الصَّاغرةِ الذَّليلةِ لأولئكَ المستكبرين .

فلما سُقِطَ في أيديهم وَرَأَوْا أنَّهم لم يُصِيبُوا نُجْحاً، سَلكُوا ثانياً سبيلَ الهُزْءِ والسُّخريةِ، وأخبرَ القرآنُ عنهم في آياتٍ كثيرةٍ منه فقال : ﴿ وإذا رآكَ الَّذينَ كَفَروا إنْ يتَّخِذُونَكَ إلّا هُزُواً ﴾[5]، وقال أيضاً :

---

(١) الأعراف : ٧٥ ، ٧٦ .
(٢) المؤمنون : ٤٥ ، ٤٦ .
(٣) الأعراف : ٣٦ .
(٤) غافر : ٤٧ ، ٤٨ .
(٥) الأنبياء : ٣٦ .

﴿ وإذا رأَوْكَ إنْ يتَّخذونَكَ إلّا هُزُواً ﴾[1].

وقد اشتدَّتْ وطأةُ المستهزئين على الرّسولِ في مكَّةَ حيثُ لا منعَةَ له من قبيلةٍ أو أرضٍ، فقد تنكَّرت له القبيلةُ التي كانت تُسمِّيهِ الأمينَ وتُحكِّمُهُ في ما يَستعصي عليها حَلُّهُ من أمرِ أنفسِها .

وضاقَت عليه الأرضُ التي وُلِدَ عليها وتَرعرَعَ فيها وخالطَ حُبُّها قَلبَه، ولم يجدْ فيها ملجأً من اللّهِ إلّا إليه، وصارَ ينظرُ أيمنَ منه فلا يَرى إلّا عَدوًّا مُتربِّصاً، وينظرُ أيسَرَ منه فلا يَرى إلّا نَصيراً ضعيفاً، وينظرُ من ورائِهِ فلا يَرى إلّا سِهاماً مُصوَّبةً إلى ظهرِهِ، وينظرُ أمامه فلا يَرى إلّا هُزُواً وسخريةً - تتقيَّأُها أفواهٌ عاديةٌ باغِضَةٌ - وأشواكاً وحجارةً موضوعةً في طريقِهِ .

لكنَّ هذا كلَّه غابَ من أمامِهِ وهو يقلِّبُ وجهَهُ في السَّماءِ حيث يجدُ الرَّجاءَ الفسيحَ يملأُ الآفاقَ نوراً يُمزِّقُ رُكامَ الظَّلامِ الذي يحيطُ بمكَّةَ وما حولَها، ويدعو اللّهَ أن يجعلَ له ولأصحابِهِ المُستضعفينَ فَرَجاً ومخرجاً .

وقد امتدَّ حبلُ هذا السُّلوكِ الشَّائنِ إلى المدينةِ بعدَ الهجرةِ، فأمسكَ المنافقون به بعدَ إفلاتِهِ من يدِ المشركين في مكَّةَ، وجَعلوا يسخرونَ سرًّا - وجهرةً أحياناً - من الرَّسولِ وأصحابِهِ، لا يحجُزُهم فزعٌ من عذابٍ،

(١) الفرقان : ٤١ .

ولا حُرمةٌ لجوارٍ، لا يَحْزُنُهم ما أصابَ مَن قَبلَهم، ولا يُرهبُهم تَرقُّبُ ما يكونُ لمن بعدَهم،فتشابهَ السُّلوكان والتقيا على طريقٍ واحدةٍ، فجاءَت آياتُ القرآنِ الكريم تفضحُ المنافقين، وتكشفُ ما أسَرُّوا، وتَدفعُ في صدورِهم كما كان منها في مكَّة مع المشركين لِتشابُهِ سُلوكِ الفريقين؛ إذْ أنَّهما يَصدُران عن معدنٍ واحدٍ .

ففي المشركين يقول : ﴿وَإذا رآكَ الَّذينَ كَفَروا إن يتَّخذونكَ إلّا هُزُواً ﴾[1]، ويقول : ﴿ وإذا عَلِمَ مِن آياتِنا شيئاً اتَّخذها هُزُواً ﴾[2]، ويقول : ﴿ وإذا رَأَوا آيةً يَستَسخِرون ﴾[3]، وهم في ذلك إنَّما يفعلونَ كما فعل غيرهُم مِنَ الأُمَمِ مع أنبيائِهم : ﴿ وَما يأتيهم مِن رَسولٍ إلّا كانوا بهِ يَستَهزِئون ﴾[4].

وعاقبةُ المُستَهزئين بالرَّسولِ إلى يبابٍ وخُسرانٍ، وهي سنَّةٌ مَضَت في الأُمَمِ السَّابقةِ كلِّها التي هَزِئَت وَسَخِرَت بأنبيائِها، قال تعالى : ﴿ ولَقَدِ استُهزِئَ برُسُلٍ من قبلِكَ فحاقَ بالَّذينَ سَخِروا منهُم ما كانوا بهِ يَستهزئون ﴾[5].

وقَد عصَمَ اللّهُ نبيَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم من المستهزئين وكفاهُ مكرَهم، فليسَ لهم إليه من سبيلٍ : ﴿ إنَّا كَفَيناكَ المُستَهزئين ﴾[6]،

(١) الأنبياء : ٣٦ .
(٢) الجاثية : ٩ .
(٣) الصافات : ١٤ .
(٤) الحجر : ١١ .
(٥) الأنعام : ١٠ .
(٦) الحجر : ٩٥ .

ولكيلا يكونَ للمستهزئينَ سبيلٌ على أتباعِ الرَّسولِ وأصحابِهِ، نهاهم عن الجلوسِ مع المُستهزئين والاستماعِ والإصغاءِ إليهم : ﴿ إذا سَمَعتُم آياتِ اللَّهِ يُكفَرُ بها ويُستَهزأُ بها فلا تَقعُدوا مَعَهُم حتى يَخوضُوا في حَديثٍ غيرِهِ ﴾[1].

وإنْ هم أصرُّوا على استهزائِهم بالحقِّ الذي جاءَهم به نبيُّهم؛ فإنَّ العذابَ الأليمَ في انتظارِهم : ﴿ فَسَوفَ يأْتيهم أنباءُ ما كانوا به يَستَهزئونَ ﴾[2]، وقد يكونُ ما ينتظرُهم نصرٌ يُذِلُّهم اللَّهُ به على أيدي المؤمنين .

وَيَنهى اللَّهُ المؤمنين عن موالاةِ المستهزئين من الكفَّارِ ومن الذين أُوتوا الكتابَ؛ لأنَّ الموالاةَ تُنْبِىءُ عن شيءٍ من الرِّضا القلبيِّ عن المستهزئين: ﴿ لا تَتَّخِذوا الَّذينَ اتَّخذوا دينَكُم هُزُواً ولَعِباً مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ مِن قَبلِكُم والكفَّارَ أولياءَ ﴾[3].

وكما أن القرآنَ نَعى على المستهزئين من المشركين ومن الَّذين أُوتوا الكتابَ وندَّدَ بهم؛ فقد فضحَ ما يُسِرُّ به المنافقون إلى أوليائِهم، وكشفَ ما يظنُّونَهُ خافياً على النَّاسِ : ﴿ يَستَخْفونَ مِن النَّاسِ ولا يَستَخفونَ مِن اللَّهِ ﴾[4]، ﴿ قُل استَهزِئوا إنَّ اللَّهَ مُخرجٌ ما

(١) النساء : ١٤٠ .
(٢) الأنعام : ٥ .
(٣) المائدة : ٥٧ .
(٤) النساء : ١٠٨ .

تحذَرونَ ﴾(١).

فلمَّا لم يُفلحوا في توهينِ الرَّسولِ وصرفِهِ عن دعوتِهِ - بالإعراضِ والصَّدِّ والاستهزاءِ - عَمَدُوا إلى أُسلوبٍ ثالثٍ؛ وهو الاتِّهامُ بالسِّحرِ والكهانةِ والجنونِ والشِّعرِ والكذبِ، وقد كانوا من قبلُ يَرَونَ فيه الكمالَ الإنسانيَّ كلَّه؛ في حكمتِهِ وصدقِهِ وأمانتِهِ، فلمَّا أن جاءَهم بشيراً ونَذيراً بأمرٍ من ربِّه نابَذُوهُ الخصومةَ، وعالَنُوهُ العداوةَ، وألقَوا عليه بِجِرَانِ الاتِّهامِ الذي لا يُنْبِيءُ إلّا عن حسدٍ يأكلُ صدورَهُم؛ وخوفٍ على مكانتِهم التي توارثوها كابراً عن كابرٍ أن تَسقُطَ فلا يَبقى لهم شيءٌ ممَّا وَرِثوا، ولو أنَّهم قَلَّبُوا الأمرَ على وجوهِهِ - في حكمةٍ وتدبُّرٍ وأنصَفوا أنفسهم - لرَأَوا أنَّ نُجْحَهُم في الحياةِ، وتمكُّنَهم من الأرضِ التي يعيشونَ فوقَها، وانتشارَ ذِكرِهم في الآفاقِ، وخلودَ شأنِهم على الزَّمانِ؛ كلُّ أولئكَ مرهونٌ بكلمةٍ يقولونها - دعاهم إليها رسولُ اللّهِ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم - كانت ستَحجُبُهم عن حوبةِ شرٍّ أوقعوا أنفسَهم فيه، فيمسكون بها عن الاتِّهامِ السَّخيفِ، وقد أوردَ القرآنُ هذا الاتِّهامَ في صورٍ عديدةٍ .

فَوَصْفُهُم له بالسِّحرِ؛ يعني أنَّ مَن عُقِدَ عليه بعُقَدِ السِّحرِ لا يستقيمُ له قولٌ ولا يسوغُ له عملٌ إلّا بإبطالِ هذه العُقَدِ وحَلِّها، فهو إذاً مأخوذٌ بسحرِ ساحرٍ لا يُفضي إلى شيءٍ بمُرادِهِ؛ إلّا إذا أرادَ ذلك السَّاحرُ أن يَمنحَهُ شيئاً من إرادتِهِ تلك التي سَلَبَهُ إيَّاها .

(١) التوبة : ٦٤ .

وهذا الوصفُ يأتي تارةً في صورةِ الخَبرِ المجرَّدِ : ﴿ فلمَّا جاءَهُمُ الحقُّ مِن عندِنا قالوا إنَّ هذا لسِحرٌ مُبينٌ ﴾[1]، وتارةً في صورةِ الخبرِ المؤكَّدِ بالقَسمِ : ﴿ لَيقولَنَّ الَّذينَ كَفَروا إنْ هذا إلّا سحرٌ مُبينٌ ﴾[2]، وتارةً في صورةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ : ﴿ هَل هذا إلّا بَشرٌ مثلُكم أفتأْتُونَ السِّحرَ وأنتُم تُبصِرُون ﴾[3]، وتارةً في صورةِ الاستفهامِ التَّوبيخيِّ التَّقريعيِّ : ﴿ أَفَسِحرٌ هذا أمْ أنتُم لا تُبصِرون ﴾[4]، وتارةً في صورةِ الشَّرطِ الجزائيِّ مقروناً بالدَّليل العقليِّ على عَدمِ التَّدبُّرِ : ﴿ وإنْ يَرَوا آيَةً يُعرِضُوا وَيَقولوا سحرٌ مُستَمِرٌ ﴾[5].

وفي كلِّ ما تقدَّم كان السِّحرُ وصفاً للقرآنِ الكريم، وأحياناً يكونُ السِّحرُ وصفاً للرَّسولِ الكريمِ نفسِهِ : ﴿ وقالَ الظَّالمونَ إنْ تَتَّبعونَ إلّا رَجُلاً مَسحوراً ﴾[6]، و ﴿ إذْ يَقولُ الظَّالِمونَ إنْ تَتَّبِعونَ إلّا رجلاً مَسحوراً ﴾[7]، ﴿ قالوا إنَّما أنتَ مِن المُسَحَّرِينَ ﴾[8].

ثمَّ يُقرِّرُ القرآن أمراً قَضَت عليه الأُمَم كلُّها في هذا الشأنِ مواساةً وتثبيتاً للرَّسولِ : ﴿ كذلكَ ما أتى الَّذينَ مِن قبلِهِم من رسولٍ إلّا قالوا

---

(١) يونس : ٧٦ .
(٢) هود : ٧ .
(٣) الأنبياء : ٣ .
(٤) الطور : ١٥ .
(٥) القمر : ٢ .
(٦) الفرقان : ٨ .
(٧) الإسراء : ٤٧ .
(٨) الشعراء : ١٥٣ .

ساحرٌ أو مجنونٌ ﴾[1].

وقد عرَّفَ العلماءُ السِّحرَ بأنَّهُ : « إخراجُ الباطلِ في صورةِ الحقِّ »؛ كما نقلَهُ ابنُ فارسٍ في « معجمه »، وقال الرَّاغبُ الأصفهانيُّ في « المفردات » : « السِّحرُ يُقال على معانٍ : الأوَّل: الخداعُ وتخيُّلاتٌ لا حقيقةَ لها، نحوُ ما يفعلُه المُشَعبِذُ بِصَرفِ الأبصارِ عمَّا يفعلُه لخفَّةِ يَدِهِ، وما يفعلُه النمَّامُ بقولٍ مُزَخرفٍ عائقٍ للأسماعِ، وعلى ذلك قولُهُ تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إليه مِن سِحرهم أنَّها تَسعى ﴾[2] » .

من ذلك يتبيَّنُ لنا أنَّ للسِّحرِ تأثيراً قويًّا على النَّفسِ، يخضعُ الإنسانُ به لكلِّ ما يتخيَّلُهُ أو يتوهَّمُهُ وإنْ كان فاسداً، ويرفضُ كلَّ ما عداه ولو كان صالحاً، وبه يكونُ الإنسانُ المسحورُ فاقداً الإرادةَ والقدرةَ على التَّفكيرِ السَّليمِ .

ثمَّ استطالوا عليه بتُهمةِ الجنونِ، وإذا كان الإنسانُ المسحورُ مسلوبَ الإرادةِ؛ فإنَّهُ سَلْبٌ قد يكونُ موقوتاً بذهابِ سببِهِ، أمَّا الإنسانُ المجنونُ فإرادتُهُ مسلوبةٌ أبداً، فالتُّهمةُ بها أشدُّ وأعظمُ من التُّهمةِ بالسِّحرِ، وقد أرادوا التَّوصُّلَ بهذه التُّهمةِ إلى إبطالِ آيِ القرآنِ كلِّهِ؛ لأنَّ تصرُّفَ المجنونِ محكومٌ بجنونِهِ، فهو باطِلٌ وإن أصابَ الحقَّ؛ لأنَّ الحقَّ ضدُّ الباطلِ، ولا يُعرَفُ الشَّيءُ إلّا بضِدِّه، ولا يجتمعُ الضِدَّانِ في عقلٍ عاقلٍ،

---

(١) الذاريات : ٥٢ .   (٢) طه : ٦٦ .

وهما مجتمعانِ في المجنونِ .

وقد سجّل القرآنُ هذه التُّهمةَ في كلِّ حالاتِها - التي صوّرت حقيقةَ نفوسِهم - وهم يَقذِفُونَ بها رسولَ اللّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فتارةً يَصرخونَ بهذه التُّهمةِ صُراخاً لا يَملكونَ معه إخفاءَ ما تجيشُ به نفوسُهُم من حقدٍ باطنٍ : ﴿ وَقالوا يا أيُّها الَّذي نُزِّلَ عليه الذِّكرُ إنَّكَ لمجنونٌ ﴾[1]، وتارةً يتداولونَ هذه التُّهمةَ فيما بينهم عالمينَ أنَّهم يُخادِعُونَ أنفسَهم : ﴿ وَيقولونَ أَئنَّا لَتارِكوا آلهتِنا لِشاعرٍ مجنونٍ ﴾[2]، وتارةً يقولونها وهم أشبهُ ما يكونون في حالةِ يأسٍ وقنوطٍ من قناعتِهم هم أنفسِهم بهذه التُّهمةِ : ﴿ ثمَّ تَولَّوْا عنهُ وقالوا مُعلَّمٌ مجنونٌ ﴾[3]، وتارةً يحكونَها - وقد اعترَتهُم البغضاءُ والحسدُ في أشدِّ حالاتِهما - ظانِّينَ أنَّهم يُقْنِعُونَ أنفسَهم بها : ﴿ وإنْ يكادُ الَّذينَ كَفَروا لِيُزْلِقُونَكَ بأبصارِهم لمَّا سَمِعُوا الذِّكرَ ويقولونَ إنَّهُ لمجنونٌ ﴾[4].

ويحكي استخفافَهم واستغرابَهم بإلفِهم عقيدتَهم المتوارثةَ الباطلةَ ممَّا جاءَهم به من عقائدَ غريبةٍ عنهم : ﴿ وقالَ الَّذينَ كَفَروا هل ندلُّكُم على رجلٍ يُنَبِّئُكُم إذا مُزِّقتُم كلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكم لفي خَلقٍ جديدٍ . أَفْتَرَى على اللَّهِ كَذِباً أم بهِ جِنَّةٌ ﴾[5].

---

(1) الحجر : ٦ .
(2) الصافات : ٣٦ .
(3) الدخان : ١٤ .
(4) القلم : ٥١ .
(5) سبأ : ٧ ، ٨ .

ويُثبِّتُ القرآنُ من قلبِ النَّبيِّ وهو يأمُرهُ أن يُذكِّرَ النَّاسَ بما أُرسِلَ به من عندِ ربِّهِ غيرَ ناظرٍ إلى ما يقولون، داحضاً بقوَّةٍ تلك الفرية : ﴿ فذكِّر فما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ بكاهنٍ ولا مجنونٍ ﴾[1].

ثمَّ يُذكِّرُهُم القرآنُ بما كان بينهم وبينَ الرَّسولِ من مودَّةٍ قبلَ أن يَجهَرَ بالدَّعوةِ، ويَصفُهُ بأنَّهُ صاحبُهم : ﴿ وما صاحِبُكُم بمجنونٍ ﴾[2].

وكان عليهم لَو أنصفوا أن يَصِفُوهُ بالحكمةِ والعقلِ؛ إذْ ما عَرَفُوهُ مُذْ عرفوهُ إلّا كذلك: ﴿ أوَلَم يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِم مِن جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلّا نَذيرٌ مُبينٌ ﴾[3]، ويوردُ هذا المعنى في موضعٍ آخرَ : ﴿ ما بِصاحِبِكُم مِن جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلّا نَذيرٌ لكُم ﴾[4].

ويذكِّرُ القرآنُ النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بأنَّ هذه التُّهمةَ قَد أُلقيَت على الأنبياءِ قبلَه، فلا يَيأَسْ ولا يحزَنْ : ﴿ كذلكَ ما أتى الَّذينَ مِن قبلِهم من رَسولٍ إلّا قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ ﴾[5].

أمَّا تُهمةُ الشِّعرِ والكهانةِ فلا تَعْدُو في الباعثِ عليها الباعثَ على التُّهمةِ بالسِّحرِ والجنونِ، وكان العربُ في جاهليَّتِهم شغُوفين بالشِّعرِ، يَرَونَ في القَصيدةِ عُنوانَ فَخَارِهم ومجدِهِم، ويتناقلونها إذا استحكمَت

---

(١) الطور : ٢٩ .

(٢) التكوير : ٢٢ .

(٣) الأعراف : ١٨٤ .

(٤) سبأ : ٤٦ .

(٥) الذاريات : ٥٢ .

أبياتُها في حرصٍ على كلِّ كلمةٍ وبيتٍ منها حِرصَهَم على أثمنِ الأشياءِ وأغلاها، ويتهادَوْنَها كما يتهادَوْنَ النَّفائسَ والأعلاقَ، وكان الشَّاعرُ يضعُ في القصيدةِ كلَّ مواهبِهِ العقليَّةِ والنَّفسيَّةِ؛ لأنَّ بها بقاءَ ذكرِهِ وشيوعَ صِيتِهِ في القبائلِ .

وقَد جاءَت سُوَرٌ سهلةٌ مُيسَّرةٌ بِرُمَّتِها تنتَهي آياتُها كلُّها بحرفٍ واحدٍ، ظنَّ معها كبراءُ الشِّرْكِ أنَّ تهمةَ الشِّعرِ تلقى رواجاً وقبولاً عندَ القبائلِ، فَطَفِقُوا يشيعونَها، فجاءَ القرآنُ بالرَّدِّ الحاسمِ يقطعُ على عقولِهم ظنَّها، ويفسدُ عليها تفكيرَها، حتى قال قائلُهم : « واللَّهِ ما هو بالشِّعر »[1].

وجاءَت هذه التُّهمةُ في سياقٍ من التُّهَمِ يحكي اضطِّرابَهم وحَيْرَتَهُم : ﴿ بَل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بَلْ افترَاهُ بَل هوَ شاعرٌ ﴾[2].

ويَستَغلِقُ الحقدُ في قلوبِهم حينَ يَصفونَ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بأنَّهُ جَمَعَ معَ الشِّعرِ الجنونَ : ﴿ وَيَقولونَ أئنَّا لَتارِكوا آلهتِنا لِشاعرٍ مجنونٍ ﴾[3]، ولكن هل مثلُ هذا الشِّعر - على زعمِهِم - يمكنُ أن يقولَهُ مجنونٌ ؟! أم هو فسادُ العقلِ واضطِّرابُ النَّفسِ : ﴿ وَما هوَ بقَولِ شاعرٍ قَليلاً ما تُؤمنون ﴾[4] ؟!

(١) يرجع إلى « تفسير ابن كثير » (٤/٤٤٣)، وهو قول الوليد بن المغيرة المخزومي .

(٢) الأنبياء : ٥ .

(٣) الصافات : ٣٦ .

(٤) الحاقَّة : ٤١ .

ثمَّ يَدفعُ القرآنُ هذه التُّهمةَ دفعاً قويًّا ويردُّها عليهم، وبخاصَّةٍ وأنَّهم يعرفونَهُ من قَبلِ أن يُوحى إليه، فما عَرَفُوهُ شاعراً: ﴿ وما عَلَّمْناهُ الشِّعرَ وما يَنبَغي لهُ إنْ هُوَ إلّا ذِكرٌ وقرآنٌ مُبينٌ ﴾[1].

ويؤكِّدُ لهم هذا بقولِهِ : ﴿ والشُّعراءُ يتَّبِعُهُمُ الغاوُونَ ﴾[2]، فليسَ أغوى ولا أضلَّ منهم، ومع ذلك لم يتَّبِعُوهُ، بل اتَّبَعَهُ المهتَدون العاقلون أهلُ الرَّأْيِ والحِجا، فهو دليلٌ عقليٌّ منطقيٌّ على أنَّهُ ليس بشاعرٍ، ولا يُحسنُ قولَ الشِّعرِ، وليس هو من الشِّعرِ، ولا الشِّعرُ منه، ولا عَرَفَ الشِّعرَ صَنعةً يوماً .

ولقد كانَ للكهانَةِ والكهَّانِ دورٌ عظيمٌ في حياةِ العربِ الجاهليَّةِ، وكان إذا أَهَمَّ أحدَهُم أمرٌ هُرِعَ إلى أحدِ العرّافين أو الكُهّانِ يستعينُ به على أمرِهِ، وكانت قريشٌ تعلمُ علمَ اليقينِ أنَّ محمَّداً ليسَ بكاهنٍ، ولم يعرفِ الكهانةَ يوماً، ولا طرقَ بابَ كاهنٍ ولا كاهنةٍ، ولكنَّهم أصرُّوا على رميِهِ بهذه التُّهمةِ؛ لعلَّها تلقى قبولاً في آذانِ العَرَبِ وقُلوبِهم فَيُعِينُوهم على عَداوَتِهِم .

ولم يَحْكِ لنا القرآنُ شيئاً ممَّا قالوه بصَددِ هذه التُّهمةِ له؛ غيرَ أنَّهُ أثبتَها من خلالِ آيتَينِ، وهو يردُّ عليهم هذه التُّهمةَ، وذلك قولُهُ : ﴿ فذكِّرْ فما أنتَ بنعمَةِ ربِّكَ بكاهنٍ ولا مجنونٍ ﴾[3]، وقولُهُ أيضاً :

(١) يس : ٦٩ .
(٢) الشعراء : ٢٢٤ .
(٣) الطور : ٢٩ .

﴿ وَلا بقَولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكّرون ﴾[1].

ويُلاحَظُ أنَّ القرآنَ لم يَحْكِ عنِ القرونِ السَّابقةِ تُهمةَ الكهانَةِ والشِّعرِ لأنبيائِهم، ذلكم أنَّ القرآنَ هو المعجزةُ الكبرى للرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم جاءَت تتحدَّاهم في عُقْرِ دارِهم، فلم يكن بُدٌّ - وقد عَجَزُوا عن مُضاهاتِهِ أو الإتْيانِ بشيءٍ منه - أن يتّهموهُ بعُنوانِ فصاحتِهم وفخارِ ألسنتِهم .

أمَّا تهمةُ الكذبِ فقد أَكْذَبُوا بها أنفسَهم وَوَضَعُوا من أقدارِها، وهم يحسبونَ أنَّهم بالِغونَ مأربَهم من شخصِهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، وقد عَلِموا أنَّهُ ما كَذَبَ يوماً قطُّ، ولا أمسكَ بنُصرةٍ لكاذبِ، والكذبُ كان يشينُ صاحبَهُ في الجاهليَّةِ؛ حتى لو كان من طَغَامِ النَّاسِ وأراذِلِهم، فكيفَ بمَن يسعى أن يكونَ رئيساً عليهم كما ظنُّوا باديءَ الأمرِ ؟!

ولعلمِهِمُ الصِّدقَ الكاملَ فيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُكثِرُوا من هذه التُّهمةِ، ولذا كانَتِ الآياتُ التي حَكَت تُهمةَ الكذبِ أقلَّ عدداً مِنَ الآياتِ التي حَكَتِ التُّهمَ الأخرى .

ففي (سورة صٓ) جاءَت تُهمَتُهُم له بالكذبِ بعدَ أن جاءَهُم مُنذرٌ منهم فقالوا : ﴿ هذا ساحرٌ كذَّابٌ ﴾[2]، وتكرَّرَ المعنى نفسُهُ في موضعٍ آخرَ بلفظٍ آخرَ، وذلك قولُهُ سبحانه : ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكرُ عليه مِن بَينِنا بَلْ

---

(١) الحاقة : ٤٢ .

(٢) ص : ٤ .

﴿ هُوَ كذَّابٌ أشِرٌ ﴾[1].

ويأتِيهِم الرَّدُّ في سرعةٍ باهرةٍ تهديدٍ قاطعٍ أنَّهم سيلقون عاقبةَ افترائهم يومَ القيامة : ﴿ سَيَعلَمونَ غداً مَنِ الكذَّاب الأشِرُ ﴾[2]، ولا ينبغي للنَّبيِّ أن ييأَسَ أو يضجرَ أو يتولَّى عنهم فلا يدعوهم : ﴿ فإنْ كذَّبوكَ فقُل ربُّكم ذو رحمةٍ واسعةٍ ﴾[3]، وقولُهُ : ﴿ أفْتَرى على اللَّهِ كَذِباً أم بهِ جِنَّةٌ ﴾[4]، ويحكي هذه التُّهمةَ في صورةِ سؤالٍ إنكاريٍّ : ﴿ أمْ يَقولونَ افْترى على اللَّهِ كَذِباً ﴾[5].

وكما هو الشَّأنُ في التُّهَمِ السَّابقةِ كلِّها يقصُّ اللَّهُ سبحانه على نبيِّهِ طرفاً من سيرِ الأنبياءِ، فيَعلَمُ أنَّ الأنبياءَ من قبلِهِ سَمِعُوا تُهمةَ الكذبِ من أقوامِهم : ﴿ فإنْ كَذَّبوكَ فقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ ﴾[6]، فيكونُ في ذلك تَأسِيَةٌ له وَتَثبيتٌ لقَلبِهِ، وقد أفاضَ القرآنُ كثيراً في الحديثِ عن هذه التُّهمةِ التي واجَه بها القرونُ السَّابقةُ أنبياءَهم، قال تعالى : ﴿ كلَّما جاءَ أُمَّةً رسولُها كذَّبُوهُ ﴾[7].

---

(١) القمر : ٢٥ .

(٢) القمر : ٢٦ .

(٣) الأنعام : ١٤٧ .

(٤) سبأ : ٨ .

(٥) الشورى : ٢٤ .

(٦) آل عمران : ١٨٤ .

(٧) المؤمنون : ٤٤ .

المجتمعُ الجاهليُّ مِن خِلالِ النُّصوصِ القرآنيَّةِ

عاشَ النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أربعينَ سنةً من عُمُرِهِ في أكنافِ المُجتمعِ الجاهليِّ؛ يَرقبُ فجراً يَنسخُ الظُّلمةَ التي ظلَّت تلفُّهُ قروناً طويلةً، ويفسَحُ من قلبِهِ الكبيرِ لكلِّ التَّصوُّراتِ الباطلةِ التي ملأَتْ أرجاءَ الجزيرةِ ويبسطُ رداءَ نفسِهِ العظيمةِ لكلِّ العاداتِ والقيَمِ التي سادَت حياةَ العَربِ، لعلَّهُ يجدُ سبيلاً إلى فكِّ إسارِ قومِهِ من هذه أو تلك، وهو يعلمُ منهمُ الصَّلابةَ في الرَّأيِ والثَّباتَ على الأمرِ، إلى جانِبِ أنَّ كلَّ هذه التَّصوُّراتِ والعاداتِ والقيمِ كانت ناشبةً في عقولِهم وقلوبِهم إلى حدٍّ يَصعُبُ - بل يَستحيلُ - على غيرِ نبيٍّ أن يُزَحزِحَها من عقولِهم أو يُخرِجَها من قلوبِهِم .

وكانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَحدُسُ حَدْساً قويًّا لا يدري مأتاهُ - يكادُ يبلغُ عنده اليقينَ - أنَّهُ سيكونُ للعربِ شأنٌ يُذكَرُونَ به على الدَّهرِ غيرَ الشَّأنِ الذي كانوا يُذكَرُونَ به من قَبلُ .

وقد حَفِظَت لنا كتبُ السِّيَرِ والتَّاريخِ حُشُوداً كثيرةً من أيَّامِ العربِ وأخبارِهم، يصعُبُ جدًّا على العَقلِ تصديقُها جميعاً من غيرِ أن يتناوَلَها بالتَّمحيصِ والتَّحليلِ، وقد أثبتها المؤرِّخون المسلمون كما هي، وصارَ المثقَّفون والدَّارسون يتناوَلُونَها كما وجدوها مسطورةً، فاختلطَت أحوالُ العربِ وأيَّامُهُم على النَّاسِ؛ ممَّا يجعلُ اعتمادَ النُّصوصِ القرآنيَّةِ لا مَحِيدَ عنه في معرفةِ أحوالِ العربِ وأيَّامِهِم .

وقد كادَت تتلاشى في المجتمع الجاهليِّ - بما احْتَشَدَ فيه من سلبيَّاتٍ أخلاقيَّةٍ - الأخلاقُ الصَّالحةُ التي جاءَ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم يُتَمِّمُها : « إنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مكارِمَ الأخلاقِ »، وفي روايةٍ : « صالحَ الأخلاقِ »[1].

وَلَسنا هنا بصدَدِ الحديثِ عن مكارِمِ الأخلاقِ فنوردَ أمثلةً منها، وقد كادَت تتلاشى وتذهبُ في حشدِ الأخلاقِ السَّيِّئةِ، وقدِ اتَّسعَتْ رُقعَةُ هذه الأخلاقِ حتى شَمَلَت أفرادَ المجتمعِ جميعاً إلّا قليلاً منهم، وهذا شأنُ المجتمعاتِ الإنسانيَّةِ كلِّها؛ فمهما بلغَت من سوءٍ فلا بدَّ أن تَبْقَى فئةٌ تحملُ فكرةَ الإصلاحِ، وتدعو لها وتُبصِّرُ النَّاسَ بالمُعوِّقاتِ والأسبابِ التي تحولُ دونَ نُهوضِها وقيامِها في وجهِ السَّلبيَّاتِ .

ومُرادنا من تصويرِ المجتمعِ الجاهليِّ - وذكرِ المساوىءِ الأخلاقيَّةِ

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد »، وأحمد بسند حسن من حديث أبي هريرة .

تَعَرُّفُ المشقَّةِ الكبيرةِ التي عاناها رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم وهو يَحملُ فكرَةَ التَّغييرِ السَّماويَّةَ، وليسَ مُصلحٌ عاديٌّ من البشَرِ بقادرٍ على أن يُذِيبَ هذه المساوىءَ، وأن يَقضيَ عليها - مهما بلغَت الفِكرةُ الإصلاحيَّةُ التي يحملُها من القوَّةِ - إلّا أن يكونَ تابعاً لرسولٍ حاملاً رسالَتَهُ، وكان المجتمعُ - الذي يحاولُ إصلاحَهُ بفكرتِهِ - لم يبلغْ منَ السُّوءِ ما بلغهُ ذلك المجتمعُ الذي بُعِثَ فيه ذلك النَّبيُّ .

وقد بذلَ نبيُّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في تغييرِ المجتمعِ الجاهليِّ وتقويمِ اعوجاجِهِ فوقَ ما يقدرُ عليه البَشَرُ، حتَّى إنَّ الوَحيَ ينزلُ عليه فيقولُ له: ﴿ فَلَعَلَّكَ باخعٌ نَفسَكَ على آثارِهِمْ إنْ لَم يُؤمِنوا بهذا الحديثِ أسَفاً ﴾[1]، ويقولُ : ﴿ فَلا تَذهَبْ نَفسُكَ عليهِم حَسَراتٍ ﴾[2]، ﴿ لعلَّكَ باخِعٌ نفسَكَ ألّا يكونوا مُؤمنين ﴾[3]، فيُخَفِّفُ ذلك من عناءِ نفسِهِ ويَعلَمُ أنَّ لكلِّ أجلٍ كتاباً بقَدرِ اللَّهِ .

وحينما يَصِفُ القرآنُ المجتمعَ الجاهليَّ - في آياتٍ موجزةِ الكلماتِ مَعدودةِ الألفاظِ - يفسحُ المجالَ أمامَ العقلِ ليتَملّاه ويتوغَّلَ فيه طولاً وعَرضاً، فيرى الآثارَ السَّيِّئةَ الضَّخمةَ التي تحيطُ به، فلا يستطيعُ الإفلاتَ منها، ولو كانت المساوىءُ الأخلاقيَّةُ والاجتماعيَّةُ يسيرةً في خَطرِها وعَددِها، لكان يهونُ إقصاؤُها وإذهابُها على مصلحٍ عاديٍّ؛ لكنَّها كثيرةٌ

(١) الكهف : ٦ .
(٢) فاطر : ٨ .
(٣) الشعراء : ٣ .

عَسِيرَةٌ متداخلٌ بعضُها في بعضٍ، مؤثِّرةٌ كلُّ واحدةٍ منها في الأخرى، ومتأثِّرةٌ بها سلباً محضاً، وقد مضى عليها زمنٌ طويلٌ فتفاقمت واستطارَ شرُّها .

وممَّا زادَ في استطارتِها وتفاقمِ شرِّها أنَّهُ قد فَصَلَ بين نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وبين نبوَّةِ النَّبيِّ الذي قبلَه ستَّةُ قرونٍ، وهي فترةٌ طويلةٌ تكفي لنسيانِ العقائدِ والأخلاقِ والعباداتِ التي جاءَت بها تلك النُّبوَّةُ، فيعيشُ النَّاسُ فترةً زمنيَّةً طويلةً فيما يُشبهُ الحرمانَ .

وممَّا يزيدُ في ذلك أيضاً أنَّ النُّبوَّةَ كانت محصورةً في أقوامٍ مخصوصةٍ وأزمانٍ مخصوصةٍ، ولا ريبَ أنَّ ذلك كلَّه يَزيدُ من جَسَامةِ مُهمَّةِ النَّبيِّ الذي يُبعَثُ لإصلاحِ الفسادِ الذي تراكمَ خلالَ هذه القرونِ الطَّويلةِ .

ومن خلالِ هذه المساوىءِ الاعتقاديَّةِ والأخلاقيَّةِ والاجتماعيَّةِ برزَ الرَّجاءُ الكبيرُ الذي كانَت تنتظرهُ الدُّنيا كلُّها، فكان محمَّدٌ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم .

وَلْنَسِرْ معَ القرآنِ وهو يرسُمُ لنا بآياتِهِ البيِّناتِ المحكماتِ الصُّورةَ الحقيقيَّةَ الواضحةَ للمجتمعِ الجاهليِّ .

□ فالخمرةُ كانت طاغيةً طُغياناً لم يكد ينجو منها معهُ إلّا النَّزْرُ اليسيرُ من أهلِ الجاهليَّةِ، وقد ذكرها القرآنُ بألفاظٍ تُنبىءُ عن قلقٍ وحَيْرَةٍ

شَدِيدَينِ كان يُعاني منهما نفرٌ من هذا المجتمعِ، امتدَّا بهم إلى ما بعدَ بعثتِهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، ولم يكن هناكَ تشريعٌ يلجؤونَ إليه للخلوصِ من أيِّ شيءٍ تشتدُّ به المعاناةُ النَّفسيَّةُ فيهم، فما إنْ جاءَ الإسلامُ حتى بدأَتِ الخواطرُ في الخمرِ تُساوِرُ نفوسَ هؤلاءِ النَّفر، وتأخذُ خطًّا إيجابيًّا في بُروزِها وظُهورِها في صورةِ سُؤالٍ أو تقريرٍ أو نَهيٍ عن قُربانِها في وقتٍ مخصوصٍ .

والنُّصوصُ التي تحدَّثَت عنِ الخمرةِ وإن جاءَت تَشرعُ أحكاماً خاصَّةً بها؛ إلّا أنَّها تُنبيءُ عن تلك الخواطرِ التي كانت تدورُ في أخلادِ بعضِ أهلِ المجتمعِ الجاهليِّ .

ويُلاحَظُ أنَّهُ لم ينزلْ في الخمرِ شيءٌ في العهدِ المكِّيِّ، إذْ لم تكنِ النُّفوسُ بعدُ مُهيَّأةً لِتقبَلَ النَّهيَ عنِ الخمرِ، وبذا فقد ظلَّ تعاطي الخمرِ عادةً ساريةً في المجتمع المكِّيِّ - امتداداً لسَرَيانِها في المجتمعِ الجاهليِّ - إلى أنْ بدأَ القرآنُ يُبيِّنُ حُكمَ اللَّهِ فيها .

وأوَّلُ ما نزلَ فيها قولُ اللَّهِ سبحانه : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَقرَبُوا الصَّلاةَ وأنتُم سُكارى حتى تَعلَموا ما تقولون ﴾[1]، وأمَّا الآيةُ الثَّانيةُ التي أعقبَتِ الأُولى نزولاً فهي قولُهُ : ﴿ يسألونَكَ عنِ الخمرِ والميسِرِ قُل فِيهِما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للنَّاسِ وإثمُهُما أكبَرُ من نَفْعِهِما ﴾[2]، وهي أيضاً

---

(١) النساء : ٤٣ .

(٢) البقرة : ٢١٩ .

مَدنيَّةٌ، وهي تُشعرُ بأنَّ العربَ في جاهليَّتِهم كانوا يَتبايعونَها ويَفيدونَ منها، فهي موردٌ من مواردِ عَيشِهم، فلمَّا نهاهُمُ القرآنُ عن قُربِها وشُربِها عند قُربِ وقتِ الصَّلاةِ - والصَّلاةُ متلاحقةٌ متقاربةُ الأوقاتِ - عَرَفُوا أنَّ فيها إثماً .

وحينما شَعروا بأنَّ الخمرةَ - التي كانت مصدراً من مصادرِ ثراءِ بعضِهم، ومتعةً من مُتَعِ حياتِهم - قد غُلَّت نفوسُهم عنها في أوقاتِ الصَّلاةِ، وأنَّ المنفعةَ التي تتحقَّقُ لهم من بَيعِها قد شِيبَت بالإثمِ؛ فَزِعُوا إلى الرَّسولِ يسألونَه أن يقولُ لهم فيها قولاً فَصلاً، فنزلَ قولُهُ سبحانه : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إنَّما الخَمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيطانِ فاجْتَنِبُوهُ لعلَّكم تُفلحون . إنَّما يُريدُ الشَّيطانُ أنْ يُوقِعَ بينكُمُ العَداوةَ والبَغضاءَ في الخَمرِ والميسرِ ويصدَّكُم عن ذكرِ اللَّهِ وعنِ الصَّلاةِ فَهَل أنتُم مُنْتَهُونَ ﴾[1].

□ ومِنَ المساوىءِ التي ألَمَّت بالمجتمعِ الجاهليِّ الزِّنا، ولم تكن هذه السَّيِّئةُ الاجتماعيَّةُ تُمارَسُ في خَفاءٍ؛ بل كانت علامةً ظاهرةً من علاماتِ المُجتمعِ الجاهليِّ، بل كانت عَقداً منَ العقودِ تُدِلُّ به المرأةُ الزَّانيةُ على الرِّجالِ إذا حَمَلَت، وتُلحِقُ مَن تَحمِلُ به سِفاحاً بالرَّجل الذي يُعجِبُها .

وقد ندَّدَ القرآنُ الكريمُ في العهدِ المكِّيِّ على هذه السَّيِّئةِ وفاعِليها،

---

(١) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

وتوعَّدَهم أشدَّ التَّوعُّدِ لما صارَ في نفوسِهم من ميلٍ شديدٍ كان يَنهَزُهُم إليها غُدُوًّا وعَشيًّا بلا استحياءٍ ولا وَجَلٍ، ومِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ الآياتِ التي تحدَّثت عنِ الزِّنا كانَت تزجرُ وتَنهى عن اقترافِ هذه المعصيةِ؛ لأنَّها كانَت تَسودُ المجتمعَ الجاهليَّ، وتَصهَرُ الفضيلةَ التي كانَ يجبُ أن يُحرَصَ على أن تظلَّ سليمةً وفي منأىً عن يَدِ الرَّذائلِ أن تغتالَها .

من هذه الآياتِ قولُهُ تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبوا الزِّنى إنَّهُ كانَ فاحشَةً وساءَ سَبيلاً ﴾[1]، فهي تَنهى عن قُربانِهِ؛ لأنَّهُ فاحشةٌ وسبيلُ سوءٍ، ولولا أنَّهُ كانَ عادةً سائدةً في حياةِ النَّاسِ في جاهليَّتِهم، وأنَّها امتدَّت إلى حياةِ النَّاسِ في صدرِ الإسلامِ؛ لما كان الزَّجرُ القرآنيُّ المباشرُ بلفظِ : ﴿ لا تَقرَبوا ﴾، وهو لفظٌ يُشعِرُ بالكفِّ عنِ الأسبابِ المُدنِيَةِ من هذه الفاحشةِ .

ويَنعِتُ القرآنُ المؤمنين بنعوتٍ تشكلُ هالةً مِن الجمالِ النَّفسيِّ يجبُ أن تحيطَ بمجتمعِهم وتنزعَ بهم عنِ المجتمعِ الذي كان يقرُّ أضدادَها، وهو ليسَ بعيداً منهم، فيقولُ : ﴿ وَعبادُ الرَّحمنِ الَّذينَ يَمشونَ على الأرضِ هَوناً وإذا خاطَبَهُمُ الجاهِلونَ قالوا سَلاماً . والَّذينَ يَبيتُونَ لربِّهِم سُجَّداً وقِياماً . والَّذينَ يَقولونَ ربَّنا اصرِف عنَّا عذابَ جهنَّمَ إنَّ عذابَها كانَ غَراماً . إنَّها ساءَت مُستقرًّا ومُقاماً . والَّذينَ إذا أنْفَقوا لم يُسرِفُوا ولَم يَقْتُروا وكانَ بينَ ذلكَ قَواماً . والَّذينَ لا يَدعونَ معَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ ولا

(١) الإسراء : ٣٢ .

يقتُلونَ النَّفسَ التي حرَّمَ اللَّهُ إلّا بالحقِّ ولا يَزنونَ ﴾[1].

ويُلاحَظُ بأنَّ القرآنَ لم يَسلُكْ مع المؤمنين في النَّهيِ عنِ الزِّنا سبيلَ التَّدرُّجِ كما سلكَ معهم في النَّهي عن الخمرِ؛ لأنَّ أضرارَ الزِّنا أفدحُ من أضرارِ الخمرِ لما يترتَّبُ عليها منِ اختلاطِ الأنسابِ وفسادِ النَّسلِ، ولأنَّ علاجَ الزِّنا أسهَلُ من علاجِ الخمرِ، فالخمرُ يُوجِدُ الإدمانَ، أمَّا الزِّنا فإنَّما يَدفعُ إليه الاشتهاءُ والتَّهيّجُ، والزَّواجُ يُخفِّفُ من شدَّتِهِ .

وفي العهدِ المَدنيِّ كانت الآياتُ التي نزلَت في أمرِ الزِّنا تَحذيراً وتفظيعاً له من جهةٍ؛ وتشريعاً لعقوبةٍ تنزلُ بالزُّناةِ إن ظلَّت نفوسُهم متعلِّقةً بها من جهةٍ أُخرى .

□ ومن هذه المساوىءِ الاجتماعيَّةِ وأدُ البناتِ، وكان الرَّجلُ إذا رُزِقَ بالبنتِ أصابهُ همٌّ واكتئابٌ، وجعلَ يُفكِّرُ كيفَ ينجو من عارِها، وقد ذكرَ القرآنُ الكريمُ الشُّعورَ النَّفسيَّ الذي ينعكسُ على وجهِ الرَّجلِ وهو يُبشَّرُ بالبنتِ فقال : ﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهُم بالأُنثى ظلَّ وَجهُهُ مُسْوَدًّا وهو كَظيمٌ . يَتوارى مِنَ القَومِ مِن سوءِ ما بُشِّرَ به أيُمسِكُهُ على هُونٍ أم يَدُسُّهُ في التُّرابِ ألَا ساءَ ما يَحكُمُونَ ﴾[2].

وكان أهونَ على أحدِهم أن يُسارِعَ إلى التَّخلُّصِ منها من أن يُبقيَ عليها ثمَّ ينالَه من عارِها وشرِّها ما لا سبيلَ له إلى النَّجاةِ منه إلّا بموتِهِ

---

(١) الفرقان : ٦٣-٦٨ .   (٢) النحل : ٥٨ ، ٥٩ .

هو، ويظلَّ ذكراً مِن بعدِهِ على ألسنةِ النَّاسِ .

وليسَ لهذه البنتِ من ذنبٍ إلّا أنَّ اللَّهَ خَلَقها بنتاً، وليسَت هي قادرةً على أن تتحوَّلَ إلى الذُّكورةِ فتَنجوَ من الوَأْدِ الذي لا تحملُ هَمَّهُ إلّا أُمُّها التي حملت بها من أوَّلِ يومٍ تَشعرُ فيه بالحملِ إلى أن تضعَ حَملَها هذا، ولعلَّ هذه الأُمَّ المسكينةَ المغلوبةَ على أمرِها صارَت لا تَملِكُ أن تُبدِيَ شفَقَتَها أمامَ القسوةِ الظَّالمةِ التي تَستبدُّ بقلبِ الأبِ وهو يُمسِكُ بيدِ ابنتِها، أو وهو يَحمِلُها بين يديهِ ليَذهَبَ بها بعيداً عن عَيْنَيْ هذه الأُمِّ فيقتُلَها في غَيرِ شفقةٍ ولا خَوفٍ منَ اللَّهِ، مُؤثراً أن يذكرَهُ النَّاسُ وائداً لابنتِهِ على أن يَذكروهُ حامياً لها، وهو لا يدري ماذا يكونُ من أمرِها إذا كبرت ؟ وهو خُسرانٌ لا يَعدِلُهُ خسرانٌ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذينَ قَتَلوا أولادَهم سَفَهاً بغَيرِ عِلْمٍ ﴾[1].

وكان من العربِ من يقتلُ الأولادَ الذُّكورَ منهم والإناثَ خَشيةَ الفقرِ، قال تعالى : ﴿ وَلا تَقتُلوا أولادَكُم مِن إمْلاقٍ نَحنُ نَرزُقُكم وإيَّاهُمْ ﴾[2]، وقال : ﴿ وَلا تَقتُلوا أولادَكُم خَشيةَ إمْلاقٍ نَحنُ نَرزقُهُم وإيَّاكُمْ ﴾[3].

ويذكُرُ القرآنُ خَبرَ المَوءُودَةِ في لفظٍ يُشعرُ بنَدامَةِ الوائدينَ

(١) الأنعام : ١٤٠ .
(٢) الأنعام : ١٥١ .
(٣) الإسراء : ٨ .

- وبخاصَّةٍ بعدَ إسلامِ مَن أسلمَ منهم - فيقولُ : ﴿ وإذا المَوْءُودَةُ سُئِلَت . بأيِّ ذنبٍ قُتِلَتْ ﴾[1]، ولا يورِدُها في غيرِ هذه الآيةِ، تاركاً للعَقلِ أن يَستَظهِرَ ما خَفِيَ من هذه الجنايةِ الفادحةِ على إنسانيَّةِ إنسانٍ ليسَ لهُ ذنبٌ؛ إلّا أنَّهُ وُلِدَ على غيرِ ما كان يَنتظِرُ الوائدُ .

□ ومن هذه المساوىءِ أيضاً الانتماءُ الباطلُ إلى مألوفِ القبيلةِ، وأعني به : ذلك الذي يحملُ صاحبَهُ على رفضِ كلِّ ما يتعارَضُ مع ما أَلِفَتْهُ القبيلةُ في سلوكِها وتصوُّرِها، ولو كان المرفوضُ هو الصَّوابَ والمقبولُ هو الخطأَ، وقد عبَّرَ القرآنُ عن هذه السَّيِّئةِ بلفظِ الحَمِيَّةِ، وهو لفظٌ يُنبىءُ عنِ الرَّفضِ الشَّديدِ لغيرِ المألوفِ، قال في « الصِّحاح » في مادَّةِ (حمى) : « وحَمَيتُ عن كذا حميَّةً بالتَّشديدِ: إذ أَنِفتْ منهُ وداخَلَكَ عارٌ وأَنِفْتَ أن تفعلَهُ » .

وقال صاحبُ « الصِّحاح » أيضاً : « وأَنِفَ مِنَ الشَّيءِ؛ أي: استنكفَ »، فجاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ يُظهرُ ما استبدَّ بنفوسِهم من هذه الأَنَفَةِ التي صَنَعَها الانتماءُ الباطلُ : ﴿ إذْ جَعَلَ الَّذينَ كَفَروا في قلوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ ﴾[2]، وهو تعبيرٌ تَصويريٌّ دقيقٌ لما كان يَعتَلِجُ في صدورِهم من رَفضٍ للإسلامِ وأخذٍ بقوَّةٍ لأعرافِ الجاهليَّةِ .

وهذه السَّيِّئةُ تعودُ إلى سيِّئاتٍ كَثيرةٍ: كالاستكبارِ، والغرورِ،

---

(١) التكوير : ٨ ، ٩ .	(٢) الفتح : ٢٦ .

والتَّفاخرِ، والتَّباهي، وتحقيرِ الضُعفاءِ والإزراءِ بهم وسَلَبِهم حقوقَهم وأكلِ أموالِهم، وقد تحدَّثَ القرآنُ عن هذه المساوىءِ، تارةً مجتمعةً وتارةً مُفرّقةً .

□ ومن هذه المساوىءِ شيوعُ الرِّبا، والرِّبا في اللُّغةِ معناهُ الزِّيادةُ، وفي « القاموس المحيط » : « يقال : رَبَا رُبُوًّا كَعُلُوٍّ، ورِباءً : زادَ ونَما »، وفي الشَّرعِ : الزِّيادةُ في أشياءَ مخصوصةٍ . قالهُ صاحبُ « المغني » (٤/٣) .

وقد عرفَ أهلُ الجاهليَّةِ الرِّبا بكلِّ صُنوفِهِ وضُروبِهِ، وشاعَ في حياتِهم شُيُوعاً واسعاً، وكانَ طريقاً من طُرقِ الكَسبِ المُباحةِ التي فَرَضَها الواقعُ الاجتماعيُّ الطَّبَقيُّ .

ويَحكي القرآنُ هذا فيقولُ : ﴿ ذلكَ بأنَّهم قالوا إنَّما البَيعُ مثلُ الرِّبا ﴾[1]، وكَمُعظَم المساوىءِ الاجتماعيَّةِ - التي امتدَّت إلى صَدرِ الإسلامِ - أخذَ الرِّبا دَورَهُ في مجتمعِ المسلمين فترةً من الزَّمن، ثمَّ نهاهُمُ القرآنُ عنه فقال : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنتُم مؤمنين . فإنْ لَم تَفعَلوا فَأْذَنُوا بحَربٍ مِنَ اللَّهِ ورسولِهِ ﴾[2].

وإذا كانَ الإسلامُ قَد ضربَ الرِّبا ضربةً موجعةً؛ فإنَّ العُرفَ الجاهليَّ أوسَعَ للرِّبا في دائرتِهِ حتى التَهَمَ قوتَ الفُقراءِ التِهاماً، وأراهم

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .

(٢) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

مصارِعَهُم في حياتِهم، وجعلَ منهم أرِقَّاءَ للجَشَعِ الرِّبَوِيِّ، ويُشيرُ القرآنُ إلى هذا بقولِهِ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تأكلوا الرِّبا أضعافاً مُضاعفةً ﴾[1]، يقولُ الطَّبريُّ :

« كان أكلُهم ذلك في جاهليَّتِهم؛ أنَّ الرَّجلَ منهم كان يكونُ له على الرَّجلِ مالٌ إلى أجلٍ، فإذا حلَّ الأجلُ طلبَهُ، فيقولُ له الَّذي عليه المالُ : أخِّر عنِّي دَينَكَ وأزيدُكَ على مالِكَ . فَيفعلان ذلك، فذلك هو الرِّبا أضعافاً مضاعفة »[2].

ويُبشِّعُ القرآنُ الرِّبا، ويَرسُمُ آكِلِيهِ في صورةٍ تَدعُو إلى القلقِ والخَوفِ وتبعثُ على اجتِنابِهِ والرُّعبِ من آثارِهِ، فيقولُ : ﴿ الَّذينَ يأكلونَ الرِّبا لا يَقومونَ إلّا كما يقومُ الَّذي يَتخَبَّطُهُ الشَّيطانُ مِنَ المَسِّ ذلكَ بأنَّهم قالوا إنَّما البيعُ مثلُ الرِّبا وأحلَّ اللَّهُ البيعَ وحرَّمَ الرِّبا فَمَن جاءَهُ موعظَةٌ مِنْ ربِّه فانتَهى فلهُ ما سَلَفَ وأمرُهُ إلى اللَّهِ ومَن عادَ فأُولئكَ أصحابُ النَّارِ هم فيها خالدونَ ﴾[3].

□ ومن تلك المساوىءِ الاختلافُ وتفرُّقُ الكلمةِ، وكانَت هذه سيِّئةً ظاهرةً أمكنَت لغيرِ العَربِ من قَهرِهِم والاستحواذِ عليهم وسَوْقِهم كرَهاً وطَوعاً إلى ما يُريدون، كما كانَت سبباً في نَزفِ الدِّماءِ، والإثخانِ بالجِراحاتِ، واسترقاقِ الأحرارِ، واستباحةِ الأموالِ، والفَزَعِ الدَّائمِ، وغيرِ

(١) آل عمران : ١٣٠ . (٢) « تفسير الطَّبري » (٢٠٤/٧) .

(٣) البقرة : ٢٧٥ .

ذلكَ مِمَّا يَزيدُ في إيغارِ الصُّدورِ، وذهابِ الأمنِ من بين ظَهْرَانَيْهِم، وتقطُّعِ أسبابِ الحياةِ الهانِئةِ في أرضِهِم .

وقد أَلمحَ القرآنُ إلى هذا كلِّهِ بتَذكيرِ المؤمنينَ بالنِّعمةِ التي أنعمَ اللَّهُ بها عليهم، فقال : ﴿ واذكروا نِعمَةَ اللَّهِ عليكُم إذ كُنتُم أعداءً فألَّفَ بينَ قلوبِكُم ﴾[1]، وقال : ﴿ وألَّفَ بينَ قلوبِهِمْ لَو أنفَقتَ ما في الأرضِ جميعاً ما ألَّفتَ بينَ قلوبِهِم ولكنَّ اللَّهَ ألَّفَ بَينَهُم ﴾[2]، فَكِلا الآيتين تُشيران إلى أنَّ نعمةَ الأُخوَّةِ التي يَرْغَدُونَ فيها؛ إنَّما الفَضلُ فيها للَّهِ سبحانه بِبَعثِهِ فيهم نبيَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ العداوَةَ النَّاصبَةَ بينهم ما كان في وُسْعِ بَشرٍ أن يَجتثَّها إلَّا بشيءٍ لا يَقوى عليه بنفسِهِ، وقد ذكرَ القرآنُ هذا في قولِهِ : ﴿ لَقَد منَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إذْ بَعَثَ فيهِم رَسولاً مِن أنفسِهِم يَتلُو عليهم آياتِهِ ويُزكِّيهم ويُعلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِن قبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾[3]، والمرادُ بالمؤمنين هنا الَّذينَ كانوا مشركينَ نائين عنِ الدِّينِ .

وهناكَ مَساوِئُ أُخرى كثيرةٌ تُرَدُّ كلُّها إلى هذه المساوِئِ التي ذكرتُ؛ لأنَّها تُشكِّلُ في مجموعِها الأصلَ الكبيرَ لها .

ولستُ هنا بَصدَدِ تقريرِ حقيقةٍ ظاهرةٍ يَدرسُها الصِّغارُ قبلَ الكبارِ؛ وهي : أنَّ مجتمعاتِ المسلمين اليومَ تغوصُ غَوصاً عميقاً في أَسَنِ هذه

(١) آل عمران : ١٠٣ .
(٢) الأنفال : ٦٣ .
(٣) آل عمران : ١٦٤ .

المساوىءِ الجاهليَّةِ؛ بَيْدَ أنَّها اليومَ صِيغَت صياغةً علميَّةً، وَوُضِعَت لها قواعدُ وأُصولٌ، وبُنِيَت لها معاهدُ ومدارسُ، وأُنشِئَت لها مناهجُ ونُظُمٌ، وجُعِلَت لها صورٌ وأشكالٌ مُختلفةٌ؛ لا يشقُّ على أحدٍ في النَّاسِ تَناوُلُها والتَّلبُّسُ بها على أيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ كانَ .

حتى أضحى صعباً على المصلحينَ - مهما بَلَغُوا من تفوُّقٍ في الإصلاحِ - أن يُمسِكُوا بِطَرَفٍ منها لكي يُغَيِّرُوها أو يُحِلُّوا مَحَلَّها صُوَراً غيرَها .

فمجتمعٌ فيه هذه المساوىءُ كلُّها يحتاجُ قطعاً إلى رجلٍ تتحقَّقُ فيه قُدُراتٌ ومواهبُ جَمَّةٌ؛ ليَخترِقَ بها الحواجزَ النَّفسيَّةَ التي بَنَتها الأيَّامُ؛ لِيَستَلَّ هذه المساوىءَ، واحدةً تِلْوَ الأُخرى، ثمَّ يُلْقِيَ بها بعيداً عن أنظارِهم، ثمَّ لا يلبثونَ أن يَنسَوْها، فاختارَتِ العنايةُ الإلهيَّةُ لها محمَّداً صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فأنجزَ ما أرادَ اللَّهُ أن يُجْرِيَ على يَدَيهِ من خيرٍ في صبرٍ وثباتٍ وشجاعةٍ ودرايةٍ فائقةٍ .

○ ○ ○ ○ ○

النَّبِيُّ العبدُ الرَّسولُ
صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ

حينَ أرادَ اللَّهُ سبحانه أن يَرفعَ عن كاهلِ البشريَّةِ الإِصْرَ الَّذي كان عليها، وأن يُزيحَ عن عيونِها الظُّلمةَ التي غَشِيَتْها قروناً طويلةً، وأن يرفعَ عن قلبِها الحزنَ والقلقَ والخوفَ الذي أحاطَ بها من كلِّ جوانبِها آماداً كبيرةً؛ اصطفى من خلقِهِ صَفوتَهم إليه ليكونَ آخِرَ من يُوحِي إليه منهم، فكان محمَّداً صلَّى اللَّه عليه وسلَّم : ﴿ اللَّهُ أعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رسالَتَهُ ﴾[1]، ﴿ ما كانَ محمَّدٌ أبا أَحَدٍ من رِجالِكُم ولكنْ رَسولَ اللَّهِ وخاتَمَ النَّبيِّينَ ﴾[2].

وقد جمعَ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بينَ وصفَي الاصطفاءِ، وحازَ شَرَفَ منزلتي الوحي الإلهيِّ، فكانَ رسولاً نبيًّا؛ في حين أنَّ جميعَ مَنِ اصطفاهُمُ اللَّهُ لهدايةِ خَلقِهِ - إلّا عدداً يسيراً جدًّا منهم - كانوا رسلاً أو أنبياءَ فَقَط، فلم يُوصَف أحدُهم إلّا بما اختصَّهُ اللَّهُ به من وصفِ النُّبوَّةِ أو

---

(١) الأنعام : ١٢٤ .　　(٢) الأحزاب : ٤٠ .

وصفِ الرِّسالةِ، فكان محمَّدٌ صلَّى اللّه عليه وسلَّم مُقَدَّمَهم بهذين الوَصفين، ممسكاً بقيادِهم مفضَّلاً عليهم : ﴿ وَلَقَد فَضَّلنا بَعضَ النَّبِيِّينَ على بعضٍ ﴾[1]، ﴿ تِلكَ الرُّسلُ فَضَّلنا بعضَهم على بعضٍ ﴾[2].

ولم يكن هذا وحدَهُ ما فُضِّلَ به عليهم؛ فلقد تفرَّدَ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم بخصائصَ ومزايا ليسَت لواحدٍ منهم، وفي الحديثِ الصَّحيحِ :

« أُعطِيتُ خَمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهرٍ، وجُعِلَت ليَ الأرضُ مسجداً وطهوراً؛ فأيُّما رجلٍ من أُمَّتي أدرَكتهُ الصَّلاةُ فَليُصَلِّ، وأُحِلَّتْ ليَ الغنائِمُ ولم تَحِلَّ لأحدٍ من قبلي، وأُعْطِيتُ الشَّفاعةَ، وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قومِهِ خاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً »[3]، فلو لم يكن له إلّا هذه الخمسُ وحدَها؛ لكان بها حقيقاً أن يكونَ أوَّلَ المُصطَفَيْنَ الأخيارِ من الرُّسلِ والأنبياءِ الأطهارِ .

وليسَ من ريبٍ أنَّ فرْقاً كبيراً كائناً بينَ النَّبيِّ وبين الرَّسولِ، وهذا بيِّنٌ في قولِهِ سبحانه : ﴿ وما أرْسَلنا مِن قَبلِكَ مِن رَسولٍ ولا نبيٍّ إلّا إذا تمنَّى أَلقى الشّيطانُ في أُمنِيَّتِهِ ﴾[4]، وإذا كان اختلافٌ في معنى الكلمتينَ فَمَنشَؤُهُ اختلافُ أصلَيْهِما، فأنبأَ بمعنى أخبرَ؛ قال في « القاموس » : « النَّبأُ محركةً: الخَبَرُ، الجمعُ: أنباءٌ . أَنبأَهُ إيَّاهُ، وأَنبأَهُ به: أخبرَهُ، كَنبَّأَهُ . واستنبأَ النَّبأَ: بحثَ عنهُ . ونابَأَهُ: أَنبأَ كلٌّ منهما صاحِبَهُ .

---

(١) الإسراء : ٥٥ . (٢) البقرة : ٢٥٣ .

(٣) متَّفقٌ عليه من حديث جابر بن عبدالله . (٤) الحج : ٥٢ .

والنَّبيءُ: الـمُـخْبِرُ عنِ اللَّهِ تعالى » .

وأمَّا أرسلَ فبمعنى بَعَثَ؛ قال في « الصِّحاح » : « أرسلتُ فلاناً في رسالةٍ، فهو مُرسَلٌ ورسولٌ، والجمعُ رُسْلٌ - بسكون السِّين - ورُسُلٌ - بضمِّها - والرَّسولُ أيضاً : الرِّسالة . وقال :

ألا أبلِغْ أبا عَمروٍ رَسولاً   بأنِّي عن فَتاحَتِكم غَنِيُّ

أي : أبلِغ أبا عمروٍ رسالةً؛ لأنَّ الرَّسولَ لا يُبلَّغُ في مثلِ هذا السِّياقِ » .

واجتماعُ هذين الوَصفَين في شَخصِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَعني أنَّهُ مُصطَفىً مبعوثٌ ليُخبرَ عن ربِّه سبحانه ما تلقَّاهُ من وَحيِهِ، فيكونُ ذلكَ من بابِ التَّأكيدِ إذا نُظِرَ إليه من جِهَةِ المعنى اللغويِّ المحضِ للَّفظين : « النَّبيِّ، والرَّسولُ »، أمَّا إذا نُظِرَ إليهِ من حيثُ وُرُودُهُما لفظينِ مختلفينِ؛ فما من شكٍّ أن كُلَّ لفظٍ منهما يَحمِلُ معنىً غيرَ ما يَحمِلُهُ اللَّفظُ الآخرُ، وليسَ هو من بابِ التَّأكيدِ ولا من بابِ التَّرادُفِ .

إذاً فلا بدَّ أن يكونَ ما ذَهبنا إليه مِنِ اختلافِ معنى اللفظين، وليس في القرآنِ كلِّه تركيبٌ فيه ما يجعلُنا نقولُ به، ولا يُلتُفَتُ إلى ما ذهبَ إليه بعضُهم من أن الكلمتين بمعنىً واحدٍ، وإن حاولوا جاهدينَ إثباتَ ما ذهبوا إليه بأدلَّةٍ وبراهينَ عقليَّةٍ مَحضَةٍ .

وقد يقولُ هؤلاءِ : إنَّ ما تذهبونَ إليه من محاولةِ إثباتِ الفرقِ بينَ

الكلمتَينِ هو من بابِ التَّدليلِ العقليِّ المحضِ، فأنتم ونحن في هذا سواءٌ، وإلّا فأينَ دَليلُكُم العقليُّ الصَّحيحُ على صدقِ ما تذهبونَ إليه ؟

الجوابُ على هذا : هو منطوقُ القرآنِ؛ فإيرادُ اللَّفظَينِ في موضعٍ واحدٍ، والعطفُ بالواوِ المقرونةِ بلا النَّافيةِ : ﴿ وَما أَرسَلْنا مِن قبلِكَ مِن رَسولٍ ولا نبيٍّ ﴾، ثمَّ إطلاقُ القرآنِ وصفَ النُّبوَّةِ على بعضٍ مِنِ اصطفاهُمُ اللَّهُ؛ كقولِهِ سبحانه : ﴿ وكَم أرسَلنا مِن نبيٍّ في الأوَّلين ﴾[1]، وكقولِهِ: ﴿ وَوهَبنا له من رَحمَتِنا أخاهُ هارونَ نبيًّا ﴾[2]، وإطلاقُهُ وصفَ الرِّسالةِ على آخرين من غير أن يجمعَ بين الوصفين معاً لشخصٍ واحدٍ، وإطلاقُ وَصْفَيِ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ معاً على بعضٍ آخَرَ، كُلُّ أُولئكَ يدُلُّ على قيامِ الفَرقِ بينهما، وإلّا لِمَ لَمْ يَكتَفِ القرآنُ بإطلاق لفظِ الرّسولِ وحدَه على من وَصَفَهُ بالنُّبوَّة أيضاً إذا كانَ لفظُ الرَّسولِ بمعناه يتناوَلُ لفظَ النُّبوَّةِ ؟! بل جمعَ بينهما معاً، كما في قولِهِ سبحانه عن موسى : ﴿ إنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وكانَ رَسولاً نبيًّا ﴾[3]، وقولِهِ تعالى عن إسماعيلَ : ﴿ إنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعدِ وكانَ رَسولاً نبيًّا ﴾[4].

إنَّ الجمعَ بين الوصفين له دِلالةٌ، ومن أحسَن ما قيلَ في ذلك ما قاله الأَلوسي رحِمَهُ اللَّهُ في « تفسيره » :

---

(١) الزخرف : ٦ .
(٢) مريم : ٥٣ .
(٣) مريم : ٥١ .
(٤) مريم : ٥٤ .

« وأنتَ تعلمُ أنَّ المشهورَ أنَّ النَّبيَّ في عُرفِ الشَّرعِ أعمُّ من الرَّسولِ؛ فإنَّهُ من أُوحِيَ إليه سواءٌ أُمِرَ بالتَّبليغِ أم لا، والرَّسولُ من أُوحِيَ إليه وأُمِرَ بالتَّبليغِ، ولا يصحُّ إرادةُ ذلك؛ لأنَّهُ إذا قوبلَ العامُّ بالخاصِّ يُرادُ بالعامِّ ما عدا الخاص، فمتى أُريدَ بالنَّبي ما عدا الرَّسول كان المرادُ به من لم يُؤمَرْ بالتَّبليغِ، وحيثُ تَعلَّقَ به الإرسالُ صارَ مأموراً بالتَّبليغِ، فيكونُ رسولاً، فلم يبقَ في الآيةِ بعدَ تَعلُّقِ الإرسالِ رسولٌ ولا نبيٌّ مقابلٌ له، فلا بدَّ لتَحقيقِ المقابلةِ أن يُرادَ بالرَّسولِ من بُعِثَ بشرعٍ جديدٍ، وبالنَّبيِّ مَن بُعِثَ لتقريرِ شرعِ مَن قبلَه، أو يُرادَ بالرَّسولِ مَن بُعثَ بكتابٍ، وبالنَّبيِّ مَن بُعثَ بغيرِ كتابٍ، أو يُرادَ نحوُ ذلك ممَّا يحصُلُ به المقابلةُ مع تَعلُّقِ الإرسالِ بهما »[1].

وما قاله ابنُ تيميَّةَ رحِمَهُ اللَّهُ :

« إنَّ الآياتِ الدَّالَّةَ على نبوَّةِ الأنبياءِ دلَّت على أنَّهم معصومونَ فيما يُخبِرُونَ به عنِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فلا يكونُ خبرُهم إلّا حقًّا، وهذا معنى النُّبوَّةِ، وهو يتضمَّنُ أنَّ اللَّه يُنبِئُهُ بالغيبِ، وأنَّهُ يُنبِيءُ النَّاسَ بالغيبِ، والرَّسولُ مأمورٌ بدَعوةِ الخَلقِ وتبليغِهِم رسالاتِ ربِّه، ولهذا كان كلُّ رسولٍ نبيًّا، وليسَ كلُّ نبيٍّ رسولاً، وإن كانَ قَد يُوصَفُ بالإرسالِ المقيَّدِ في مثلِ قولِهِ : ﴿ ما أَرسَلنا مِن قَبلِكَ مِن رَسولٍ ولا نبيٍّ إلّا إذا تمنَّى ألقى

---

(١) « تفسير الألوسي » (١٧٣/١٧) .

الشَّيطانُ في أُمنِيَّتِه ﴾ »[1].

ومع كونهِ من أحسنِ ما قيلَ؛ فهو ليسَ بالكلامِ الدَّقيقِ الذي يخلُصُ منه المرءُ إلى فرقٍ مقنعٍ، وإن كان جاءَ في كلامِ ابنِ تيميَّةَ رحِمهُ اللَّهُ إشارةٌ غيرُ كافيةٍ إلى الفرقِ المقنعِ وهو قولُهُ : « وإن كان قد يوصَفُ بالإرسالِ المقيَّدِ »، ولكن ليسَ بالكلامِ الذي يُشْبِعُ الرَّغبةَ، وذلك لِوَجازَتِهِ وعدمِ وضوحِهِ، وهنا لا بدَّ من النَّظرِ في بعضِ الأحاديثِ التي وردَ فيها ذكرُ الرَّسولِ وذكرُ النَّبيِّ للوصولِ إلى الفرقِ المقنعِ .

وأوَّلُ رسولٍ أُرسِلَ إلى الكفَّارِ لدعوتِهم إلى الإيمان هو نوحٌ عليه السَّلامُ، ومِن قَبلِهِ لم يكن رسلٌ؛ وإنَّما كانوا أنبياءَ يُعلِّمونَ المؤمنينَ شرائعَ اللَّه، وأوَّلُهم آدمُ عليه السَّلامُ لأنَّهُ لم يكن بين نوحٍ وبين آدمَ كفرٌ يقتضي بَعثَ رسلٍ يدعونَ النَّاسَ إلى توحيدِ اللَّهِ ونبذِ الكفرِ، ويَدُلُّ لهذا في حديثِ الشَّفاعةِ في « الصَّحيحين » قولُ آدمَ عليه السَّلامُ لمن أتاه يطلبُ منه الشَّفاعةَ : « اذهَبوا إلى نوحٍ . فيأتونَ نوحاً فيقولونَ : يا نوحُ ! أنتَ أوَّلُ الرُّسلِ إلى أهلِ الأرضِ وسمَّاكَ اللَّهُ عبداً شكوراً » .

فَلما اختلفَ النَّاسُ وزاغَت بِهِمُ الأهواءُ؛ بَعَثَ اللَّهُ إليهُم الرُّسلَ لِدعوتِهم إلى الإيمانِ باللَّهِ وتوحيدِهِ ونبذِ الكفرِ وعقيدتِهِ قال تعالى : ﴿ كانَ النَّاسُ أمَّةً واحدةً فَبَعثَ اللَّهُ النَّبيِّينَ مُبشِّرينَ ومُنذرينَ وأنزلَ معهُمُ

(١) « المجموع » (٧/١٨) .

الكتابَ بالحقِّ ليَحكُمَ بينَ النَّاسِ فيما اختَلفوا فيه وما اختلفَ فيه إلّا الَّذينَ أُوتوهُ من بعدِ ما جاءَتهُمُ البيِّناتُ بغياً بينهم فَهَدَى اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا لما اختَلَفُوا فيه منَ الحقِّ بإذْنِهِ واللَّهُ يَهدي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ ﴾[1].

وفي الطَّبريِّ : « عن ابنِ عبَّاسٍ قال : كانَ بينَ نوحٍ وآدمَ عَشرةُ قرونٍ كلُّهُم على شريعةٍ من الحقِّ، فاختَلفوا، فبعثَ اللَّهُ النَّبيِّين مُبشِّرينَ ومُنذرين »[2]، وفيه أيضاً : « عن قتادةَ قال : كانوا على الهُدى جميعاً، فاختَلفوا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبيِّين مُبشِّرين ومنذرين، فكانَ أوَّلَ نَبِيٍّ بُعثَ نوحٌ »[3].

ومن الآياتِ التي تُؤَيِّدُ هذا الفرقَ بين الرّسولِ والنَّبيِّ قَولُهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الرّسولُ بَلِّغ ما أُنزلَ إليكَ من ربِّكَ ﴾[4]، وقولُهُ : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رسولُ اللَّهِ إليكم جَميعاً ﴾[5]، وقولُهُ : ﴿ وإذا قيلَ لهم تَعالَوا إلى ما أنزلَ اللَّهُ وإلى الرّسولِ قالوا حَسبُنا ما وَجَدنا عليه آباءَنا ﴾[6]، فهذه الآياتُ معنى الرّسولِ فيها هو ما ذَكَرنا .

وفي النَّبيِّ قولُهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ حَسبُكَ اللَّهُ ومَنِ اتَّبعكَ من

---

(١) البقرة : ٢١٣ .
(٢) « تفسير الطَّبري » (٢٧٦/٤) .
(٣) « تفسير الطَّبري » (٢٧٥/٤) .
(٤) المائدة : ٦٧ .
(٥) الأعراف : ١٥٨ .
(٦) المائدة : ١٠٤ .

المؤمنين ﴾[1]، وقولُهُ : ﴿ ما كانَ للنَّبيِّ والَّذينَ آمَنوا أنْ يَستَغفِرُوا للمُشركينَ وَلَو كانوا أُولي قُربى ﴾[2]، وقولُهُ : ﴿ إنَّ أَوْلى النَّاسِ بإبراهيمَ للَّذينَ اتَّبعوهُ وهذا النَّبيُّ ﴾[3]، فهذه الآياتُ الثَّلاثُ أيضاً تدلُّ على أنَّ معنى النَّبيِّ فيها مَنِ اختصَّهُ اللَّهُ لهدايةِ المؤمنينَ .

وأمَّا قولُهُ سبحانه : ﴿ وخاتَمَ النَّبيِّين ﴾؛ فمعناه : أي: أنَّهُ آخرُ من يُنبِىءُ عنِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ويُخبِرُ عنه، فلا حجَّةَ فيه لمن يقولُ بأنَّ خَتمَ النُّبوَّةِ لا يَقتَضي خَتمَ الرِّسالةِ، فقد يأتي رسولٌ بعدَ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، .كَبُرَت كَلِمَةً تَخرُجُ من أفواههم إن يَقولونَ إلَّا كَذِباً وإفكاً .

ومعلومٌ أنَّ الرَّسولَ يُوحَى إليه، وأنَّ النَّبيَّ يُوحَى إليه، فَخَتمُ النُّبوَّةِ يقتضي انقطاعَ الوَحيِ عنِ الأرضِ .

وإنَّما خُصَّ النَّبيُّون بالذِّكرِ في هذه الآيةِ حضًّا لأُمَّةِ النَّبيِّ أن يَحرِصُوا على الوحيِ ولا يُفَرِّطُوا فيه، فهو تكريمٌ من اللَّهِ للأُمَّةِ، وإعلامٌ لها أن تَحمِلَ الوحيَ كما أُنزِلَ لإبلاغِهِ النَّاسَ بلا زيادةٍ عليه ولا نقصٍ فيه، إذْ كونُه خاتَمَ النَّبيِّينَ يعني أنَّ الوحيَ قد تمَّ؛ فمن زادَ عليه أو نَقَصَ منه فقد خانَ الرِّسالةَ واجترحَ كذباً على اللَّهِ، فكيفَ بمن تجرَّأَ على اللَّهِ وادَّعى أنَّهُ أُمِرَ من ربِّهِ بإتمامِ مهمَّةِ الرَّسولِ؛ وأنَّهُ يُوحَى إليه كما كان يُوحَى إلى الرَّسولِ من قَبلُ ؟! وهي عقيدةُ فِرَقٍ قديمةٍ وجديدةٍ في

(١) الأنفال : ٦٤ .
(٢) التوبة : ١١٣ .
(٣) آل عمران : ٦٨ .

المسلمين .

والدَّعوةُ إلى الوحيِ المنزَّلِ مِن عندِ اللَّهِ هو المطلوبُ وحدَهُ من هذه الأمَّةِ بعد موتِ نبيِّها ورسولِها، فكأنَّ رسالتَها بعدَهُ هي رسالةُ الأنبياءِ قبلَ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم في أقوامِهِم .

هذا ما بَدا لي في تأويلِ هذه الآيةِ،وهو شيءٌ انقدحَ في نفسي وأُلْهِمْتُهُ، فإن يكنْ صواباً فَمِنَ اللَّهِ، وإن يكن خطأً فمنِّي وحدي، والمعصومُ من عَصَمَهُ اللَّهُ سبحانه، والحمدُ للَّهِ على توفيقِهِ وهدايتِهِ .

○ ○ ○ ○ ○

فَضْلُ نَبِيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّمَ عَلى الأنبياءِ

إذا كان اللَّهُ سبحانهُ قد اختصَّ نبيَّهُ محمَّداً صلَّى اللَّه عليه وسلَّم - ونفراً قليلاً من إخوانِهِ المرسلين - بمنزلتي الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ؛ فإنَّهُ قد اختُصَّ من بينهم بزيادةِ فضلٍ عليهم سَبَقَهم بها سبقاً بعيداً، وفُضِّلَ عليهم فضلاً عظيماً، وبها استحقَّ أن يكونَ سيِّدَهم ومقدَّمَهم عند اللَّهِ يومَ القيامةِ :

« أنا سيِّدُ وَلدِ آدمَ يومَ القيامَةِ ولا فَخرَ، وبيَدي لواءُ الحمدِ ولا فَخرَ، وما مِن نبيٍّ يومئذٍ - آدمُ فمن سواه - إلّا تحتَ لوائي، وأنا أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مُشَفَّعٍ ولا فَخْرَ »[1].

وقضى اللَّهُ سبحانه لنبيِّهِ أن يكونَ شاهداً على الرُّسلِ يومَ القيامةِ على أقوامِهِم، قال تعالى : ﴿ وكذلكَ جَعَلناكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتكونوا

---

(١) رواه أحمد في « المسند » وابن ماجه بسند صحيح من حديث أبي سعيد .

شُهداءَ على النَّاس ﴾[1]، وفي « الطَّبري » عن أبي سعيدٍ : قال رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم :

« يُدعى بنوحٍ عليهِ السَّلامُ يومَ القيامةِ فيقالُ له : هل بلَّغتَ ما أُرسلتَ به ؟ فيقولُ : نَعَمْ . فيقالُ لقومِهِ : هَل بلَّغَكُم ؟ فيقولون : ما جاءَنا من نذيرٍ . فيقالُ له : من يعلمُ ذلك ؟ فيقولُ : محمَّدٌ وأُمَّتُهُ . فهو قولُهُ : ﴿ وكذلكَ جعَلناكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتكونوا شُهداءَ على النَّاسِ ﴾ » .

وإليه تَنتَهي الشَّفاعةُ يومَ القيامَةِ حين لا تنفعُ الشَّفاعةُ عند اللَّهِ إلَّا بإذنه؛ فعن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم قال :

« أنا سيِّدُ النَّاسِ يومَ القيامةِ، وهَل تَدرونَ مِمَّ ذلك ؟ يجمعُ اللَّهُ الأوَّلين والآخرين في صَعيدٍ واحدٍ، يُسْمِعُهُم الدَّاعي، ويَنفُذُهُمُ البصرُ، وتدنو الشَّمسُ منهم، فيبلغُ النَّاسُ من الغمِّ والكربِ ما لا يُطِيقُون ولا يَحتَمِلُون، فيقولُ بعضُ النَّاسِ لبعضٍ : ألا تَرَونَ ما قد بَلَغَكُم ؟ ألا تَنظرونَ مَن يشفعُ لكم إلى ربِّكم ؟ فيقولُ بعضُ النَّاسِ لبعضٍ : ائتوا آدمَ . فيأتونَ آدمَ فيقولونَ : يا آدمُ ! أنتَ أبونا، أنتَ أبو البَشرِ، خَلَقكَ اللَّهُ بيَدَيهِ، ونفخَ فيكَ من رُوحِهِ، وأمَرَ الملائكةَ فَسجدوا لك، اشْفَع لنا إلى ربِّكَ، ألا تَرى ما نحنُ فيه ؟ ألا تَرى ما قَد بَلَغْنا ؟ فيقولُ لهم آدمُ : إنَّ

(١) البقرة : ١٤٣ .

ربِّي قَد غَضِبَ اليومَ غَضباً لم يغضَبْ قبلَه مِثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنَّه نهاني عنِ الشَّجرةِ فعصيتُهُ، نفسي نفسي نفسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى نوحٍ .

فيأتونَ نوحاً فيقولون : أنتَ أوَّلُ الرسلِ إلى أهلِ الأرضِ، وسمَّاكَ اللَّهُ عبداً شكوراً، اشْفَع لنا إلى ربِّكَ، ألا تَرى ما نحنُ فيه ؟ ألا تَرى ما قَد بَلَغنا ؟ فيقولُ لهم نوحٌ : إنَّ ربِّي قَد غَضِبَ اليومَ غَضَباً لم يَغضَب قبلَه مثلَه، ولن يَغضَب بعدَه مثلَه، وإنَّهُ قد كانت لي دعوةٌ دعَوتُ بها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهَبوا إلى غَيري، اذهبوا إلى إبراهيم .

فيأتونَ إبراهيمَ فيقولونَ : يا إبراهيمُ ! أنتَ نبيُّ اللَّهِ وخَلِيلُهُ من أهلِ الأرضِ، اشْفَع لنا إلى ربِّكَ، ألا تَرى ما نحنُ فيه ؟ ألا تَرى ما قَد بَلَغنا ؟ فيقولُ لهم إبراهيمُ : إنَّ ربِّي قَد غَضِبَ اليومَ غَضَباً لم يَغضَب قبلَه مثلَه، ولن يَغضَب بعدَه مثلَه، وإنِّي قد كنتُ كذَبتُ ثلاثَ كِذْباتٍ، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى .

فيأتونَ موسى فيقولون : يا موسى ! أنتَ رسولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ برسالاتِهِ وبكلامِهِ على النَّاسِ، اشفَع لنا إلى ربِّكَ، ألَا تَرى ما نحن فيه ؟ ألَا تَرى ما قَد بَلَغْنا ؟ فيقولُ : إنَّ ربِّي قَد غضِبَ اليومَ غضباً لم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، ولن يَغضَب بَعدَه مثلَه، وإنِّي قتلتُ نفساً لم أُؤْمَر بقَتلِها، نفسي نفسي نفسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى .

فيأتونَ عيسى فيقولون : يا عيسى ! أنتَ رسولُ اللَّهِ وكلمتُهُ إلى مريمَ وروحٌ منه، وكَلَّمْتَ النَّاسَ في المهدِ، اشفَع لنا إلى ربِّك، ألَا ترى ما نحن فيه ؟ ألَا تَرى ما قَد بَلَغْنا ؟ فيقولُ لهم عيسى : إنَّ ربِّي قَد غَضِبَ اليَومَ غضباً لم يغضَبْ قبلَهُ مثلَه ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، نفسي نفسي نفسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمَّدٍ .

فيأتوني فيقولون : يا محمَّدُ ! أنتَ رسولُ اللَّهِ وخاتمُ الأنبياءِ، وغفرَ اللَّهُ لكَ ما تقدَّم من ذنبِكَ وما تأخَّرَ، اشْفع لنا إلى ربِّكَ، ألَا تَرى ما نحنُ فيه ؟ ألَا تَرى ما قَد بَلَغْنا ؟ فأنطَلِقُ، فآتي تحتَ العرشِ فأقعُ ساجداً لربِّي، ثمَّ يفتحُ اللَّهُ عليَّ ويُلْهِمُني من مَحامِدِهِ وحُسنِ الثَّناءِ عليهِ شيئاً لم يَفتحْهُ لأحدٍ قبلي، ثمَّ يقالُ : يا محمَّدُ ! ارفَع رأسَكَ، سَلْ تُعْطَ، واشفَع تُشفَّع . فأرفَعُ رأسي فأقولُ : يا ربِّ ! أُمَّتي أُمَّتي . فيقالُ : يا محمَّد ! أَدْخِلِ الجنَّةَ من أُمَّتِكَ مَن لا حسابَ عليه منَ البابِ الأيمنِ من أبوابِ الجنَّة، وهم شُركاءُ النَّاسِ فيما سوى ذلك من الأبوابِ، والذي نفسي بيدِهِ؛ إنَّ ما بين مِصراعين من مَصَارِيعِ الجنَّةِ لكَما بينَ مكَّةَ وهَجَرَ، أو كما بينَ مكَّةَ وبُصْرَى »[1]، وهذه الشَّفاعةُ العامَّةُ التي أُعْطِيَها رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم للأُمَمِ كافَّةً .

وقد فُضِّلَ على سائرِ الأنبياءِ بما حدَّثَ به عن نفسِهِ فقال :

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأحمد من حديث أبي هريرة .

« أُعْطِيتُ خمساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهرٍ، وجُعِلَت ليَ الأرضُ مسجداً وطهوراً فأيُّما رجلٍ من أُمَّتي أدركتهُ الصَّلاةُ فَليُصَلِّ، وأُحِلَّتْ ليَ الغنائمُ ولم تَحِلَّ لأحدٍ من قبلي، وأُعْطِيتُ الشَّفاعةَ، وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قومِهِ خاصَّةً، وبُعثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً »[١].

وممّا فُضِّلَ به محمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم على غيرِهِ أنَّهُ رَفعَ الآصارَ التي كانت على الأُمَمِ السَّابقةِ، فأراحَها من عناءٍ كانت تَرزَحُ تحتَ شدَّةِ وطأتِهِ، قال تعالى : ﴿ الَّذينَ يتَّبِعونَ الرَّسولَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدُونَهُ مكتوباً عندَهم في التَّوراة والإنجيلِ يَأمُرُهُم بالمعروفِ ويَنهاهُم عنِ المنكرِ ويُحِلُّ لهُمُ الطَّيِّباتِ ويُحرِّمُ عليهِمُ الخبائثَ ويَضَعُ عنهم إصرَهُم والأغلالَ التي كانت عليهم فالَّذين آمَنوا به وعَزَّرُوهُ ونَصروهُ واتَّبعوا النُّورَ الَّذي أُنزِلَ معهُ أُولئكَ هُمُ المفلحون ﴾[١].

وقد أخذَ اللَّهُ الميثاقَ على جميعِ الأنبياءِ والرُّسلِ من قبلِه أن يتَّبعوه إن أدركوه : ﴿ وإذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبيِّين لَمَا آتيتُكُم مِن كتابٍ وحكمةٍ ثمَّ جاءَكُم رسولٌ مصدِّقٌ لما معَكُم لتُؤمِنُنَّ به وَلَتَنصُرُنَّه قال أَأَقرَرْتُم وأَخَذتُم على ذلكُم إصري قالوا أَقْرَرْنا قالَ فاشْهَدُوا وأنا معكُم مِن الشَّاهدين . فَمَن تَولَّى بعدَ ذلك فأُولئكَ همُ الفاسقون ﴾[٢].

---

(١) الأعراف : ١٥٧ .

(٢) آل عمران : ٨١ ، ٨٢ .

وجاءَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ قولُهُ : « إنَّ اللَّهَ فضَّلَ محمَّداً على الأنبياءِ وعلى أهلِ السَّماءِ . فقالوا : بِمَ يا ابنَ عبَّاسٍ ! فضَّلَه على أهلِ السَّماءِ ؟ فقال : إنَّ اللَّهَ تعالى قال : ﴿ ومَن يَقُل منهم إنِّي إلهٌ من دونهِ فذلكَ نَجزيهِ جهنَّمَ كذلكَ نَجزي الظَّالمين ﴾، وقال لمحمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم : ﴿ إنَّا فَتَحنا لكَ فتحاً مُبيناً . لِيَغفِرَ لكَ اللَّهُ ما تقدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تأخَّر ﴾ . قالوا : فما فَضْلُهُ على الأنبياءِ ؟ قال : قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَما أرْسَلنا مِن رَسولٍ إلّا بلسانِ قومِهِ ليُبيِّنَ لهُم ﴾، وقال عزَّ وجلَّ لمحمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم : ﴿ وَما أرْسلناكَ إلّا كافَّةً للنَّاسِ ﴾ فأرسلَهُ اللَّهُ إلى الجنِّ والإنسِ »[1].

ولا ريبَ أنَّ هذا فقهٌ دقيقٌ لابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللَّه عنهما في مقابلتِهِ بينَ كلِّ آيتين، واللَّهُ تعالى يقولُ : ﴿ وَلَقَد فَضَّلْنا بعضَ النَّبيِّين على بعضٍ ﴾[2]، ويُظْهِرُ لنا هذا الفقهُ أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ متقدِّمٌ وسابقٌ بالفَضلِ الملائكةَ بما لا يدعُ مجالاً للشَّكِّ .

هذه النُّصوصُ من القرآنِ والسُّنَّةِ كافيةٌ في ظهورِ فَضلهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على جميعِ إخوانِهِ المبعوثين من اللَّهِ لهدايةِ خلقِهِ، وإن كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يكرَهُ من أصحابِهِ أن يذكروه بالتَّفضيلِ على إخوانِهِ،

---

(١) رواه الدَّارمي (١/٢٥-٢٦) بإسنادٍ حسن، وانظر « تفسير القرطبي » (٣/٢٦٣) .

(٢) الإسراء : ٥٥ .

فيقول : « لا تُخَيِّروا بينَ الأنبياء »[1]، ويقولُ : « لا تُفَضِّلوا بينَ أنبياءِ اللَّه »[2].

○ ○ ○ ○ ○

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد .

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

عُمومُ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ

أورَدنا في الفصلِ السَّابقِ الحديثَ الذي رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ : « أُعطيتُ خمساً » دليلاً على تفضيلِهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم على جميعِ الأنبياءِ والرّسلِ، وفيه ما يدلُّ على عمومِ رسالتِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك قولُهُ : « وكانَ النَّبيُّ يُبعثُ إلى قومِهِ خاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً »، ولعلَّ ذلك يعودُ لمزايا نفسيَّةٍ وعقليَّةٍ تفرّدَ بها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من بين جميعِ الأنبياءِ، وقضى اللَّهُ سبحانه بعلمِهِ وإرادتِهِ أن يكونَ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم زيادةُ فضلٍ كبيرةٌ أيضاً بعمومِ رسالتِهِ، فاجتباهُ وهداه وأولاه من نعمتِهِ ما لم يكن لنبيٍّ قطُّ، واللَّهُ يختصُّ بفضلِهِ من يشاءُ من رسلِهِ وعبادِهِ .

وقد جاءَ العديدُ من الآياتِ القرآنيَّةِ بذلك؛ منها قولُهُ عزَّ ذِكرهُ : ﴿ وما أرسَلناكَ إلّا رحمَةً للعالَمين ﴾[1]، وهي آيةٌ خبريَّةٌ حُصِرَت فيها

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

مهمَّةُ الرَّسول بِـ (ما) النَّافيةِ و (إلّا) الاستثنائيَّةِ، وقُصِرَ فيه الموصوفُ على الصِّفةِ، وعن سعيدُ بنُ جُبيرٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ قال :

« كانَ محمَّدٌ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم رحمةً لجميعِ النَّاسِ، فمن آمنَ به وصدَّقَ به سَعِدَ، ومن لم يُؤمنْ به سَلِمَ ممَّا لَحِقَ الأُمَمَ من الخَسفِ والغَرَقِ »[1].

وروى مسلمٌ في « صحيحه » عن أبي هريرةَ : قيلَ : يا رسولَ اللَّهِ ! ادع على المشركين . فقال :

« إنِّي لم أُبعَثْ لعَّاناً وإنَّما بُعِثْتُ رحمةً » .

وقال صاحبُ « أضواء البيان » :

« وقيل : كونُهُ رحمةً للكفَّارِ من حيث عقوبتُهُم أُخِّرَتْ بسببِهِ، وأَمِنوا به عذابَ الاستئصالِ »[2].

وقال في تفسيرِ هذه الآيةِ : « ذكرَ جلَّ وعلا في هذه الآيةِ أنَّهُ ما أرسلَ هذا النَّبيَّ الكريمَ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه إلى الخلائقِ إلّا رحمةً لهم؛ لأنَّه جاءَهم بما يُسْعِدُهُم، وينالون به كلَّ خيرٍ من خيرِ الدُّنيا والآخرةِ إنِ اتَّبعوه، ومَن خالفَ ولم يتَّبِعْ فهو الذي ضَيَّعَ على نفسِهِ نصيبَهُ من تلك الرَّحمةِ العُظمى »[2].

---

(١) « تفسير القرطبي » (١١/٣٥٠) . (٢) « أضواء البيان » (٤/٧٥٩) .

فنحنُ نرى ممَّا أوردْنا في تفسيرِ هذه الآيةِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أُعِدَّ إعداداً عظيماً ليكونَ الرَّحمةَ المُهداةَ إلى جميعِ النَّاسِ، وهو القائلُ عن نفسِهِ، : « أنا محمَّدٌ، وأحمدُ، والمقَفِّي، والحاشرُ، ونبيُّ التَّوبةِ، ونبيُّ الرَّحمةِ »[1].

ومِنَ الأدلَّةِ على عمومِ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم قولُهُ تعالى : ﴿ وما أرسَلناكَ إلّا كافَّةً للنَّاسِ بَشيراً ونذيراً ﴾[2]، وهي كسابقتها جاءَت بطريقٍ من طُرُقِ الحصرِ، قال الطَّبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تأويلِها :

« وما أرسَلناكَ يا محمَّدُ ! إلى هؤلاءِ المشركينَ باللَّهِ من قومِكَ خاصَّةً، ولكنَّا أرسَلناكَ كافَّةً للنَّاسِ أجمعين؛ العربِ منهم والعجمِ، والأحمرِ والأسودِ، بشيراً مَن أطاعكَ، ونَذيراً مَن كذَّبَك »[3].

وقال القرطبيُّ :

« أي: وما أرسَلناكَ إلّا للنَّاسِ كافَّةً؛ أي: عامَّةً، ففي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، وقال الزجَّاجُ : أي: وما أرسَلناكَ إلّا جامعاً للنَّاسِ بالإنذارِ والإبلاغِ »[4].

---

(١) رواه مسلم وأحمد من حديث أبي موسى .

(٢) سبأ : ٢٨ .

(٣) « تفسير الطَّبري » (٢١/٦٦) .

(٤) « تفسير القرطبي » (١٤/٣٠٠) .

ومن الآياتِ الدَّالَّةِ على عمومِ رسالتِهِ أيضاً قولُهُ تعالى : ﴿ قُل يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رَسولُ اللَّه إليكُم جَميعاً ﴾[1]، وهذا أمرٌ مِنَ اللَّهِ إليه أنْ يَجهَرَ به ويعلِّمَهُم إيَّاه، قال الطَّبريُّ في تأويلِها : « قل يا محمَّدُ ! للنَّاسِ كلِّهم : إنِّي رسولُ اللَّهِ إليكم جميعاً؛ لا إلى بعضِكُم دونَ بعض كما كان مَن قبلي من الرُّسلِ مُرسَلاً إلى بعضِ النَّاسِ دونَ بعضٍ، فَمَن كان منهم أُرسِلَ كذلك؛ فإنَّ رسالتي ليست إلى بعضِكم دونَ بعضٍ، ولكنَّها إلى جميعِكم »[2].

وممَّا تَجدُرُ الإشارةُ إليه أنَّ هذه الآياتِ كلَّها مكيَّةٌ، ولو كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُخفِياً مِن أمرِهِ شيئاً لَأَخفَى مثلَ هذا الأمرِ، إذْ سَيكونُ مَدعاةً - وهو يجهَرُ به - لسخريةِ قومِهِ ورِثائهِم في آنٍ معاً، إذْ كيفَ يجدُ الجُرأةَ في نفسِهِ على الجهرِ به وهو لا يجدُ ما يُؤوِيهِ ولا يمنَعُهُ منهم؛ أفلا يكون حريًّا به أن يُرْجِيءَ هذا الأمرَ حتى يَجِدَ له مُراغماً في الأرضِ ومكاناً يأوِي إليه، يعوذُ به من أذى قومِهِ ؟!

ولكنَّه أمرُ اللَّهِ الذي لا يجدُ معه إلّا الطَّاعةَ والإذعانَ أن يقولَ في دعوتِهِ : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ ﴾ مُفوِّضاً أمرَهُ إلى اللَّهِ، وواثقاً من نصرِهِ وتأييدِهِ، فلا بدَّ من إعلانِ أنَّهُ رسولُ اللَّهِ للنَّاسِ جميعاً، وهذه الظُّروفُ القاسيةُ تحيطُ به مِن كلِّ جانبٍ، وأنَّ المُفاصلةَ هي الطَّريقُ التي يختارُها دونَ غيرِها، وما كانَ له أن يعدِلَ عنها؛ لأنَّ حقَّ الرِّسالةِ وإبلاغَها النَّاسَ

(١) الأعراف : ١٥٨ .

(٢) « تفسير الطَّبري » (٦/٥٨) .

يقضي عليه ذلك ولا بدَّ .

وإذا كانَ الرّسولُ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم قَد أعلَنَ هذا الأمرَ لقومِهِ - والأذى ينتابُهُ هو وأصحابَهُ من كلِّ مكانٍ طيلةَ ثلاثةَ عشرَ عاماً - فأَولى أن يُعلِنَهُ وقد استقرَّ فوقَ أرضٍ وقد انتقلَتِ الدَّعوةُ نقلةً جديدةً بكلِّ مُعطَياتِها في العقيدةِ والتَّشريعِ، وبدأت تخوضُ معركةً جديدةً مع أصحابِ العقائدِ والأديانِ التي عاشَت على أرضِ الجزيرةِ رَدْحاً طويلاً من الزّمن، لا تجدُ إلّا السّلمَ والاستسلامَ؛ لأنَّ الوثنيَّةَ لم تكن لِتُعْنَى بتقويم أتباعِ هذهِ الأديانِ والعقائدِ أو صرفِهم عنها ما دامَ أنَّهم لا يُشكِّلونَ خطَراً عليها، ولا أصحابُ الدِّياناتِ والعقائِدِ الأُخرى يُعنِيهم ذلك؛ لأنَّهم والوَثَنِيِّين يَدينونَ في الحقيقةِ لعقيدةٍ واحدةٍ ذاتِ وجوهٍ وألوانٍ متعدِّدةٍ، فيكونُ - والحالةُ هذه - تفيكرُهُم الدِّينيُّ متشابهاً .

وينزِلُ القرآنُ في المدينةِ يقرِّرُ الأمرَ الذي أُمِرَ الرّسولُ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم بإعلانِهِ على النَّاسِ في مكَّةَ، ولكن بأُسلوبٍ جديدٍ يلائمُ البيئةَ الجديدةَ والإنسانَ الجديدَ، ولا يرفضُ الأديانَ على نَحوِ ما رفضَ الوثنيَّةَ في مكَّةَ - إذِ الوثنيَّةُ في أصلِ الأديانِ مرفوضةٌ عندها جميعِها، ورغمَ التَّحريفِ والفسادِ الذي دخلها؛ فإنَّ أتباعَها يكونونَ في تفكيرِهم أدنى إلى الدِّينِ الجديدِ مِنَ الوثنيِّينَ - بل إنَّه لَيَضَعُ تَشريعاً لهم ينظِّمُ فيه علاقاتِهم مع المجتمع الإسلاميِّ، ويعترفُ بالرّسلِ والأنبياءِ الذين جاؤُوا بها؛ يَستميلُ بذلك قلوبَهم ويعطِفُهُم إليه في حكمةٍ بالغةٍ، بل إنَّهُ يَطرُدُ

مِن دائرَةِ الإيمانِ من لَم يُقِرّ بذلك إقراراً قلبيًّا، ويقيمُ ذلك على النَّصَفَةِ والعدلِ، قال تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ يَكفرونَ باللَّهِ ورُسلِهِ ويُريدونَ أن يُفَرِّقوا بينَ اللَّهِ ورُسلِهِ ويقولونَ نُؤمنُ ببعضٍ ونَكفرُ ببعضٍ ويُريدونَ أن يتَّخذوا بينَ ذلكَ سبيلاً . أُولئكَ هُمُ الكافرونَ حقًّا وأَعتَدْنا للكافرينَ عذاباً مُهيناً ﴾(١).

ولا يَدعُ القرآنُ مجالاً ينفُذُ مِنهُ إلى قلوبِ أهلِ الكُتُبِ السَّابقةِ وعقولهم؛ إلّا ويتحرّكُ فيه بالبراهينِ والأدلَّةِ التي لا تقوى على القيامِ أمامَها البراهينُ والأدلَّةُ المصنوعةُ مِن مَنطِقِ البشرِ وذكائِهِم، من ذلك قولُهُ تعالى : ﴿ وأنزَلنا إليكَ الكتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لما بينَ يَديهِ من الكتابِ ومُهَيمِناً عليه فاحكُمْ بينهم بما أنزلَ اللَّهُ ولا تتَّبِعْ أهواءَهم عمَّا جاءَكَ مِن الحقِّ لكُلٍّ جَعَلنا منكُم شِرعةً ومنهاجاً وَلو شاءَ اللَّهُ لجعَلَكم أُمَّةً واحدةً ولكن لِيَبلُوَكُم في ما آتاكُم فاستَبِقُوا الخَيراتِ إلى اللَّهِ مَرجِعُكُم جميعاً فيُنبِّئُكم بما كنتم فيهِ تَختلفون ﴾(٢)، ولو لم يكن إلّا هذه الآيةُ في إقامةِ الحجَّةِ على أهلِ الكتابِ وإسكاتِ صوتِهِمُ اللّاجِّ في الخصومةِ والافتراءِ على محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ودينِهِ، والاستكبارِ والصُّدودِ عنه؛ لكانت وحدَها كافيةً، فهي تقرِّرُ :

أوَّلاً : أنَّ هذا القرآنَ أنزلَهُ اللَّهُ بالأمرِ الحقِّ الذي لا كَذِبَ فيه ولا افتراءَ .

---

(١) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ .　　(٢) المائدة : ٤٨ .

ثانياً : أنَّهُ جاءَ بتصديقِ الكُتبِ التي نزلَت قَبلَهُ، فلا يكونُ موضعٌ في صدرٍ لتَكذِيبِها .

ثالثاً : أنَّه جاءَ حافظاً ورقيباً للكتب التي قَبلَهُ، وعالياً ومُرتفعاً عليها .

وكتابٌ هذه خصائصُه ومزاياه حقيقٌ أن يُتَّبَعَ وتُحَكَّمَ شرائِعُهُ بين النَّاسِ جميعاً، قال ابنُ جريرٍ في تأويلِ قولِهِ تعالى : ﴿ فاحكُم بينَهم بما أنزلَ اللَّهُ ﴾ :

« يقول تعالى ذِكرُهُ : احكُم يا محمَّدُ ! بين أهلِ الكتابِ والمشركين بما أُنزِلَ إليكَ من كتابِي وأحكامي في كلِّ ما احتكموا فيه إليكَ مِنَ الحدودِ والقَوَدِ والنُّفوسِ؛ فارجُمِ الزَّانيَ المحَصَنَ، واقتُلِ النَّفسَ بالنَّفسِ المقتولةِ ظُلماً، وافقإِ العينَ بالعينِ، واجدَعِ الأنفَ بالأنفِ، فإنِّي أَنزلتُ إليكَ القرآنَ مصدِّقاً في ذلك ما بين يدَيهِ مِنَ الكتابِ ومهيمناً عليه، ورقيباً يقضي على ما قَبلَهُ من سائرِ الكتبِ »[1].

ومن ذلك قولَه تعالى : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ لَسْتُم على شيءٍ حتَّى تُقِيمُوا التَّوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليكم من ربِّكُم ﴾[2]، يأمرُ اللَّهُ نبيَّهُ محمَّداً صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أنْ يَدعُوَ أهلَ الكتابِ ويبلِّغَهُم بأنَّهم ليسوا على شيءٍ ممَّا يَدَّعونَ أنَّهم عليه ممَّا جاءَهم به موسى وعيسى، وأنَّ

---

(1) « تفسير الطَّبري » (١٠/٣٨٢) . (٢) المائدة : ٦٨ .

دعواهم هذه كذبٌ؛ لأنَّهم لو صَدَقُوا فيها لآمَنُوا بما أُنزِلَ على محمَّدٍ مِنَ الفرقانِ، وعَمِلُوا بذلك كلِّهِ، وآمنوا بما فيه من الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم وتصديقِهِ، وأقرُّوا بأنَّ كلَّ ذلك من عندِ اللَّهِ، فما كذَّبوا بشيءٍ منه، ولا فرَّقوا بين رُسلِ اللَّهِ؛ فآمَنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ فإنَّ الكفرَ بواحدٍ كفرٌ بجميعهِ؛ لأنَّ كتبَ اللَّه يُصدِّقُ بعضُها بعضاً؛ فمن كذَّبَ ببعضِها فقد كذَّبَ بجميعِها »[1].

فهي تُصرِّحُ بأنَّ مَعدِنَ الرِّسالاتِ واحدٌ، وأنَّ المساواةَ في الإيمانِ بها فرضٌ لا مَحِيدَ عَنهُ، فمن حادَ عنه فقدْ كَفَرَ، وبأنَّ الإيمانَ بما أُنزِلَ إليهم من القرآنِ، يقضي عليهم أن يَدَعُوا العمل بكُتبِهِم للعملِ بالقرآنِ، وأن يكونَ إيمانُهم بها أنَّها مِنْ عندِ اللَّه فَحَسب، وهذا هو معنى عمومِ رسالةِ القرآنِ .

ومن ذلك أيضاً قولُهُ تعالى ذِكرُه : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ أُوتوا الكتابَ آمِنوا بما نزَّلْنا مُصدِّقاً لما مَعَكم مِن قبلِ أن نَطمِسَ وُجوهاً فَنَرُدَّها على أدبارِها أو نَلعَنَهُم كما لعنَّا أصحابَ السَّبتِ وكانَ أمرُ اللَّهِ مفعولاً ﴾[2].

جاءَ في سببِ نزولِ هذه الآيةِ : « أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم كلَّمَ رؤساءَ من أحبارِ يهودَ فقالَ لهم :

« يا معشَرَ يهودَ ! اتَّقوا اللَّهَ وأسلِموا فواللَّهِ إنَّكم لتَعلمونَ أنَّ الذي

---

(١) « تفسير الطَّبري » (١٠/٤٧٣) بتصرف . (٢) النساء : ٤٧ .

جئتُكُم به الحقُّ » . قالوا : ما نَعرِفُ ذلك يا محمَّدُ ! وجَحَدوا ما عَرَفوا وأصرُّوا على الكفرِ »[1].

وقَدِ اشتملَتِ على التَّهديدِ والوعيدِ الشَّديدينِ لَمَن لم يُؤمِن مِن أهلِ الكتابِ بما أنزلَ اللَّهُ من القرآنِ مصدِّقاً لما معهم من الكتابِ، ولا معنى لدَعوتِهِم إلى الإيمانِ بالقرآنِ إلّا أن يترُكوا العملَ بما أُنزلَ إليهم من التَّوراةِ والإنجيلِ، وأن يعملوا بالقرآنِ وحدَه، فيكونَ محواً وإحباطاً للعَملِ بغيرِهِ، ولا يُكتَفى بمُجرَّدِ الإيمانِ بهِ .

وهناكَ آياتٌ أخرى كثيرةٌ يطولُ بنا الحديثُ عنها إنْ ذهبنا نستقصيها من سُوَرِ القرآن، ونكتفي بهذه الآياتِ الثَّلاثِ وحدَها في مقابلِ ثلاثِ آياتٍ مكيَّةٍ، فيلتقي على الإقرارِ بعمومِ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، القرآنُ في عَهدَيهِ المكِّيِّ والمدنيِّ .

وعمومُ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يتناوَلُ الجنَّ كما يتناوَلُ الإنسَ؛ فهو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مبعوثٌ إلى الثَّقلينِ، يقولُ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللَّه :

« فكلُّ مَن قامَت عليه الحجَّةُ برسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم من الإنسِ والجنِّ؛ فلم يؤمن به استحقَّ عقابَ اللَّهِ تعالى كما يستحقُّهُ أمثالُهُ من الكافرين الذين بُعِثَ إليهم الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، وهذا

(١) « تفسير القرطبي » (٥/٢٤٤) .

أصلٌ متَّفقٌ عليه بين الصَّحابةِ والتَّابعين لهم بإحسانٍ وأئمَّةِ المسلمين وسائرِ طوائفِ المسلمين أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ وغيرِهم رضي اللَّهُ عنهم أجمعين، لم يخالفْ أحدٌ من طوائفِ المسلمين في وجودِ الجنِّ، ولا في أنَّ اللَّهَ أرسلَ محمَّداً صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم إليهم »[1].

وقد أخبرَ اللَّهُ سبحانه في القرآنِ أنَّ الجنَّ استَمَعُوا القرآنَ، وأنَّهم آمَنُوا به، قال تعالى : ﴿ وإذْ صَرَفْنا إليكَ نَفَراً من الجنِّ يَستَمعونَ القُرآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالوا أنصِتُوا ﴾[2]، ثمَّ أمرَه أن يُخبرَ النَّاسِ بذلك، فقال تعالى : ﴿ قُل أُوحيَ إليَّ أنَّهُ استَمَعَ نَفرٌ من الجنِّ فقالوا إنَّا سمِعنا قرآناً عجباً يَهدي إلى الرُّشدِ فآمنَّا به ولَن نُشرِكَ بربِّنا أحداً ﴾[3].

وأيُّ خَبرٍ أصدَقُ من خبرِ اللَّهِ تعالى ؟! وأيُّ نبإٍ أكملُ من نبإِهِ ؟! وأيُّ حديثٍ أحكَمُ من حديثِهِ ؟!

إنَّ اللَّهَ سبحانه هوَ المُخبرُ، المُنبىءُ، المُحدِّث أنَّ محمَّداً صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم هو الذي التقى عليه الثَّقلانِ - مِن اهتَدَى منهم - إيماناً بدينِهِ، وتصديقاً بدعوتِهِ، وتسليماً لأمرِهِ ونهيِهِ .

أمَّا من أعرضَ منهم عنه ونأى بجانبِهِ، واتَّبعَ هواهُ فيقالُ لهم : ﴿ قَد خَسِرَ هُنالِكَ المُبطِلونَ ﴾.

---

(١) « إيضاح الدّلالة في عموم الرّسالة »، ضمن « مجموعة الرّسائل المنيريّة » .

(٢) الأحقاف : ٢٩ .

(٣) الجن : ١ ، ٢ .

مُحمَّدٌ الزَّوجُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ

إنَّ ثناءَنا على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم في أيِّ مجالٍ لا يَزيدُ من قَدرِهِ عند ربِّهِ، ولا يرفعُ من مكانتِهِ لديهِ، فبعدَ ثناءِ اللَّهِ عليه لا يكونُ للثَّناءِ مكانٌ، ولو لم يكنِ الثَّناءُ عليه فرضاً افترضهُ اللَّهُ علينا لكانَ صَرْفُهُ لنا عنه أولى، كيلا يُشابَ ثناءُ اللَّهِ بثناءِ العبادِ الذين يكونُ الثَّناءُ منهم أحياناً لا يحملُهم عليه إلّا ما يَطمعونَ إليه من عاجلِ النَّفعِ في غفلةٍ عن آجِلهِ المجذوذِ .

وقد بلغَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم - بتقدير العزيز الحكيم - الذِّروةَ في كلِّ أحوالِهِ البشريَّةِ الخالصةِ، ولو لم يكن للوحيِ إليها سبيلٌ لكادَ أن يكونَ بها وحدَها نبيًّا !! فكيفَ وقد اجتَمَعت له الجِبِلَّةُ البشريَّةُ النَّقيَّةُ إلى الوحيِ الأمينِ الذي أضفى على هذه الجِبِلَّةِ نوراً، فكانَت مرآةً للأُمَّةِ كلِّها في كلِّ أعصارِها، وجعلَ من أمرِهِ كلِّهِ حكماً يجبُ على الأُمَّةِ لُزومُهُ والتَّقرُّبُ إلى اللَّهِ به طاعةً وتربيةً ؟!

ويتحدَّثُ عن نفسِهِ في علاقتِهِ مع أهلِ بيتِهِ فيقولُ : « خيرُكم

خيرُكُم لأهلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهلي، وإذا ماتَ صاحبُكم فَدعوه »[1].

والقرآنُ لا يَعرضُ إلى التَّفصيلاتِ الدَّقيقةِ في حياةِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، بل يعرضُ إلى إبرازِ جانبِ القُدوةِ في حياتِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهذا يكفي فيه ذكرُ الأشياءِ جُملةً .

وقد تواتَرَتِ الأخبارُ واستَفاضَت بأن أوَّلَ زواج كان له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من خديجةَ رضيَ اللَّهُ عنها، وأنَّهُ لم يجمَعْ إليها امرأةً في حياتِها، وأنَّهُ تزوَّجَها وله من العمر خمسٌ وعشرونَ سنةً ولها أربعونَ سنةً، وأنَّهُ وجدَ عندها ما يجدُهُ الرَّجلُ في المرأةِ الصَّالحةِ، وأنَّها قطَعَتْ معه شوطاً في طريقِ الرِّسالةِ تُواسيهِ بنَفسِها وبمالِها، وأنَّها أوَّلُ مَن آمَنَ به .

وتحكي لنا كتبُ السِّيرةِ أنَّها حازَت من شرفِ النَّسبِ، وخصائصِ النَّفسِ، وحكمةِ العَقلِ، وسدادِ الرَّأيِ ما لم يُعرَف عنِ امرأةٍ في قريشٍ، فكانت ذكراها تُعاودُ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بينَ الفَيْنَةِ والفَيْنةِ، فلا يملكُ إلَّا أن يُثنيَ عليها علانيَةً ممَّا أوجدَ عائشةَ عليها غَيرةً .

---

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدَّارمي، وابن حبَّان من حديث عائشة .

وقال العلَّامة المحدِّث الألباني : « صحيح على شرط الشيخين، وليس عند الدَّارمي وابن حبَّان الجملة الوسطى منه، وأخرجه الحاكم مقتصراً على الشَّطر الأوَّل منه بلفظ :

« خيركم خيركم للنِّساء »، وقال : « صحيح الإسناد، ووافقه الذَّهبي » .

انظر : « السلسلة الصَّحيحة » (٢٨٥) .

وإذا نَظَرْنا في آيِ القرآنِ وجدْنا منها ما يجتمعُ به لدينا صورةٌ كاملةٌ عنِ الرَّسولِ الزَّوجِ؛ بدءاً بالرَّغبةِ في الزَّواجِ؛ وانتهاءً بانفصامِ عُروةِ الزَّوجيَّةِ أو دَيمومَتِها، وما يعرضُ له بينهما من أحوالٍ تكونُ بينَ الزَّوجين في العادةِ، تفرضُها طبيعةُ الحياةِ الزَّوجيَّةِ إلى ما تمليهِ قدسيَّةُ العلاقةِ الزَّوجيَّةِ على الزَّوجِ من نُصحٍ، وإرشادٍ، وتقويمٍ لزوجِهِ، وعلى الزَّوجةِ من وجوبِ القَبولِ والاستجابةِ الطَّائعةِ لهذا كلِّهِ .

وإذا كانَ اللَّهُ سبحانَهُ قد شرعَ للمؤمنينَ النِّكاحَ بمهرٍ يقدِّرُهُ الرَّجلُ لمن يريدُ نكاحَها، ولم يجعلْها حلالاً له إلّا به؛ فقد شرعَ اللَّهُ سبحانه لنبيِّهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ النِّكاحَ بمهرٍ، وخصَّه أَن ينكِحَ بغيرِ مهرٍ، قال تعالى : ﴿ يا أَيُّها النَّبيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لكَ أَزْواجَكَ اللَّاتي آتيْتَ أُجورَهُنَّ وما مَلَكَت يَمينُكَ ممَّا أفاءَ اللَّهُ عليكَ وبَناتِ عمِّكَ وبناتِ عمَّاتِكَ وبَناتِ خالِكَ وبَناتِ خالاتِكَ اللَّاتي هاجَرْنَ مَعَكَ وامْرَأَةً مُؤمنةً إنْ وَهَبَت نَفسَها للنَّبيِّ إنْ أرادَ النَّبيُّ أن يَستَنكِحَها خالِصَةً لكَ من دونِ المؤمنينَ قَد عَلِمْنا ما فَرَضْنا عليهم في أَزْواجِهِم وما مَلَكَت أيمانُهُم لِكَيْلا يَكونَ عَلَيكَ حَرَجٌ وكانَ اللَّهُ غفوراً رَحيماً ﴾[1].

قال القرطبيُّ عندَ تأويلِ هذه الآيةِ : « لماخيَّرَ رسولُ اللَّهِ نساءَه فاختَرْنَهُ حُرِّمَ عليه التَّزوُّجُ بغيرِهِنَّ والاستبدالُ بِهِنّ مكافأةً لهنّ على فعلِهِنّ، والدَّليلُ على ذلك قولُهُ تعالى : ﴿ لا يَحِلُّ لكَ النِّساءُ مِن بَعدُ

(١) الأحزاب : ٥٠ .

وَلا أن تَبَدَّلَ بهِنَّ من أزواجٍ وَلو أعجَبَكَ حُسْنُهنَّ إلّا ما مَلَكَت يمينُكَ وكانَ اللَّهُ على كلِّ شيءٍ رَقيباً ﴾، وهل كان يحلُّ له أن يُطلِّقَ واحدةً منهنَّ بعد ذلكِ؟ فقيل: لا يحلُّ له ذلك جزاءً لهنَّ على اختيارِهنَّ له، وقيل: كان يحلُّ له ذلك كغيرِهِ من النَّاسِ؛ ولكن لا يتزوَّجُ بَدَلَها، ثمَّ نُسِخَ هذا التَّحريمُ، فأباحَ له أن يتزوَّجَ بمن شاءَ عليهنَّ من النِّساءِ، والدَّليلُ عليه قولُهُ تعالى: ﴿ إنَّا أحلَلْنا لكَ أزواجَكَ ﴾، والإحلالُ يقتضي تقدُّمَ حظرٍ، وزوجاتُهُ اللَّاتي في حياتِهِ لم يكنَّ مُحَرَّماتٍ عليه، وإنَّما كان حُرِّمَ عليه التَّزويجُ بالأجنبيَّاتِ، فانصرفَ الإحلالُ إليهنَّ، ولأنَّه قال في سياقِ الآيةِ: ﴿ وبَناتِ عمِّكَ وبناتِ عمَّاتِكَ وبناتِ خالِكَ وبناتِ خالاتِكَ اللَّاتي هاجَرْنَ مَعكَ ﴾، ومعلومٌ أنَّه لم يكن تحتَه أحدٌ من بناتِ عمِّهِ، ولا من بناتِ عمَّاتِهِ، ولا من بناتِ خالِهِ، ولا من بناتِ خالاتِهِ، فثبتَ أنَّهُ أُحِلَّ له التَّزويجُ بهذا ابتداءً، وهذه الآيةُ وإن كانَت مُقدَّمةً في التِّلاوةِ؛ فهي متأخِّرةٌ في النُّزولِ على الآيةِ المنسوخةِ بها؛ كآيتي الوفاةِ في البقرةِ »[1].

ويقولُ الطبريُّ: « يقولُ تعالى ذكرُهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم: ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أحلَلْنا لكَ أزواجَكَ اللَّاتي آتَيْتَ أُجورَهنَّ ﴾.

يعني: اللَّاتي تزوجتَهنَّ بصداقٍ مُسمًّى »[2]، ثمَّ ساقَ مِن أقوالِ السَّلفِ ما يؤيِّدُ هذا التَّأويلَ الذي ذهبَ إليهِ، فذكرَ عن مجاهدٍ قولَهُ:

---

(١) « تفسير القرطبي » (١٤/٢٠٦). (٢) « تفسير الطَّبري » (٢٢/١٥).

اللَّاتي آتيتَ أُجورَهنَّ؛ أي : صَدُقاتِهِنَّ .

وذكرَ عنِ ابنِ زيدٍ : كلُّ امرأةٍ آتاها مَهرَها فقد أحلَّها اللَّهُ له .

ففي الآيةِ تصريحٌ بأنَّ للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أن يتزوَّجَ بمهرٍ كالمسلمين جميعاً، وليسَ له في ذلك زيادةُ فضلٍ عليهم؛ لكنَّ قولَهُ سبحانه : ﴿ وامرأةً مؤمنةً إنْ وَهَبَت نَفسَها للنَّبيِّ ﴾ جعَلَ لهُ فضلاً عليهم، وليس ذلك لأحدٍ غيرِهِ .

ولا يحلُّ لأحدٍ من المسلمين أن يتزوَّجَ إلَّا بمهرٍ، قال مجاهدٌ : « ﴿ وامرأةً مؤمنةً إن وهَبَتْ نَفسَها للنَّبيِّ ﴾ بغيرِ صداقٍ؛ فلم يكنْ يفعلُ ذلك، وأُحلَّ له خاصَّةً مِن دونِ المؤمنين »[1]، وجَعَلَ شرطاً لذلك أن يكونَ للنَّبيِّ رغبةٌ في نِكاحِها، وذلك قولُهُ : ﴿ إنْ أرادَ النَّبيُّ أن يَستَنكِحَها ﴾، قال الطَّبريُّ : « إنْ أرادَ أن يَنكحَها فحلالٌ له أن يَنكِحَها إذا وهَبَت نَفسَها له بغيرِ مهرٍ »[2].

وأمَّا خُصوصيَّةُ ذلك له وحدَه فمن قولِهِ سبحانه : ﴿ خالصةً لكَ مِن دونِ المؤمنين ﴾، يقولُ الطَّبريُّ :

« لا يحلُّ لأحدٍ من أُمَّتِكَ أن يَقربَ امرأةً وهَبَت نفسَها له، وإنَّما ذلك لكَ يا محمَّدُ ! خالصةً أُخلصَت لك من دون سائرِ أُمَّتِكَ »[3].

(١) « تفسير الطَّبري » (١٦/٢٢) .　　(٢) « تفسير الطَّبري » (١٦/٢٢) .

(٣) « تفسير الطَّبري » (١٦/٢٢) .

كما أحلَّ اللَّه لنبيِّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ما أحلَّ للأُمَّةِ وَطْءَ الإماءِ بملكِ اليَمينِ فقال : ﴿ وما مَلَكَت يمينُكَ مِمَّا أفاءَ اللَّهُ عليكَ ﴾، قال الطَّبريُّ : « وأَحلَلْنا لك إماءَكَ اللَّواتي سَبَيتَهُنَّ، فملكتَهُنَّ بالسِّباءِ، وصِرْنَ لكَ بفَتحِ اللَّهِ عليكَ من الفَيءِ »[1]، ولا فَرقَ في ذلك بين السَّبيَّةِ وبين ما تُهدى، فقد أولدَ ماريَّةَ القبطيَّةَ هديَّةَ المقوقَسِ له وَلَدَه إبراهيمَ عليه السَّلامُ .

وتقضي إرادةُ السَّماءِ قضاءَها في زواجِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم حينَ يكونُ منه التَّأثُّمُ والتَّحرُّجُ أن يقالَ : إنَّ محمَّداً قد تزوَّجَ امرأةَ مُتبَنَّاهُ .

وتأمرُهُ أن يتزوَّجَها ليكونَ تَشريعاً ماضياً في النَّاسِ إلى قيامِ السَّاعةِ، ولكيلا يتهاوَنَ في أمرِ شَرَعَهُ اللَّهُ لعبادِهِ، فيُصيبَ منه النَّاسُ خطأً ما يَظنُّونهُ صواباً لطولِ إلفِهِم له، ثمَّ هو تَكريمٌ لرسولِ اللَّهِ، وللمرأةِ التي أمرَهُ اللَّهُ بالزَّواجِ منها، قال تعالى : ﴿ وإذْ تَقولُ للَّذي أنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِ وأَنعَمتَ عَلَيهِ أَمسِك عَلَيكَ زَوجَكَ واتَّقِ اللَّهَ وتُخفي في نَفسِكَ ما اللَّهُ مُبدِيهِ وتَخشى النَّاسَ واللَّهُ أحقُّ أن تَخشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيدٌ مِنها وَطَراً زَوَّجناكَها لِكَي لا يَكونَ على المُؤمنينَ حَرجٌ في أزواجِ أدعيائِهِم إذا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطَراً وكانَ أمْرُ اللَّهِ مَفْعولاً ﴾[2].

---

(١) « تفسير الطَّبري » (٢٢/١٦) .

(٢) الأحزاب : ٣٧ .

وفي « البخاري » عن أنسٍ أنَّ هذه الآيةَ : ﴿ وتُخفِي في نفسِكَ ما اللَّهُ مُبدِيهِ ﴾ نزلت في شأنِ زينَبَ بنتِ جحشٍ وزيدِ بنِ حارثةَ .

وفي « طبقات ابن سعد » عن أنسٍ قال : « نزلَت في زينَبَ بنتِ جحشٍ : ﴿ فلمَّا قَضى زيدٌ منها وَطَراً زَوَّجْناكَها ﴾، قال : فكانَت تفخرُ على نساءِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم تقولُ : زَوَّجكُنَّ أهلُكُنَّ وزوَّجَنيَ اللَّهُ من فوقِ سبعِ سماواتٍ »[1].

وجاءَ في « القرطبي » قال : « روى التِّرمذيُّ عن عائشةَ رضيَ اللَّهُ عنها قالت : لو كان رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم كاتماً شيئاً من الوحيِ لكَتَمَ هذه الآيَةَ : ﴿ وإذْ تقولُ للَّذي أنعَمَ اللَّهُ عليه ... ﴾ الآيَةَ إلى قولِهِ : ﴿ وكانَ أمراً مَفعولاً ﴾، وأنَّ رسولَ اللَّهِ لما تَزَوَّجها قالوا : تزوَّجَ حليلةَ ابنِهِ . فأنزلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ما كانَ مُحمَّدٌ أبا أحدٍ من رجالِكُم ولكِنْ رسولَ اللَّهِ وخاتَمَ النَّبيِّين ﴾، وكان رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم تبنَّاهُ وهو صغيرٌ، فلبثَ حتى صارَ رجُلاً يقال له : زيدُ بنُ محمَّدٍ . فأنزلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ادْعوهُمْ لآبائِهِم هُوَ أقسَطُ عندَ اللَّهِ فإنْ لَم تَعلَموا آباءَهُم فإخوانُكُم في الدِّينِ وَمَوالِيكُم وليسَ عليكُم جُناحٌ فيما أخطأتُم بهِ ولكن ما تعمَّدت قلوبُكُم وكانَ اللَّهُ غَفوراً رحيماً ﴾ .

ويتزوَّج الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم زينَب بنتَ جحشٍ ليُذهِبَ

(١) « الطَّبقات » (٨/٧٣) .

عن عقولِ النَّاسِ ما أَلِفَتهُ، ويُبطلَ ما شاعَ في حياتِهم، ويكونَ حقًّا على المرأةِ أن ترى في مُتبنَّى زوجِها أو مُتبنَّاها ما ترى من الأجنبيِّ غيرِ المحرَّمِ عليها .

ويدرك النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم شيءٌ من حظِّ النَّفسِ البشريَّةِ الذي لا بدَّ مدركٌ كلَّ إنسان، فيميلُ به إلى شيءٍ دون شيءٍ؛ مع بقاءِ حقِّ كلِّ شيءٍ في صَونِ العافيةِ من بَخسٍ أو نحوِهِ، فللنَّفسِ حظُّها مدركَتُهُ لا محالةَ، ولعلَّهُ هو الذي به عُوتِبَ الأنبياءُ بوحيٍ نزلَ عليهم في أشياءَ كان لهم عنها مندوحةٌ؛ فأصابوا منها على غيرِ عزمٍ منهم إليها، كما أخبرَ اللَّهُ سبحانه عن آدمَ عليه السَّلامُ : ﴿ فَلَم نَجِد لهُ عَزماً ﴾ .

ولعلَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يميلُ بقلبِهِ إلى بعضِ نسائِهِ، فوقعَ عندَهُ أنَّ في ذلك حَرَجاً لا يدفعُهُ عنه إلَّا أن يُخليَ سبيلَ من لا يميلُ إليهنَّ منهنَّ، فأذِنَ اللَّهُ له أن يُبقيَ عليهنَّ مع إباحةِ تركِ القَسْمِ بينهنَّ الذي أوجبَهُ عليه لهنَّ جميعاً، فقال : ﴿ تُرجي مَنْ تَشاءُ مِنهُنَّ وتُؤوِي إليكَ مَن تشاءُ ومَنِ ابتَغَيتَ ممَّن عَزَلتَ فَلا جُناحَ عَليكَ ذلك أدنى أن تقرَّ أعيُنُهنَّ ولا يَحزَنَّ ويَرضَينَ بما آتَيتَهُنَّ كلُّهنّ واللَّهُ يَعلَمُ ما في قلوبِكُم وكانَ اللَّهُ عَليماً حليماً ﴾[١].

أخرجَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عن عائشةَ رضيَ اللَّه عنها أنَّها قالت :

(١) الأحزاب : ٥١ .

« كنتُ أغارُ على اللّاتي وَهَبْنَ أنفسَهُنَّ لرسولِ اللَّه صلّى اللَّه عليهِ وسلَّم وأقولُ : أتَهَبُ المرأةُ نفسها ؟! فلمّا أنزلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ تُرْجِي مَن تشاءُ منهنَّ وتُؤْوِي إليكَ مَن تشاءُ ... ﴾ الآيةَ، قلتُ (أي: قالت للنَّبيِّ): ما أرى ربَّك إلّا يُسارِعُ في هواكَ »، وأخرجَ هذا الحديثَ أيضاً مسلمٌ، وأحمدُ والحاكمُ .

قال أبو رزينٍ : « كان رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم همَّ بطلاقِ بعضِ نسائِهِ، فقلنَ له : اقسمْ لنا ما شئتَ . فكان ممَّن آوى : عائشةُ، وحفصةُ، وأُمُّ سلمةَ، وزينبُ، فكان قسمتُهنَّ من نفسِهِ ومالِهِ سواءً بينهنَّ، وكان ممَّن أرجى : سودةُ، وجُويريَّةُ، وأُمُّ حبيبةَ، وميمونةُ، وصفيَّةُ، فكان يقسمُ لهنَّ ما شاءَ »[1].

فكما أنَّ اللَّهَ سبحانه شرعَ لنبيِّهِ التَّزوُّجَ بأكثَرَ من أربعٍ؛ شرعَ له أن يجعلَ القِسمةَ بين من أرجأَ - وأبقى لهنَّ شرفَ الانتسابِ إليه بالزَّوجيَّة؛ ليبقينَ به أُمَّهاتٍ للمؤمنين - من عندِ نفسِهِ، وما كانَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قابضاً على حقٍّ لإحداهنَّ يقدرُ عليه، ومعلومٌ أنَّهُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم كان فقيراً لا يقوى إلّا على ما يقوى عليه الفقراءُ فَحَسْبُ، المهمُّ أنَّ اللَّهَ أَذِنَ بأن جعلَ الإنفاقَ على مَن أمسكَ عليهنَّ

(١) « تفسير القرطبي » (٢١٥/١٤)، وأخرج الخبر الطَّبري في « تفسيره » (٢٥/١٢)، وأورده السيوطي في « الدّر المنثور » (٦٣٥/٦)، وزاد نسبته لابن سعد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وفي سنده انقطاع .

- تحقيقاً لرغبتهنَّ هُنَّ - إليه وحدَه، وهل يُظَنُّ بأنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سيجعلُ لهنَّ شيئاً دونَ ما يجعلُ لِمَن آوى ؟! لا أظنُّ ذلك، فإذْنُ الوحيِ له أن يَقسِمَ لهنَّ من عندِ نفسِهِ - هو في ذاتِهِ - تشريعٌ له وحدَهُ؛ يُنفِّذُهُ بنفسِهِ لنفسِهِ فيمن أَذِنَ اللَّهُ له أن يُمسِكَ إليه من نسائِهِ، قال القرطبيُّ : « وكانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُشدِّدُ على نفسِهِ في رعايةِ التَّسويةِ بينهنَّ تَطييباً لقلوبِهِنَّ »(1).

وفي هذا تطييبٌ لنفوسِهِنَّ، وإرضاءٌ لقلوبِهِنَّ، وَقَرارٌ لعيونِهِنَّ، قال قتادةُ في تأويلِ قولِهِ سبحانه : ﴿ ذلك أدنى أن تقرَّ أعينُهن ﴾؛ أي: ذلك التَّخييرُ الذي خيَّرْناك في صُحبتِهِنَّ أدنى إلى رضاهُنَّ إذ كان من عندِنا؛ لأنَّهُنَّ إذا عَلِمنَ أنَّ الفعلَ مِنَ اللَّهِ قرَّت أعيُنُهُنَّ بذلك ورَضينَ؛ لأنَّ المرءَ إذا علمَ أنَّهُ لا حقَّ له في شيءٍ كان راضياً بما أُوتيَ منه وإن قَلَّ، وإن عَلِمَ أنَّ له حقًّا لم يُقنعهُ ما أُوتيَ منه، واشتدَّت غيرتهَ عليه، وعظُمَ حِرصُهُ فيه »(2).

وبذلك يكونُ قولُ عائشةَ رضي اللَّه عنها : « ما أرى ربَّكَ إلَّا يُسارعُ في هواكَ »(3) تحقيقاً لهوى أزواجِهِ اللَّائي رَغِبَ عنهنَّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فآثَرنَ البقاءَ تحتَ جناحِهِ، لما عَظُمَ عليهنَّ من الخوفِ من تخلية سَبيلِهِنَّ ألَّا يكنَّ أُمَّهاتِ للمؤمنين، وتَركنَ له حقَّهُنَّ يقدِّرُه لهنَّ

(1،2) « تفسير القرطبي » (١٤/٢١٦) . (3) متَّفق عليه .

من غيرِ إلزامٍ .

وقد شرّفَ اللّهُ أزواجَهُ صلّى اللّه عليهِ وسلّم بأن جعلهنّ أمّهاتِ للمؤمنين جميعاً، فقال : ﴿ النّبيُّ أَوْلى بِالمؤمِنينَ مِن أنفُسِهِم وأزواجُهُ أُمّهاتُهُم ﴾[1].

وقد حرّمَ اللّهُ التّزوّجَ بالأُمّهاتِ، قال تعالى : ﴿ حُرِّمَت عليكُم أُمّهاتُكُم ﴾[2]، فكلُّ أبناءٍ لأُمٍّ يحرُمُ عليهِمُ التّزوُّجُ بأُمِّهِم، وكلُّ زوجٍ من أزواجِهِ صلّى اللّه عليهِ وسلّم أُمٌّ للمؤمنين عامّةً، فيحرُمُ عليهم جميعاً التّزوُّجُ بهنّ؛ لأنّهم أبناء لكلِّ واحدةٍ منهنّ، وفي ذلك إذايةٌ أشدُّ إذايةٍ لرسولِ اللّهِ صلّى اللّه عليهِ وسلّم، قال تعالى : ﴿ وما كانَ لكُم أَنْ تُؤْذوا رَسولَ اللّهِ ولا أنْ تَنكِحوا أزواجَهُ مِن بعدِهِ أبداً إنَّ ذلكم كانَ عندَ اللّهِ عظيماً ﴾[3].

« نزلتْ هذه الآيةُ في رجلٍ من المنافقين قال حين تزوّجَ رسولُ اللّهِ صلّى اللّه عليهِ وسلّم أُمَّ سلَمةَ بعدَ أبي سلمَة وحفصةَ بعد خُنَيسِ بن حُذافةَ : ما بالُ محمّدٍ يتزوّجُ نساءَنا؟ واللّهِ لو قد ماتَ لأَجلنا السِّهامَ على نسائِهِ »[4].

قال الشّافعيُّ رحمه اللّهُ : « وأزواجُهُ صلّى اللّه عليهِ وسلّم اللاّتي

(١) الأحزاب : ٦ .
(٢) النساء : ٢٣ .
(٣) الأحزاب : ٥٣ .
(٤) « تفسير القرطبي » (١٤/٢٢٩) .

ماتَ عنهنَّ لا يحلُّ لأحدٍ نكاحُهُنَّ، ومَن استحلَّ ذلك كان كافراً لقولِهِ تعالى : ﴿ وما كانَ لَكُم أن تُؤذوا رسولَ اللَّهِ ولا أن تَنكِحوا أزواجَهُ من بَعدِهِ أبَداً ﴾ »(١).

قال الطَّبريُّ : « قالَ ابنُ زيدٍ:ربَّما بلغَ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم أنَّ الرجلَ يقولُ : لو أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم تُوفِّيَ تزوَّجتُ فلانَةَ من بعدِهِ . قال : فكان ذلك يؤذي النَّبيَّ، فنزلَ القرآنُ : ﴿ وَما كانَ لَكُم أنْ تُؤْذوا رسولَ اللَّهِ وَلا أنْ تَنكِحُوا أزواجَهُ مِن بَعدِه أبداً ﴾ »(٢).

وإذا كانَ اللَّهُ قد أعْلى قَدْرَ نبيِّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم باصطفائِهِ وإرسالِهِ إلى النَّاسِ كافَّةً؛ فإنَّ هذا القَدْرَ قدِ انسحَبَ على نسائِهِ، فَلَسْنَ - وهنَّ أُمَّهاتُ المؤمنين - كسائرِ النِّساءِ، ولا بدَّ أن يقرَّ في قلوبِهِنَّ أنَّ انتسابَهُنَّ إلى الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أكسَبَهُنَّ مكانةً عَلَوْنَ بها على سائرِ النِّساءِ يجبُ عليهنَّ أن يحفَظْنَ قَدْرَها وأن يَصُنَّها، قال تعالى: ﴿ يا نِساءَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كَأَحدٍ مِن النِّساءِ إنِ اتَّقيتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بالقولِ فَيَطمَعَ الذي في قلبِهِ مرضٌ وقُلْنَ قَولاً مَعروفاً ﴾(٣)؛ أي: لَستُنَّ كأحدٍ

---

(١) « تفسير القرطبي » (١٤/٢٢٩) .

(٢) « تفسير الطَّبري » (٢٢/٢٨) .

وأخرجه ابن أبي حاتم كما في « الدّر المنثور » (٦/٦٤٣)، وابن زيد اسمه عبدالرَّحمن، وهو متروك .

(٣) الأحزاب : ٣٢ .

من نساءِ هذه الأُمَّةِ في الفضلِ والشَّرفِ، فأنتُنَّ أوفرُ نصيباً وأعظمُ حظًّا منهنَّ جميعاً فيما نِلْتُنَّ مِنَ الفضلِ والشَّرفِ، فَلا يكُن منكُنَّ خضوعٌ في القولِ، ولا إلانةٌ في الحديثِ، ممَّا يقعُ فيه سائرُ النِّساءِ، وليَكُنْ كلامُكُنَّ جَزْلاً، وقولُكُنَّ فَصْلاً؛ لئلّا يَقعَ في رُوعِ ضعفاءِ الإيمانِ أو المنافقين رِيبةٌ نحوَكُنَّ؛ تحدِّثُهُم نفوسُهُم بها بأمرٍ أنتنَّ في منأىً منه لمكانِكُنَّ؛ لما لَكُنَّ مِن فضلٍ وشرفٍ، ثمَّ أتْبِعْنَ ذلك بالقولِ الصَّوابِ الذي لا تُنكرُهُ الشَّريعةُ ولا النُّفوسُ .

وإذا كانَ لنساءِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم هذه المنزلةُ العظيمةُ التي حُزنَها بِنَسَبِهِنَّ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم؛ فإنَّ زَلَّةَ إحداهنَّ ليست كَزَلَّةِ النِّساءِ المؤمناتِ، فإنْ زَلَّتِ الواحدةُ منهنَّ يتضاعَفُ إثمُها؛ لأنَّها أخَلَّت بشرفِ النِّسبةِ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم؛ إذْ كان يجبُ عليها أن تظلَّ في منأىً عمَّا يَشينُها؛ لِتَظلَّ النِّسبةُ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم في صَونِ العَفافِ، قال تعالى : ﴿ يا نِساءَ النَّبيِّ مَنْ يأْتِ مِنكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَف لها العَذَابُ ضِعفَينِ وكانَ ذلكَ على اللَّهِ يَسيراً ﴾[1].

وفي « القرطبي » : « أخبرَ تعالى أنَّ من جاءَ من نساءِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بفاحشةٍ - واللَّهُ عاصمٌ رسولَهُ عليه السَّلامُ من ذلك؛ كما في حديثِ الإفْكِ - يُضاعَفْ لها العذابُ ضِعفَينِ؛ لشرَفِ

(١) الأحزاب : ٣٠ .

منزلتِهِنَّ، وفضلِ درجتِهِنَّ، وتقدُّمِهِنَّ على سائرِ النِّساءِ أجمع » .

وقيل : لمَّا كان أزواجُ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم في مهبطِ الوحي، وفي منزلِ أوامرِ اللَّهِ ونَواهيهِ؛ قَوِيَ الأمرُ عليهنَّ، ولَزِمَهُنَّ بسببِ مكانَتِهِنَّ أكثَرَ ممَّا يَلزمُ غيرَهُنَّ، فَضُوعِفَ لهنَّ الأجرُ والعذابُ »[1].

وإذا كانَ لنساءِ النَّبيِّ عند اللَّه هذه المنزِلةُ؛ فلا يحسُنُ بهنَّ أن يَمِلنَ بقلوبِهِنَّ إلى الدُّنيا، أو يَلتَفِتنَ بعيونِهِنَّ إلى زِينتِها، ولا يُجَمِّلُهُنَّ شيءٌ كالزُّهدِ فيها، والرَّغبةِ فيما عند اللَّه سبحانه؛ اقتداءً بزوجهنَّ - النَّبيِّ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم - الذي يَدعو النَّاسَ - فيما يَدعوهم إليه - إلى السَّعيِ إلى الآخرةِ، وتَقديمِها في نفوسِهِم على الدُّنيا، ويكونُ هو أوَّلَ من يُحقِّقُ هذا في نفسِهِ : ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا به أزواجاً منهُم زهرةَ الحياةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُم فيهِ ورِزقُ ربِّكَ خيرٌ وأبقى ﴾[2]، فجديرٌ بهنَّ إذاً أن يقتدينَ بهِ، وأنْ لا يَرَينَ أنفسَهُنَّ بغيرِ ما رأى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم نفسَهُ، قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأزواجِكَ إنْ كُنتُنَّ تُردنَ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها فتعالَيْنَ أُمتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جميلاً . وإنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ ورسولَهُ والدَّارَ الآخرةَ فإنَّ اللَّهَ أعدَّ للمُحسناتِ منكُنَّ أجراً عظيماً ﴾[3].

فكلُّ امرأةٍ منهنَّ بأحدِ النَّظَرَيْنِ؛ فإن هي رَضِيَت بما رضيَ رسولُ

---

(١) « تفسير القرطبي » (١٧٤/١٤) .
(٢) طه : ١٣١ .
(٣) الأحزاب : ٢٨، ٢٩ .

اللَّهِ لنفسِهِ؛ فقد اختارَتهُ فيُمسِكُها على نفسِهِ، وإنْ هي لم ترضَ بما رضيَ رسولُ اللَّه لنفسه؛ فقد كَرِهَتِ المُقامَ معه على الشِّدَّةِ وشَظفِ العيشِ وخشونتِهِ؛ فلا يُمسِكُها على نفسِهِ، ويجعلُ لها سبيلاً على نفسِها .

وجاءَ في سببِ نزولِ هاتينِ الآيتينِ ما أخرجَهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِاللَّهِ بنِ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما قال :

« لم أزَلْ حريصاً على أنْ أسألَ عمرَ رضيَ اللَّهُ عنه عنِ المرأتين مِن أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم اللَّتين قال اللَّهُ لهما : ﴿ إنْ تَتوبا إلى اللَّهِ فَقَد صَغَتْ قُلوبُكُما ﴾، فَحَجَجْتُ معه، فعدَلَ وعدلتُ معه بالإداوةِ، فتبرَّزَ ثمَّ جاءَ، فسكبتُ على يديهِ مِنَ الإداوةِ فتوضَّأَ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ! مَنِ المرأتانِ من أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم اللَّتانِ قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ لهما : ﴿ إن تَتوبا إلى اللَّهِ فَقَد صَغَتْ قلوبُكُما ﴾ ؟ فقال : واعجباً لكَ يا ابنَ عبَّاس ! عائشةُ وحفصةُ .

ثمَّ استقبلَ عمرُ الحديثَ يسوقُهُ، فقال : إنِّي كنتُ وجارٌ لي من الأنصارِ في بني أميَّةَ بن زيدٍ، وهي من عوالي المدينةِ، وكنَّا نتناوَبُ النُّزولَ على النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فيَنزلُ يوماً وأنزلُ يوماً، فإذا نَزلتُ جئتُهُ مِن خبرِ ذلك اليومِ مِن الأمرِ وغيرِهِ، وإذا نزلَ فعلَ مِثلَهُ، وكنَّا معشرَ قريشٍ نَغلِبُ النِّساءَ، فلمَّا قَدِمنا على الأنصارِ إذا هُم قومٌ تَغلِبُهُم نساؤُهُم، فطَفِقَ نساؤُنا يأخذْنَ من أدبِ نساءِ الأنصارِ، فَصِحتُ على

امرأتي فراجَعتني، فأنكرتُ أن تُراجِعني، فقالت : ولِمَ تُنكرُ أن أُراجِعَكَ ؟! فواللّهِ إنَّ أزواجَ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم لَيُراجِعْنهُ، وإنَّ إحداهنَّ لَتهجُرُهُ النَّهارَ حتى الليلِ . فَأَفزَعَني، فقلتُ : خابَت مَن فعَلَت منهنَّ بعظيمٍ . ثمَّ جمعتُ عليَّ ثيابي، فَدَخَلتُ على حفصة فقلتُ : إي حفصةُ ! أتُغاضِبُ إحداكنَّ رسولَ اللَّهِ اليومَ حتى الليلِ ؟ فقالت : نعم . فقلت : خابَت وخَسِرَتْ ! أفتَأمَن أن يغضبَ اللَّهُ لغضبِ رسولِهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم فتَهلكين، لا تَستَكثري على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، ولا تُراجِعيهِ في شيءٍ، ولا تهجرِيهِ، واسأليني ما بدا لك، ولا تغرَّنَّكِ إنْ كانت جارتُكِ هي أوضأُ منكِ، وأحبُّ إلى رسولِ اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم (يريدُ : عائشة) .

وكنَّا نتحدَّثُ أنَّ غسَّانَ تُنعِلُ النِّعالَ لغزِونا، فنزلَ صاحبي يومَ نوبَتِهِ، فرجعَ عشاءً فضربَ بابي ضَرباً شديداً، وقال:أنائمٌ هو ؟ ففزعتُ فخرجتُ إليه، وقال : حدثَ أمرٌ عظيمٌ ! قلتُ : ما هو ؟ أجاءَتْ غسَّان ؟ قال : لا ! بل أعظمُ منه وأطولُ؛ طلَّقَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم نساءَهُ ! قلت : قد خابَت حفصةُ وخَسِرَت، كنتُ أظنُّ أنَّ هذا يوشِكُ أن يكونَ . فجمعتُ عليَّ ثيابي، فصلَّيتُ صلاةَ الفجرِ مع النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فدخلَ مشربةً له فاعتزلَ فيها، فدخلتُ على حفصةَ فإذا هي تبكي، قلتُ : ما يُبكيكِ ؟! أو لم أكُنْ حذَّرتُكِ ؟! أوَطَلَّقَكُنَّ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ؟ قالت : لا أدري؛ هو ذا في

المشرَبَةِ . فخرجتُ فجئتُ المنبرَ، فإذا حولَهُ رهطٌ يبكي بعضُهُم، فجلستُ معهم قليلاً، ثمَّ غلَبَني ما أَجِدُ، فجئتُ المشربةَ التي هو فيها، فقلتُ لغلامٍ له أسودَ : استأذنْ لعُمَرَ . فدخلَ فكلَّمَ النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ثمَّ خرجَ فقال : ذكرتُكَ له فَصَمَتَ . فانصرفتُ حتى جلستُ مع الرَّهطِ الذين عندَ المنبرِ، ثمَّ غَلَبَني ما أَجِدُ، فجئتُ الغلامَ، فذكرَ مثلَهُ، فجلستُ مع الرَّهطِ الذين عندَ المنبرِ، ثمَّ غلبني ما أَجِدُ، فجئتُ الغلامَ، فذكرَ مثلَهُ، فلمَّا ولَّيتُ منصرفاً فإذا الغلامُ يدعوني، قال : أذِنَ لكَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم . فدخلتُ عليه، فإذا هو مُضطَجِعٌ على رمالِ حصيرٍ ليس بَينَهُ وبَينَهُ فراشٌ؛ قد أثَّر الرِّمالُ بجنبِهِ، مُتَّكِئٌ على وسادةٍ من أَدَمٍ حشوُها لِيفٌ، فسلَّمتُ عليه، ثمَّ قلتُ وأنا قائمٌ : طلَّقتَ نساءَكَ يا رسولَ اللَّهِ ؟! فرفعَ بصرَهُ إليَّ فقال : « لا » . ثمَّ قلتُ وأنا قائمٌ: استأنِس يا رسولَ اللَّهِ ! لو رأيتَنا وكنَّا معشرَ قريشٍ نغلبُ النِّساءَ، فلمَّا قدِمنا على قومٍ تَغلِبُهُم نساؤُهُم (فَذَكَرَهُ) . فتبسَّم النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، ثمَّ قلتُ : يا رسولَ اللَّه ! لو رأيتَني ودخلتُ على حفصةَ فقلتُ : لا يَغُرَّنَّكِ أنْ كانت جارتُكِ هي أوضأَ منكِ وأحبَّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم - يريدُ : عائشةَ - فتبسَّم أُخرى، فجلستُ حين رأيتُهُ تبسَّمَ، ثمَّ رفعتُ بصري في بيتِهِ، فواللَّهِ ما رأيتُ فيه شيئاً يردُّ البصرَ غيرَ أُهُبٍ ثلاثةٍ، فقلتُ : ادعُ اللَّه فليُوسِّعْ على أُمَّتِكَ، فإنَّ فارسَ والرُّومَ وُسِّعَ عليهم، وأُعطوا الدُّنيا وهم لا يعبدونَ اللَّهَ . وكان متَّكئاً فقال :

« أفي شكٌّ أنتَ يا ابنَ الخطَّابِ ؟! أُولئكَ عُجِّلَتْ لهم طيِّباتُهُم في الحياةِ الدُّنيا » . فقلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ! استغفرْ لي .

فاعتزلَ النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم من أجلِ ذلك الحديثِ، حينَ أفشَتهُ حفصة على عائشة، وكان قد قال : « ما أنا بداخلٍ عليهنَّ شهراً » . من شدَّة مَوْجِدَتِهِ عليهنَّ حين عاتَبَهُ اللَّهُ، فلمَّا مضت تسعٌ وعشرون دخلَ على عائشةَ فبدأ بها، فقالت لهُ عائشةُ : إنَّكَ أقسمتَ ألَّا تدخلَ علينا شهراً، وإنَّا أصبحنا لتسعٍ وعشرين ليلةً أَعُدُّها عدًّا . فقال النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم : الشَّهرُ تسعٌ وعشرون » . وكان ذلك الشَّهرُ تسعاً وعشرين، قالت عائشةُ : فأُنزلَت آية التَّخييرِ، فبدأَ بي أوَّلَ مرَّةٍ، فقال : « إنِّي ذاكرٌ لك أمراً، ولا عليكِ ألَا تعجَلي حتى تستأمري أبَويكِ » . قالت : قد علمَ أنَّ أبويَّ لم يكونا يأمُراني بفراقِهِ، ثمَّ قال : « إنَّ اللَّهَ قال : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ قُل لأزواجِكَ ... ﴾ إلى قولِهِ : ﴿ عظيماً ﴾ » . قلتُ :أفي هذا أستأمرُ أبَوَيَّ ؟! فإنِّي أُريدُ اللَّهَ ورسولَهُ والدَّارَ الآخرةَ . ثمَّ خيَّرَ نساءَهُ، فقلن مثلَ ما قالت عائشةُ » .

فأَرَدنَ اللَّهَ ورسولَهُ، وآثَرنَ العيشَ معه على الشِّدَّةِ والخشونةِ، فكُنَّ بذلك قدوةً لنساءِ الأُمَّةِ جميعاً، يَرَينَ فيهنَّ المثلَ الأعلى الذي يجبُ أن يُحتَذى، فإن مالَتِ الدُّنيا بامرأةٍ على زوجِها؛ فلتَذكر أُمَّهاتِ المؤمنين وصبرَهُنَّ مع رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم على الفقرِ والشدَّةِ زُهداً وقناعةً ورضىً، فسُرعانَ ما تَميلُ بزَوجِها على الدُّنيا، فلا ترى فيها إلَّا ما

رأى أُمَّهاتُ المؤمنين، فتعيشُ معهنَّ - على بُعدِ الشُّقَّةِ وطولِ الزَّمانِ - في زهدِهِنَّ وقناعتِهِنَّ ورضاهُنَّ، ولا تلبثُ تصير هي أيضاً مثلاً يُحتذى لِبَناتِها وأبنائِها، فيكونُ مجتمعُ المسلمين مُجتمعاً تُظلُّه الرِّضا والقناعةُ والزُّهدُ، وينصرفُ أفرادُهُ بكلِّ جَهدِهِم وطاقتِهِم إلى بناءِ مجتمعِهِم والمحافظةِ عليه، ودعوةِ النَّاسِ كافَّةً إلى ربِّهِم .

ولعلِّي لا أُبعِدُ إن قلتُ : لعلَّ من حكمةِ إكثارِ الرَّسولِ من الزَّوجات أن يُعلِّمَ الأُمَّةَ أنَّ الفقرَ لا يمنعُ الرَّجلَ من أن يبلغَ بزواجِهِ الحدَّ الذي وَضَعَهُ اللَّه؛ إذا كانتِ الثَّلاثُ أو الأربعُ يجدنَ مِن الرُّجولةِ الحقَّةِ ما وجدَت نساءُ النَّبيِّ من النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإذا عادَت هذه الرُّجولةُ عليهنَّ بالأدبِ الذي عادَت به على أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم؛ فعِشنَ معه أسعدَ نساءِ الدُّنيا، ولم يجِدنَ في أنفسِهنَّ إلّا الرِّضا والحبَّ، ولم يجدنَ منه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم إلّا حسنَ العشرةِ، والإقبالَ عليهنَّ بكلِّ ما عندَهُ من رضاً وحبٍّ كذلك، وبخاصةٍ إذا كَثُرَ عددُ النِّساءِ؛ كما أخبرَ الصَّادقُ المصدوقُ عن آخرِ الزَّمانِ حين يصبحُ لكلِّ خمسينَ امرأةً قيِّمٌ واحدٌ من الرِّجالِ - كما في « صحيح البخاري » -؛ فأينَ سَيجدُ هذا العددُ العديدُ من النِّساءِ الرِّجالَ الذين يعِشنَ في أكنافِهِم؛ إذا لم يجدنَ في الرِّجالِ من يُؤوِي كلٌّ واحدٍ إليه أربعاً نكاحاً ؟[1]

---

(١) والسُّؤال هو : هل ستجدُ أُولئكَ النساءُ في الرِّجالِ ما وجدت نساءُ النَّبيِّ عليه =

والرَّسولُ بشرٌ يعتَرِيهِ ما يعتري سائرَ البشَر؛ غيرَ أنَّ النُّبوَّةَ رفعتهُ إليها، فأنالتهُ النُّبوَّةُ من أدبِها وقُدسيَّتِها ما جعَلَ الأُمَّةَ كلَّها ترى في بشريَّةِ الرَّسولِ - بكلِّ ملابساتِها وأحوالِها - نمطاً فذّاً واحداً لا ينبغي أن يكونَ - وما كانَ ليكونَ - إلّا لواحدٍ منَ النَّاسِ فقط؛ هو رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم .

وما كان محمَّدٌ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم عندَ أصحابِهِ إلّا نبيًّا؛ رَعَوا بشريَّتَهُ المحضةَ في أنفسِهِم حقَّ الرِّعايةِ؛ لكنَّهم أظلُّوها بالنُّبوَّةِ، فصارَت عندَهم كأنَّها منها، حتى إنَّهم لَيَظُنُّونَهما شيئاً واحداً .

ويقطعُ القرآنُ هذا الظَّنَّ على الصَّحابةِ في نفوسِهِم قبلَ أن يُصبحَ يقيناً في كثيرٍ من آياتِهِ، فيجدون فيها ما يُقِرُّ في نفوسِهِم يقيناً أنَّ الرَّسولَ بشرٌ فَضَلَهُم بنبوَّتِهِ وما أُوحِيَ به إليه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَهٌ واحِدٌ ﴾[1].

وتظهرُ بشريَّتُهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أظهَرَ ما تظهرُ في علاقاتِهِ الزَّوجيَّة، فيغضبُ منهنَّ، ويعرضُ عنهنَّ، ويهمُّ بطلاقِهِنَّ، وينزلُ قولُهُ تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبدِلَهُ أزواجاً خيراً منكُنَّ مسلماتٍ

= السَّلام فيه من رجولةٍ وعدلٍ وحسنِ معاملةٍ ؟!

الجوابُ هو الواقعُ المشهودُ الذي عليه الرِّجالُ المسلمونَ اليومَ؛ إلّا أنْ يحدثَ اللَّهُ سبحانهُ في النَّاسِ أمراً يقضي به أن يصبحَ العدلُ والرُّجولةُ وحسنُ المعاملةِ من أُمورِ الفطرةِ أو تكاد !!!

(١) الكهف : ١١٠ .

مؤمناتٍ قانِتاتٍ تائباتٍ عابِداتٍ سائحاتٍ ثَيِّباتٍ وأبكاراً ﴾[1].

يقولُ الطَّبريُّ : « نزلَتْ هذه الآيةُ على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم تحذيراً من اللَّهِ نساءَهُ لمَّا اجتَمَعنَ عليه في الغَيرةِ »[2].

وجاءَ في « صحيح مسلم » عن عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي اللَّه عنه قال : « لما اعتزَلَ نبيُّ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم نساءَه قال : دخلتُ المسجدَ؛ فإذا النَّاسُ يَنكُتون بالحصى ويقولونَ : طلَّقَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم نساءَهُ . وذلك قبلَ أن يُؤمَرنَ بالحجابِ، فقلتُ : لأَعمَلَنَّ ذلك اليومَ . فدخلتُ على عائشةَ فقلتُ : يا ابنةَ أبي بكرٍ ! أَقَدْ بَلَغَ مِن شأنِكِ أن تُؤذِيَ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ؟! فقالت : ما لي ومالكَ يا ابنَ الخطَّابِ ؟! عليكَ بِعَيبَتِكَ . قال : فدخَلتُ على حفصة فقلتُ لها : يا حفصةُ ! أَقَدْ بَلَغَ من شأنِكِ أن تُؤذِيَ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ؟! واللَّهِ لقدْ عَلِمتُ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم لا يُحِبُّكِ، ولولا أنا لَطَلَّقَكِ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم . فبَكَت أشدَّ البكاءِ، فقلتُ لها : أينَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ؟ قالت : هو في خزانتِهِ في المَشرَبَةِ . فدخلتُ، فإذا أنا بِرباحٍ غُلامِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم قاعداً على أُسْكُفَّةِ المشربةِ، مُـدَلٍّ رجليه على نقيرٍ[3] من خشبٍ - وهو جِذْعٌ يرقى عليه رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم

(١) التحريم : ٥ .

(٢) « تفسير الطَّبري » (١٠٥/٢٨) .

(٣) النَّقير : « جذعٌ يُنقَر ويجعل فيه كالمراقي تصعد عليه إلى الغرف » .

ويَنحَدِر - فناديتُ : يا رَباحُ ! استئذِنْ لي عندك على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم . فنظرَ رباحٌ إلى الغرفةِ، ثمَّ نظرَ إليَّ فلم يقُلْ شيئاً، ثمَّ قلتُ : يا رباحُ ! استأذِنْ لي عندَكَ على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم . فنظرَ رباحٌ إلى الغرفةِ، ثمَّ نظرَ إليَّ فلم يقل شيئاً، ثمَّ رفعتُ صوتي فقلتُ : يا رباحُ ! استأذن لي عندك على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فإنِّي أظنُّ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ظنَّ أنِّي إنَّما جئتُ من أجل حفصةَ، واللَّهِ لئن أمَرني رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بضربِ عُنُقِها لأضربنَّ عُنُقَها . ورفعتُ صوتي، فَأَوْمَأَ إليَّ أنِ ارْقَهْ ، فدخلتُ على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم وهو مضطجعٌ على حصيرٍ، فجلستُ، فإذا عليه إزارُهُ وليسَ عليه غيرُهُ، وإذا الحصيرُ قد أثَّرَ في جنبِهِ، فنظرتُ ببصري في خِزَانَةِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فإذا أنا بقبضةٍ من شعيرٍ، نحوُ الصَّاعِ ومِثْلُها قَرَظاً، وإذا أفيقٌ[1] معلَّقٌ .

قال : فابتدَرَتْ عيناي، قال : « ما يُبكيك يا ابنَ الخطَّابِ ؟! » قلتُ : يا نبيَّ اللَّهِ ! ومالي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثَّرَ في جسمِكَ، وهذه خِزانتُكَ لا أرى فيها إلّا ما أرى، وذاك قيصرُ وكسرى في الثِّمارِ والأنهارِ، وأنتَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم وصَفوَتُهُ وهذه خِزَانتُكَ ؟! فقال : « يا ابنَ الخطَّابِ ! ألَا تَرضى أن تكونَ لنا الآخرةُ ولهم الدُّنيا ؟ » . قلت : بلى .

(١) الأفيقُ : الفاضلَةُ من الدِّلاء .

قال : ودخلتُ عليه حين دخلتُ وأنا أرى في وجهِهِ الغضبَ، فقلتُ : يا رسولَ اللّهِ ! ما يشقُّ عليك من شأنِ النِّساءِ ؟ فإن كنتَ طَلَّقتَهُنَّ فإنَّ اللَّهَ معكَ وملائكتَهُ وجبريلَ وميكائيلَ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . وقلَّما تكلمتُ بكلام، وأحمدُ اللَّهَ بكلام؛ إلّا رجوتُ أن يكونَ اللَّهُ يُصدِّقُ قولي الذي أقولُ، ونزلَتِ الآية؛ آيةُ التَّخييرِ : ﴿ عسى رَبُّه إنْ طَلَّقَكُنَّ أنْ يُبدِلَهُ أزواجاً خَيراً منكُنَّ مُسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيِّباتٍ وأبكاراً ﴾[1]، ﴿ وإنْ تظاهَرا عليه فإنَّ اللَّهَ هو مَولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعدَ ذلك ظَهيرٌ ﴾[2].

وكانت عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ وحفصةُ تَظاهَران على سائرِ نساءِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فقلتُ : يا رسولَ اللَّه ! أطلَّقتَهُنَّ ؟ قال : « لا » . قلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ! إنِّي دخلتُ المسجدَ والمسلمون يَنكُتون بالحصى يقولون : طلَّقَ رسولُ اللَّهِ نساءَهُ . أفأنزِلُ فأُخبرُهم أنَّكَ لم تُطلِّقهُنَّ ؟ قال : « نعم إن شئتَ » .

فلم أزَلْ أحدثُهُ حتى تَحَسَّرَ الغضبُ على وجهِهِ، وحتى كَشَرَ[3] فَضَحِكَ، وكان من أحسنِ النَّاس ثغراً، ثمَّ نزلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، ونزلتُ أتشبَّثُ بالجذع، ونزلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم

(١) التحريم : ٥ .
(٢) التحريم : ٤ .

(٣) (كَشَرَ) : كَشَرَ عن أسنانِهِ يَكشِرُ كَشْراً : أبدى، ويكون في الضحك وغيره .

كأنَّما يمشي على الأرض ما يَمَسُّهُ بِيدِهِ، فقلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ! إنَّما كنتَ في الغرفةِ تسعةً وعشرين ؟ قال : « إنَّ الشَّهرَ يكونُ تسعاً وعشرين » . فقمتُ على بابِ المسجدِ فناديتُ بأعلى صوتي : لم يُطلِّقْ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم نساءَهُ .

ونزلت هذه الآيةُ : ﴿ وإذا جاءَهُم أَمرٌ مِنَ الأمْنِ أَوِ الخَوفِ أَذاعُوا به وَلَو رَدُّوهُ إلى الرَّسولِ وإلى أُولي الأَمرِ مِنهم لَعلِمَهُ الذينَ يَستَنبطونَه منهم ﴾[1]، فكنتُ أنا استنبطتُ ذلك الأمرَ، وأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ آيةَ التَّخيير » .

وتظلُّ المرأة هي المرأة - حتى وهي أُمٌّ للمؤمنين، وزوجٌ لرسولِ ربِّ العالمين - تجتالُ الغيرةُ ما في صدرِها، وتُظهرُهُ على النَّاسِ من غير تحرُّجٍ أو تحرُّزٍ أن يفضَحَ الوحيُ أمرَها ويُظهِرَهُ لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم؛ ليظلَّ قرآناً يُتلى على الدَّهرِ؛ تأديباً للنِّساءِ، وتقويماً لاعوجاجِهِنَّ، وتحذيراً لهُنَّ من ألسنتِهِنَّ؛ وإبقاءً على أسرارِ الحياةِ الزَّوجيَّةِ، ومنعاً لها أن تصبحَ على كلِّ لسانٍ فتفقدَ قُدسيَّتَها، ثمَّ لا يكونَ لها حظٌّ من الاحترام، فتذهبَ في النَّاسِ والحياةِ كلَّ مذهبٍ، وتظلَّ ذِكراً من بعدِ أهلِها يَخجَلُ منه الأبناءُ الوارثون .

وإذا تحدَّثَ القرآنُ عن أمرٍ من أمورِ بيتِ النُّبوَّةِ؛ فإنَّما يُرادُ به نفعُ

(١) النساء : ٨٣ .

الأُمَّةِ كما في قولِهِ سبحانه : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ ما أحَلَّ اللَّهُ لكَ تَبتَغي مَرضاةَ أزواجِكَ واللَّه غفورٌ رحيمٌ . قَد فَرَضَ اللَّهُ لكُم تَحِلَّةَ أيمانِكُم واللَّهُ مَولاكُم وهو العليمُ الحكيمُ . وإذْ أسرَّ النَّبيُّ إلى بعضِ أزواجِهِ حديثاً فلمَّا نبَّأَتْ بِهِ وأظهَرَهُ اللَّهُ عليه عرَّفَ بعضَهُ وأعرَضَ عن بَعضٍ فلمَّا نبَّأها به قالَتْ مَن أنبأكَ هذا قال نَبَّأَنِيَ العَليمُ الخبيرُ . إنْ تَتوبا إلى اللَّهِ فَقَد صَغَتْ قلوبُكُما وإنْ تظاهَرا عليهِ فإنَّ اللَّهَ هو مَولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعدَ ذلكَ ظهيرٌ ﴾[1].

جاءَ في « الصَّحيحين » عن عائشةَ رضي اللَّه عنها : « أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم كان يمكثُ عند زَينَبَ بنتِ جحشٍ، ويشربُ عندَها عسلاً، فتواصيتُ أنا وحفصةُ أنَّ أيَّتَنا دخلَ عليها النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم فَلتقُل : إنِّي لأَجدُ منك ريحَ مغافيرَ، أكلتَ مغافيرَ ؟

فدخلَ على إحداهما فقالتْ له ذلك، فقال : « لا بأسَ؛ شربتُ عسلاً عندَ زَينَبَ بنتِ جحشٍ، ولن أعودَ له » فنزلت : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ ما أحلَّ اللَّهُ لكَ ﴾ إلى ﴿ تتوبا إلى اللَّهِ ﴾ لعائشةَ وحفصةَ، ﴿ وإذْ أسرَّ النَّبيُّ إلى بعضِ أزواجِهِ حَديثاً ﴾ لقولِهِ : (بل شربتُ عَسَلاً) » .

من ذلك نعلمُ أنَّ الرِّسالةَ - وهي أشرفُ منزلةٍ - لم تردَّ عنِ

---

(١) التحريم : ١-٤ .

الرَّسولِ أذى غيرةِ نسائِهِ وتواطؤِهِنَّ عليه، فكيفَ يُرَدُّ أذاها عن أُناس مِن أُمَّتِهِ في حياتهِ ومن بعدِهِ ؟!

إنَّهُ درسٌ تعليميٌّ عمليٌّ تقرؤُهُ الأُمَّةُ في البكورِ والآصالِ، ولكأنَّها تنظرُ بعيونِها إلى الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم قائماً بينها يحدِّثُها من أمرِهِ ما لم يَخْفَ منه شيءٌ عليها تذكيراً وتَوجيهاً .

وحين تدخلُ المرأةُ حياةَ رجلٍ يصبحُ له عليها حقٌّ عظيمٌ فيما يظهرُ منها ويُعْلَنُ، وفيما يُسَرُّ منها ويُخفى، فلا ينبغي أن تطويَ جناحَ مودَّتِها إلّا عليه وحدَهُ، فلا تُدخِلُ على مَودَّتِهِ رجلاً آخرَ، ولا تحفظُ في قلبِها شيئاً من الوفاءِ لغيرِهِ، فإن هي فعلت ذلك؛ فعليها أن تسارعَ لإخراجِهِ خشيةَ أن يُفلتَ منها زمامُ قلبِها، فتجدُ نفسَها يوماً فريسةَ تَفريطِها وهي على فراشِ زوجِها، فلا ينفعُها ندمٌ ولا دموعٌ، فإن هي ضعفت أمام إغواءِ نفسِها، وتزيينِ الشَّيطانِ لها، وَرَضِيَتِ الآخرَ بدلاً من زوجِها؛ فالإيمانُ يفرضُ عليها أن تكونَ جريئةً، وأن تخرُجَ من حياتها الأُولى إلى حياةٍ مشروعةٍ أُخرى غيرِها مع الآخرِ : ﴿ فَلا جُناحَ عليهما فيما افتَدَت به ﴾[1].

هذا فيما خفيَ واستسرّ، أمَّا فيما ظهرَ؛ فإنَّ حقًّا للزَّوجِ عليها أن تمنعَ عيونَ النَّاسِ أن تَقتحمَها في وَضَحِ النَّهارِ، أو أن تتسلَّلَ إليها في

---

(١) البقرة : ٢٢٩ .

مخدعِها في غَسَقِ اللَّيلِ، وأن تحجُزَ أسماعَهم عن همسِ لسانِها، وأن تكفَّ أيديَهم عنِ البطشِ بها، وأن لا تُطمِعَ أرجُلَهُم في السَّعيِ إليها .

فقد أصبحت بزواجِها حمىً موقوفاً على الزَّوجِ وحدَهُ، كلُّ شيءٍ فيها ثَغرةٌ تدخلُ منها الفتنةُ إليه، فيجبُ عليها أن تسُدَّ هذه الثُّغَرَ كلَّها؛ لتحولَ بينَ الفتنةِ وبين دخولِها إلى ذلك الحمى، ولا يسدُّ هذه الثُّغَرَ إلّا الخوفُ من اللَّهِ، والتَّقيُّدُ التَّامُّ بشرائعِهِ وأحكامِهِ، والوقوفُ عندَ محارِمِهِ .

وإذا خُصَّتْ نساءُ النَّبيِّ بمخاطبتِهِنَّ بشيءٍ من أنواعِ الحُكمِ؛ فإنَّما ذلك مِنَ اللَّهِ تكريمٌ لهنَّ؛ لمكانِهِنَّ من رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، ومعظمُ ما خُوطبت به أُمَّهاتُ المؤمنين خُوطبت به نساءُ المؤمنين، إذْ يُقصَدُ به إقامتُهُنَّ جميعاً على سواءِ الأمرِ؛ مع تقديمِهِنَّ في الذِّكرِ أوَّلاً على جميعِ المخاطباتِ، وهذا أيضاً من بابِ التَّكريمِ، ورعايةِ المصلحةِ العامَّةِ التي تلوحُ في وضوحٍ من خلالِ النُّصوصِ القرآنيَّةِ الآمرةِ والنَّاهيةِ جميعاً، وهذه لا تتحقَّقُ إلّا أن تَرى نساءُ المؤمنين أُمَّهاتِ المؤمنين يمتثلنَ الوحيَ بأمرِهِ ونَهيِهِ كلِّهِ .

من هذه النُّصوصِ القرآنيَّةِ قولُهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لِأزواجِكَ وبَناتِكَ ونساءِ المؤمنينَ يُدْنينَ عَليهِنَّ مِن جلابيبهنَّ ذلك أدْنى أن يُعرَفنَ فلا يُؤذَينَ وكانَ اللَّهُ غَفوراً رحيماً ﴾[1]، فاللَّهُ سبحانه أعلمُ بما

---

(١) الأحزاب : ٥٩ .

يصلُحُ عليه أمرُ عبادِهِ، وهو يعلمُ أنَّ المرأةَ إذا تبرَّجتْ وازَّيَنَتْ وأظهَرَت ما يقوى به ميلُ الرِّجالِ إليها؛ حتى تكونَ من بعدِهِ الفتنةُ راكضةً في أجسادِهِم وأجسادِهِنَّ معاً، لا تُرفَعُ إلّا بعدَ أن تكونَ هذه الأجسادُ حصادَها، فمن أجلِ هذا يُلقي أمرَهُ إلى إمائِهِ أن يَدْرَأنَ هذه الفتنةَ بإدناءِ جلابِيبِهِنَّ عليهنَّ .

وإذا كانتِ الفتنةُ داعيةً لإدناءِ الجلبابِ على نساءِ المؤمنين؛ وهي مقصيَّةٌ عنِ المؤمنين إزاءَ أمَّهاتِ المؤمنين؛ فيكونُ الأمرُ بإدناءِ الجلابيبِ عليهنَّ - وهنَّ اللَّواتي صانهُنَّ اللَّهُ كرامةً لنبيِّهِ - زيادةَ صونٍ وتكريمٍ : ﴿ ذلكَ أدْنى أن يُعرَفنَ فلا يُؤذَينَ ﴾، إذ ليسَ كلٌّ واحدٍ يعرفُهنَّ بأعيانِهِنَّ، وَلو عُرِفنَ فالمؤمنون مأمورونَ بغضِّ أبصارِهِم، ولو لم يكنْ غضُّ البصرِ مانعاً المؤمنين أن يَرَوا نساءَ النَّبيِّ فيعرفوهنَّ؛ لكان مانعاً المؤمنين أن يعرفوا النِّساءَ المؤمناتِ جميعاً، فيستقيمُ الأمرُ على ما يُحقِّقُ مرضاةَ اللَّهِ في المجتمعِ الإسلاميِّ .

وقد جاءَ في سببِ نزولِ هذه الآية ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما عن عائشةَ رضيَ اللَّه عنها قالت :

« كان عمرُ بنُ الخطَّابِ يقولُ لرسولِ اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم : احجُبْ نساءَكَ . قالت : فلم يفعَلْ، وكان أزواجُ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم يَخرُجْنَ ليلاً إلى ليلٍ قبيلَ المناصعِ، فخرجتْ سودةُ بنتُ زمعةَ

- وكانتِ امرأةً طويلةً - فرآها عمرُ بنُ الخطَّابِ وهو في المجلسِ فقالَ : عَرفناكِ يا سودةُ ! حرصاً على أن ينزلَ الحجابُ، قالت : فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ آيةَ الحجابِ » .

ويلوحُ لنا أنَّ هذه الآيةَ فيها تحديدُ جهةِ المسؤوليَّةِ التي بدونِها لا تصلحُ الأسرةُ ولا البيتُ، والرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم لأنَّه أَوْلى بالمؤمنينَ من أنفسِهِم؛ فاللَّهُ سبحانَهَ يحمِّلُهُ مسؤوليَّةَ الأُمَّةِ، فعليه بهذه المسؤوليَّةِ أن يقولَ لنسائِهِ ونساءِ المؤمنين أن يُدنينَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ، وهذه المسؤوليَّةُ العامَّةُ تُلزِم الرَّجلَ أن يكونَ راعياً في بيتِهِ، مسؤولاً عن رعيَّتِهِ، لذا كان حقًّا عليه بمفهومِ هذه الآيةِ أن يقومَ بحقِّ هذه المسؤوليَّةِ، وأن يؤدِّيَها على وجهِها الأكملِ، فيأمرَ زوجتَه بما أمرَ اللَّهُ به نبيَّهُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم .

وهكذا تتبدَّى لنا من خلالِ هذه النُّصوصِ القرآنيَّةِ صورةٌ واضحةٌ للرَّسولِ البشرِ، تكادُ تُبرِزُ لنا كلَّ ما يدورُ في النَّفسِ وفي البيتِ من خواطرَ وعلاقاتٍ يُغشِّيها جلالُ التَّقوى، ويهديها نورُ الوحيِ، فترى الأُمَّةُ فيها في كلِّ عصورِها وأجيالِها نفسَها، فلا تخرجُ من إطارِها، بل تظلُّ حابسةً نفسَها فيه، فإن هي جاوَزَتْهُ فقد أوْدَت بنفسِها وأَوْرَدَتها مواردَ الهلاكِ، وإنْ هي ظلَّت حابسةً نفسها فيه عاشت في أكنافِ الرَّحمةِ تتقلَّبُ فيها .

الأُبُـوَّةُ الـرَّحِـيمـةُ

قضى رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ولم يترك من ذريَّتهِ وراءَهُ إلّا ابنتَهُ فاطمةَ رضي اللَّهُ عنها، فقد أدركَ الموتُ كلَّ بناتهِ وبَنيهِ، فذاقَ في صبرِ الأنبياءِ الجميلِ مرارةَ فَقْدِهِم، وبَكاهُم واحداً تِلْوَ الآخرِ .

ويشاءُ اللَّهُ سبحانه أن تعيشَ فاطمةُ إلى جنبِ أبيها النَّبيِّ؛ ليُفرِغَ في وَلَدَيْها الحَسَنِ والحُسَيْن دَفْقَ الحنانِ الأبويِّ الذي تفجَّرَ في صدرهِ حين يراهما بعدَ حرمانهِ من آخرِ أولادهِ إبراهيمَ .

وإذا كانَ القرآنُ الكريمُ قد نفى عن الرَّسول صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أن يكونَ أباً لأحدٍ من المؤمنين صُلباً ﴿ ما كانَ محمَّدٌ أبا أحدٍ من رِجالِكُم ﴾[1]، فإن أُبُوَّتَهُ للحَسَن والحُسَين قد احتوت جميعَ المؤمنينَ بجناحَيها إلى قيامِ السَّاعةِ، فكان كلُّ واحدٍ من أصحابهِ يرى فيه الأبَ الشَّفيقَ، والمؤدِّبَ الرَّفيقَ، فيصيبُ من قلبهِ المملوءِ رحمةً ورأفةً ما يُنسيهِ الأبَ والأُمَّ والأخَ والعشيرةَ، فإذا خاطبهُ قال : بأبي أنتَ وأُمِّي يا رسولَ

---

(١) الأحزاب : ٤٠ .

اللَّهِ !

والأُبوَّةُ لا تَربو إلّا حينَ يرى الرَّجلُ أبناءَهُ يتحرَّكون فوقَ الأرضِ، فيرى في كلِّ واحدٍ منهم امتداداً لحياتِهِ بعد موتِهِ، فيُمِدُّهُ بكلِّ ما عندَهُ من أسبابِ الحياةِ التي وَضَعها اللَّهُ في نفسِهِ، ولا يَضِنُّ عليه بشيءٍ منها، وإنْ رأى أنَّ بعضَ هذه الأسبابِ اعتراهُ الوهنُ أو أصابَهُ الفتورُ جَدَّ في البحثِ عن غيرِها من خارجِ نفسِهِ؛ ليظلَّ هؤلاءِ الأبناءُ في وفرةٍ وعافيةٍ، فلا يُحسُّونَ معها أن شيئاً من تلك الأسبابِ اعتراهُ ما اعتراهُ .

وإذا كانَ الرّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم قَد بكى أبناءَهُ وبناتِهِ وهو يودِّعُهم؛ فقد أفاضَ من سرورِ قلبهِ ورُوحهِ على الحسنِ والحسينِ وأُمِّهما فاطمةَ الكثيرَ الكثيرَ، ظل يُذكَرُ على الدَّهرِ قرآناً يُتلى، قال تعالى : ﴿ إنَّما يُريدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عنكُم الرِّجْسَ أهلَ البَيتِ ويُطهِّرَكُم تَطهيراً ﴾[1]، فرسَمَ به المحجَّةَ السَّويَّةَ للآباءِ أن يحرصوا أوَّلاً - وقبلَ كلِّ شيءٍ على تحقيقِ أشرفِ غايةٍ وهم يقومونَ على تربيةِ أبنائِهم، إذ ليس شيءٌ أشرفَ من أن يسلُكَ الوالدُ بولدِهِ الطَّريقَ التي لا يكبو فيها على سوءٍ، فَتَلْتاثُ نفسُه برجسِه، ولا يرى فيها ما يُؤذي عينَه وروحَه من نُتوءاتِ الشَّر، وأيُّ شيءٍ ذلك الذي يحرصُ عليه صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه ؟ إنَّهُ الشَّيءُ الذي يتناسَبُ وشرفَ النُّبوَّةِ وعظَمَ منزِلتِها، إنَّه الطُّهرُ والنَّقاءُ الذي يظلُّ ماضياً في عَقِبِهِ، ولا يقطعُه إلّا من قطعَ نفسَه من شرفِ النُّبوَّةِ؛ ولو كان

(١) الأحزاب : ٣٣ .

موصولَ النَّسبِ بالدَّم والقُربى برسولِ اللّه صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم، وكلُّ من يظلُّ واصلاً نفسه به؛ فهو موصولٌ بشرفِ النُّبوَّةِ؛ وإن كان غيرَ موصولِ النَّسبِ بالدَّمِ والقربى برسولِ اللّه صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم .

فالطُّهرُ - الذي يملأُ قلبَ الإنسان فيكونُ عيناً مبصرةً يرى بها مواقعَ الشَّرِ، وأُذناً واعيةً يسمعُ بها دَندنةَ السُّوءِ، وَوِجداناً يقظاً يُحسُّ به المنكر - هو الغايةُ التي كان الرَّسولُ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم يُقرِّبُها إلى أهلِه وولدِه .

ولسنا بحاجةٍ إلى القولِ بأنَّ نشأةَ الحسنِ والحسينِ في حضنِ النُّبوَّةِ قد جعلتْ منهما بؤرةَ نورٍ وطهرٍ تفيضُ على القرونِ الآتيةِ؛ حتى والذَّاهبةِ فلم تقُم في ذهنِ إنسانٍ على امتدادِ هذه القرونِ رِيبةٌ في ذلك؛ غيرَ أنَّ القرآنَ يريدُ أن يُعمِّق في أذهانِ أهلِ هذه القرونِ الغايةَ التي يجبُ أن يحرصَ عليها الآباءُ وهم يُنشؤنَ أبناءَهم؛ لماذا ؟ لكي يظلَّ المجتمعُ البشريُّ كلُّه مدفوعاً إليها، حريصاً على تحقيقِها، فإذا وهَنَ عن الوصولِ إلى هذه الغاية قرنٌ ما؛ فإنَّهُ يصيبُ من حظِّ القرنِ الذي قبلَهُ ما يُبقي ولو على اليسيرِ من هذهِ الغايةِ، فتظلُّ هذه الغايةُ لائحةً لكلِّ قرنٍ من قريبٍ أو من بعيدٍ لا تخفى عليهم، يرونَ فيها تلك الأُبوَّةَ الرَّائعةَ المشرقةَ التي قامت في أشرفِ بيتٍ في دنيا النَّاسِ - بيتِ محمَّدٍ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم - إذهاباً للرِّجسِ، وتطهيراً للأرواحِ والأجسادِ معاً، فيعيشُ الإنسانُ المخلوقُ من ترابٍ في شرفاتِ السَّماءِ مع الملائكةِ الأطهارِ؛ آخذاً بحظٍّ

من دُنياه وحظٌّ أوفرَ لأُخراهُ .

روى التّرمذيُّ وغيرهُ أنَّ الحسنَ والحسينَ وأُمَّهُما فاطمةَ جلسوا على بساطٍ حولَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فجلَّلَهم بكساءٍ عليه، ثمَّ قال : « هؤلاء أهلُ بيتي، فأذهِبْ عنهُم الرِّجسَ وطهِّرهُم تطهيراً »، فنزلت هذه الآيةُ (١).

إنَّ أحرصَ ما كان يحرصُ عليه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم هو أن يكونَ أهلُ بيتِهِ قَصيِّينَ عن الرِّجسِ، دانينَ منَ الطُّهرِ، فلا يكونُ منهم إلّا الطَّاعةُ التي تُمدُّ طُهرَهم بالبقاءِ، فلا يبقى للرِّجسِ في نفوسِهم همٌّ ولا إشرافٌ، فكانت دعوتُه لهم : « أذهب عنهُم الرِّجسَ وطهِّرهُم تَطهيراً »، وكانتِ استجابةُ اللَّهِ له بأن أنزَلَها قرآناً يُتلى على الدَّهرِ؛ يُبرِمُ للنَّاسِ أمراً لا ينقُضُه إلّا من شَقِيَت نفسُهُ .

وحينَ تنجابُ غِشاوَةُ الباطلِ، ويسيلُ نورُ الهدى من عيون الحقِّ، ولا يكونُ حجَّةٌ لِمَن وضعَ يَديه على عينيهِ كيلا يَرى منه ما يراهُ النَّاسُ جميعاً بلا مراءٍ - وتتقطَّع الحبالُ التي أُوثِقَت بها العقولُ رَدْحاً طويلاً من الزَّمنِ، وتشتدُّ في سيرِها بحثاً عن مَعدِن هذا النُّور؛ حينئذٍ تتحرَّكُ النُّفوسُ - التي ظلَّت قابعةً في مرابِضِها الفاسدةِ زمناً طويلاً بكلِّ عقائِدِها الباطلةِ وسُخفِها الزَّرِيِّ - في محاولةٍ يائسةٍ أن تُطفِئَ ذلك

(١) حديث حسن ورد عن عدد من الصحابة .

النُّورَ، ولكن أنَّى تستطيعُ ذلك وهو نورٌ في الليلِ وفي النَّهارِ، وفي الأَرضِ وفي السَّماءِ، وفي الشدَّةِ وفي الرَّخاءِ، وفي اليأسِ وفي الرَّجاءِ، وفي الحبِّ وفي البغضاءِ، فهل يفيدُ هذه النُّفوسَ تحرُّكُها لإطفاءِ ذلك النُّورِ : ﴿ يُريدونَ لِيُطفِئُوا نورَ اللَّه بِأفواهِهِم واللَّه متمُّ نُورهِ وَلو كَرِهَ الكافرونَ ﴾[1] ؟!

ويرى أهلُ نجرانَ هذا النُّورَ ينتشرُ في آفاقِ نجرانَ، فيدورُ بين رهبانِهم حوارٌ خفيٌّ أكادُ أقولُ : كانوا يحرصونَ أن لا يتسرَّب خبرُه إلى العامَّةِ، ويتهارَشونَ وينكرون وفي نفوسهم تسليمٌ وكِبرٌ معاً؛ تسليمٌ بما عَرفُوا ممَّا قَرؤوا في كتبهم؛ فلا يُنكرونَ من أمرِ محمَّدٍ معه شيئاً ممَّا سمعوا عنه، وكِبْرٌ أن يَنزِعَ من أيديهِمُ العصا - التي ظلُّوا يُخيفونَ بها أتباعَهُم - منذ أن توارَتْ عن عيونِ النَّاسِ المعالمُ التي أقامَها موسى وعيسى عليهما السَّلامُ في التَّوراةِ والإنجيلِ اللَّذين تركوهما للنَّاسِ من بعدِهما - فما لبثَتِ الأيدي الكاسبةُ حراماً أنِ امتدَّت إليهما بالتَّبديل والتَّحريف، حتى جعلاهما سطوراً مرصوفةً وحروفاً موصوفةً لا تفي بالعقلِ على معنىً مقبولٍ، ولا تُسلمهُ إلى حقيقةٍ معقولةٍ، وخشيةَ أن تسقُطَ هَيبتُهم الكاذبةُ ويصبحَ الأنبياءُ فيهما قتلةً وزُناةً وشاربي خمرٍ ولصوصاً، ولا ينجو حتى عيسى عليه السَّلامُ فيقولونَ فيه قولاً إدًّا؛ تكادُ منه السَّماواتُ أن تَنشقَّ وأن تخرَّ الجبالُ هدًّا؛ قالوا : عيسى ابنُ اللَّهِ !

---

(١) الصف : ٨ .

وينتهي بهِمُ الحوارُ أن يذهبَ منهم وفدٌ للقاءِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ومناظرتِه؛ وبخاصَّةٍ في شأن عيسى عليه السَّلامُ، ويصلُ الوفدُ المدينةَ، ويَشْرُفُ برؤيةِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم والتَّحدُّثِ معه، ويحاولُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أن يَصرفَ قلوبَهُم عن عقيدتِهم الباطلةِ المُزَعزعةِ في عيسى عليه السَّلامُ، وأن يحوِّلَها إلى عقيدةِ التَّوحيدِ الخالصةِ، فلم يستجيبوا، وَرَأَوْا في تحوُّلِهم خطراً يتهدَّدُهم في سلطانِهِمُ الدِّينيِّ أوَّلَ ما يتهدَّدُهم، فلم يبقَ أمامَ الرَّسولِ - بعد أن استَنفدَ معهم أُسلوبَ الحوارِ - إلّا المباهلةُ استجابةً لأمرِ اللَّهِ : ﴿ فَقُلْ تعالَوْا نَدعُ أبناءَنا وأبناءَكُم ونِساءَنا ونِساءَكُم وأنفُسَنا وأنفُسَكُم ثمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجعَلْ لَعنةَ اللَّهِ على الكاذبين ﴾[1].

ويدفعُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بولَديهِ الغاليَينِ لهذِه المباهلةِ التي هو على عَينِ اليقينِ أنَّ وفدَ نجرانَ منها في خسرانٍ مبينٍ، ومقامُ النُّبوَّةِ لا يملكُ معه صاحبُهُ إلّا الإذعانَ الرَّاضيَ لأمرِ الوحيِ، ولا يكادُ يكونُ على هذا مع مقام النُّبوَّةِ إلّا مَن أخذَ يَقينَهُ منَ الأنبياءِ، فصارَ يَقينُه أقربَ إلى يَقينِهِم وأدنى .

يذكرُ ابنُ كثيرٍ رحمه اللَّهُ : « أنَّ وفدَ نجرانَ ألقوا بأمرِهِم إلى سيِّدِهِم وذي رأيِهِمُ العاقبِ، فقال لهم : واللَّهِ يا معشرَ النَّصارى ! لقد عرفتم أنَّ محمَّداً لنبيٌّ مرسلٌ، ولقد جاءكم بالفصلِ من خبرِ صاحِبِكُم،

(١) آل عمران : ٦١ .

ولقد عَلِمتُم أنَّه ما لاعَنَ قومٌ نبيًّا قطُّ فَبقِيَ كبيرُهم ولا نَبَتَ صغيرُهم، وإنَّه للاستئصالُ منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتُم إلّا إلفَ دينِكم والإقامةَ على ما أنتُم عليه من القول في صاحبِكم؛ فَوادِعوا الرَّجلَ وانصرِفوا إلى بلادِكم .فأتَوُا النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم فقالوا : يا أبا القاسمِ ! قد رأينا أن لا نلاعنَكَ ونترُكَك على دِينكَ ونرجعَ على دينِنا »[1].

ويذكرُ ابنُ كثيرٍ أيضاً نقلاً عن البخاريِّ رحمه اللَّهُ عن حُذيفة رضي اللَّه عنه قال :

« جاءَ العاقبُ والسيِّدُ صاحبا نجرانَ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم يُريدان أن يلاعناه، قال : فقال أحدُهما لصاحبهِ : لا تفعلْ؛ فواللَّهِ لئنْ كان نبيّاً فلاعنَّاهُ لا نفلِحُ نحنُ ولا عَقِبُنا من بعدِنا قالا : إنَّا نُعطيكَ ما سألتنا، وابعَث معنا رجُلاً أميناً، ولا تَبعَثْ معنا إلّا أَميناً فقال : لأبعثَنَّ معكم رجلاً أميناً حَقَّ أمينٍ، قُم يا أبا عبيدةَ بنَ الجرَّاحِ ! هذا أمينُ هذه الأُمَّةِ »[2].

وفي المباهلةِ خطرٌ كبيرٌ جدّاً يتعرَّضُ له الأبناءُ في أعقابِ المُباهِلين إذا عَلِموا من أنفسِهم مَيلاً ولو قليلاً عن الصِّدقِ، لذا فلم يَجرُؤْ وَفدُ نجرانَ على الإقدامِ على المباهلةِ، وطلبوا منَ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أن يُرسل معهم أميناً، فأرسلَ أبا عبيدةَ .

(١) « تفسير ابن كثير » (١/٣٦٨) .

(٢) « تفسير ابن كثير » (١/٣٦٩)، وهو في مسلم أيضاً .

أمَّا الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم فلم يكن وهو يمشي إلى المباهلةِ بخائفٍ على عَقِبهِ ولا على عَقِبِ أبنائهِ، وحين أقبلَ هو والحسنُ والحسينُ وعليٌّ وفاطمةُ رضي اللَّهُ عنهم جميعاً رأى وفدُ نجرانَ في وُجوهِهم أثرَ الصِّدقِ، فَأَحجَمُوا، وكان في إحجامِهم إقرارٌ فعليٌّ أَبَوْا أنْ يقولوه بألسنتِهم .

وكان درساً عظيماً - يكتبهُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بقلمِ الوحيِ الأزليِّ في ثباتٍ وإقدامٍ؛ والتَّضحيةِ بالأبناءِ والأهلِ والعشيرةِ في سبيلِ إقرارِ الحقيقةِ وإعلاءِ مضمونِها - يُكتَبُ له البقاءُ على الدَّهرِ في صدورِ المؤمنين حِفظاً، وعلى ألسنتِهم قولاً، وبينَ أيديهِم ومن خَلفِهِم عملاً، فيمضي معه المسلمون لا يخافونَ إلّا اللَّهَ وحده حتى وهم يستشعرون النَّصرَ؛ بل يرونه ماثلاً أمامَهم من قريبٍ أو مِن بعيدٍ بزلَّةِ أحدِهم، أو بخللٍ في نظمِ الأسبابِ وتوجيهِها إلى موجدِها .

إنَّ حبَّ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم للحسنِ والحسينِ كان من أعظمِ الحبِّ، وقد لقيا من حبِّهِ ما لم يَلقهُ أحدٌ من أبويه؛ بل من آبائهِ جميعاً، ولكن الحبَّ يجبُ أن يزولَ ويتلاشى إذا كان الحبُّ الأعظمُ يُملي عليه أمراً، ثمَّ هو بذلك يُعلِّمُ الحسنَ والحسينَ القيمةَ الفعليَّةَ للشَّجاعةِ، وكم كَلَّفتهُما شجاعتُهما هذه - التي بناها رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم في نَفسَيهِما - بعد موتهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟! لقد كلَّفتهُما الكثيرَ الكثيرَ، وصنعا من ذوب قَلبَيهِما ملحمةً بطوليَّةً فائقة

الوصفِ تتغنَّى بها الأجيالُ من بعدِهما، فطوبى للحسنِ والحسينِ ابْنَي رسولِ اللّهِ وسِبطَيهِ .

وهكذا فإنَّنا واجدونَ في هذه المباهلةِ فكرةً تربويَّةً مَجيدةً تزهُو بقشابتِها على الدَّهرِ، تمضي مع الأُمَّةِ في حاضرِها ومستقبلِها، تعلو متنَ القلوبَ؛ لأنَّها من اللّهِ المدبِّرِ الحكيمِ، لا يحسنُ أن نتركَها تعبرُ على ألسنةِ التَّالينَ للقرآنِ في سرعةِ الكلماتِ المنطوقةِ .

وحينَ يكونُ عرفٌ سائدٌ لا يخالفُ الشرعَ؛ أو لا يكونُ الشَّرعُ قد حكمَ فيه بين النَّاسِ؛ لم يكن الرَّسولُ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم يجدُ في نفسِه حرجاً من التَّحاكمِ إليه؛ أو الأخذِ بحظٍّ منه؛ لئلَّا يخرجَ على مألوفٍ لا ضررَ يعودُ عليه منه، بل ربَّما يستجلبُ به قلوبَ النَّاسِ إليه، وسواءٌ أكانَ هذا قبلَ البعثةِ أم بعدَها .

ومعلومٌ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم كان قد تبنَّى زيدَ بنَ حارثَة قبلَ البعثةِ، وصارَ من أحبِّ النَّاسِ إليه وأقربِهم إلى نفسِه؛ حتى إنَّهُ حينَ خيَّرهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بينه وبين أهلِه اختارَهُ على أهلِهِ، فخرجَ به على النَّاس يُشهِدُهم أنَّهُ ابنُه يَرِثُه وهو يَرِثُه : « يا معشرَ قريشٍ ! اشهدوا أنَّهُ ابني يَرِثُني وَأَرِثُهُ » . وكان زيدٌ رضي اللّهُ عنه أوَّل مَن آمَنَ بالإسلامِ ديناً وبمحمَّدٍ نبيًّا ورسولاً، وظلَّ زيدٌ - حِبُّ رسولِ اللّهِ - أثيراً عندَ الرَّسولِ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم، حاظِياً بحبِّهِ ورضاهُ إلى أن لَقِيَ ربَّه

شهيداً على أرضِ مؤتةَ، فنعاه الرّسولُ هو وصاحبيه على المنبرِ لأصحابِه ودُموعُه تختلطُ بكلماتِه المحزونةِ، فقال عنه وعن جعفرٍ : « أخوايَ ومُؤنِساي ومُحدِّثايَ » .

ويصوِّرُ القرآنُ الكريمُ العلاقةَ الوطيدةَ التي نشأت بين قَلبَي الرَّسولِ وزيدٍ تصويراً رائعاً دقيقاً، فيقولُ : ﴿ وإذْ تقولُ للَّذي أنعمَ اللَّهُ عليه وأنعَمتَ عليه ﴾[1]؛ تعبيرٌ يتسامى فوقَ تصويرِ البشرِ لأدقِّ العلاقاتِ النَّاشئةِ بينهم بأُبوَّةٍ وبُنوَّةٍ وعمومةٍ وخُؤُولةٍ، وغيرِ ذلك، يمزجُ هذه العلاقاتِ بحروفِه ليجعلَ منها نعمةً تجوزُ أبعادَ الزَّمنِ، فتستقرُّ في مسامعِ الحياةِ والكونِ والنَّاسِ كلماتٍ تُتلى تمحو الخطيئاتِ وتُربي الحسناتِ .

وأيُّ نعمةٍ أعظمُ من نعمةِ الهدايةِ يمنُّ اللَّهُ بها على خيارِ عبادِه هبةً خالصةً منه لهم، وأيُّ نعمةٍ أعظمُ من نعمةِ العِتقِ يمنُّ بها الإنسانُ على إنسانٍ هبةً خالصةً منه له، وعن هذا المُنعَمِ عليه من اللَّهِ ومن رسولِه - وهو زيدٌ رضيُ اللَّهُ عنه - كنَّى القرآنُ بقولِه : ﴿ أنعمَ اللَّهُ عليه وأنعَمتَ عليه ﴾، والتَّعبيرُ القرآنيُّ : ﴿ أنعَمتَ عَلَيْهِ ﴾ يشعرُ بالحقِّ الذي يبقى في عنقِ المتبنَّى للمُتَبنِّي، فهو كالحقِّ الذي أوجَبهُ اللَّهُ للوالدِ على ولدِ صُلبهِ، كما يُشعرُ أيضاً بالحقِّ الذي على المُتبنِّي للمُتبنَّى، فهو كالحقِّ الذي أوجَبهُ اللَّهُ على الوالدِ لولدِ صُلبهِ، وقد أدَّى الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم الحقَّين كما يَليقُ بمقامِ النُّبوَّةِ .

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

وإذا كان الآباءُ لا يُعجزُهم عن إبلاغِ الحقوقِ التي لأبنائِهم عليهم إليهم إلا الموتُ؛ أو ما يُقعدُهم إلى الأرضِ؛ فإنَّ الآباءَ الأنبياءَ قد فاقُوا الآباءَ وسبقوهم سبقاً بعيداً، أمَّا سيِّدُهم وسابِقُهم فقد سبقَ الأنبياءَ جميعاً، وأعطى لأبنائِهِ وبناتهِ من ذاتِ نفسهِ وذوبِ قلبهِ، ورقَّةِ روحهِ، ودفقِ حنانهِ، وعُذوبةِ خُلُقهِ ما جعلَ كلَّ واحدٍ منهم عَلَماً فذًّا سامِقاً لا تُطال ذروتُه، ولا تُبلَغُ قِمَّتُه في التَّربيةِ والدِّينِ والعبادةِ وشجاعةِ القلبِ، حتى صارت تُضرَبُ بهمُ الأمثالُ؛ بل كانوا هم هذه الأمثالَ نفسَها، وحتى بلغَ من حبِّ قومٍ لهم أن نزَّهُوهُم عنِ الأخطاءِ، ورَفعُوهُم إلى منازلِ الأنبياءِ .

وإذا كان حبُّهُم - لمكانتِهم من رسولِ اللَّه - واجباً شرعيّاً لا يَتمُّ إيمانُ المسلمِ إلّا به؛ فما يحسنُ أن يبلغ هذا الحبُّ ما بلغَ عندَ أولئكَ .

وتظلُّ علاقةُ التَّبنّي بينَ الرَّسول صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم وبين متبنَّاهُ زيدٍ رضيَ اللَّهُ عنه حتى يعلنَ القرآنُ نهايَتها ويأمرَ أن تُقطَعَ، وذلك قولُه : ﴿ وما جَعَلَ أدْعياءَكُمْ أبناءَكُم ذلِكُمْ قَولُكُمْ بأفواهِكُم واللَّهُ يقولُ الحقَّ وهو يَهدي السَّبيلَ ۝ ادْعوهُمْ لآبائِهِم هُوَ أَقسَطُ عندَ اللَّهِ فإن لم تَعْلَموا آباءَهُم فإخوانُكُمْ في الدِّينِ ومَواليكم وليسَ عليكمْ جُناحٌ فيما أخطأتُم بهِ ولكن ما تعمَّدَت قلوبُكم وكانَ اللَّهُ غَفوراً رحيماً ﴾[1].

---

(١) الأحزاب : ٤ ، ٥ .

ويطيبُ قلبُ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم وقلبُ زيدٍ؛ على الرَّغمِ ممَّا قد يكونُ في قلبِ زيدٍ من ألمٍ أحسَّ به وهو يتلقَّى خبرَ الوحيِ؛ لكنَّهُ لا يسعُهُ إلّا التَّسليمُ والإذعانُ لأمرٍ قضاهُ اللَّه سبحانهُ فيه .

وجاءَ في « صحيح البخاري » عن عبدِاللَّهِ بنِ عُمرَ رضي اللَّهُ عنهما : « أنَّ زيدَ بنَ حارثةَ مولى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ما كُنَّا ندعوه إلّا زيدَ بنَ محمَّدٍ حتى أنزلَ اللَّهُ : ﴿ ادْعوهُم لآبائِهِم هو أقسطُ عندَ اللَّهِ ﴾، عندئذٍ انتهى النَّاسُ وصاروا يدعونَ زيداً باسمِه منفصلاً عن محمَّدٍ » .

وكأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم حينَ أمَّرَ زيداً على جيشِ مؤتةَ أرادَ أن يُكرِّمَه إيناساً لقلبِه، ودفعاً لما قد يكونُ وقعَ في قلبِهِ من ألمٍ، هذا إلى أنَّه يعلمُ منه الشَّجاعةَ والقدرةَ القتاليَّةَ التي تؤهِّلُه أن يؤمَّرَ على جيشٍ .

وقد ظلَّت علاقةُ التَّبنِّي قائمةً بينَ الرَّسولِ وبين زيدٍ ما لا يقلُّ عن ربعِ قرنٍ منَ الزَّمانِ، إذْ تبنَّاهُ بعد أن وهبتْهُ له خديجةُ رضيَ اللَّهُ عنها قبلَ البعثةِ، وظلَّت طولَ العهدِ المكِّيِّ وصدراً مِنَ العهدِ المدنيِّ، وهي فترةٌ زمنيَّةٌ طويلةٌ، فلا غرابةَ إن تركتْ شيئاً منَ الألمِ في نفسِ زيدٍ وهو يتلقَّى خبرَ الوحيِ بقطعِ علاقةِ التَّبنِّي هذه .

من ذلك نعلمُ أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وفَّى حقَّ ابنِه بالتَّبنِّي

على أكملِ وجهٍ وفَّاهُ نبيٌّ : ﴿ أنعمتَ عليه ﴾، وإذا كان ذلك شَأْنَهُ مع متبنَّاه؛ فكيفَ يكونُ شأنهُ مع بَنيهِ وبناتِه، ثمَّ مع الحسنِ والحسينِ اللَّذين عاشا في كَنَفِ النُّبوَّةِ كأهنإِ ما يعيشُ بشرٌ ؟!

لقد رحُبَت أُبوَّةُ الرَّسولِ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم حتى شَملتِ الأُمَّةَ كلَّها؛ ما كان منها في حياتِه وما وُجِدَ منها بعد موتِه، حمَّلَهُ اللّهُ بها أمانةَ الشَّهادةِ عليها وعلى سائرِ الأُمَمِ ممثَّلةً في أنبيائِها يومَ القيامةِ : ﴿ وكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لتَكونوا شُهَداءَ على النَّاسِ وَيكونَ الرَّسولُ عَليكُمْ شهيداً ﴾[1]، ﴿ فكيفَ إذا جِئْنا مِن كلِّ أُمَّةٍ بشهيدٍ وجِئْنا بكَ على هؤلاءِ شهيداً ﴾[2].

وكان إذا ماتَ أحدُ أصحابِه بكى عليه وأبكى، وكانَ كلٌّ واحدٍ من أصحابِهِ يظنُّ أنَّهُ أقربُ النَّاسِ إلى قلبهِ وآثرُهم عندَهُ؛ غيرَ أنَّ أُبوَّتَهُ لأبنائِهِ وبناتِهِ كانت آيةً من آياتِ نبوَّتِه، وأبُّوتُه للحسنِ والحسينِ كانت من أعظمِ آياتِ نبوَّتِه صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) النساء : ٤١ .

الرَّسولُ المُرَبِّي صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم

يعيشُ العظماءُ ويموتونَ فلا يبقى من بعدِ موتِهِم إلّا ما يُذكَرونَ به، فالقائدُ العظيمُ يُذكَرُ بمآثرِهِ القياديَّةِ وقدرتهِ القتاليَّةِ، والعالِمُ العظيمُ يُذكَرُ بمآثرِهِ العلميَّةِ وقُدراتهِ الفكريَّةِ، والمربِّي العظيمُ يُذكرُ بمآثرِهِ التَّربويَّةِ وقُدراتهِ التَّطبيقيَّةِ .

هذا في العظماءِ، وهم كثيرون لا يخلو منهم زمانٌ ولا مكانٌ، وهم يتفاوَتونَ في قُدراتِهِم، فتجدُ منهُم السَّابقَ الذي لا يُدرَكُ؛ والمقتصدَ الذي يُنالُ بجهدٍ؛ والبطيءَ الذي يَسهُلُ اللّحاقُ به، وكلُّ نوعٍ من هؤلاءِ يتفاوَتونَ فيما بينهم، وكلُّ هذه الأنواعِ تلتقي على قدرٍ مشتركٍ، وتصدرُ عن قُدرةٍ واحدةٍ هي العقلُ الذي امتازَ به الإنسانُ من سائرِ المخلوقاتِ الأرضيَّةِ .

وقد خلَّدَ الزَّمانُ طائفةً منَ العباقرةِ في كلِّ فنٍّ من الفنونِ والمعارفِ الإنسانيَّة، وتناقلَتِ الأجيالُ عنهم ما دوَّنُوا من نظريَّاتٍ وما وصلوا إليه مِن اكتشافاتٍ، وصاروا يحفظونها ويَبنُونَ عليها، ويَعزُونَ كلَّ نظريَّةٍ

لمبدعيها، وكلُّ اكتشافٍ لمُظهره .

وقدِ اجتمعت للنَّاسِ وفرةٌ وفيرةٌ من هذه النَّظريَّاتِ والاكتشافاتِ؛ لكنَّها جميعاً تذوبُ حين تمسُّها حرارةُ الوحي وهي تعرضُ لشيءٍ من الأشياءِ أو مسألةٍ من المسائل بلا غُلُوٍّ وبلا تعقيدٍ .

ومن أيِّ طريقٍ أتيت القرآنَ وجدتَّه سالكاً بك إليه حتى يَصِلَكَ إلى الأمرِ الذي تحرصُ عليه، ولا يكونُ العجزُ فيكَ إلّا منك، وبمقدارِ ما تُؤتى من فهمٍ للقرآنِ تُعطى من بركةِ معناهُ، فإن كنتَ مُقلًّا أُقلِلْتَ، وإن كنتَ مكثراً أُكْثِرتَ، فَحظُّكَ منه ما تستطيعُ .

وحينَ كانتِ الآيةُ أوِ السُّورةُ تنزلُ على الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم؛ كان يُسارعُ إلى تلاوتِها على أصحابهِ ليحفظوها في صدورِهم، ويُدَوِّنوها في صُحفِهم، ثمَّ يَرونَها حركةً واعيةً في شخص الرَّسول صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فتزدادُ رسوخاً في قلوبِهم وعقولِهم معاً، ويزدادونَ تعلُّقاً به صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فتكونُ السُّورةُ أوِ الآيةُ محفوظةً في صدورِهم وصحفِهم بحروفِها وكلماتِها؛ وفي قلوبِهم وجوارحِهم بمعانِيها وفَحواها، وبذا كان الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم هو السُّورةَ أوِ الآيةَ، ثمَّ قلِ : القرآنَ كلُّه يُرى بالعينِ، ويُسمعُ بالأُذُن، ويُحَسُّ بالأيدي، فكانَ المربِّيَ القرآنيَّ أو قلِ : القرآنَ المربِّيَ .

ولسنا بقادرينَ على إيرادِ الأمثلةِ كلِّها لإظهارِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه

عليهِ وسلَّم المربِّي القرآنيِّ؛ فإنَّ آياتِ القرآنِ كلَّها أمثلةٌ شاهدةٌ على ذلك، فمعنى هذا أنَّنا لكي نوفِّيَ هذا الفصلَ حقَّهُ سنؤوِّلُ القرآنَ كلَّهُ، وهذا أمرٌ ربَّما استغرقَ العمرَ كلَّه، ثمَّ إنَّهُ يكفي فيه إيرادُ أمثلةٍ معدودةٍ، فتكتملُ لنا الصُّورةُ للمربِّي القرآنيِّ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، وإذا كانت عائشةُ رضي اللَّه عنها حين سُئِلَتْ عن خُلقِ رسولِ اللَّهِ قالت : « كانَ خُلُقُه القرآنَ »[1] فإنَّنا واجدون تأويلَ هذه الكلمةِ الموجزةِ - بأتمِّ صورةٍ في كلِّ آيةٍ وأجلاها - عملاً إيمانيًّا حتى لتكادُ الآيةُ تكونُ هي القرآنَ كلَّهُ أوِ القرآنَ كلَّهُ يجتمعُ في آيةٍ واحدةٍ، فهو الإعجازُ العلميُّ والعمليُّ معاً؛ لا يَبلى على الدَّهرِ ولا يحورُعلى الأيَّامِ، من هنا أقولُ مرَّةً أخرى : يكفي سَوقُ آياتٍ معدوداتٍ برهاناً على ذلك .

والخطَّةُ التَّربويَّةُ التي رَسمها القرآنُ الكريمُ ونفَّذَها الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم تبدأُ بقولِه تعالى : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بلِّغ ما أُنزِلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ وإنْ لَم تَفعَل فما بلَّغتَ رسالَتَهُ ﴾[2]، فهو أمرٌ مِن اللَّهِ سبحانه لرسولِه أن يبلِّغَ الوحيَ كلَّه؛ ما كانَ منه عامًّا للأُمَّةِ وما كان منه خاصًّا، فإن أخفى منه شيئاً أو حدَّثتهُ نفسُهُ بإخفائِهِ فهو انتقاصٌ منَ الوحيِ، وهو خيانةٌ لا ينبغي ولا يجملُ به أن يفعلَها، وقولُه : ﴿ وإنْ لَمْ تَفعَل فما بلَّغتَ رسالَتَهُ ﴾ تهديدٌ شديدٌ، وليسَ له معنىً إلَّا هذا؛ لأنَّهُ لا يُعقَلُ أن يُخفيَ نبيٌّ وحياً أُنزلَ إليه، ولو كان النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم مُخفياً

---

(١) رواه مسلم .

(٢) المائدة : ٦٧ .

شيئاً من الوحي؛ لأخفى ما نزلَ عليه منه في شأنِ زينبَ بنتِ جحشٍ، وأشدَّه : ﴿ وتُخْفي في نَفسِكَ ما اللَّهُ مُبديهِ ﴾[1]، ولا ريبَ أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلام كان يعلمُ أنْ سيكونُ إرجافٌ شديدٌ مِن المنافقين وهو يقرأُ هذهِ الآيةَ وما قبلَها وما بعدَها؛ لأنَّ لها تعلُّقاً وثيقاً بأمرٍ عاطفيٍّ يخضعُ له البشرُ، والرَّسولُ واحدٌ منهم؛ غيرَ أنَّهُ يترفَّعُ بمقامهِ عن أحوالِهِمُ التي قد يتعادَونَ بها أحياناً؛ بل في كثيرٍ مِن الأحيانِ .

إذاً فأَمْرُ اللَّهِ نبيَّهُ في هذهِ الآيةِ أن يبلِّغَ ما أُنزلَ إليه ليسَ إلّا تأكيداً لأمرٍ يُمضيه نبيُّهُ من غيرِ هذا الأمرِ؛ وهو : ﴿ بلِّغ ﴾؛ مهما كان ثِقلُ هذا الوحي، وما يكونُ له من أثرٍ في واقعِ النَّاسِ، فيكونُ الصِّدقُ مع اللَّهِ ومع النَّاسِ ومع النَّفسِ هو القاعدةَ التي ينطلقُ منها النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم في إنفاذِهِ الخطَّةَ التَّربويَّةَ القرآنيَّةَ، والصِّدقُ خُلُقٌ صاحَبَ النَّبيَّ الكريمَ قبلَ البعثةِ، فما جَرَّبَ عليه قومُه كذباً قطُّ في أيِّ أمرٍ، وإذ كان الصِّدقُ هو القاعدةَ التي تقومُ عليها الخطَّةُ التَّربويَّةُ القرآنيَّةُ، وإذ كان المحورُ الذي تدورُ عليه هذه القاعدةُ في التَّطبيقِ العمليِّ هو الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، وإذ كان القرآنُ هو الخطَّة التَّربويَّة المنهجيَّةَ وهو كلامُ اللَّهِ ووحيُهُ، وإذ كانت الأمَّةُ هي الميدانَ الذي تتحرَّكُ فيه هذه الخطَّةُ؛ فقد اجتمعت للرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم العناصرُ كلُّها للعمليَّةِ التَّربويَّةِ : المنطلقُ، والخطَّةُ، والمحورُ، والميدانُ، وهذه العناصرُ لم تتحقَّق قطُّ لإنسانٍ غير

(١) الأحزاب : ٣٧ .

محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، وهي جميعاً موجودةٌ في قولهِ تعالى : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بلِّغ ما أُنزِلَ إليكَ مِن ربِّكَ وإن لَم تَفعَلْ فما بلَّغتَ رسالتَه ﴾، فالمحورُ هو : الرَّسولُ المبلِّغُ، والخطَّةُ هي: الوحيُ المُنَزَّلُ إلى الرَّسولِ من ربِّهِ، والميدانُ هو: الأُمَّةُ التي خُوطِبَ النَّبيُّ بإبلاغِها بقوله : ﴿ بَلِّغ ﴾، والمنطلقُ هو: الصِّدقُ الظَّاهرُ من قولِهِ : ﴿ وإنْ لَم تَفعَلْ فما بلَّغتَ رسالتَهُ ﴾ .

بهذه كلِّها كان الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم هو المربِّيَ القرآنيَّ أوِ القرآنيَّ المربِّيَ؛ الذي ظلَّت كلُّ عناصرِ العمليَّةِ التَّربويَّةِ قائمةً بعدَه تُؤدِّي عَملها على أكملِ وجهٍ بلا فتورٍ ولا اختلافٍ، يأوي إليها طلابُ المعرفةِ في كلِّ زمانٍ؛ فلا يجدونَها إلَّا رابيَةً مباركةً : ﴿ قُلْ لَو كانَ البَحرُ مِداداً لِكلِماتِ ربِّي لَنَفِدَ البَحرُ قَبلَ أنْ تَنفَدَ كَلِماتُ ربِّي وَلَو جِئنا بمثلِهِ مَدَداً ﴾[1].

والخطَّةُ التَّربويَّةُ التي رسمَها القرآنُ ونفَّذَها الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم واقعةٌ بين افعَل وبين لا تفعل؛ أي : بينَ الأمرِ وبينَ النَّهيِ بكلِّ صِيَغِهِما وأساليبِهِما، وقد أنشأَ في قلوبِ المؤمنين الخشيةَ الصَّادقةَ التي ألزَمتْهُم الاستقامةَ على هذه الخطَّةِ : ﴿ فاسْتَقِم كَما أُمِرتَ ومَن تابَ مَعكَ ولا تَطْغَوا إنَّهُ بِما تعمَلونَ بَصيرٌ ﴾[2].

---

(١) الكهف : ١٠٩ .

(٢) هود : ١١٢ .

□ بينَ صِيغَتي الأمرِ والنَّهي :

ولَم تَدَعِ الخطَّةُ القرآنيَّةُ التَّربويَّةُ جانباً من جوانبِ النَّفسِ أو الحياةِ إلّا امتدَّت إليه بشيءٍ منها؛ ليكونَ بينَ الإنسانِ وبين الحياةِ تفاعلٌ إيجابيٌّ بلا نفرةٍ ولا ازدواجيَّةٍ ولا تعقيدٍ، فشادَتِ البناءَ التَّربويَّ في أحسنِ صورةٍ وأتمِّ هيئةٍ .

ففي العقيدةِ ينزلُ الوحيُ على الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بإثباتٍ ونفيٍ، كلاهما يؤكِّدُ وحدانيَّةَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وينفي عنه الأندادَ والشركاءَ، وينزِّهُه عنِ المشابهَةِ والمماثلَةِ لخلقهِ، وأخيراً يعلنُ المفاصلةَ بين المقيم على التَّوحيدِ وبين الشَّاردِ عنه؛ ففي الإثباتِ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أحدٌ ٥ اللَّهُ الصَّمدُ ٥ لَم يَلِدْ وَلَم يولَدْ ٥ وَلَم يكُنْ لهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾(١)، وفي النَّهيِ : ﴿ قُلْ يا أيُّها الكافِرونَ ٥ لا أعبُدُ ما تَعبُدونَ ٥ ولا أنتُم عابِدونَ ما أعبُدُ ٥ ولا أنا عابدٌ ما عَبَدتُم ٥ وَلا أَنتُم عابِدونَ ما أعبُدُ ٥ لكُمْ دينُكُم وليَ دِين ﴾(٢)، وحين تستقرُّ العقيدةُ الصَّادقةُ الخالصةُ من الشَّوائبِ في الصُّدورِ يسهُلُ تقبُّلُ الأوامرِ والنَّواهي كلِّها .

وبَدَهِيٌّ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم وهو يُلقي بثِقلِ الوحيِ على أصحابهِ - وبخاصَّةٍ ما كان في التَّوحيدِ - كان يريدُ منهم أنْ يستشعِروا ثِقلَهُ وضرورتَهُ، فلا يسهلُ عليهِمُ التَّفريطُ فيه .

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) سورة الكافرون .

ولا يمكنُ بأيِّ حالٍ الوصولُ بأيِّ جماعةٍ إلى قناعةٍ تامَّةٍ في مسألةٍ ما؛ إلّا إذا كان لدى هذه الجماعةِ الأصلُ الذي تقيسُ به المسائلَ التي تُعرضُ عليها، فتطمئنُّ إلى صحَّتِها وصوابِها، وليسَ شيءٌ أصلح لقياسِ الأشياءِ كالعقيدةِ، وهذه قاعدةٌ تربويَّةٌ مهمَّةٌ جدًّا ويجبُ أن تُعلَمَ .

وإذا كانت الأُمَمُ التي ضلَّتِ الطَّريقَ إلى اللَّهِ لا تصدُرُ في قضاياها الخاصَّةِ والعامَّةِ إلّا عن عقائدِها الباطلةِ، ولا تَرضى عنها بديلاً؛ فكيفَ بأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم التي صدَرَت - ولا بدَّ أن تَصدُرَ - في كلِّ قناعاتِها عن عقيدةِ التَّوحيدِ الخالصةِ الصَّادقةِ، فتستقرُّ في وِجدانها كما استقرَّتْ في وِجدان مربِّيها ومعلِّمِها رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ؟!

لقدِ استطاعَ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أن يوجِدَ استقراراً قلبيًّا وعاطفيًّا وعقليًّا في أصحابِه بتربيتِهم على عقيدةِ التَّوحيدِ، وإقناعِهم بصَّحتِها وضرورتِها لهم؛ فكان منهُم التَّضحيةُ، والصَّبرُ، واحتمالُ الأذى، والرِّضا بالقَدرِ كلِّهِ، والإخباتُ الصَّادقُ في العبادةِ، والتَّآخي في اللَّهِ، وتفويضُ أمورِهم إلى اللَّهِ، وهذه لَعمرُ الحقِّ هي الآثارُ الإيجابيَّةُ العمليَّةُ التي أنتَجَتها تربيةُ الرَّسولِ أصحابَهُ على عقيدةِ التَّوحيدِ، وهي التي يجبُ أن تبقى ظاهرةً في حياةِ الأُمَّةِ على الدَّهرِ .

وحين استقرَّتِ العقيدة في قلوبِ أصحابِهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم؛

أَنشأَ يقرِّرُ حقائقَ التَّربيةِ، ويوجِّهُ أنظارَهم إليها، ويعلِّمُهم كيف يتعاملونَ معها بادئاً بنفسِه هو صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، ولكي لا يشقَّ عليهم أمرٌ ما ينزلُ الوحيُ عليه يعاتبهُ في أُمورٍ كان أَوْلى به أن يجتنبَها؛ حتى يكونَ مِن بعضِ أصحابهِ إشفاقٌ عليه وألمٌ ممَّا يكونُ قد وقعَ له بسببِهِ، وقد تعدَّدت معاتبةُ اللَّهِ لنبيِّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، وحكاها لنا القرآنُ جميعاً، فمن ذلك ما كان بعدَ منصَرَفِهم من غزوةِ بدرٍ في شأنِ الأسرى، « وذلك أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم استشارَ في أُسارى بدرٍ أبا بكرٍ فقال: قومُكَ وعَشيرتُكَ فخلِّ سَبيلهم . فاستشارَ عمرَ فقال : أُقتُلْهُم . ففداهم رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فأنزلَ اللَّهُ هذهِ الآيةَ : ﴿ ما كانَ لنبيٍّ أن يكونَ لهُ أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرضِ ﴾[1] إلى قولهِ : ﴿ فَكُلوا ممَّا غَنِمتُم حلالاً طيِّباً ﴾[2]، فلقي النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم عمرَ، قال : كادَ أن يصيبَنا بلاءٌ في خِلافِكَ »[3].

ومن ذلك قولهُ تعالى : ﴿ عَفا اللَّهُ عنكَ لِمَ أَذِنتَ لهُمْ حتى يَتبيَّنَ لكَ الَّذينَ صَدَقوا وتَعلَمَ الكاذبين ﴾[4]، قال مجاهدٌ : « نزلت هذه الآيةُ في أُناسٍ قالوا : استأذِنوا رسولَ اللَّهِ، فإنْ أَذنَ لكُم فاقعدوا، وإنْ لم يأْذَنْ لكم فاقعدوا »، ولذا قالَ اللَّهُ : ﴿ حتى يتبيَّنَ لكَ الَّذينَ صَدَقوا ﴾؛

---

(١) الأنفال : ٦٧ .	(٢) الأنفال : ٦٩ .

(٣) هو في « المستدرك » (٢/٣٢٩)، وقال الحاكم : صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .

(٤) التوبة : ٤٣ .

أي : في إبداءِ الأعذارِ ﴿ وتَعلمَ الكاذِبينَ ﴾، يقولُ تعالى : « هلَّا تركتَهم لمَّا استأذنوكَ فلمْ تأذن لأحدٍ منهم في القعودِ، لِتعلمَ الصَّادقَ منهم في إظهارِ طاعتِكَ من الكاذبِ، فإنَّهم قد كانوا مصرِّين على القعودِ عن الغزوِ وإنْ لم تأذَنْ لهم فيهِ »[1].

ومن ذلك: ﴿ ما كانَ للنَّبيِّ والَّذينَ آمَنوا أنْ يَستَغفِروا للمُشركينَ وَلَوْ كانوا أُولي قُربى مِن بَعدِ ما تبيَّنَ لهُم أنَّهُم أصحابُ الجَحيم ﴾[2]، جاءَ في « مسند الإمام أحمد » : « لمَّا حضرتْ أبا طالبٍ الوفاةُ دخلَ عليه النَّبيُّ وعندَهُ أبو جهلٍ وعبدُاللّهِ بنُ أَبي أُميَّةَ، فقالَ : أي عمِّ ! قلْ : لا إلهَ إلّا اللَّهُ كلمةً أُحاجُّ لك بها عِندَ اللّهِ عزَّ وجلَّ . فقال أبو جَهلٍ وعبدُاللَّهِ بنُ أَبي أُميَّةَ : يا أبا طالبِ ! أَتَرغَبُ عن ملَّةِ عبدِالمطَّلبِ ؟ فقال : أنا على ملَّةِ عبدِالمطَّلبِ . فقال النَّبيُّ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم : لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك . فنزلَت ﴿ ما كانَ للنَّبيِّ ﴾ »[3].

ومن ذلك : ﴿ عَبَسَ وتَوَلَّى ○ أنْ جاءَهُ الأعمى ○ وما يُدْريكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّى ○ أو يذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكرى ○ أمَّا مَنِ استغنى ○ فأنتَ لهُ تَصدَّى ○ وما عليكَ ألّا يَزَّكّى ○ وأمَّا مَن جاءَكَ يَسعى ○ وهوَ يَخشى ○ فأنتَ عنهُ تَلهَّى ﴾[4]، فعن عائشةَ قالَت : « أُنزِلَ ﴿ عبسَ وتولَّى ﴾ في ابنِ أُمِّ مكتومٍ الأعمى؛ أتى رسولَ اللَّهِ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم فجعلَ يقولُ :

---

(1) « تفسير ابن كثير » (٢/٣٦٠) .

(2) التوبة : ١١٣ .

(3) رواه مسلم .

(4) عبس : ١-١٠ .

يا رسولَ اللّهِ ! أرشدني . وعندَ رسولِ اللّهِ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم رجلٌ مِن عُظماءِ المشركين، فجعلَ رسولُ اللّهِ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم يُعرِضُ عنه ويُقبِلُ على الآخَرِ، ويقولُ : ترى بما أقولُ بأساً ؟ ففي هذا نزل »[1]، وجاءَ في روايةٍ أُخرى أنَّ الرَّجلَ هو أُبيٌّ بنُ خلفٍ .

من هذه الوقائعِ ندركُ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم - الذي هو محورُ العمليَّةِ التَّربويَّةِ في المنهجِ القرآنيِّ - كان يتلقَّى التَّربيةَ الصَّارمةَ من ربِّهِ ولكي تظلَّ قواعدَ سلوكيَّةً ضابطةً للأُمَّةِ في حياتِها يسجِّلُها الوحيُ قرآناً تتلوه الأُمَّةُ؛ فاستقامَت في نفسِ الرَّسولِ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم هذه القواعدُ السُّلوكيَّةُ، ثمَّ نقلَها لأصحابِهِ؛ فرَأَوا في ذلك حوافزَ قويَّةً على التَّقبُّلِ والتَّفاعلِ مع هذه القواعدِ، فكانوا يحكونَ النُّبوَّةَ بلا وحيٍ، حتى كادوا أن يكونوا صورةً عمليَّةً رائعةً عن نبيِّهِم، وأشرقَت هذه الصُّورةُ بنورِ ربِّها، ثمَّ أشرقَت على الأُمَّةِ بكلِّ أجيالِها الآتيةِ من المستقبلِ، فاتَّصلَت بها اتِّصالاً مباشراً من غيرِ أن تراه .

ولم يُعرَفْ عن رسولِ اللّهِ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم أنَّهُ قطعَ في أمرٍ لم يكن فيه وحيٌ دونَ أصحابِهِ ، فنمَّى فيهم حبَّ الشُّورى، فرأيُ الاثنينِ أحكَمُ مِن رأيِ الواحدِ، ورأيُ الثَّلاثةِ أحكمُ من رأيِ الاثنينِ، وهكذا، والشَّواهِدُ على ذلك كثيرةٌ في السُّنَّةِ، وأمَّا في القرآنِ فقد جاءَ الأمرُ بها

(١) رواه الترمذي، وابن حبّان، وابن جرير الطَّبري، والحاكم، وقال العراقي : رجاله رجال الصَّحيح، وله شاهد من حديث أنس بن مالك .

في قولِه سبحانه : ﴿ وَشاوِرْهُم في الأَمْرِ ﴾[1]، فعاشَ أصحابهُ في كَنفِهِ ومِن بعدِه بهذه الرّوح الدّافِقةِ مِن الحرصِ على مصلحةِ الإسلامِ وجماعتِه، وظلّت حياتُهم سيرةً مضيئةً تقرؤُها الأجيالُ المتعاقبةُ مِن بعدِهِم أثراً حكيماً للتّربيةِ النّبويّةِ التي سطّرها فيهمُ النّبيُّ امتثالاً لقولِه سبحانه : ﴿ وَشاوِرْهُم في الأمرِ ﴾ .

وفي مجالِ العبادةِ كان الصّحابةُ رضوانُ اللّهِ عليهم يَرون الرّسولَ صلّى اللّه عليهِ وسلّم شديدَ الحرصِ على كلِّ ما يقرّبُ العبدَ إلى ربِّهِ من صلاةٍ وذكرٍ وتلاوةٍ للقرآنِ وتصدُّقٍ وبذلٍ وجهادٍ وغيرِ ذلك، وكانوا يقرؤُونَ قولَ اللّهِ فيه : ﴿ لِيَغفِرَ لكَ اللّهُ ما تَقدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تأخَّرَ ﴾[2]؛ فيُعجبونَ لشدّةِ إقبالِه على العبادةِ، فيقولُ لهم : « أفَلا أكونُ عبداً شكوراً »[3]، فكان القدوةَ الحيّةَ الماثلةَ أمامَهم، فإنْ أبطأَ أحدُهم في العبادةِ رأى الرّسولَ قائماً أمامَهُ فيسرعُ إليها في رغبةِ الخائفِ الرّاجي .

وتلا عليهم الرّسولُ قولهُ تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ ربَّكَ حتى يأتِيَكَ اليَقينُ ﴾[4]، فظنُّوا في أنفسِهم العجزَ إن أصابَت دنياهُم شيئاً مِن آخرتِهم، وعلِموا أنَّ الأمرَ جدٌّ لا هَزلَ فيه، وأنَّ اللّهَ - وهو يأمُر نبيَّهُ بأن يظلَّ قائماً بعبادتهِ حتى يلاقيَهُ - يأمرُهم بالأمرِ نفسهِ، فلا يكونُ لأحَدِهم

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .
(٢) الفتح : ٢ .
(٣) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة .
(٤) الحجر : ٩٩ .

مُحجَّةٌ إنْ هو قعدَ عن عبادةِ اللَّهِ يوماً من أيَّامِ حياتهِ، وهو يعلمُ أنَّ الأجلَ آتيهِ لا ريبَ فيهِ، وأنَّ النَّبيَّ - وهو المُجتَبى من الخَلقِ لهم - مأمورٌ بأن يَعبُدَ اللَّهَ حتى يأتيهُ الموتُ، فهم وهو في هذا الأمرِ سواءٌ .

وقد نفى النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بلزومهِ العبادةَ، وحرصهِ عليها، وأمرهِ أهلَهُ بها حتى لقيَ ربَّهُ ما قد يُخامرُ بعضَ النَّاسِ من شكٍّ في أنَّ اليقينَ هو المعرفةُ باللَّه، فمتى وصلَ أحدُهم إلى المعرفةِ سقطَ عنه التَّكليفُ، وإذا كانَ يُرادُ باليقينِ المعرفةُ فما حدودُها ؟ وما حقيقتُها ؟ وما أوَّلُها ونهايتُها ؟

إذا كانَ شيءٌ من ذلك لا يُعرَفُ فمنَ الضَّلالِ المبينِ أن يقولَ قائلٌ: إنَّ اليقينَ هو المعرفةُ، ورُبَّ قائلٍ يقولُ : إنَّ المعرفةَ شيءٌ لا يُرسَمُ بحدٍّ، ولا يُصوَّرُ بكلماتٍ؛ بل هو شيءٌ يدرِكُ به العارفُ الأشياءَ بما يُشبهُ الإلهامَ، فيرى بقلبهِ ما لا يراهُ النَّاسُ بأعينهِم، ويحسُّ بشعورِه ما لا يحسُّهُ النَّاسُ بحواسِّهِم، ويستوي عنده القربُ والبعدُ، فلا صغيرَ لبُعدِه، ولا كبيرَ لقربهِ من غير أنْ يقدرَ على التَّعبير عنه، فهو تحوُّلٌ لا برهانَ عليه من كتابٍ أو سنَّةٍ أو عقلٍ إلّا ما يُهوِّمُ به المَمْرُورونَ في مهامِهِ الضَّياعِ، وهل بلغَ أحدٌ من أصحابِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم درجةَ العارفين هذه وهم أفضلُ الخلقِ بعدَ الأنبياءِ ؟!

يقولُ ابنُ كثيرٍ عند تأويلِ هذهِ الآيةِ : « ويُستدلُّ بها على تخطئةِ

مَن ذهبَ مِن الملاحدةِ إلى أنَّ المرادَ باليقينِ المعرفةُ، فمتى وصلَ أحدُهم إلى المعرفةِ سقطَ عنه التَّكليفُ عندَهم، وهذا كفرٌ وضلالٌ وجهلٌ، فإنَّ الأنبياءَ عليهمُ السَّلامُ كانوا هم وأصحابُهم أعلَم النَّاسِ باللَّهِ وأعرَفهم بحقوقِه وصفاتِه وما يستحقُّ من التَّعظيمِ؛ وكانوا مع هذا أكثرَ النَّاسِ عبادةً ومواظبةً على فعلِ الخيراتِ إلى حينِ الوفاةِ، وإنَّما المرادُ باليقينِ هاهُنا الموتُ »[1].

فبانَ لنا بذلك أنَّ الرَّسول صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم - وهو أعبدُ النَّاس - ربَّى أصحابَهُ على حبِّ العبادةِ، وأنَّهُ لا يقرِّبُهم إلى اللَّهِ ورضوانهِ مثلُ العبادةِ شيءٌ، وساروا في النَّاسِ سيرةَ نبيِّهِم .

ويمضي أصحابُ النَّبيِّ مِن بعدِه في هذه الطَّريقِ، فيصغُر في عيونِهم المستكبرون في الأرضِ، ويعظُم في صدورِهم المستضعفون في الأرضِ، ويحملونَ هذه الآيةَ معهم في كلِّ أرضٍ حلُّوا فيها؛ فيرى النَّاسُ في مسيرتِهم بها مصداقَ ما عَرَفُوا من وصفِهمُ الذي جاءَ في كتبِهِم تماماً .

وحينَ يتجافى الدُّعاةُ بجنوبِهم عن ضعفاء النَّاس، ويوجِّهونَ اهتمامَهُم إلى الكبراءِ يعودونَ - إنْ عادُوا - وهم يحملونَ الخيبةَ، يستخفونَ بها من النَّاس، ثمَّ لا يجدونَ في نفوسِهمُ القدرةَ على حملِ

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٢/٥٦٠) .

الدَّعوةِ؛ فتنقطعُ بهم خيبتُهم، ثمَّ يصبحونَ مطيَّةً للظَّالمين وأُضحوكةً للسَّاخرين، ويصيرونَ دعاةً رسميين، وتُسقِطُهم السَّماءُ من حسابِها، فلا ترتفعُ إليها منهم كلمةٌ ولا يُستجابُ لهم دعاءٌ .

وهذه الآيةُ تشبهُ آيةَ الأنعامِ : ﴿ وَلا تَطرُدِ الَّذينَ يَدعونَ ربَّهُم بالغَداةِ والعشيِّ يُريدونَ وَجْهَهُ ما عليكَ مِن حِسابِهم مِن شيءٍ وما مِن حِسابكَ عليهم مِن شيءٍ فتطرُدَهم فتكونَ من الظَّالمين ﴾[1]، وقد نزلَت فيما نزلت فيه آيةُ الكهفِ، فعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ قال :

« كنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ستَّةَ نفرٍ، فقال المشركون للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم : أُطردْ هؤلاءِ لا يجترئونَ علينا . قالَ : وكنتُ أنا وابنُ مسعودٍ ورجلٌ من هذيلٍ وبلالٌ ورجلانِ نسيتُ اسمَيهما، فوقعَ في نفسِ رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ما شاءَ اللَّهُ أن يقعَ، فحدَّثَ نفسَهُ، فأنزلَ اللَّهُ : ﴿ وَلا تَطرُدِ الَّذينَ يَدعونَ ربَّهم بالغداةِ والعَشيِّ يُريدونَ وَجهَهُ ما عَليكَ مِن حِسابهم من شيءٍ وما مِن حسابكَ عليهِم من شيءٍ فتَطرُدهم فتَكونَ مِن الظَّالمينَ ﴾ »[2].

وكان النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أزهَدَ النَّاسِ في دنياهم، لا يحرصُ على شيءٍ منها، ولا يبخَلُ على أحدٍ بشيءٍ إنْ كان عندَه، ولا ينظرُ إلى ما في أيدي أصحابِه، ولا حدَّثتهُ نفسُهُ يوماً أن يكونَ ذا مالٍ،

---

(١) الأنعام : ٥٢ .

(٢) رواه مسلم .

ولا سألَ أحداً مِن أصحابِهِ يوماً شيئاً، ومع ذلك كلِّهِ ينزلُ الوحيُ عليه ليقولَ له : ﴿ لا تمدَّنَّ عَينَيكَ إلى ما متَّعنا بِهِ أزواجاً منهُم ولا تَحزَنْ عليهِمْ واخفِضْ جَناحَكَ للمؤمنينَ ﴾[1]، فإنَّ النِّعمةَ التي أُوتِيَها - وهي القرآنُ - نعمةٌ جليلةٌ عظيمةٌ، تصغُرُ الدُّنيا وتهونُ بجانِبِها .

وكأنَّما أرادَ اللَّهُ سبحانه أنْ يقولَ لنبيِّهِ : عَلِّم أصحابَكَ يا محمَّدُ ! وربِّهم على أنَّ من أُوتيَ الدُّنيا وحُرِمَ القرآنَ فهو الفقيرُ، ومن أُوتي القُرآنَ وحُرِمَ الدُّنيا فهو الغنيُّ، وحينما يَذكُرُ المؤمنُ الفقيرُ محمَّداً صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم - الرَّسولَ النَّبيَّ الذي نهاهُ اللَّهُ أنْ ينظرَ إلى الدُّنيا وزينتِها وما يتمتَّعُ به أهلُها - يستيقنُ أنَّهُ هو أَوْلى وأحقُّ بالنَّهيِ، فالرَّسولُ النبيُّ قد أفرغَ قلبَهُ من الدُّنيا، وليسَ له بها أدنى تعلُّقٍ .

أمَّا هو فالدُّنيا تُراوِدُهُ عن نفسِهِ، وتشاغلهُ عن دينِهِ، وتُناغيهِ في عَلَنٍ، وتَدعوهُ في خَفاءٍ، تُدنيهِ إنْ أرادَ البعدَ، وتُقصيهِ إنْ أرادَ القربَ، وتضاحِكُه في حُزنِهِ، وتُحزنهُ في سُرورِهِ، فهو المفتقرُ إلى هذا النَّهيِ ليأخذَ نفسَه أخذاً حازماً بالتَّربيَّةِ القرآنيَّةِ الحكيمةِ، التي أخذَ نفسهُ بها النَّبيُّ العظيمُ، فعظمةُ المربِّي من عظمةِ المنهجِ وعظمةُ المنهجِ من عظمةِ واضِعِهِ وهو اللَّهُ العظيمُ الحليمُ .

وكما نهى اللَّهُ نبيَّهُ عنِ النَّظرِ إلى الدُّنيا بقولهِ : ﴿ لا تَمُدَّنَّ ﴾؛ فقد

---

(١) الحجر : ٨٨ .

نهاهُ أيضاً عن الإغْضاءِ عن الضعَفَةِ من أصحابهِ رغبةً في منفعةٍ عاجلةٍ لا تلبثُ أن تزولَ، فقالَ له : ﴿ وَلا تَعْدُ عَيناكَ عَنهُم تُريدُ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ولا تُطِع مَن أغفَلنا قَلبَهُ عن ذِكرِنا واتَّبعَ هواهُ وكانَ أمرُهُ فُرُطاً ﴾[1]، وجاءَ هذا النَّهيُ عَقِبَ أمرِ اللَّهِ له أن يصبِرَ نفسَهُ مع الذينَ يدعونَ ربَّهم : ﴿ واصبِرْ نَفسَكَ معَ الَّذينَ يَدعونَ ربَّهم بالغَداةِ والعَشيِّ يُريدونَ وجهَهُ ﴾[2]، فهذه الآيةُ مِن أجمَع آيِ القرآنِ للتَّوجيهِ التَّربويِّ الإلهيِّ لنبيِّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم وللأُمَّةِ كلِّها، وقد نزلَت على ما حكى الطَّبريُّ عن ابن زيدٍ قال : « قال قومٌ للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم : إنَّا نستحيي أن نُجالسَ فُلاناً وفلاناً وفلاناً فجانِبهُم يا محمَّدُ ! وجالِس أشرافَ العربِ . فنزلَت »[3].

والتَّربيةُ القرآنيَّةُ صارمةٌ لا تعرفُ المجاملةَ واللِّينَ، فاللَّهُ يريدُ مِن نبيِّهِ أنْ يلزمَ مجلِسَ هؤلاءِ الضُّعفاءِ الَّذينَ ينفرُ منهُمُ الأشرافُ، ويَرَونَ في مُجالسَتهم امتهاناً وتحقيراً لهم، فالشَّريفُ مَن شرَّفهُ اللَّهُ بالهُدى، والحقيرُ من حقَّرهُ اللَّهُ بالضَّلالِ، ومقاييسُ البشرِ لا يُحكَمُ بها على صحَّةِ الأشياءِ ولا على بُطلانِها، فيظلُّ المقياسُ الإلهيُّ هو الذي يُثبَتُ به صِحَّةُ الأشياءِ أو بُطلانُها، ويُعلِّمُ اللَّهُ سبحانه نبيَّهُ في هذه الآيةِ درساً يمحو من نفسهِ ما كانَ عَلِقَ بها من مَيلٍ إلى أشرافِ العربِ طمعاً في إيمانِهم وحرصاً على إسلامِهم، ولكن أنَّى؛ والاستكبارُ الطَّاغي يمتصُّ كلَّ رغبةٍ في الإيمانِ

(١) و (٢) الكهف : ٢٨ .
(٣) « تفسير الطَّبري » : (١٥/١٥٤) .

تتحرَّكُ في صدورِهم من قريبٍ أو من بعيدٍ، ولا يرى حقًّاً لغيرِ المستكبرينَ أن يَسُودوا النَّاسَ في الأرضِ ؟! فمنطقُ الاستكبارِ لا يرى مكاناً في الأرضِ لغيرِهِ، وقد ألقى اللَّهُ على نبيِّهِ دَرساً دفعَ به إلى عقولِ أصحابِهِ وقلوبِهِم وقَفَهُم بِهِ على طبيعةِ الاستكبارِ الطَّاغيةِ، وعلى النِّهايةِ التي يؤُولُ إليها المستكبرونَ : ﴿ قالَ الملأُ الَّذينَ استَكبَروا مِنْ قَومِهِ للَّذينَ استُضعفوا لِـمَن آمَنَ منهُم أتَعلَمونَ أنَّ صالحاً مُرسَلٌ مِن ربِّهِ قالوا إنَّا بما أُرسِلَ به مؤمنونُ ٥ قالَ الَّذينَ استكبَروا إنَّا بالَّذي آمَنتُم بِهِ كافرونَ ٥ فَعَقروا النَّاقةَ وعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم وقالوا يا صالحُ ائتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من المُرسَلينَ ٥ فأَخَذَتهُمُ الرَّجفَةُ فأَصبَحوا في دارِهم جاثِمينَ ﴾[1].

ومن أوَّلِ يومٍ جَهَرَ فيه الرَّسولُ بالدَّعوةِ عَرَفَ أنَّ الَّذينَ سيحمِلونَ الدَّعوةَ وينطلِقونَ بها في الأرضِ يفتحونَ مغاليقَ البلادِ ويكسرونَ بها أرتاجَ القلوبِ هُم المستضعفونَ، وسيكونُ لهُم الغَلَبَةُ والعُلُوُّ في الأرضِ، ويقصُّ عليه طرفاً من قَصصِ المستضعفينَ السَّابقين : ﴿ وَنريدُ أنْ نَمُنَّ على الَّذينَ استُضعِفوا في الأرضِ ونَجعلَهُم أئمَّةً ونَجعَلَهُمُ الوارِثينَ ﴾[2]، ﴿ وأورَثنا القَومَ الَّذينَ كانوا يُستَضعَفونَ مشارِقَ الأَرضِ ومغارِبَها التي بارَكنا فيها ﴾[3]، وأتباعُ الأنبياء في كلِّ زمانٍ هُم هُم، فلن يكونَ لمحمَّدٍ نصيبٌ من الأتباعِ إلّا ما كان لإخوانِهِ الأنبياءِ مِن قَبلِهِ، إذاً فليكن جُلُّ

---

(١) الأعراف : ٧٥-٧٨ .
(٢) القصص : ٥ .
(٣) الأعراف : ١٣٧ .

اهتمامهِ بأُولئكَ الَّذينَ سَيكونونَ يوماً هُمُ الغالبينَ ببشارةِ القرآنِ لهُ .

ويرسُمُ القرآن صورةً رائعةً مِلؤُها الرَّحمةُ والشِّدَّةُ للرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم وللذينَ معهُ : ﴿ مُحمَّدٌ رَسولُ اللَّهِ والَّذين مَعَهُ أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحماءُ بينهُم تراهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغونَ فَضْلاً مِن اللَّه ورِضواناً سيماهُم في وجوهِهم مِن أثرِ السُّجودِ ذلك مَثَلُهم في التَّوراةِ ومَثلُهم في الإنجيلِ كَزَرعٍ أخرَجَ شَطئَهُ فآزَرَهُ فاستَغلَظَ فاستَوى على سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرَّاعَ ليَغيظَ بِهِمُ الكفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ منهُم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾[1]، فتتعاطفُ قلوبُهم بالرَّحمةِ والحبِّ، فالقويُّ فيهم يحمي الضَّعيفَ، والضَّعيفُ فيهم يَرى لنفسهِ حقّاً مفروضاً على القويِّ يجبُ عليه أن يؤدِّيَهُ لهُ؛ فلا يكونُ بينهم إلّا الرَّحمةُ والحبُّ، وحين تبدو صفحةُ الكفر بقتامِها وسوادِها لا يكونُ لها في قلوبِ المؤمنينَ إلّا الشدَّةُ، ولكي لا يكونَ في قلوبِ المؤمنين لينٌ على الكافرينَ ولا يترَدَّدونَ في إنزالِ الشدَّةِ بهم؛ يأمرُ اللَّهُ نبيَّهُ أَن يُجاهدَ الكفَّارَ والمنافقينَ وأن يُعملَ فيهم السَّيفَ بغِلظَةٍ فيقول له : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكفَّارَ والمنافقينَ واغلُظْ عليهِم ومأواهُم جهنَّمُ وبئسَ المصيرُ ﴾[2].

ولكي لا يكونَ في قلوبِ المؤمنينَ شدَّةٌ على بعضِهم البعضَ؛ يصِفُ اللَّهُ نبيَّهُ وما جُبِلَت عليه نفسُهُ العظيمةُ من الرَّأفةِ والرَّحمةِ بالمؤمنينَ فيقولُ : ﴿ لَقَدْ جاءَكُم رَسولٌ من أنفُسِكُم عزيزٌ عليهِ ما عَنتُّم حَريصٌ

(١) الفتح : ٢٩ .
(٢) التوبة : ٧٣ .

عليكُم بالمؤمِنينَ رؤوفٌ رحيمٌ ﴾[1]، فيكونُ النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم هو القدوةُ للمؤمنينَ في الأمرينِ معاً، فيُربِّيهم عليهما معاً، فلا تكونُ الشدَّةُ في موضعِ الرَّحمةِ، ولا تكونُ الرَّحمةُ في موضعِ الشدَّةِ إلّا حينَ يكونُ التَّغييرُ في موضعِ الشدَّةِ أو في موضعِ الرَّحمةِ، وبذلك تدورُ الحياةُ في أرجاءِ الصُّورةِ القرآنيَّةِ التي رسَمها القرآنُ للرَّسولِ والذين معه، وتظلُّ في حركةٍ دائبةٍ، يقرؤُها المؤمنونَ في كلِّ عصرٍ كلماتٍ مسطورةً في المصاحفِ، وحياةً متحرِّكةً محسوسةً في أرضِ الواقعِ .

وربَّى الرَّسولُ أصحابهُ على أنَّهُ حينَ يكونُ الوحيُ فلا مكانَ لرأيٍ؛ وحينَ لا يكونُ وحيٌ فللرأيِ مكانٌ إذا رُدَّ إلى الوحيِ فوافقَهُ، ولا تكونُ الطَّاعةُ إلّا للوحيِ بشقَّيهِ، أو لمن أُوتيَ فَهماً فيهِ، فإنْ كان تنازعٌ فيردُّ إلى الوحيِ وحدَه : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا أطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأُولي الأمرِ منكُم فإنْ تنازعتُم في شَيءٍ فَردُّوهُ إلى اللّه والرَّسولِ إنْ كنتُم تؤمنونَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ ذلكَ خيرٌ وأحسَنُ تأويلاً ﴾[2]، فَرسَخت في صدورِهم الملَكةُ العِلميَّةُ، وامتدَّت أغصانُها إلى كلِّ أرضٍ سَعِدَت بالفتحِ الإسلاميِّ، وكانت صورةُ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ماثلةً أمامَ أصحابهِ في كلِّ مكانٍ وَصَلوا إليهِ منَ الأرضِ، حتى لكأنَّهم يَرونهُ وهو يُصغي إليهم - في حياتهِ وبعدَ موتهِ - يَستَفتونَهُ في مسائلَ اختَلفَت فيها أنظارُهُم وتَبايَنَ فيها اجتهادُهم، فيُصوِّبُ هؤلاء ويترفَّقُ في إظهارِ خطإٍ

(١) النساء : ٥٩ .
(٢) التوبة : ١٢٨ .

هؤلاءِ، ويتركُونَ مجلسهُ الشَّريفَ وقد امتلأَتْ قلوبهُم حُبّاً، وعقولُهم علماً، واسَّاقطَت مِن صدورهم آثارُ الاختلافِ، فاستوى عندَهم الأمرانِ : الاختلافُ في الرَّأيِ والاتِّفاقُ عليه . وما حُفِظَ عنهم أنَّ أحدهُم امترى على أخيهِ فافترقا على شحناءَ، فملؤُوا طِباقَ الأَرضِ علماً، وسارَت بأخلاقِهم وفضائلِهم الرُّكبانُ، وحفظَتِ الأجيالُ عنهم مِن بعدِهم هذا، ولكنَّهم أضاعوهُ؛ فاستعرَت فيهمُ الأهواءُ، وتمادَت بِهمُ البغضاءُ، وامتدَّت فوقَ أرضهم حتى تحوَّلت إلى ذئابٍ كاسرةٍ، وأَفاعٍ سامَّةٍ قاتلةٍ، فما كادَ يَنجو من ضُرِّها أَحدٌ، وأضحى العِلمُ مهنةً يتنافسُ فيهِ أهلُهُ بالكيدِ لبعضِهم البَعضَ .

ويحرصُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم على أنْ يظلَّ بُنيانُ المجتمعِ الإسلاميِّ قويّاً منيعاً لا تنالُ منه مؤثِّراتٌ من خارجهِ أو من داخلهِ، ولا يُخشى على المجتمعِ من خطرٍ من خارجِهِ إلّا إذا دبَّتْ عواملُ الوَهَنِ إليهِ مِنَ الدَّاخلِ، فلا بدَّ إذاً من ترتيبَةٍ أخلاقيَّةٍ عاليةٍ تصونُ بُنيانَ هذا المجتمعِ ليظلَّ قويَّا منيعاً فلا تنالُه، وأخطرُ ما يتهدَّدهُ مِنَ الدَّاخلِ شيوعُ بعضِ الأخلاقِ الهدَّامةِ فيه؛ كالغيبةِ، والسخريةِ، وعدمِ التَّثبُّتِ في القولِ والخَبرِ .

ويُعنَى القرآنُ بمحاربةِ هذه الأخلاقِ الهدَّامةِ، ويُفردُ لها آياتٍ طويلة يستقصي بها آثارَ هذه الأخلاقِ في دائرةِ النَّفسِ وخارجِها، حتى لا يَدَعَ ثغرةً ينفذُ منها الفردُ إلى شيءٍ من رَغباتهِ الخاطئةِ من خلالِ هذه

الأخلاقِ، ويكونَ الرّسولُ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم هو القدوةَ المنظورةَ لأصحابهِ من بعيدٍ ومن قريبٍ، فيأخذونَ منه نمطاً فريداً في التَّربيةِ العمليَّةِ في هذا المجالِ، تمتدُّ ظلالهُ الآمنةُ على كلِّ مجتمعات المسلمينَ، وتعانقَت هذه المجتمعاتُ برجائها الكبيرِ أن تكونَ كلُّها على منوالِ المجتمعِ الأوَّلِ الذي بناهُ الرَّسولُ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم على عينِ ربِّه، وربَّى كلَّ فردٍ من أفرادِهِ تربيةً كان بها أُمَّةً وحدَه .

ويُبلِّغُ الرَّسولُ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم أصحابهُ قولهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إنْ جاءَكُم فاسقٌ بنبإٍ فتبيَّنوا أنّ تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتُصبِحُوا على ما فَعَلتُم نادِمين ﴾[1] بعدَ حادثةٍ وقعت لأحدِهم في أَمرٍ من أشدِّ الأمورِ خطورةً على حياةِ المجتمعِ؛ لأنَّها ليسَت تهدِّدُه بالاضطرابِ والخوفِ الذي يبيتُ يضاجعُ الفردَ في فراشهِ فحسب؛ بل تهدِّدُه بالانهيارِ لو تُرِكَ له الحبلُ على غاربِهِ، وسببُ نزولِ هذه الآيةِ يؤكِّدُ ما نقولُ؛ قال ابنُ كثيرٍ :

« يأمرُ اللّهُ تعالى بالتَّثبُّتِ في خَبرِ الفاسقِ ليُحتاطَ له لئلّا يُحكَمَ بقولِهِ، فيكونَ في نفسِ الأمرِ كاذباً أو مخطئاً، فيكونَ الحاكمُ بقولِهِ قد اقتفى وراءَه، وقد نهى اللّهُ عزَّ وجلَّ عن اتِّباعِ سبيلِ المفسدينَ »[2].

ويحذِّرُ القرآنُ في موضعٍ آخرَ أن لا يكونَ للكلمةِ استقرارٌ في سَمعِ

---

(١) الحجرات : ٦ .

(٢) « التفسير » (٤/٢٠٨) .

الإنسانِ ريثَما يَعِيها القلبُ ويتدبَّرُها ثمَّ يحكمُ عليها مِن بعدُ، وهل يمكنُ البَوحُ بها أو يجبُ إضمارُها في الصَّدرِ فلا يؤذَنُ لها بالخروجِ منه ؟! ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُم وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾[1]، إذ ليسَ أخطرُ على الأُمَّةِ من فئةٍ تقعدُ منها مقاعدَ للسَّمعِ، ولا تحفظُ ممَّا ينتهي إليها إلَّا ما يكونُ فيه أذىً للمؤمنين، فإذا أَمسَكتْ بهِ ذهبَت تشقِّقُ منه أصنافاً مختلفةً مِن الإشاعاتِ والأقاويلِ تروِّجُها في كلِّ وجهٍ، ليسَت ناظرةً في ما تُشيعُ وتُروِّجُ إلّا إلى ما يُريحُها من عناءِ ما تَحمِلُ منه، فإنْ هي أصابَت بما تشيعُ شرًّا فرِحَت به، وإن هي لم تُصِب بما تُشيعُ شرًّا ابتأَسَت وحَزِنَت، وليس بعدَ هذا مِن شرٍّ يكونُ .

ورغمَ أنَّ الوحيَ كان يتنزَّلُ على الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم ويواسيهِ في كلِّ مكروهٍ يصيبهُ أو يدورُ مِن حَواليهِ؛ فقد لَقِيَ الكثيرَ من أذى هذه الفئةِ وبُغضِها لأصحابِه، وحذَّرَهم أنْ يكونوا على شيءٍ من بلائِها، وربَّاهم على حُسنِ الاستماعِ والإصغاءِ، وبثِّ الحديثِ ونشرِه، والصِّدقِ الجريءِ، والجرأةِ الصَّادقةِ، فما لَوَت ألسنتُهم على شيءٍ مِن باطلِ الحديثِ، ولا أُغلِقَت قلوبُهم عليه، ولا أصابوا عرضاً بثَلبٍ، ولا كانوا مطايا سوءٍ تقلبُهم إلى حَوبٍ .

كلُّ فردٍ في المجتمعِ مُطالَبٌ أن يكونَ حامياً لمجتمعِهِ، دافعاً لأيِّ

(١) النور : ١٥ .

خللٍ يتطرّق إليه، ومِن أخطرِ الأمورِ التي تتهدَّدُ المجتمعَ بالتَّصدُّعِ والانهيارِ العلاقاتُ المريبةُ التي تنشأُ من لقاءِ الرَّجلِ بالمرأةِ؛ وسقوطِ الحاجزِ الحسِّيِّ والنَّفسيِّ من بينهِما، ثمَّ ما يكونُ من عزوفِ المرأةِ عنِ الرَّجلِ والرجلِ عنِ المرأةِ بما يفرِضُ عليهما المجتمعُ من تَبِعاتٍ جَسيمةٍ وعَقباتٍ شديدةٍ لا يقويانِ على تذليلِها وإزالتِها، إذ أصبَحَت عُرفاً مفروضاً يتحاكمُ النَّاسُ إليهِ .

ولن تكونَ نجاةُ المجتمعِ من مثلِ هذا الخَطَرِ إلّا ببترِ العلاقاتِ المريبةِ وإنشاءِ علاقاتٍ أُخرى على أعقابِها يلتقي بها الرَّجلُ والمرأةُ لقاءً واضحاً نظيفاً، لا يكونُ لرغائبِ النَّفسِ الدُّنيويَّةِ ولا للأعرافِ الباطلةِ الجاهليَّةِ مكانٌ بإزائها ولا حظٌّ - أيُّ حظٍّ - لإفسادِها، وينزلُ على الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم : ﴿ وَأَنكِحوا الأيامَى مِنكم والصَّالحينَ مِن عبادِكُم وإمائكُم إنْ يَكونوا فُقراءَ يُغنِهِم اللَّهُ مِن فَضلِهِ واللَّهُ واسعٌ عليمٌ ﴾[1]، فيجعلُها الرَّسولُ قاعدةً سلوكيَّةً تربويَّةً أصليَّةً في تكييفِ الحياةِ الاجتماعيَّةِ الإسلاميَّةِ وإنشاءِ الأُسرةِ المؤمنةِ، لا يكونُ لغيرِ التَّقوى وزنٌ فيها، ويُدبِّرُ عليها حياة أصحابهِ؛ ليُسقطَ من أذهانِهِم ما كان قَد عَلَقَ بها من أَمرِ الجاهليَّةِ : ﴿ إنْ يَكونوا فُقَراءَ يُغنِهُمُ اللَّهُ مِن فَضلهِ ﴾، ولفظُ : ﴿ وأَنكِحوا ﴾ : يُشعرُ بوجوب التَّزويج كي تَنتَفيَ العلاقاتُ المريبةُ مِن مجتمعِ المسلمين، وتُمحى من جَوِّهِ الأنفاسُ الكريهةُ الفاسدةُ .

---

(١) النور : ٣٢ .

ومن خلالِ الممارساتِ العمليَّةِ لمفهومِ هذه الآيةِ الكريمةِ، ومن المَثَلِ القدوةِ الذي انتصبَ شاهداً على كلِّ خيرٍ في المجتمعِ الإسلاميِّ الأوَّلِ؛ ما عَلِمنا يوماً أنَّ أحداً من المسلمين حِيلَ بينه وبينَ امرأةٍ يرغبُ في الزَّواجِ منها بسببِ فقرِهِ أو غضاضَةِ نَسبِهِ، وكان الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أوَّلَ مَن أمضى هذا على وجههِ حينَ زوَّجَ زينبَ بنتَ جحشٍ مِن مولاهُ زيدِ بن حارثةَ .

وحينَ ترتَوي النُّفوسُ ممَّا أحلَّ اللَّهُ، ويذهبُ عنها سَغبُ الشَّهوةِ، وتطمئنُ إلى نظافةِ الحياةِ الزَّوجيَّةِ؛ لا يكونُ لها تطلُّعٌ في خفاءٍ أو عَلنٍ إلى ما حرَّمَ اللَّهُ سبحانه؛ لأنَّ حقَّها ينتهي عِند ما أحلَّ اللَّهُ لها .

ويعلِّمُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أصحابَهُ ما أنزلَ اللَّهُ عليه من وحيِهِ : ﴿ قُلْ للمُؤمنينَ يَغُضُّوا مِنْ أبصارِهِم ويَحفَظوا فُروجَهُم ذلكَ أزْكى لهم إنَّ اللَّهَ خبيرٌ بما يَصنعونَ ٥ وقُل للمؤمناتِ يَغضُضْنَ مِن أبصارِهنَّ ويَحفَظنَ فروجَهُنَّ ولا يُبدينَ زينَتهُنَّ إلّا ما ظَهرَ منها وَليَضرِبنَ بخُمُرِهنَّ على جيوبِهنَّ ولا يُبدينَ زينَتُهنَّ إلّا لبُعولَتِهِنَّ أو آبائِهنَّ أو آباءِ بعولَتِهنَّ أو أبنائِهنَّ أو أبناءِ بعولَتِهنَّ أو إخوانِهنَّ أو بني إخوانِهنَّ أو بَني أخواتِهنَّ أو نِسائِهنَّ أو ما مَلَكت أيمانُهُنَّ أو التَّابِعينَ غيرِ أُولي الإرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أو الطِّفلِ الَّذينَ لم يَظهَروا على عَوراتِ النِّساءِ ولا يَضرِبنَ بأرجُلهنَّ ليُعلمَ ما يُخفينَ من زينَتهنَّ وتوبوا إلى اللَّهِ

جميعاً أيُّها المؤمنونَ لعلَّكم تُفلِحون ﴾[1]، فيطمئنُّ كلُّ رجلٍ على زوجِهِ وأُختِهِ وأُمِّه، فلا تأخذهُ فيهنَّ ريبَةٌ، وتطمئنُّ كلُّ امرأةٍ على زوجِها، فلا تأخُذها فيه ريبةٌ، وينطلقُ كلُّ أحدٍ يؤدِّي دَورَهُ في ثقةٍ ممَّن حوله، يحفزُه إلى ذلك الخوفُ منَ اللَّهِ والرَّغبةُ في رضوانِهِ وجنَّتِهِ .

والحياةُ الاجتماعيَّةُ تفرضُ على الأفرادِ أنواعاً منَ المعاملاتِ والعُقودِ التي لا غنىً لهم عنها، ولا يقوم وجودُهم إلّا بها، فالبيعُ والشِّراءُ والإجارَةُ والصُّلحُ وغيرُ ذلك لا تُبرَمُ بألفاظٍ ولا تصاغُ بكلماتٍ لتجدَ سبيلَها في واقعِ المجتمعِ إلّا إذا كان من ورائِها في الخفاءِ سلوكٌ إيمانيٌّ يحكُمها ويضبطُ مسارَها ويحقِّقُ غايتَها، ولا يجوزُ أن تَطغى الرَّغبةُ في الثَّراء واكتنازِ المالِ والإكثارِ منه على حقِّ اللَّه عندَ العبدِ، ويكونُ درسٌ يظلُّ يُتلى على الدَّهرِ قرآناً يَفجَأُ بعضَ المسلمينَ من أوجِ فَرَحِهِم بما أصابوا من مالٍ بتجارتِهم، ويربِّيهم على القناعةِ بما قَسَمَ اللَّهُ لهم من رزقٍ في الأوقاتِ المباحِ لهم اكتسابهُ فيها، ويكونُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم هو المِحوَرَ الذي يدورُ عليه هذا الدَّرسُ القرآنيُّ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا نوديَ للصَّلاةِ مِن يَومِ الجُمُعَةِ فاسعَوا إلى ذِكرِ اللَّهِ وَذَروا البيعَ ذلكُم خيرٌ لكُم إن كُنتُم تعلمونَ ○ فإذا قُضيَتِ الصَّلاةُ فانتَشروا في الأرضِ وابتَغوا مِن فَضلِ اللَّهِ واذكروا اللَّهَ كثيراً لعلَّكُم تُفلِحون ○ وإذا رَأَوا تجارَةً أوْ لَهواً انفضُّوا إليها وتَركوكَ قائماً قُلْ ما عِندَ اللَّهِ خيرٌ من

---

(١) النور : ٣٠ و ٣١ .

اللَّهوِ ومِنَ التِّجارة واللَّهُ خيرُ الرَّازقِينَ ﴾[1]، وسببُ نزولِ هذه الآياتِ ما جاءَ في « البخاري » عن جابرٍ قالَ : « بينما نحنُ نصلِّي مع النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم إذْ أقبلَت عيرٌ تحمِلُ طعاماً، فالتفتوا إليها حتى ما بقيَ مع النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم إلَّا اثنا عشرَ رجُلاً، فنزلت : ﴿ وإذا رَأَوا تجارَةً أو لَهواً انفضُّوا إليها وتَركوكَ قائماً ﴾ » .

والعلاقاتُ الاجتماعيَّةُ بينَ أفرادِ المجتمع يجبُ أَن تكونَ محكومةً بالوَلاءِ للَّهِ وحدَهُ، فلا يجوزُ أن تُحدِّثَ مسلماً نفسهُ أن يميلَ بقرابةٍ أو خُلَّةٍ إلى أحدٍ من النَّاسِ إذا كانَ ضعيفَ الولاء أو لا ولاءَ له للَّهِ، وَتُحدِّثُ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم نفسُه يوماً أَن يستغفرَ لعمِّهِ أبي طالب لحنُوِّه وحَدَبِهِ عليه ومحاماتِهِ عنه ظنًّا منهُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم أنَّهُ يقضي له بذلك حقّاً عليه بما أسلفَ له، فينزِلُ القرآنُ : ﴿ ما كان للنَّبيِّ والَّذينَ آمَنوا أَن يَستغفِروا للمُشركينَ وَلو كانوا أُولي قُربَى مِن بعدِ ما تبيَّنَ لهُم أنَّهُم أصْحابُ الجَحيمِ ﴾[2].

وفي « البخاري » عن أبي سعيدِ بن المسيِّب : « لمَّا حضرَت أبا طالبِ الوفاةُ جاءَه رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهِ عليهِ وسلَّم فوجدَ عندَهُ أبا جهلٍ وعبدَاللَّه بنَ أبي أُميَّةَ بنِ المغيرةِ، قالَ رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم لأبي طالبٍ : « يا عمِّ ! قُل : لا إلهَ إلَّا اللَّهُ كلمةً أشهدُ لك بها عندَ اللَّهِ » . فقال أبو جهلٍ وعبدُاللَّهِ بنُ أبي أميَّةَ : يا أبا طالبٍ ! أترغبُ عن

(٢) الجمعة : ٩-١١ .
(٢) التوبة : ١١٣ .

ملَّةِ عبدالمطَّلب ؟! فلم يزل رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم يعرضُها عليه، ويَعودانِ بتلكَ المقالةِ، حتَّى قال أبو طالبِ آخرَ ما كلَّمَهُم هو على ملَّةِ عبدِالمطَّلبِ، وأَبى أنْ يقولَ : لا إلهَ إلّا اللَّهُ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم : « أمَا واللَّهِ لأستغفرنَّ لكَ ما لم أُنهَ عنكَ » . فأنزلَ اللَّهُ تعالى فيه الآية »، فيمتنعُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم عن الاستغفارِ له، ويُربِّي أصحابَهُ على ذلك .

ويُبرِزُ القرآنُ هذا الأمرَ في مواضعَ عديدة، من ذلك قولُه : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تتَّخذوا آباءَكم وإخوانَكُم أولياءَ إنِ استحبُّوا الكُفرَ على الإيمانِ ومَن يَتَولَّهُم منكُم فأولئكَ هُم الظَّالمونَ ۝ قُل إنْ كانَ آباءُكم وأبناءُكُم وإخوانكُم وأزواجكُم وعشيرتكُم وأموالٌ اقترَفتُموها وتجارةٌ تَخشَونَ كسادَها ومساكِنُ تَرضَونَها أحبَّ إليكُم مِنَ اللَّهِ ورسولِهِ وجهادٍ في سبيله فتربَّصُوا حتى يأتيَ اللَّهُ بأمرِهِ واللَّهُ لا يهدي القومَ الفاسقينَ ﴾(٢)، ومنه قولُه : ﴿ لا تجدُ قوماً يؤمنونَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ يُوادُّونَ من حادَّ اللَّهَ ورسولَه ولو كانوا آباءَهُم أو أبناءَهُم أو إخوانَهُم أو عَشيرَتُهم أُولئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الإيمانَ وأيَّدَهُم بِروحٍ منهُ ويُدخِلُهم جنَّاتٍ تجري مِن تَحتها الأنهارُ خالدينَ فيها رضيَ اللَّه عنهُم ورَضُوا عنهُ أُولئكَ حِزبُ اللَّهِ ألا إنَّ حِزبَ اللَّهِ هُمُ المَفلِحونَ ﴾(٢)، ومنه قولُه : ﴿ إنَّما وليُّكُم اللَّهُ ورسولهُ والَّذينَ آمَنوا الَّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤْتونَ

---

(١) التوبة : ٢٣ و ٢٤ .

(٢) المجادلة : ٢٢ .

الزَّكاةَ وهُم راكِعون ﴾[1]، ومنه قولهُ : ﴿ لا يَتَّخِذِ المؤمنونَ الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنينَ ومَن يفعَل ذلكَ فليسَ منَ اللَّهِ في شيءٍ إلّا أن تَتَّقوا منهُم تُقاةً ويُحذِّرُكُم اللَّهُ نفسَهُ وإلى اللَّهِ المصيرُ ﴾[2]، ومنه قولهُ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّخذُوا اليَهودَ والنَّصارى أولياءَ بَعضُهم أولياءُ بعضٍ ومَن يَتَولَّهُم مِنكُم فإنَّهُ منهُم إنَّ اللَّهَ لا يَهدي القومَ الظَّالمينَ ﴾[3]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ، فينشأُ لَدى الصَّحابةِ قناعةٌ نفسيَّةٌ عميقةٌ تمنحُهم الطُّمأنينةَ السَّابقةَ وهم يقطعونَ علاقاتِهم بذوي قراباتِهم؛ لأنَّهم ليسوا في وَلائهم للَّهِ اقتداءً برسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم الذي كان هو البادىء بنفسهِ في ذلك .

وحينَ يكونُ جهادٌ في سبيلِ اللَّه تَنشطرُ النَّفسُ على صاحِبها شطرين، فشطرٌ يَدفعهُ إلى التَّضحيةِ والبذلِ والاندفاعِ الجريءِ إلى قتالِ الأعداءِ، وشطرٌ يَقعُدُ به إلى الأرضِ ويشدُّهُ إلى رغائبِ الحياةِ الدُّنيا ويحسِّنُ له الإمساكَ عنِ البذلِ، والغلبةُ إن كانت لأحدِ الشَّطرينِ فهي ناجمةٌ عن الصِّراعِ بينهما، فأيُّ الشَّطرينِ أقوى غَلَبَ .

وهنا يأتي دورُ التَّربية القرآنيَّة التي محورُها محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فلا يكونُ للشَّطرِ الثَّاني حِسٌّ ولا ذِكرٌ، ويُصغي الصَّحابةُ إلى الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وهو يقرأُ عليهم : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ حرِّضِ

---

(١) المائدة : ٥٥ .

(٢) آل عمران : ٢٨ .

(٣) المائدة : ٥١ .

المؤمنينَ على القتالِ إنْ يَكُن مِنكُم عِشرونَ صابِرونَ يَغلِبوا مائتَينِ وإنْ يَكُن مِنكُم مائةٌ يغلِبوا ألفاً مِنَ الَّذينَ كَفَروا بأنَّهُم قومٌ لا يَفقَهونَ ﴾[1]، ويَرَونَهُ يقودُهم في كلِّ غزوةٍ مثلاً فذًّا في الشَّجاعةِ والصَّبرِ والمهارةِ القياديَّةِ؛ فيعلمونَ أنَّ رسولَهم هذا إنَّما يريدُ أن يعلِّمَهُم أسبابَ النَّصر، ويربِّيَهُم على حملِ مفهومِ الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ، وإلّا فإنَّ اللَّهَ قادرٌ أنْ يكفيهُ كلَّ عناءٍ لنيلِ الظَّفَرِ، والإمساكِ بناصيةِ النَّصرِ؛ فيظهرُ الشَّطرُ الأوَّلُ في النَّفسِ قويًّا متدفِّقاً عزماً مُمتلئاً صبراً، لا يرضى لصاحبِهِ إلّا إحدى الحُسنَيينِ النَّصرَ أوِ الاستشهادَ .

والجهادُ لا يكونُ لنيلِ عَرَضٍ من أعراضِ الدُّنيا، ولا لتحصيلِ حظٍّ من حظوظِها، ولكن لإعلاءِ كلمةِ اللَّهِ أوَّلاً وأخيراً، فما نِيلَ مِنَ الدُّنيا أُخِذَ من غيرِ إشرافِ نفسٍ إليه، ولكن تبعاً لغايةِ الجهادِ، فيحسُنُ بالمؤمنِ أن يدخُلَ ميدانَ الجهادِ وَنفسُهُ راغبةٌ في ثوابِ الآخرة، فتصغُرُ الدُّنيا في عَينيهِ، ولا تؤذي قَلبَهُ حتى بالخُطورِ عليه، فيكونُ أسعدَ ما يكونُ إذا لقيَ ربَّهُ شهيداً .

ويربِّي محمَّدٌ أصحابَهُ على ذلك حتى يصبحَ عندهم مَلَكةٌ راسخةٌ لا تَعدِلُ عنهم ولا هم يعدِلون عنها : ﴿ قُل إنَّما أنا بشرٌ مِثلُكُم يُوحى إليَّ أنَّما إلهُكم إلهٌ واحدٌ فمَن كانَ يَرجو لقاءَ ربِّه فَليَعمَل عملاً صالحاً ولا يُشرِك بعبادةِ ربِّهِ أحداً ﴾[2] فيُقرِئُها الرَّسولُ أصحابَه، ويتأوَّلُها لهم وهو

(١) الأنفال : ٦٥ .

(٢) الكهف : ١١٠ .

يقودُهم في غزواتِهِ، أو وهو يرسلُهم في سراياهُ، فلا يكونُ شيءٌ أحبّ إلى نَفسهِ صلّى اللّه عليهِ وسلّم من إيمانِ رجلٍ ممّن يقاتلُهم، ويكونُ لأصحابهِ رضوانُ اللّه عليهم هذا الحبُّ، فلا ينطلقون إلى فتحٍ إلّا والحرصُ على إيمانِ النّاسِ هو الغايةُ التي تسبقُهم إليهم، ويشتدُّ غضبهُ على واحدٍ مِن أصحابهِ وهو يقتُلُ رجلاً نَطقَ بالشّهادة[1]، وكان يُوصيهم بالصّبر، وألّا يقتلوا أصحابَ الصّوامعِ والأطفالَ والنّساءَ وألّا يهلِكوا زرعاً، وكان يقولُ : « أُمرتُ أن أُقاتِلَ النّاسَ حتى يشهَدوا أن لا إلهَ إلّا اللّهُ وأنّي رسولُ اللّهِ، فإذا قالوها عَصموا منّي دماءَهُم وأموالَهُم إلّا بحقّها وحسابُهُم على اللّهِ »[2]، فربّى فيهم روحَ الجهادِ، وعلّمَهم أنّ غايةَ الجهادِ هي إقامةُ دينِ اللّهِ في الأرضِ، وصَرَفَ قلوبَهُم عن كلّ متعلّقاتِ الأرضِ، فكانوا على ما ربّاهُم الرّسولُ عليه في كلّ جهادِهم وفتوحاتِهم، فما عرفَتِ الدّنيا أمّةً أنبلَ ولا أشرفَ ولا أرغبَ في حقٍّ، ولا أمنعَ لجارٍ، ولا أحفظَ لعهدٍ، ولا أعزَفَ عن دنيا، ولا أبعدَ من ريبةٍ، ولا أقربَ لهديٍ منهم، وكان قتالُهم آيةً جليلةً من آياتِ التّربيةِ الإيمانيّة سطّرَها الرّسولُ صلّى اللّه عليهِ وسلّم في نفوسِهم، فكانوا بها كلّها مجتمعةً خيرَ أُمّةٍ أُخرِجَت للنّاسِ، وسنعلمُ نبأَ جهادِهم إن شاءَ اللّهُ عندما نكتُبُ عن غزواتِ الرّسولِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم .

---

(١) كما في حديث أُسامة بن زيد في « الصّحيحين » .

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة، وهو حديث متواتر .

خُلُقُ الرَّسول صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم

وينزلُ الوحيُ على الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم بقولهِ سبحانه : ﴿ وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾[1]، فينظرونَها ببصائرِهم، فيَرَونَ في رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم مصداقَ هذهِ الآيةِ في شأنهِ كلِّهِ، في مسجدِهِ وبيتِهِ، وفي سِلمهِ وحَربِهِ، في أصحابهِ وأهلِهِ، في أوليائهِ وأعدائهِ، في صبرِهِ وحلمِهِ، وفي قوَّتِه وشدَّتِه، وفي رقَّتهِ وتواضعهِ، إلى غيرِ ذلك ممَّا أفاءَ اللَّهُ عليه صلواتُ اللَّهِ وسلامهُ عليه من مكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الصِّفاتِ وجميلِ الفضائلِ؛ فلا يكونُ عندهم إلّا قمَّةً عاليةً يصعَدونَ إليها في رغبةٍ وشوقٍ، فيجدونَ عندَها رجاءَهُم الكبيرَ أنْ سيكونُ لهم فيها العِصمةُ والنَّجاةُ، ويقرؤونَ في كلِّ آيةٍ تنزلُ عليه جانباً ضخماً من خُلُقهِ العظيم، يحرصُ به الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم - أكثرَ ما يحرصُ - على نقلهِ إلى نفوسهِم ليكونَ لهم منهُ ما يقدرونَ على أخذهِ وتمثُّلهِ في كلِّ شأنٍ من شأنهِ بلا تكلُّفٍ، فقد امتازَت أخلاقهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالبساطةِ والسُّهولةِ، وكلَّما اقتربَ النَّاسُ منه رأَوْا فيه شيئاً لم

---

(١) القلم : ٤ .

يكونوا قد عَرَفوهُ مِن قبلُ، لا لشدَّةِ خفائِهِ؛ بل لشدَّةِ سهولتِهِ فكانت - إن جازَ التَّعبيرُ - من السَّهل الممتنع، ومن هنا امتازَ كلُّ صحابيٍّ بخُلُقٍ من أخلاقِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام أقامَ عليه متأمِّلاً متبصِّراً؛ فحَذِقَهُ فَعُرِفَ به، وما قَدَرَ واحدٌ منهم أن يجمعَ لنفسهِ كلَّ أخلاقِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام؛ بل إنَّ بعضَهُم كان يقولُ في خُلُقٍ من أخلاقِهِ عليه السَّلامُ أصابهُ أخٌ له : وتلكَ التي لا نُطيقُ . وكان من حَذَقَ خُلُقاً من أخلاقِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام يكفيهِ عن سائرِ الأخلاقِ؛ إذ تمثُّلُهُ إيَّاهُ بكاملهِ وحرصُهُ على أن يتمثَّلَهُ كما هو في رسولِ اللَّهِ كان يُضفي عليه بركةً يحسُّ بها؛ فكأنَّهُ قد تمثَّلَ قَدراً من أخلاقِهِ كلِّها عليه الصَّلاةُ والسَّلام؛ يرى نفسَهُ به أنَّهُ على شيءٍ من قولِهِ سبحانه : ﴿ وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾، فكأنَّ كلَّ صحابيٍّ - بما أصابَ من خُلُقِه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم - مدرسةٌ جادَّةٌ أنشأَت بعدَها أجيالاً حَفِظَتها في سلوكِها العمليِّ عبرَ القرونِ التي جاءَت بعد قرنِ الصَّحابةِ، فاجتمعَت منهم جميعاً مدارسُ ضخمةٌ عجزَتِ الأقلامُ عن وصفِها وتصويرِها، وستظلُّ الأقلامُ عاجزةً حتى تأويَ بأصحابِها أو يأويَ بها أصحابُها إلى الآخرة .

ومن المؤكَّدِ أنَّ كلَّ آيةٍ نزلَت في وصفِ خُلُقٍ من أخلاقِهِ صلواتُ اللَّه وسلامُهُ عليه أو بأمرٍ تربويٍّ أخلاقيٍّ أو غيرِهِ؛ ما نزلَت إلّا والمقصودُ بها أوَّلاً هُم المسلمون؛ سواءٌ أكانوا من الصَّحابة أم كانوا ممَّن خَلفَهُم، ومهمَّةُ الرَّسولِ تنفيذُها ليكونَ هو القدوةَ الماثلةَ أمامَهم، فلا يعسرُ عليهم

فهمُها، ولا يشقُّ عليهِمُ امتثالُها، **وهذه هي المزيَّةُ للتَّربيةِ الإسلاميَّةِ** .

ولْنَمضِ مع القرآنِ في شوطِهِ الأخلاقيِّ التَّربويِّ وهو يشكِّلُ للأُمَّةِ منهجاً متكاملاً في التَّربيةِ؛ أصلُها القرآنُ ومنفذُها الرَّسولُ .

فنقرأُ في الحلْمِ والعفوِ قولَهُ تعالى : ﴿ خُذ العَفوَ وأْمُرْ بالعُرفِ وأَعْرِض عنِ الجاهلينَ ﴾[1] ونقرأُ قولَهُ تعالى : ﴿ فاعْفُ عنهُمْ واستغفِرْ لهُم ﴾[2]، وقولَهُ تعالى : ﴿ فاعفُ عنهُم واصفَحْ إنَّ اللّهَ يحبُّ المُحسنين ﴾[3]، فنحِسُّ لو أنَّ جِبالاً من الإساءَةِ اجتمَعَت وتَمَخَّضَت للسُّقوطِ على الرَّسولِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم لَتحَطَّمَت وتفرَّقَت أجزاؤُها؛ ولما عُثِرَ لها على أثرٍ إلّا ما يتحدَّثُ به النَّاسُ عنها بمثلِ الحِلمِ الذي ملأَ نفسَهُ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم، وقد لَقِيَ الرَّسولُ الكثيرَ الكثيرَ من أجلافِ الأعرابِ ومن المنافقين والمشركينَ؛ فما رؤيَ إلّا والحِلمُ جاثٍ في صدرِهِ؛ يرسلُ الكلمات النَّديَّةَ على لسانِهِ؛ فتكونُ بَلسماً يفتكُ بكلِّ أذى يقصِدُ به قائلهُ أو فاعلهُ النَّيلَ مِن رسولِ اللّه صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم، وينقلبُ عليه كسيراً من نَدى حِلْمِهِ، ثمَّ يقرؤُونَ آياتٍ تأمُرهم بِهِ اختباراً وتجربةً؛ يقرؤونَ : ﴿ فاعْفوا واصْفَحوا حتَّى يأتيَ اللّهُ بأَمرِهِ ﴾[4]، وقولَهُ : ﴿ وَلْيَعفوا ولْيَصفَحوا أَلَا تُحبُّونَ أنْ يَغفِرَ اللّهُ

---

(1) الأعراف : ١٩٩ .

(2) آل عمران : ١٥٩ .

(3) المائدة : ١٣ .

(4) البقرة : ١٠٩ .

لكم ﴾[1]، وقولَهُ : ﴿ وإن تَعفُوا وتَصفَحُوا وتَغفِروا فإنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾[2]، وقولَهُ : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلكَ لَمِن عَزمِ الأُمور ﴾[3]، فيمضونَ بها امتثالاً وتحقيقاً، فيرون من أنفسِهم أنَّهم قادِرونَ أو أنَّهم غيرُ قادرين على شيءٍ منها، فإنْ كانت الأُولى حَمدوا اللَّهَ وسألوا الثَّباتَ، وإنْ كانَت الثَّانية دَعوا اللَّه مخلصينَ أن يُنيلهم مِمَّا أنالَ رسولهم الكريمَ، فيكونونَ، على خيرٍ من الحالين معاً .

ونقرأُ في الحياءِ قولَهُ تعالى : ﴿ إنَّ ذلكُم كان يؤذي النَّبيَّ فيَستَحيي منكُم ﴾[4]، فنقرأُ في حروفها الحياءَ ماثلاً أمامَ أعيُننا شاخصاً متحرِّكاً متلفِّعاً برداءٍ من الصَّمت البليغ، ينقلُ في خَطوِهِ الوئيدِ إلى كلِّ العصورِ صورةَ عذراءَ قارَّةً في خِدرها، تحدِّثنا في خَفَرٍ غاضَّةٍ صوتَها أنَّ الحياءَ هو حياؤهُ ﷺ، وأنَّ الحياءَ ما كانَ في شيءٍ إلَّا زانه، ولا نُزع من شيءٍ إلَّا شانَهُ، وأنَّ الحياءَ كلَّه خيرٌ، فننظر إلى تلكَ العذارءِ المخدَّرة بأطرافٍ كليلةٍ غضيضةٍ، فإذا نحن على شيءٍ مِمَّا هي عليه، فنأخذ الحياءَ خُلُقاً رفيعاً من أخلاقه ﷺ، كأنَّما سمعناه ورأيناهُ في آنٍ واحدٍ، نأخذُ منه كما أخذَ أصحابهُ ﷺ .

ونقرأُ في حسنِ عشرتهِ وسهولةِ معاملته قوله تعالى : ﴿ فَبِما رَحمةٍ

---

(١) النور : ٢٢ .
(٢) التغابن : ١٤ .
(٣) الشورى : ٤٣ .
(٤) الأحزاب : ٥٣ .

مِنَ اللَّه لِنتَ لهُم وَلَو كُنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانفَضُّوا مِن حَولكَ ﴾[1]، وقولَهُ تعالى : ﴿ ادْفَعْ بالَّتي هيَ أَحسَنُ فإذا الَّذي بَينكَ وبَينَهُ عَداوَةٌ كأَنَّهُ وليٌّ حَميمٌ ﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿ ادْفَع بالَّتي هيَ أحسَنُ السَّـيِّئةَ ﴾[3]، وقولَهُ تعالى : ﴿ واخْفِض جناحَكَ للمؤمنينَ ﴾[4]ومهما قالَ المفسِّرون في تأويلِ هذه الآيات، وأَنصبوا أَنفسَهم في اختيارِ الأقربِ من معانِيها؛ فإنَّنا واجدونَ فيها كلِّها خُلُقاً صافياً نقيًّا يشعرُكَ بأنْ لو لم يكن في النُّبوَّةِ إلّا هي؛ لكانَت النُّبوَّةُ به روحاً خالداً يسري في الكونِ كلِّهِ؛ يضعُ في كلِّ جزءٍ منهُ شيئاً من هذا الخُلُقِ النَّقيِّ الصَّافي؛ ليُفجِّرَ فيه حقيقة الحبِّ، فإذا بهذه الحقيقةِ ظُلَّةٌ واسعةٌ تشملُ الكونَ كلَّهُ، تُبدي صفاءَها ونقاءَها، وتسبغُهُ بعافيةِ الجلالِ الواقيةِ، وتملؤُهُ أمناً وبرْداً وسلاماً، فلا تَقاطُعَ وَلا تَدابُرَ، وَلا تَنافُرَ وَلا تَشاجُرَ، وَلا حروبَ ولا تناحرَ، والنَّاسُ تخطُرُ على شفاهِهِم البسمةُ الدَّانيةُ بهم إلى كلِّ خيرٍ .

وكلَّما رفعَ النَّاسُ أبصارَهم إلى السَّماءِ رَأَوْا أطرافَ هذه الظُّلَّةِ موشاةً بتلكُم الآياتِ نسجَها رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم بأقوالِهِ وأفعالِهِ، فيأخذونَ منها ما يقدرونَ عليهِ، أمَّا العاجزونَ فأينَ يذهبونَ ؟!

ونقرأُ في شفقتِهِ ورأفتِهِ قولَهُ تعالى : ﴿ لَقدْ جاءَكُم رسولٌ مِن

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) فصلت : ٣٤ .

(٣) المؤمنون : ٩٦ .

(٤) الحجر : ٨٨ .

أنفُسِكُم عزيزٌ عليهِ ما عَنِتُّم حَريصٌ عليكُم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ ﴾[1]، وقولَهُ تعالى : ﴿ وَما أَرْسَلناكَ إلّا رَحمَةً للعالَمِين ﴾[2]، فنبصرُ بكلِّ ما جاءَ فيها من شفقةٍ أو رأفةٍ أو رحمةٍ بصائرَ تدورُ في أفلاكٍ علويَّةٍ، ترسلُ بضوئِها اللامعِ في أرجاءِ الحياةِ الإنسانيَّةِ تملؤُها بِشراً وسعادةً، إذْ لا يحسنُ أنْ يكونَ فيها مكانٌ لغيرِ هذه الصِّفاتِ الرَّبَّانيَّةِ التي أظهَرها ربُّنا سبحانه علاماتٍ مميّزةً له من بين سائرِ البشِر، فكانت أَدِلّاءَ خيرٍ لهم، ماضيةً بهم على طريقِ الحياةِ، تتعانقُ بها القلوبُ، وتتآلفُ بها النُّفوسُ، وتُوأَدُ بها العيوبُ .

وليسَ أدلّ على روعةِ هذه الصِّفاتِ وعظمتِها مِن أنَّها هي صفاتُ اللّهِ سبحانه، وليسَ لها نظائرُ في القرآنِ كلِّه، وبَونٌ شاسعٌ بين صفاتِ اللّهِ وبين صفاتِ النَّبيِّ، فاللّهُ الموصوفُ بالرَّحمةِ والرَّأفةِ : ﴿ رؤوفٌ رحيمٌ ﴾ له الكمالُ المطلقُ في صفاتِهِ كلِّها، فهي مِن ذاتِهِ، وذاتُهُ سبحانه باقيةٌ غيرُ زائلةٍ ولا فانيةٍ، وصفاتُهُ من ذاتِهِ، فصفاتُهُ لا تفنى ولا تزولُ، والنَّبيُّ الموصوفُ بالرَّحمةِ والرَّأفَةِ مخلوقٌ لربِّ العالمين، والمخلوقُ حادثٌ، والحادثُ يفنى، فصفاتُه أيضاً - وهي من ذاتِهِ - تفنى، فبانَ أنَّ فَرقَ ما بينَ صفاتِ الخالقِ وبينَ صفاتِ المخلوقِ هو كالفرقِ بين ذاتِ اللّهِ وذاتِ المخلوقِ .

وقد أرادَ اللّهُ سبحانه أن يرسلَ نبيَّهُ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم بهذهِ

---

(1) التوبة : ١٢٨ .

(2) الأنبياء : ١٠٧ .

الصِّفاتِ؛ لتتربَّى الأُمَّةُ على الكمالِ الأخلاقيِّ الذي اشتملَت عليه هذه الصِّفاتُ، فيكونُ لها من صفاتِ نبيِّها حظٌّ تتلاقى به في حياتِها، فتسودُها الرَّأفةُ والرَّحمةُ، فتكونُ كما وصفَ اللَّهُ نبيَّهُ وأصحابَه، وإن تباعدَتْ بها الأزمانُ وتناءَت بين أفرادِها الدِّيارُ، وذلك قولُه سبحانه : ﴿ مُحمَّدٌ رسولُ اللَّهِ والَّذينَ معهُ أشدَّاءُ على الكفَّارِ رُحماءُ بينهُم تَراهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغونَ فَضلاً مِن اللَّهِ ورِضواناً سِيماهُم في وُجوهِهم من أَثَرِ السُّجودِ ذلك مَثَلُهم في التَّوراةِ ومثلُهم في الإنجيلِ كزَرعٍ أخرجَ شَطأَهُ فآزَرَهُ فاستَغلَظَ فاستوَى على سُوقِهِ يُعجبُ الزرَّاعَ ليَغيظَ بِهِمُ الكفَّارَ وعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا وعَملوا الصَّالحاتِ منهُم مَغفِرةً وأجْراً عظيماً ﴾[1]؛ فإذا هي أُمَّةٌ ليست واحدةً في دِينها وعقيدتها فحسْب؛ بل أيضاً في صفاتِها الربَّانيَّةِ التي قَبَستها من نبيِّها صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، فَتَنشُرُها بينَ الأُمَمِ قاطبةً، وتُبشِّرُ بها الأجيالَ القادمةَ؛ فتنعَطِفُ إليها بإيمانٍ وتسليمٍ لِمَا رأَت منها .

ونقرأُ في صدقِهِ وأمانَتِهِ قولَهُ تعالى : ﴿ فَإنَّهُم لا يُكذِّبونَكَ ولكِنَّ الظَّالمينَ بآياتِ اللَّهِ يَجحَدون ﴾[2]، وقالَ أبو ميسرةَ : « إنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم مرَّ بأبي جهلٍ وأصحابِهِ فقالَ : يا محمَّدُ ! واللَّهِ ما نكذِّبُكَ، وإنَّكَ عندنا الصَّادقُ؛ ولكن نكذِّبُ ما جئتَ به . فنزلَت هذه الآيةُ : ﴿ فإنَّهُم لا يُكَذِّبونَكَ ولكنَّ الظَّالمينَ بآياتِ اللَّهِ

(١) الفتح : ٢٩ .
(٢) الأنعام : ٣٣ .

يَجحَدُون ﴾ »[1]، واعترافُ الكفَّارِ بهذا الخُلُقِ فيهِ لا يزيدُ من قَدرِ الرَّسولِ عند ربِّهِ سبحانه، فإنَّ اللَّهَ يعلمُ منه ذلك، وقد أثنى عليه بهذا الخُلُق، فنالَ بذلكَ شرفَ عُلُوِّ ذِكرهِ في القرآن؛ غيرَ أنَّ اعترافَ الكفَّار بهذا الخُلُقِ فيه وتكذيبَهُم ما جاءَ به - وهو القرآنُ - فيه تناقضٌ ظاهرٌ يُنبىءُ عن حيرةٍ شديدةٍ تضطربُ في صدورِهم، فهم بها يخشونَ حتى أنفسَهُم أن تُفلَجَ بقوَّةِ البرهانِ القرآنيِّ، فتذهبَ منهم سورةُ الباطلِ التي يلوذونَ بها مستكبرينَ على القرآنِ وعلى مَن نَزلَ عليه القرآنُ .

وقد كانَت الأمانةُ خُلُقاً فطريًّا بارزاً فيه صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه لم يُثلَم يوماً حتى ممَّن كَذَّبُوه وناصَبُوه العداوَةَ والخصومَةَ، وكان بهذا الخُلُقِ يسوِّي بين النَّاسِ جميعاً - مؤمنِهم وكافرِهم على حدٍّ سواءٍ - فظهرَت صفحةُ قلبِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأصحابِهِ، فَقَرؤُوا فيها هذا الخُلُقَ مسطوراً بكلِّ حروفِهِ ومعانيهِ، فأنشؤُوا يأخذونَ منه لأنفسِهم ما يُقيمُهم على الصِّراطِ الأقومِ، وشيءٌ من أمانتهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم يَكفِيهم جميعاً، فكانَت أمانتُهُ بركةً على أصحابِهِ لم يتوانَوْا يوماً في أخذِ أنفسِهم بعزيمتِها، ولم يُفرِّطُوا يوماً بالقعودِ عن نصرتِها؛ حتى رأى ذلك منهُم النَّاسُ جميعاً في جهادِهم وفتوحِهم، وفي حُكمِهم وعَدلِهم، وفي عبادتِهم ودينِهم، فَعَرَفُوا منهم نيَّتَهُم، وأقبلوا على الإسلامِ يدخلونَ فيهِ أفواجاً .

---

(١) رواه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه؛ كما قال السيوطي في « الدُّر المنثور » .

نظرةٌ استقرائيَّةٌ شاملةٌ لخُلُقِ العفوِ عندَ النَّبيِّ الأكرمِ

وحسبُنا ما ذكَرنا من أخلاقِهِ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهِ؛ لتكونَ دليلاً للأُمَّةِ في كلِّ أعصارِها وأمصارِها، يهديها إلى إنزالِ سُلوكِها - في أدقِّ أجزائِهِ وأخفاها، وفي أظهرِها وأجلاها - على تلك الأخلاقِ العظيمةِ التي هي جزءٌ كبيرٌ من ميراثِ النَّبيِّ العظيم؛ الذي تركُه لها مِن بعدِه لتَسعَدَ هي بِهِ وتُسعِدَ به الآخرينَ، فيكونَ حظُّها في الأُمَمِ والشُّعوبِ حظًّا وافراً بما كان لها فيها من قيامٍ بحقِّ هذهِ الأخلاقِ النبويَّةِ؛ عملاً وسلوكاً وتعليماً وتدويناً .

ولنأخُذ واحداً من هذه الأخلاقِ النَّبويَّةِ باستقرائهِ في كلِّ معانيهِ، وتحلِيلِهِ من كلِّ أبعادِهِ وجوانبِهِ، فنقيسُ عليه سائِرها، وهو خُلُق العفوِ .

إنَّ الأُمَّةَ التي لا تَعرفُ أخلاقَ عظمائِها - من سيرتِهِم المحفوظةِ المنقولةِ، والمثبتةِ المسطورةِ - معرفةَ نظرٍ واستكشافٍ تكذِبُ إن هي ادَّعَت أنَّها تُحبُّهم، أو تفخرُ بهم، أو تراهم جديرينَ بالاتِّباعِ والأخذِ

عنهم .

وليسَ في عظماءِ التَّاريخِ مَن هو أتمٌّ في عظمتهِ، ولا أوفرُ سبوغاً في خُلُقهِ، ولا أجلُّ قدْراً في منزلته من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهُم المصطَفونَ الأخيارَ وسُدى لُحمةِ العبادِ الأبرارِ .

ومقدَّمُهم في هذا كلِّهِ وحُسناهُم وزيادةُ إمامُهم وسيِّدُهم وكبيرُهم محمَّدُ بنُ عبدِاللَّهِ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه .

وقد أجمعَ علماءُ التَّاريخِ والسِّياسةِ والاجتماعِ أنَّ البشريَّةَ في تاريخِها الطَّويلِ لم تحظَ بإنسانٍ أَجمعَ لمكارمِ الأخلاقِ، ولا أرجى لفَضائلها من الازدهارِ، ولا أبرَّ وفاءً لها مِن محمَّد صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم.

ولو لم يكن صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه نبيًّا بالرِّسالةِ التي أنزلها ربُّ العزَّةِ إليه؛ لكان حسبُهُ - بما أوفرَ اللَّهُ له مِن أخلاقٍ وفضائِل - أن يكونَ أعظمَ الأنبياءِ وأجلَّهُم قدْراً، وأعلاهُم في الأنبياءِ شأناً، فكيفَ وقدِ اجتمعَ إليه في نبوَّةِ رسالتهِ إنسانيَّةٌ التقَت عليها جلائلُ الفضائلِ كلِّها ومحاسنُ الأخلاقِ جميعِها ؟!

لا غَروَ إذاً أن يكونَ بينهُ وبينهم شأوٌ لا يُدرَكُ وغايةٌ لا تُنالُ، وأن يكونَ مَثلاً تعجزُ عنه مَلكاتُهم الانسانيَّةُ، وأن يكونَ منهم عهدٌ مع اللَّهِ أن يؤمنوا به غيباً، وأن يتَّبِعوهُ شهوداً : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبيِّين لما آتَيتُكُم مِن كِتابِ وحكمةٍ ثمَّ جاءَكُم رَسولٌ مُصَدِّقٌ لما معكُم لتُؤمننَّ بهِ

ولَتَنصُرُنَّه قالَ أَأَقرَرْتُم وأَخَذتُم على ذَلِكُم إصرِي قالوا أقرَرنَا قالَ فاشهَدوا وأنا مَعكُم مِنَ الشَّاهدين ﴾[1] .

أمَّا غيرُ الأنبياءِ ممَّن سعِدوا بالإيمانِ بهم؛ فيكفِيهم أنَّهم آمنوا بهم وعزَّرُوهم ونصروهم، واتَّبعَ مَنِ اتَّبعَهم منهُم النُّورَ الذي أُنزلَ إليهم، فنالوا بذلك حظًّا مِنَ العهدِ الذي أخذَهُ اللَّهُ على الأنبياءِ، فكان لهم بذلك شرفُ التَّصديقِ والإيمانِ بمحمَّدٍ بوساطةِ أنبيائِهم عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

فكيفَ بمن بُعِثَ محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فِيهم، وأنالَهم اللَّهُ شرفَ أَنْ كانوا من عَشيرِهِ وقبيلِهِ وبني قومِهِ، فسوَّدوا أنفسَهُم به، وصيَّرُوها رَوايا خيرٍ، وأوعَبُوها فضلاً، قَصُرَت أَبؤُعُ الأُمَمِ والشُّعوبِ قاطبةً عن نوالِ بعضِهِ ؟!

فهنيئاً لأُمَّةٍ شرَّفَها اللَّهُ ببعثِ مِثلِ هذا النَّبيِّ فيها، فكيفَ لو أنَّ هذه الأُمَّةَ ظلَّت على مثلِ ما غبَرَت عليه القرونُ الأُولى، واستقامَت على الأمرِ الأوَّلِ الذي جاءَها من عندِ ربِّها سبحانه، وألزمت نفسَها كلمةَ التَّقوى فبرَّتْ وأبرَّتْ ؟!

إنَّ خُلُقاً واحداً من أخلاقِ رسولِ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم – على نحوِ ما عُرِفَ عنه لزومُهُ والعملُ بمقتضاهُ، والسُّلوكِ النَّاشىءِ عن تصوُّرِه – لو أصابَت منه الأُمَّةُ كلُّها – يأخذُ كلُّ واحدٍ منهم قدرَ حاجَتِه –

(١) آل عمران : ٨١ .

لَوسِعَها جميعاً من غيرِ أن ينقصَ منه شيءٌ، وكيفَ له أنْ ينقصَ وهو من معدِنِ السَّماءِ الذي لا يحورُ ومُزنِ ذي العرشِ التي لا تنضُبُ ؟! وإذا ما تبدَّى منه عملاً، بكلمةِ اللِّسان أو بفعلِ الجارحةِ؛ لم يَخفَ منه شيءٌ يغيبُ به من حقيقةِ مقتضاهُ، ولو جزءاً يسيراً تكونُ به حجَّةٌ للنَّاظرَةِ أن لا يكونَ له به علوقٌ دائمٌ لا يصرُفهُ عنه ولا يُحَوِّلهُ إلّا الموتُ !!

وهذا هو سرُّ الحبِّ الذي ملأَ صدورَ أصحابِ رسولِ اللّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وأهَّلَهُم أن يكونوا خِيارَ الأُمَّةِ، والأُمناءَ على رسالتهِ، الصَّادقينَ في بلاغ شريعتهِ والدَّعوةِ إليها، البُصراءَ في أسرارِها وحِكَمِها وأحكامِها.

وإذا ما ألـمَمنا بأيِّ خُلُقٍ من أخلاقهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لنأخذَه مَثلاً، تداعَت إلينا سائرُها لكأنَّما لا ترى للسَّابقِ منها حقًّا دونَ سائرِها، وإن كان السَّابِقَها والأحقَّ بالسَّبقِ أن يكونَ المثلَ المضروبَ فيما نحن بصددِ الحديثِ والكتابةِ عنه من سيرتهِ عليه السَّلامُ .

ولو أنَّنا ذهبنا نُرضيها جميعاً لأحوَجَنا ذلك إلى الأُلوفِ المؤلَّفةِ من الصَّحائفِ؛ لذا فإنَّهُ كان لا بدَّ من اختيارِ واحدٍ منها فقط لنَضرِبَهُ مَثلاً؛ فيكونَ الـمَقِيسَ عليه لها جميعاً .

ولا يكونُ الاختيارُ صعباً ولا عسيراً علينا، وإذا ما رأينا (خُلُقَ العَفوِ) يسعى بين أيدِينا، يذكِّرُنا بكلِّ أخلاقهِ عليه السَّلامُ - وليسَ منها إلّا نفيسٌ عزيزٌ - ليسَ في وِسعِ إنسانٍ أن يَذَّكَّره إلّا وهو مجدٌّ السَّيرِ

نحوَهُ؛ ليقبسَ منه طَرفاً يوفيه على أُفُقٍ أخلاقيٍّ فسيحٍ، مشرقٍ بالمعرفةِ السُّلوكيَّةِ الكاملةِ، يُشرِفُ منه على الحقائقِ الإنسانيَّةِ التَّجريبيَّةِ المجرَّدةِ من كلِّ دخيلٍ مُفسدٍ لِفطرَتِها، نقيَّةً صافيةً لا زيفَ فيها ينكرهُ الشَّرعُ، ولا ريبَ فيها يأباهُ الحقُّ، فهي حقائقُ توافي الفطرةَ على سواءِ القَصدِ، لا تخالفُ عن شيءٍ ممَّا فُطرَ عليه الإنسانُ؛ إلّا أن تدِبَّ إليها أَدواءُ أُمَمٍ ألقَت بأوزارِها الثِّقالِ في عَرَصاتِ أرضِنا وبينَ أفنيةِ دُورِنا، تُقطِّعُ الرَّحمةَ التي بينَنا وبينَ هذه الفِطرةِ .

(خُلُقُ العفوِ) خُلُقٌ جامعٌ تختلجُ في حروفِهِ أخلاقٌ جمَّةٌ تنبىءُ عن نفسِها حين يتحرَّكُ العفوُ بصاحبِهِ بالسُّلوك المقتضيةِ، فإذا حروفُهُ ناطقةٌ بها، مُخبرةٌ عنها، تجتمعُ في لحظةٍ واحدةٍ؛ حتى ليكادُ كلُّ خُلُقٍ منها يكونُ هو العفوَ نفسَهُ .

فَلَكَ أن تَتصوَّرَ قوَّة خُلُقٍ حينئذٍ في اجتماعِ هذه الأخلاقِ كلِّها حينَ تُهَيمِنُ في لحظةٍ واحدةٍ على الإنسانِ، فكيفَ بهذا الإنسانِ إن كان النَّبيُّ هو الذي يريدُ أن يَصوغَ من أُمَّتِهِ بهذا الخلقِ أُمَّةً عافيةً لا تُقيمُ نفسَها على أمرٍ أجمَعَ للفَضلِ منه ؟!

حينئذٍ تُكَوِّنُ هذه الأخلاقُ طوقاً مُحكَماً تُكسِبهُ الفطرةُ المُعدَّةُ بصاحِبِها لحملِ رسالةٍ سماويَّةٍ إحكاماً وتوثيقاً، فإذا هو محكومٌ بهذه وتلكَ، ليسَ يملكُ حِيالَهما إلّا التَّسليمَ الرَّضيَّ أنْ يكونَ في أعلى ذروةِ

العفوِ الخُلُقِ الجامعِ للصَّبرِ والرِّفقِ والحِلمِ والأناةِ والإحسانِ والإيثار، ونسيانِ الإساءَةِ، والتَّجاوُزِ الكريمِ، إلى غيرِ ذلك ممَّا هو مفهومٌ بداهةً من هذا الخلق العظيمِ خُلُقِ العَفو الجامعِ .

فانظر إلى الفضلِ العظيمِ الذي حبا اللَّهُ سبحانه به هذا الخُلُقَ، وخاطبَ به نبيَّنا عليه السَّلام، آمراً به إيَّاه في مواطنَ كثيرةٍ من القرآنِ؛ كما في قولِه سبحانه : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفحَ الجَميل ﴾[1]، وكما في قولِهِ: ﴿ واهْجُرهُم هَجْراً جميلاً ﴾[2].

وهاتان الآيتانِ على وجازَةِ ألفاظِهما وقلَّةِ عددِ كلماتِهما؛ فهما أجمعُ آيتينِ لهذا الخُلُقِ معنىً وهدايةً وتصويراً، وكَلٌّ منهما متمَّةٌ للأُخرى في هذهِ الثَّلاثةِ .

فالأُولى منهما تَدُلُّ على التَّجاوزِ والانتقالِ من الأدنى إلى الأعلى، فهي في المعنى فعلُ إيجابٍ .

وأمَّا الثَّانيةُ فهي وإنْ كانت دالَّةً على التَّجاوزِ؛ لكنَّها تقفُ به عند منزلَةٍ لا تتجاوَزُها، وهي أوَّلُ منازلِ الأولى، فهي بهذا المعنى تركٌ وسلبٌ؛ لأنَّها لا تُتبَعُ بإحسانٍ، ووقوفُ الإحسانِ عند منزلةٍ واحدةٍ - وهي الكفّ عنِ الإساءَةِ فحسب - كان كأنَّهُ سلبٌ .

من هنا جاءَ الصَّفحُ معرَّفاً بأل في قولِهِ سبحانه : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفحَ

(١) الحجر : ٨٥ .

(٢) المزمل : ١٠ .

الجَميلَ ﴾؛ إذْ لا يكون جميلاً حقًّا ولا يستحقُّ هذا الوصف إلّا أن يتتابعَ به الإحسانُ من العافي على المسيءِ، وقد يكونُ الصَّفحُ في ذاتِهِ وحده - لِفَداحةِ الذَّنبِ الذي تلبَّسَ به من عُفِيَ عنه - أكبرَ بكثيرٍ من إحسانٍ متتابعٍ، وهل كان صفحُ الرَّسولِ ﷺ عن أولئكَ الذين عاندوه وآذَوهُ واستَكبرُوا عن دعوتِهِ إلا ذلك ؟! ولو أنَّهُ رضيَ عليه السَّلام ما عرضَ عليه مَلَكُ الجبالِ؛ لكانَ شأنهُ في ذلك شأنَ نبيِّ اللَّهِ نوحٍ عليه السَّلامُ حين دعا ربَّهُ فقال : ﴿ ربِّ لا تَذَرْ على الأَرضِ مِنَ الكافرينَ دَيَّاراً ﴾[1]، فكان في ذلك هلاكُهم، وما كان ليكون بذلك محقِّقاً حظَّ النَّفسِ، فالعرضُ كان مِنَ اللَّهِ، واللَّهُ يكرهُ الشَّرَّ للنَّاسِ، ويكرهُ أنْ يكونَ نبيُّهُ مُريداً الشَّرَّ لهم، ويجبُ أن يُحبَّ لهُم الخيرَ .

أيُّ عظمةٍ هذه تلكَ التي أسقطَ بها محمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ما كانَ يمكنُ أن يحومَ عليه ظنُّ البشرِ من أنَّهُ أخذَ بحظِّ النَّفسِ لحِظِّها ؟! وقالَ : « بل أرجو أن يُخرِجَ اللَّهُ من أصلابِهم مَن يعبدُ اللَّهَ وحدَه لا يشركُ به شيئاً »، فكان الصَّفحُ عظيماً في عَظَمتهِ عَظَمَتينِ، يطابقُ عظمةَ العافي الصَّافحِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إذْ كان فيه الإبقاءُ على حياتِهم، وانجاؤُهم من هلاكٍ محقَّقٍ، وفيه أن أخرجَ اللَّهُ مِن أصلابِهم - بل وممَّن هُدِيَ منهم - دعاةً هداةً، مجاهدين أبراراً، علماء أخياراً، ونالَ مَنْ ماتَ على كفرِهِ أو بقيَ على كفرِهِ منهم شَرَفَ الذِّكرِ بإسلامِ أبنائهم، وإن

---

(١) نوح : ٢٦ .

كانوا يكرهون هذا في أنفسِهم؛ لكن كان لهم مثلُ ذلك الشَّرفِ رغمَ أُنوفِهم، إذ لما صارَ فلانٌ ممَّن آمنَ وصدَّقَ يُذكَرُ بتَصديقِهِ وإيمانِه؛ كان يذكرُ مقروناً بأبيهِ، فبقي ذكرُه في النَّاسِ بذكرِ ولدِهِ الذي آمنَ وصدَّقَ .

وبالصَّفحِ الجميلِ يَنسى الصَّافحُ إساءَةَ المسيءِ، فهو بهذا يصيرُ حريصاً على متابعةِ الإحسانِ لمن أساءَ إليهِ كلَّما سنَحَت سانحةٌ للإحسانِ .

مِن هنا نَعلمُ بأن (أل) الدَّاخلةَ على كلمةِ(صَفحَ) تفيدُ مع التَّعريفِ الاستغراقَ، فيكونُ الصَّفحُ مستغرقاً كلَّ جزءٍ فيه معنى العفو، ووصفُهُ بِـ (الجميل) دلَّ على استكمالِ صورةِ الصَّفحِ، فيكونُ ذلك الصَّفحُ الذي يناسِبُ قدرَ مقامِ النُّبوَّة؛ ليكونَ قبسُ الأُمَّةِ منه ليسَ صَفْحاً مجرَّداً؛ بل صَفحاً موصوفاً بالجمالِ، فتكونُ أدنى درجاتِهِ بالقبسِ منه واقعةً في حيِّز الجمالِ، وليس يكون كذلك إلَّا بنسيانِ للإساءَةِ وإتْباعٍ لها بالإحسانِ الموصولِ المتتابعِ .

وعلى أنَّ الهجرَ موصوفٌ بِـ (الجميل)؛ لكنَّ معناهُ وإن كان فيه من معنى الصَّفحِ فهو مختلفٌ عنه، إذ أنَّ الهجرَ - وهو تركٌ وسلبٌ كما بيَّنَّا - ينتهي إلى أدنى درجاتِ الصَّفحِ، ويقفُ بالهاجرِ عندَ منزلةٍ لا تُتبعُ بإحسانٍ، وما أشبهَ ذلك بقولِ حكيمِ الشعراءِ المتنبِّي :

وإنَّا لفي زمنٍ تَركُ الإساءَةِ فـيـهِ
مِن أكثرِ النَّاسِ إحسانٌ وتفضيلُ

ولما كان ذلك كذلك جاءَت كلمةُ الهجرِ في الآيةِ منكَّرةً؛ أي : عاريةً من (أل) التَّعريفيَّةِ التي أفادَتِ الاستغراقَ، والنكرةُ الموصوفةُ وإن أفادَتِ العمومَ فهي إنَّما تعنى عمومَ أفرادِ الاسمِ النَّكرةِ الموصوفِ، وهذا يعني أنَّ الهاجرَ بهذا الوصفِ؛ فعليه أن يكون هجرُهُ على نحوٍ واحدٍ في كلِّ ما يكونُ له وبه وفيه الهجرُ، وهو بكلِّ مستغرقاتِهِ - بعمومِ تنكيرِه - ينتهي عندَ أدنى درجاتِ الإحسانِ .

فانظر الإعجازَ القرآنيَّ في هذين الأَمرينِ الإلهيَّينِ في الصَّفحِ والهجرِ؛ كيف يكونُ الجمالُ فيهما بالسُّلوكِ العمليِّ إيجاباً وسلباً بدلالةِ التَّعريفِ والتَّنكيرِ في الأوَّلِ والثَّاني ؟!

إنَّهُ الصَّفحُ الجميلُ، والهجرُ الجميلُ، يصدران من مناطِ الوحيِ ومستودعِهِ الحافظِ الأمينِ !!

وكان صفحُهُ وهجرُهُ عليه السّلامُ كلاهما كذلك حياتَهُ كلَّها، وليسَ أظهرَ لهما ممَّا سيكونُ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من شفاعتِهِ للأُمَمِ كافَّةً شفاعةً عامَّةً؛ ولأُمَّتِهِ كلِّها شفاعةً خاصَّةً .

ولكي يكونَ لهذا الصَّفح والهجرِ هذه الدَّلالةُ الشَّاملةُ، وتكونَ حافزاً للنُّفوسِ المكدورةِ المرهقةِ بالذُّنوبِ بالرَّجاءِ الوافرِ والأملِ الرَّاجي؛

فلا بدَّ إذاً من تأويلِ العفوِ المأمورِ بهما في هاتينِ الآيتينِ تأويلاً عمليًّا، ولا يكونُ تأويلُهما على أتمِّهِ وأجلاهُ وأرضاهُ إلّا في أقوى المواقفِ شدَّةً وأثقلِها على النُّفوسِ التي يكونُ أملُ العفوِ فيها ضعيفاً بل ذاهِباً، فيَنتفي بهذا التَّأويلِ ظنُّ العجزِ عمَّن يتوهَّمُ أنَّهُ غيرُ قادرٍ عليهِ في أُمَّتهِ؛ ولو كان في أدنى درجاتِهِ، إذْ أنَّ أعلاها - على ما بيَّنَّا وأوْضحنا - خصِّيصةٌ لهُ وحدَه عليه السَّلامُ مِن دون النَّاس جميعاً؛ إذ لو كانَت أعلاها مقدوراً عليها مِن النَّاس كلِّهم؛ ما كانت لتكونَ مَزيَّةً في خُلُقِ العفوِ تميّزُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم .

وأدنى دَرجةٍ في العفوِ - وأدنى أدناها - كافٍ لإنسانٍ غيرِ نبيٍّ للتَّخلُّقِ بهذا الخُلُق، فأنْ يخصَّ اللَّهُ نبيَّه عليه السَّلام بهذه المنزلةِ الرَّفيعةِ من الخلقِ وأن يُفرِدَه به من سائرِ النَّاسِ، إنَّما هو شيءٌ مِن النُّبوَّةِ .

والنُّبوَّةُ بحرٌ مترامي الأبعادِ بعيد الأطرافِ، يأخذُ من كلّ ذي روحٍ طعامَهُ، وشرابَهُ، وزينتَهُ، وحاجَتهُ، وهو هو البحرُ لا ينفدُ أبدَ الدَّهرِ .

وإذا كانت كلُّ نبوَّةٍ بحراً في ذاتِها فقد سجَّرَ اللَّهُ ببعثةِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ هذه البحارَ لتلتقيَ على صعيدٍ واحدٍ، وتستقرَّ في مجتمعٍ واحدٍ، وتُرى مجتمعةً في مستقرِّ صعيدِها الواحدِ، فلا يختلفُ في رؤيتها واحدٌ دونَ واحدٍ، ويفتحُ اللَّهُ عليها أبوابَ السَّماءِ تَهمي في غيرِ انقطاعٍ ولا مَنٍّ، تمشي من فوقِهِ الجواري آمنةً وادِعةً، لا تَخشى موجاً يضطربُ من

حولِها، ولا عواصفَ صاخبةً تهبُّ عليها، ولا كِسَفاً مُحرِقَةً تَنزِلُ من فوقِها .

ويا لَرَوعةِ التَّأويلِ الذي يجري رخاءً على صفحةِ الزَّمنِ يراهُ البعيدُ والقريبُ، القويُّ والضَّعيفُ، البصيرُ والأعمى، فلا يكونُ حُجَّةٌ لأحدٍ أن يصرفَهُ عن هذا الخُلُقِ صارفٌ من صوارفِ النَّفسِ البشريَّةِ !

تأوَّل عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الصَّفحَ الجميلَ والهجرَ الجميلَ تأويلاً عمليًّا؛ أمكنَ لكلِّ مَن يعقلُ في النَّاسِ أن يجعلَ منَ العفو سبيلاً راشداً إلى قلوبِ الأعداءِ والأولياءِ، يفثأُ به عدواةَ الأعداءِ، ويستلُّ به خصومةَ الأولياءِ، فيكونُ النَّاسُ أمامَهُ أقربَ إلى قلبهِ من خواطِرِه، وكيف لا وهو الذي قال اللَّهُ فيه : ﴿ لَقَد جاءَكُم رَسولٌ مِن أنفُسِكُم عَزيزٌ عَليهِ ما عنتُّم حَريصٌ عَليكُم بالمُؤمنينَ رَؤوفٌ رَحيمٌ ﴾[1] ؟!

تأوَّلَ الرَّسولُ الرَّؤوفُ الرَّحيمُ خُلُقَ العفوِ في مواطِنَ كثيرةٍ من حياتهِ .

تأوَّلهُ في مواطنِ الضَّعفِ حين كان لا يملكُ من أمرهِ ولا من أمرِ المستضعفين من أصحابهِ شيئاً، وهو يَجْتَدِي نُصرةَ النَّاس اجْتِداءً، فلا يجدُ إلّا الصُّدودَ والسُّخريةَ والاستعداءَ عليه، ثمَّ لا يجدُ أرحبَ من السَّماءِ يقلِّبُ وجههُ فيها في تضرُّعِ باكٍ شفيفٍ، ووجَلٍ مُشفقٍ أسيفٍ،

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

وحزنٍ غامرٍ كَسيفٍ .

وكان عليه السَّلامُ في مواطنِ الضَّعفِ يرى القوَّةَ أعظمَ القوَّةِ، والشَّجاعةَ أوفرَ الشَّجاعةِ، والبأسَ أشدَّ البأسِ في الصَّبرِ واحتمالِ الأذى والحكمةِ فما عليه إذاً أَنْ يرقُبَ قطافَ الثَّمرِ .

وكان عليه السَّلامُ كلَّما اشتدَّ به وبأصحابِهِ الأذى يرى النَّصرَ أدنى وأدنى، فقد عرفَ مع توالي الأيَّام بحَرٍّ بأساتِها، وتعاقبِ اللَّيالي بظلامِ ضرائِها، تجمعُ في أيديها غِراسَ الفتوحِ، فيراها باسقةً في أرضِ فارسَ والرُّوم، والأُمُ تشرئبُّ بأعناقِها لترى أغصانَها تتدلَّى في كلِّ يومٍ بأطيبِ الثِّمارِ طعماً، وأبهجِها منظراً، وأجملِها لوناً، فيربو في قلوبِهِمُ الشَّوقُ ليكونوا على قربٍ منها، يجنونَ ثِمارَها، ويُمتِّعونَ أبصارَهم ونفوسَهم برُؤاها .

وكان مِن أشدِّ ما لقيَ عليه السَّلامُ من قومِهِ يومَ العقبةِ بعدَ رحلةٍ شاقَّةٍ في طريق الدَّعوةِ الصَّاعدِ في صدورِ علوجِ الشركِ، وجلاوذةِ الكفرِ، وطغاةِ الكبرِ يروي لنا الشيخانِ عن عائشةَ رضيَ اللَّه عنها أنَّها قالت للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم : هل أَتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ من يومِ أُحدٍ ؟ قال : لقد لَقيتُ مِن قومِكِ، وكان أشدَّ ما لقيتهُ منهم يومَ العقبةِ؛ إذ عَرضتُ نفسي على ابنِ عبدِ ياليلَ بن عبدِ كُلالٍ فلم يجِبني إلى ما أردتُ، فانطلقَتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم استفِق إلّا وأنا بقرنِ

الثَّعالبِ، فرفعتُ رأسي وإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ عليه السَّلامُ فناداني فقال : إنَّ اللَّهَ تعالى قد سمعَ قولَ قومكَ لكَ، وما رَدُّوا عليكَ، وقد بعثَ إليكَ مَلَكَ الجبالِ لتأمُرَهُ بما شئتَ فيهم . فناداني مَلَكُ الجبالِ، فسلَّم عليَّ ثمَّ قال : يا محمَّد ! إنَّ اللَّهَ قد سَمِعَ قولَ قومِكَ لكَ، وأنا مَلَكُ الجبالِ، وقد بعثني ربِّي إليك لتأمُرَني بأمرِك، إن شئتَ أطبقتُ عليهِمُ الأخشبين . فقال النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم : بل أرجو أن يُخرِجَ اللَّهُ مِن أصلابهِم مَن يعبدُ اللَّهَ وحدَهُ لا يشركُ بهِ شيئاً » .

إنَّها روعةُ روعةِ العفوِ، وقمَّةُ قمَّةِ الصَّفحِ، ذابت حظوظُ النَّفس وولَّتِ الرَّغائبُ أدبارَها، وماسَتِ الأشواقُ الظَّامئةُ إلى الملأِ الأعلى بحسيسِها .

نظرَ محمَّدٌ عليه السَّلامُ في نفسِه فلم يرَ فيها إلّا رَجاءً موفوراً بسوادِ الأُمَّةِ النَّاظرةِ موعودَ ربِّها أن تكونَ خيرَ أُمَّةٍ، إذاً فَلتحفظِ الأرضُ والسَّماءُ عنه كلمةً تمَّحِي بها من ذاكرةِ الزَّمنِ الآلامُ كلُّها؛ التي حطَّت فيها حين أبدى الكفرُ ناجِذَيه يطاردُ أملَها المنشودَ على أيدي محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وأصحابهِ الأبرارِ، فقالَ : « بل أرجو أنْ يُخرِجَ اللَّهُ من أصلابهِم من يعبدُ اللَّه لا يشركُ به شيئاً » .

كلمةٌ ظلَّت تسعى في حياةِ الجزيرةِ، تبحثُ في كلِّ مكانٍ منها

عمَّن تُعانقُ قلبهُ برفقِها وحنانِها ورجائِها، وما هي إلّا سنونَ طُوَيت أحداثُها، ومرَّت بكلِّ مسرَّاتِها وأتراحِها، حتى كانَ الفتحُ الأكبرُ !!! فتحُ مكَّةَ الذي أبحرَت في مُزنهِ المترعةِ بالهدى والإيمانِ سُفُنُ الفتوحِ، مُضَمَّخةً أشرِعَتُها بطُيوبِ الحقِّ والعَدلِ والمعرفةِ، فدانَت لها أُممٌ وشعوبٌ، وفُتحَت أمامَها قِلاعٌ وحصونٌ، وانجابَت من بينِ يَدَيها آلهةٌ وطواغيتٌ، وسَتبقى في سَيرِها حتى يُتمَّ اللّهُ نورهُ وتكونَ كلمتُه في الأرضِ كُلِّها هي العُليا، وكلمةُ الكفرِ والكافرين هي السُّفلى .

وكيفَ لا يكونُ المستقبلُ للإسلامِ وقد حملَت الأجيالُ المسلمةُ في ذواكرِها مسؤوليَّةَ كلمةِ : (محمَّدٌ رسول اللّهِ) صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم، التي ظلَّت عِنواناً مُضيئاً للعفوِ، يملأُ الآفاقَ على مرِّ الأجيالِ والأحقابِ .

وفي الفتحِ الأكبرِ كان العفوُ الأكبرُ، ففتحٌ كهذا لا يصلُحُ معه إلّا عفوٌ في حجمِه وفي عِظمِه، وبخاصَّةٍ وأنَّ قائدَ الجيشِ الفاتحِ هو الكبيرُ محمَّدٌ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم، فكان التَّكافؤُ بينَ عظمةِ الفاتحِ وعظمةِ الفَتحِ وبينَ عظمةِ العفوِ !!

وما كان لرسولِ اللّه صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم، لينسى - وحاشاه - وهو يقفُ بجيشهِ على أبوابِ طُرق مكَّةَ أنَّ فيها قوماً جبَّارين؛ ما وَنَوْا يوماً عن إذايتهِ، والوقوفِ في وجهِ دعوتهِ والتَّنكيلِ به وبأصحابهِ، وأنَّ جبروتَهم ذلك لابدَّ وأن يكونَ له مَوردٌ يَرِدُهُ؛ إمَّا بباطلٍ مُستكبرٍ وهم

على ملَّةِ الكفرِ والباطلِ؛ وإمَّا بحقٍّ إذْ آتاهُم اللَّهُ الهدى، وهيَّأَ لهم أسبابهُ، وبيَّنَ لهم طرائِقهُ، فكانوا مِن بعدِ ذلك أنصارَ اللَّهِ وأنصارَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم .

لذا فقد كانت أوَّلَ كلمةٍ قالها فيما رُوِيَ - وقد عَلِموا أنَّ إفكَهم قد أناخَ بكلِّ جبروتهِ ونكالهِ وعتوِّهِ عندَ قدميْ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، وأنَّ معقِلَهُم الذي كانوا يظنُّونهُ مانِعهُم من رسولِ اللَّهِ وهم على إفكِهم ذاك قد أشرعَت أبوابهُ أمامَ الوعدِ الحقِّ - : « اِذهبوا فأنتُمُ الطُّلقاءُ » ردًّا على الكلماتِ الرَّاجيةِ الآملةِ التي انطلقَت من ألسنتهِم في استخذاءٍ ضعيفٍ؛ سألوهُ فيها عليه السَّلامُ، أن يَصفَحَ عنهم ويغفرَ لهم .

وفي تلكَ اللحظةِ الفاصلةِ من تاريخِ الإسلامِ أقبلَت كلمةُ الرَّسولِ عليه السَّلام : « أرجو أن يُخرِجَ اللَّهُ من أصلابهِم من يعبدُ اللَّهَ وحدَهُ لا يشركُ بهِ شيئاً » تسعى في رَونَقِ الذِّكرى تصافحُ الكلماتِ العظيمةَ التي أعلنَ فيها الرَّسولُ ﷺ عفوَه الكبيرَ الشَّاملَ، فالتقَتا على أمرٍ قدْ قُدِرَ، ولكأنَّما تقولُ الثَّانيةُ منهما للسَّابقةِ : أَرَأَيتِ؛ لقد صدقَكِ اللَّهُ وعدَهُ الذي أجراهُ حقًّا بوحيهِ على لسانِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، وها أنتِ الآنَ تُبصرينَ بالذين كانوا بالأمسِ القريبِ في طُغيانهِم يعمهونَ، وفي كبريائِهم يزفُّونَ، يُلقونَ بأرديةِ الطَّاعةِ والتَّسليمِ أمامَ قائلِنا رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، فما أعزَّنا، وما أرفعَ ما يكونُ في التَّاريخِ ذِكرُنا، وما أشوَقَنا إلى أنْ نَرى الفتوحَ الآتيةَ تجرُّ ذيولها على تاريخِ الإنسانيَّةِ فخراً

يتنزَّهُ عنِ الكبرِ، وفرحاً يعلُو عنِ الغرورِ، وثقةً تَسلَمُ منَ العِثارِ، فأكرِم بها فتوحاً تَعِزُّ بنا، وتُرضي ربَّنا، وتكونُ غيثاً تصيبُ به الأرضُ الجرُزُ خِصباً وينعاً وبهجةً .

كان عليه السَّلامُ عفوًّا غفوراً رحيماً في حالَي ضعفهِ وقوَّتِهِ، وحتى لا تهويَ خواطرُ السُّوءِ بأصحابِها، فيظنُّوا أن عفوَهُ في حالِ ضعفهِ لم يكنْ منه بدٌّ - وليسَ له إلى غيره سبيلٌ - أن لا يدعَ تلكَ الخواطرَ تهوي بأصحابِها، فكان عفوُه وغَفرهُ ورحمتهُ حين استمكنَت يدُه من رقابِ أعدائهِ كلِّهم، وصاروا منه قابَ قوسينِ أو أدنى، وغارَت من جباهِهم هيبةُ الجورِ العاتي، فسوَّى عليه السَّلام - في عفوهِ - بينَ حاليهِ : حالِ ضعفهِ وحالِ قوَّتهِ .

ولكن لِنسأل : هل كان النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم يوماً ضعيفاً ؟ إن قُلنا كان ضعيفاً فإنَّنا نقولُ : إنَّ الشَّمسَ صارَت قمراً، والقمرَ صار شمساً، وعليه فلم يكنِ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم يوماً ضعيفاً، وكيف يكونُ ضعيفاً وقد سخَّرَ اللَّهُ له ملائكتَه لتأتمرَ بأمرِه ؟ لكنَّ الظَّنَّ السَّيِّئَ المُرديَ أهلَهُ في هلكَةِ الغرورِ والهوى أبى عليهم إلّا أن يُظهرَه لهم ضعيفاً، فأجلبوا عليه يعنِّفونه ويجهِّلونه، ويغرُون به السُّفهاءَ والعبيدَ، وهم في قرارةِ أنفسِهم يعلمون أنَّهُ هو الحقُّ، وأنَّهُ جاءَهُم بالحقِّ من ربِّهم، فقد استيقنوا به في أنفسِهم، وأرادُوها فيه على غيرِ استيقانِها، فأغوتهُم في رغيباتِ الأماني .

وكان عليه السَّلام في كِلا الحالين يسربِلُ قلبَه الرِّضا بما يقضي اللَّهُ فيه، والإشفاقُ من خوفٍ على أُمَّتِهِ أن يُصيبَها اللَّهُ بعذابٍ من عندِه في الدُّنيا أو في الآخرةِ، فتظلُّ حافظةُ القرونِ على ذكرٍ دائمٍ، لا تُخلِفُ للنَّاسِ فيها ظنًّا، حينَ يعودونَ إليها يستنطِقونها تأويلَ نبيِّهم هذا الخلقَ العظيمَ الذي يقتضيه مقامُ النُّبوَّةِ الرَّفيعِ؛ المقامُ الذي تتضاءَلُ فيه شوامِخُ المُثُلِ البشريَّةِ - الشَّاهدةِ منها والغائبةِ - في تاريخِ البشرِ كافَّةً على اختلافِ منازِلِها وأحوالِها وبيئاتِها؛ المقامُ الذي تناءَت عنه المقاماتُ وتدانَت، تناءَت بالعجزِ والقصورِ عنه، وتدانَت بالطُّلعةِ والرَّجاءِ فيه .

وهي بعجزِها ورجائِها مدركةٌ ولا شكَّ - أي مَن أرادَ منها أن يُدركَ - شيئاً قليلاً، يضاهي كلَّ ما أحاطَت به قدراتُ الرَّاغبين الصَّادقين في مسامتِه الحظَّ المقدورَ عليه من مقامِ النُّبوَّةِ الرَّفيعِ .

ثمَّ إنَّه لو كان لشيءٍ لا يكادُ يُذكرُ من حظِّ النَّفسِ عند محمَّدٍ عليه الصَّلاة السَّلام؛ لكان أشدَّ عُظْماً عندَ اللَّهِ سبحانه من حظوظِ نفوسِ الأُمَّةِ مجتمعةً؛ ذلكم أنَّ الأنبياءَ مبعوثون بقلوبٍ عامرةٍ بالحبِّ والحرصِ والألمِ، حبُّ الخيرِ للنَّاسِ وتيسيرِهم أسبابَهُ، وحرصٍ على الخيرِ للنَّاسِ والإشفاقِ عليهم، وألم أن يُصيبَ النَّاس شَقوةُ المخالفةِ عن رسالاتِ ربِّهم، فأينَ يكونُ مكانٌ لشيءٍ من حظِّ النَّفسِ بين هذا المزيجِ المتكاثرِ من الحبِّ والحرصِ والإشفاقِ ؟

إنَّهُ لو كان فيهم منه شيءٌ لذابَ في هذا المزيجِ المتكاثرِ المشوبِ بالرَّجاءِ، الموفورِ بالتَّضرُّع الباكي إلى اللّهِ أن يُذهبَ عن قلوبِ النَّاسِ الحزنَ، ويَصِلَها بحبلِ التَّائبين، فتدهَقَ بالأمنِ والعافيةِ، ويجلِّلَها النورُ الهادي إلى ظلِّ العرشِ .

إذاً فحاشا للأنبياءِ جميعاً وإمامِهم ومقدَّمِهم أن يكونَ لحظِّ النَّفسِ عندَهم ذِكرٌ أو مُقامٌ .

إنَّ مقامَ النُّبوَّةِ هو القطبُ الذي يأتلِفُ كلَّ مختلفٍ ومؤتلفٍ مِنَ النَّاسِ وغرائزِهم وبيئاتِهم، ولا يشقُّ عليهِ أن يجمعَ بينها في نظامٍ واحدٍ بديعٍ، حتى لكأنَّما تبدو - على ما بينها من تناقضٍ واختلافٍ - على نسق واحدٍ مؤتلفٍ لا يرتدُّ عنه البصرُ، ولا ينبو عنه السَّمعُ، ولا ينفرُ منهُ الذَّوقُ، تتملَّاه العينُ في تكسُّراتِ الضَّوءِ وفي سكونِ الظَّلامِ فلا يخفى عليها منه شيءٌ، فإنَّ لهُ نوراً في الظَّلام يُعرَفُ بِهِ، وإنَّ له في الضَّوءِ حِسًّا يُدرَكُ به، ثمَّ لا يلبثُ أن يميَ البصرُ بين مختلفهِ وبين مؤتلفِهِ، فينفي المختلِفَ ويُبقي على المؤتلفِ، ويكشِفُ الجادَّةَ أمامَ السَّارين، ويُدني الغايةَ في أبصارِ المجدِّين .

إذاً فلم يبقَ في صدرِ نبيِّنا عليه الصَّلاة والسَّلام إلَّا الصَّفحُ الجميلُ، وقد أمرَه به ربُّه، فيكونُ منه - ولا بدَّ - التَّأويلُ العمليُّ لخُلُقِ العفوِ، يكونُ به في عيونِ أُمَّتِهِ المعلِّمَ المرَبِّيَ، لا يخالِفُ قولُهُ فعلَه، ولا فِعلُه قولَه،

تطابُقٌ كاملٌ بين العلمِ وبين التَّربيةِ، إذْ لا تربيةَ نافعةً إلّا بعلمٍ نافعٍ، ولا علمَ نافعاً إذا لم يُنتِجْ تَربيةً نافعةً .

وهذا الصَّفحُ الجميلُ يصنعُ جزءاً عظيماً من أُسلوبِ الدَّعوةِ الذي هو جزءٌ من دعوةِ النُّبوَّةِ وهي الميراثُ الذي آلَ إلى الأُمَّةِ بعدَ لحوقِ النَّبيِّ عليه السَّلام بالرَّفيقِ الأعلى، فيكونُ الاستيثاقُ من نجاحِ الدَّاعيةِ حين يعرفُ كيف يكونُ الصَّفحُ عن المُسيءِ، وهو يعمل في حقلِ الدَّعوةِ إمَّا بين ظهرانيِّ المشركينَ، وإمَّا بين ظهرانيِّ المسلمينَ، والحقُّ في الاثنينِ واحدٌ إلّا من حيثُ الظَّاهرِ، فإنَّ بينهما اختلافاً؛ لكنَّهُ اختلافٌ لا يَمسُّ الحقيقةَ والجوهرَ .

وسيرةُ الرَّسولِ عليه السَّلام بكلِّ أجزائِها وأحداثِها وشخوصِها هي السُّلَّمُ الذي يجبُ أن يكونَ مرقاتَها إلى اللَّهِ طاعةً له، فعلاً، وامتثالاً، وتركاً، واجتناباً، وليس أعوَنَ للمؤمنِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ على تحقيقِ النَّجاحِ الكبيرِ المأمولِ - الذي يُرتجى به أن يكون لازماً فيه الحقَّ، داعياً إليه، عاملاً في سبيلِ تحقيقِهِ، ورفع منارِه - مِن تَعَرُّفِ سيرةِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، في كلِّ جوانِبِها، وبخاصَّةٍ سيرتَهُ في الدَّعوةِ التي كان خلقُ العفوِ أظهرَ أسبابِ نجاحهِ فيها، وأخصَّ أخلاقهِ فضلاً في استجابةِ النَّاسِ إليها، والتفافِهم من حولِه صلوات اللَّه وسلامه عليه .

وهكذا كانت الدَّعوةُ - ولا زالت، وستظلُّ - موصولةً على الدَّهرِ

بأُصولِها التي قامت عليها .

وبعد؛ فإنَّ جميعَ ما تقدَّمَ من الفضائلِ والأخلاقِ وجلائلِ الأفعالِ التي ربَّى النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم أُمَّتهُ عليها هي التي تتواصلُ بها الأُمَّةُ في حياتِها، ولا غنى لها عنها حتى مع أعدائِها، ولا أَضلُّ من أُمَّةٍ ربَّاها نبيُّها على هذه كلّها ثمَّ تكونُ جاهلةً حقَّه عليها، لِذا فقد أَوْقرَ القرآنُ صدورَ المؤمنينَ بحقوقهِ عليهم، وأحصاها لهم، وجعلها من الإيمانِ الذي لا يتمُّ إيمانُ المرءِ إلّا بهِ، قالَ تعالى : ﴿ إنَّا أرسَلناكَ شاهداً ومُبَشِّراً ونَذيراً ○ لتُؤمنوا باللَّهِ ورَسولِهِ وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ ﴾[1]، والتَّعزيرُ هو التَّعظيمُ والتَّفخيمُ والنُّصرةُ، وقد علَّلَ اللَّهُ سبحانه إرسالَ نبيِّهِ بالبشارةِ والنِّذارةِ - لمن أطاعَه وأطاعَ نبيَّهُ وعصاهُ وعصى نبيَّهُ - بالإيمانِ به وبرسولِهِ، وتعظيمِ رسولِهِ وتفخيمِهِ ونصرتِهِ، فإذا لم يجدِ المرءُ شيئاً مِن ذلك في قلبِهِ لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم فهو نقصٌ، أو قُل نقضٌ لحقيقةِ الإيمانِ .

وإذا عظَّمَت الأُمَّةُ نبيَّها عظُمَتْ في عينِ نفسِها، وألقى اللَّهُ هيبتَها في قلبِ عدوِّها، وذلك جَزاءً وِفاقاً لتعظيمِها نبيَّها، ومن تعظيمِ الأُمَّةِ نبيَّها تعظيمُها لسُنَّتِهِ ولُزومها العملَ بكتابِ ربِّهِ، وإذا فعلَت الأُمَّةُ ذلك نالَت رضوانَ اللَّهِ وحبَّه ثمَّ نصرَه، ومِصداقُ هذا في قولِهِ سبحانه : ﴿ فالَّذينَ آمَنوا بِهِ وعزَّرُوهُ ونَصروهُ واتَّبعوا النُّورَ الذي أُنزِلَ مَعهُ أولئكَ

---

(١) الفتح : ٨ و ٩ .

هُمُ المُفلِحونَ ﴾[1].

ولما كان هذا حقًّا على الأُمَّة لنبيِّها يجبُ عليها الوفاءُ به وأداؤُه؛ كان حقًّا على النَّبيِّ أن يُعلِّمَ الأُمَّةَ ويربِّيَها عليهِ، ويعرِّفَها كيف تكونُ وفيَّةً به، لِئَلَّا تُخطِىءَ فيه فتلحقَها مَعَرَّةُ الإثمِ، حاشا للرَّسول صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم أن يدعَ معرَّةَ الإثم تلحقُ بأُمَّتهِ وهو قادرٌ على أن يردَّها عنها، فكان عليه الصَّلاة والسَّلام - بما جُبِلَ عليه من الرَّحمةِ - لا يدعُ سبيلاً من سُبلِ الخيرِ إلّا دلَّ أُمَّتهُ عليه وهداهم إليهِ .

الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم يُربِّي أصحابه بالبُشرَيات :

حينَ كانَت تضيقُ أرضُ مكَّةَ على المؤمنينَ، وتجثُمُ على صدورِهم همومُ الفتنةِ، وتمتدُّ إليهم عيونُها من كلِّ صوبٍ، ولا يجدونَ مِن حولِهم مَن يُواسيهم - إمَّا لخوفٍ، وإمَّا لعجزٍ، وإمَّا لانقطاع وُدٍّ - ولا يرون أمامَهم باباً يَلِجون منه بقلوبِهم وأرواحِهم غيرَ بابِ السَّماء؛ كانت البشرى سُلَّماً يصعدون فيه بقلوبِهم وأرواحِهم إلى ذلك البابِ، أو جناحاً ليِّناً يحملُهم من فوقِهِ، حتى يضعَهم عندَ أعتابِهِ، أو حبلاً من النُّورِ يصلُهم برجاءٍ لا يَنبَتُّ على الدَّهرِ، وإن تراكَمَتِ الظُّلمةُ، وتكاثفَ البلاءُ، وتمادَتِ الفتنةُ، فالعاصِمُ حيٌّ لا يغفلُ، يرى الرَّكبَ المؤمنَ ويرعاه، ويُهيىءُ له مَن يقودُهُ إلى الغايةِ المُرتجاةِ .

---

(١) الأعراف : ١٥٧ .

ويكونُ للبشرى معنىً أعظمُ وأجلُّ عندَهم، تَجْتَلِيهِ أنفسُهم المترعةُ بأشواقِ الحقِّ والهدى، حين يكونُ النّاقلُها رسولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّم عن ربِّهِ إليهم، فهو البشيرُ المبشِّرُ، ولا بدَّ أن يكونَ - وهو المسمَّى بهما - هو المعنى الكاملُ المطابقُ بكلِّ ما فيه من ظاهرٍ وخفيٍّ، ومرئيٍّ ومستورٍ، لما يدلُّ عليه هذانِ الاسمانِ العظيمانِ .

وكان رسولُ اللّه صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم يرى في أصحابهِ - وهم يلتفُّونَ من حولهِ - الرَّجاءَ الواعدَ للأُمَّةِ في كلِّ أجيالِها وأمصارِها، فيشتدُّ حرصُهُ على إحاطتِهم بكلِّ أسبابِ الرِّعايةِ التي تحفظُ عليهم دينَهم، وتُوثقُهم إليهِ وِثاقاً مأموناً لا ينقطعُ أبداً، وتجعلُ منهم قاعدةً تربويَّةً كُليَّةً، يقومُ عليها وجودُ الأُمَّةِ إلى قيام السَّاعةِ، وأساساً صُلباً تلتقي فوقَه أزمنتُها الثّلاثةُ، فتشقُّقُ منها تاريخاً لنفسِها يُظِلُّ الحياةَ الإنسانيَّةَ كلَّها، ويَمُدُّ رواقَه الآمنَ فيأوي إليه كلُّ ذِي لبٍّ رشيدٍ .

وما كان الرّسولُ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم يُزجي البُشرى لأصحابهِ إلّا وهي يمازِجُها شيءٌ من كُرهٍ؛ تعرجُ به في صُعداتِ الدّهرِ، فتلذُّ به، وتظلُّ في شوقٍ إليها لا ينقطعُ، وهي حاضرةٌ بين يديها، فتكونُ البُشرى أعظمَ حافزٍ من حوافزِ النَّفسِ يجتازُ بها المبشَّرونَ بيداءَ الحياةِ، ويعتلون مُتونَ شواهقِ الزَّمنِ، ويجُوبون بها أقطارَ القرونِ من غيرِ أن يعرفَ اليأسُ سبيلاً سهلاً إليهم، ولو قطَّعَ البلاءُ قلوبَهم، فالبلاءُ هنا يكونُ له في نفوسِهم مذاقَ الشَّهدِ، لأنَّهُ السَّبيلُ الأمثلُ الذي يعتلون جادَّتَه بركائبِهم وأقدامِهم

إلى دارِ الرِّضوانِ الأبديِّ .

وكانت مكَّةُ هي دارُ البلاءِ، وهي منطلقُ البُشرياتِ، تجري بهم بِرُخائِها وبُرحائِها إلى الغايةِ المنشودةِ، التي عقدوا العزمَ على بلوغِها، فإمَّا حياةٌ يُتوِّجُ هامَتها النَّصرُ، وإمَّا شهادةٌ تهديهم إلى الفردَوسِ الأعلى .

كان الرَّهبُ الرَّعيبُ يهوي بسياطِهِ القاسيةِ على أبشارِ المؤمنين المستضعفين، تأكلُ منها أكلاً لـمًّا، أما ذَوُو الجاهِ منهم والرِّياسةِ، فإنَّهم كانوا يلقَونَ نوعاً آخرَ من الرَّهبِ، كانوا يلقونَ من المقاطعةِ، والتَّشهيرِ، وسوءِ القولِ، والإعناتِ النَّفسيِّ ما لا قِبَلَ بحملهِ إلّا للأنبياءِ .

فكانَت البشرى لهم جميعاً تضعُ بسمةً صافيةً على ثغرِ مكَّةَ، يطلُّ عليهم بها في إسرارٍ ورضا من وراء أبي قبيسٍ، تنقلُ إليهم من وراءِ القرونِ مصائرَ الأُمَمِ، كأنَّها رأيُ عينٍ ومراقي ومعارجُ أنبيائِهم في سماءِ الخلودِ، فتخفقُ بهذه قلوبُهم، وتقشعرُّ من تلكَ فرائصُهُم، فيكونون بينَ هذه وتلكَ في رجاءٍ وخوفٍ معاً، ينزِعُ بهم إلى الصَّبرِ والتَّضحيةِ، فيرونَ النَّصرَ منهم قابَ قوسينِ أو أَدنى، فالبشرياتُ بشائرُ صدقٍ تنجابُ بها غواشي اليأسِ عن القلوبِ، وينحطُّ بها ثِقَلُ الهمومِ عن الصُّدورِ .

كان المشركون يحبُّون أن تظهرَ فارسُ على الرُّوم؛ لأنَّ فارسَ أصحابُ أوثانٍ مثلُهم، وكان المسلمون يحبُّونَ أن تظهرَ الرُّومُ على فارسَ؛ لأنَّهم أهلُ كتابٍ، ويعرِضُ حديثٌ في هذا بين أبي بكرٍ رضي

اللَّهُ عنه وبين بعضِ المشركينَ، ولم يكن أبو بكرٍ يتجاوزُ فيه حدَّ الأماني؛ التي قد تبدو أقربَ ما تكون إلى المتمنِّي في بشرى تكونُ إرهاصاً لأمرٍ يُحبُ أن يقعَ على نحوِ ما يتصوَّرُه في نفسِهِ .

ويذهبُ أبو بكرٍ للرّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، ويخبرُهُ عمَّا كان بينَه وبينَ بعضِ المشركِينَ، فينزلُ عليه قرآنٌ يقولُ : ﴿ الم ○ غُلِبَت الرُّومُ ○ في أدنىَ الأرضِ وهُم مِن بَعدِ غَلبِهم سَيَغلِبونَ ○ في بِضعِ سنينَ للَّه الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بِنُصرِ اللَّه ينصُرُ مَن يشاءُ وهو العزيزُ الرَّحيمُ ○ وَعدَ اللَّهِ لا يُخلِفُ اللَّهُ وَعدَهُ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ ﴾[1].

وتمضي السّنون، ويخلفُ اللَّهُ أملَ المشرِكينَ، ويَظهرُ الرُّومُ على الفرسِ، ويكبرُ الأملُ في صدورِ المسلمينَ، ليصبحَ رجاءً عظيماً ضخماً يسعى بين أيديهم، ويُرجِّيهم بنصرِهم وظهورِهم على الأُمم كافَّةٍ، ليكونَ الظُّهورُ والغلبةُ للدِّينِ الذي أعزَّهُم اللَّهُ به، ومكَّنَ لهم به مِن الأرضِ : ﴿ هُوَ الَّذي أرسلَ رَسولَهُ بالـهُدى ودِينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه وَلو كَرِهَ المشركونَ ﴾[2].

وتشتدُّ وطأةُ الأذى على أولئِك المستضعفين، وتتنزّى قلوبُهم ألماً وخوفاً، فيُهرَعونَ إلى القلبِ الرَّحيم الرَّؤوفِ، وهو مستظلٌّ بفناءِ الكعبةِ

---

(١) الروم : ١-٦ .

(٢) التوبة : ٣٣ .

يتَّقي به الحرَّ الذي يُلهِبُ شِعابَ مكَّةَ وصخورَها ورَملَها، وعَقلُهُ الكبيرُ ربَّما ينتقلُ بهِ في شِعابِ الأرضِ يبحثُ له ولأصحابِهِ - هؤلاءِ المستضعفينَ - عن مكانٍ يجدون فيه لأنفسِهم مُستراحاً من بُرَحاءِ الرَّهبِ، الذي لا يعرفونَ له نهايةً يقفُ عِندَها، فيُظهرونَهُ على ما يملأُ قلوبهم من ألمٍ وخوفٍ، ويسألونَه أن يستنصرَ اللَّهَ لهم؛ فهم يخشون أن تنالَ الفتنةُ منهم، فيرتدُّوا بعد إيمانِهم كافرين .

ففي « البخاري » عن خبَّابِ بنِ الأَرَتِّ قال : شكونا إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم - وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظلِّ الكعبةِ - فقلتُ: ألا تَستَنصِرَ لنا ؟ ألا تَدعوَ لنا ؟ فقال : « قَد كانَ مَن قَبلكم يؤخَذُ الرَّجلُ؛ فيُحفَرُ لهُ في الأرضِ، فيُجعلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنشارِ، فيوضَعُ على رأسه، فيُجعَل نصفين، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ من دونِ لحمِهِ وعظمِهِ، فما يصدُّهُ عن دينِهِ، واللهِ لَيتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الرَّاكبُ من صنعاءَ إلى حضرَموتٍ، لا يخافُ إلّا اللَّهَ والذئبَ على غَنمِه، ولكنَّكم تستعجلون » .

ويأتي الوحيُ المتلوُّ يُصَدِّقُ تلكَ الكلمةَ، يؤذِنُ المؤمنين أنَّ الدَّعوةَ ليسَت أمراً تجري به أقدارُ البشرِ، يصنعونَها لأنفسِهم، بل هي حِمْلٌ ثقيلٌ لا يقوى على رفعهِ والسَّيرِ به إلّا مَن أُوتيَ حظًّا وافراً من صدقِ الإيمانِ ﴿ الٓمٓ ٥ أَحَسِبَ النَّاسُ أنْ يُترَكُوا أن يَقولوا آمنَّا وهُم لا يُفتَنون ٥ ولَقَد فَتنَّا الَّذينَ مِن قبلِهم فَلَيَعلَمَنَّ اللَّهُ الَّذينَ صَدَقوا وَليَعلمَنَّ

الكاذبينَ ﴾[1].

وتمضي كوكبةُ المستضعفينَ في مكَّةَ، تحمِلُ البشرى منسوجةً بالآلامِ والصَّبرِ والبلاءِ تنظرُ إلى اليومِ الموعودِ الذي ستلْقاها فيهِ في مكانٍ ما فوقَ الأرضِ، وإنْ كان الَّذي يغلبُ عليهم أنَّهم لَنْ يخرجوا من مكَّةَ، وأنَّ فيها مماتَهُم كما كانَ بها مولدُهم .

ويقضي اللَّهُ من أمرِهِ ما يقضي في هذه الفئةِ الصَّابرةِ المؤمنةِ، وتكونُ الهجرةُ، ويتتابعُ المهاجرونَ لا يحملونَ معهم زاداً في هجرتِهم إلّا إيمانَهم، يخلصونَ بهِ إلى أرضٍ يأمنونَ فيها عليهِ، وما تكادُ أجسادُهم تستقرُّ فوقَ أرضِ المدينةِ، وما يكادونَ يُلقونَ بشيءٍ من عناءِ رحلةِ الهجرةِ في بيوتِ إخوانِهمُ الأنصارِ، حتى يبدأَ رَهَبٌ جديدٌ يضاجعُهم، فالعربُ لن يقرَّ لهم قرارٌ، وقريشٌ توقِدُ في صدورِهم نارَ الثَّأرِ لآلِهتِهِمُ التي يدعونَ من دونِ اللَّهِ، فلا يكونُ إلّا التَّرقُّبُ والحذرُ والخوفُ، وإن كان يشاركُهم هنا في المدينةِ إخوانُهم الأنصارُ جميعاً، ويقفونَ معهم في مواجَهةِ الخطرِ الذي يهدِّدُهم من خارجِها، ولكن إلى متى يظلُّ حالُهم هذا ؟ وما كانَتِ الهجرةُ إلّا ليصيبوا في المدينةِ الأمنَ والاطمئنانَ لأنفسِهم، فإذا الهجرةُ تحملُ شيئاً من أسبابِها معها، ليصيبَ منها الأنصارُ أيضاً، فهل خالط نفوسَهم يا تُرى شيءٌ من ندامةٍ ؟ لا أحسبُهم كذلك، إذاً فليكن منهم ما كان في مكَّةَ، ليذهبوا إلى القلبِ الرَّؤوفِ

---

(١) العنكبوت :١-٣ .

الرَّحيم، يدفعون بشكاتِهِم إليهِ، فإنَّهم ولا ريبَ واجدونَ عندَه ما يخفِّفُ عنهم آلامَهم، ويُنقِصُ عنهم بعضَ همومِهِم، بما يكونُ عندَه من بشرى عوَّدَهم عليها، حتى ولو كانَت مشوبةً بما يكرهون، والرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم يعلمُ من حالِهم ما يعلمونَ هم مِن حالِهم، فهم يُمسُونَ في السِّلاح، ويصبِحونَ في السِّلاحِ، والخوفُ محيطٌ بهم، أَفيظلُّونَ هكذا أبدَ الدَّهرِ ؟ أفلا يأتي عليهم يومٌ يأمنونَ فيه، ويضعونَ فيه السِّلاحَ ؟ فيقرأُ عليهم ما أنزلَ اللَّهُ عليه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا منكُم وعَمِلوا الصَّالحات لَيَستَخلِفنَّهُم في الأرضِ كَما استخلَفَ الَّذينَ مِن قَبلِهم وليُمَكِّنَنَّ لَهُم دينَهُم الَّذي ارتَضى لهم ولَيُبَدِّلنَّهُم مِن بعدِ خَوفِهم أمناً يَعبُدونَني لا يُشرِكونَ بي شيئاً ومَن كَفرَ بعد ذلك فأولئكَ هُمُ الفاسقونَ ﴾(١).

وكانت أسماعُهم أوَّلَ مقدَمِهم المدينةَ قَد وَعَت عن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم آياتِ ألمحَتْ إلى شيءٍ من هذه البشرى، أَذِنَ اللَّهُ لهم فيها بالقتالِ : ﴿ أُذِنَ للَّذينَ يُقاتَلونَ بأنَّهم ظُلموا وإنَّ اللَّهَ على نَصرِهم لقَديرٌ ٥ الَّذينَ أُخرِجُوا من دِيارِهم بغيرِ حَقٍّ إلّا أن يَقولوا ... ﴾ الآيات (٢).

ثمَّ كانَ التَّصريحُ في آيةِ سورةِ النُّورِ بهذهِ البشرى، التي رأَوها حقيقةً ماثلةً بعدَ زمنٍ قريب من نزولِها، وعاشوا في أكنافِها، ومشوا في

(١) النور : ٥٥ .

(٢) الحج : ٣٩ و ٤٠ .

أَعطافِها، واعتلوا منابرَها، وحملوها إلى النَّاسِ خارجَ المدينةِ، وأسعدوهم بها كما سَعِدوا بها هُم، في غيرِ مَنٍّ ولا أذىً، فهكذا علَّمَهُم إمامُهم وقائِدُهُم ومُعلِّمُهُم صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم .

لَم تكِن البُشرى في حسابِ رسولِ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم كلماتٍ مجرَّدةٍ تنقطعُ بانقطاعِ الصَّوتِ الذي يحمِلُها بلْ كانَت حقيقةً تتجسَّدُ رجاءً يسعى بينَ أيدي أصحابِهِ، يرَونَ فيهِ حصوناً تتهاوى، وقلاعاً تنهارُ، وأنهاراً تجري بالبرِّ والعطاءِ الجمِّ للدُّنيا، وأرضاً أجدَبت قروناً تُونِعُ بخضرةِ الحقِّ والأمنِ، وأفواجاً من البشرِ تقبلُ على التَّوحيدِ، تَخلُصُ به من أدرانِ الشِّركِ، وأوضارِ السُّوءِ، ومعرفةً لا تَشبعُ منها العقولُ، وجِهاداً لا تكِلُّ منه الأبدانُ .

كانت تربيةً عقليَّةً ونفسيَّةً متكاملةً تُفضي إلى بناءٍ فكريٍّ وجسديٍّ، تفاخِرُ به الأُمَّةُ في كلِّ أطوارِ حياتِها .

o o o o o

الرَّسولُ القائدُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم

حينما نقرأُ آياتِ القتال المبثوثةَ في سوَرِ القرآنِ الكريمِ لا نعرفُ منها أحكامَ القتالِ التي شرعَها اللَّهُ سبحانه فحسبُ؛ بل تظهرُ لنا من خلالِها شخصيَّةُ الرَّسولِ القائدِ تتحرَّكُ على كلِّ أرضٍ شهِدَت غزوةً أو فتحاً .

بلْ أَكادُ أقولُ : إنَّ الهدفَ الأوَّلَ منها هو إظهارُنا على شخصيَّةِ الرَّسولِ القياديَّةِ، لتظلَّ ماثلةً أمامَ أَبصارِ الأجيالِ وعقولِهم آيةً كُبرى على صدقِ الوحي المنزَّلِ وصدقِ التَّلقِّي من المنزَّلِ عليهِ، فكانَت مِن الصدِّيقين المعجزةُ الباقيةُ على الدَّهرِ - التي أُوجدَت بسلوكِها القتاليِّ المعجزِ الفذِّ - نمطاً فريداً من القيادةِ القتاليَّةِ عزَّت على البشَرِ في قدرتِها على إدارةِ الجيوشِ، وفي شجاعَتِها وبطولَتِها في خَوضِ المعارِك، وفي ثِقَتِها بربِّها ثمَّ بنفسِها في تحقيقِ النَّصرِ الذي وعدَ اللَّهُ به عبادَهُ المخلِصينَ .

ولا تكونُ القيادةُ القتاليَّةُ قادرةً على الإمساكِ بطرفِ النَّصرِ إلَّا إذا عرَفَتِ المبادىءَ الأساسيَّةَ الكليَّةَ التي تكفُلُ لها ذلك، وغنيٌّ عنِ القولِ أنَّ

الرَّسولَ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وضعَ بوحيٍّ مِن ربِّه وتسديدٍ مِن كتابهِ المبادئَ التي سارَ عليها قُوادُ المسلمينَ من بعدُ، وكانوا بها أقدرَ القادَةِ وأنبلهم في تاريخِ الإنسانيَّةِ كلِّهِ، وهذه المبادئُ هي :

◻ أوّلاً : تحديدُ الهدفِ منَ القتالِ :

ولم يكن هدفُ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم يوماً الحصولَ على الغنائم وتوسيعَ رُقعةِ الأرضِ التي تقومُ عليها الدَّولةُ، فذا أَمرٌ فُرِغَ منه، فالأرضُ للَّهِ وهو خالِقُها فهي ميدانُ الدَّعوةِ، ولو شاءَ اللَّهُ لأبقى النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم في مكانهِ من المدينةِ، ولَفتحَ له البلادَ بلا قِتالٍ، ولأَورثَهُ الأرضَ كلَّها حتى يرى الإسلامَ قد عمَّ أطرافَها، بل كان هدفهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إبلاغَ دعوةِ اللَّهِ للنَّاس كافَّةً، وإظهارَ دينِهِ في الأَرضِ، وتلقَّى الأمرَ من ربِّهِ بهذا: ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكفَّارَ والمنافقينَ واغْلُظْ عَليهِمْ ومأْواهُمْ جهنَّمُ وبئسَ المصيرُ ﴾[1]، وليس الإغلاظُ خُلُقاً قتاليًّا عندَ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم إلّا حينما تستعصِي عليهِ الوسيلةُ لتحقيقِ الهدفِ، أمَّا حين تفلحُ الوسيلةُ فيتحرَّكُ إلى الأعداءِ وسيفهُ في غمدِه : ﴿ وإنْ جَنَحوا للسَّلمِ فاجْنَحْ لها وتوَكَّلْ على اللَّه إنَّهُ هو السَّميعُ العليمُ ﴾[2].

والإغلاظ قَدْ ينتهي إلى استئصال شأْفةِ العدوِّ المتربِّصِ بالإيمانِ

(1) التوبة : ٧٣، والتحريم : ٩ .

(2) الأنفال : ٦١

الدَّوائرَ، فهو مطلقٌ لا يقِفُ عندَ حدٍّ، بل هو يكادُ يكونُ المعنى المتبادَرَ إلى العقلِ، وإنْ كان قد ذهبَ المفسّرونَ إلى المرادِ بالغلظَةِ؛ الغلظةُ باللسانِ، ومرادٌ به المنافقون، أمّا المرادُ بالكفّارِ فالجهادُ، وعندي أنَّ الإغلاظَ يتناوَلُهم جميعاً، وأنَّهُ أعمُّ مِن أن يكونَ باللسانِ وحده؛ لأنَّ الغلظة نقيضُ الرَّأفةِ، وهي شدَّةُ القلبِ على إحلالِ الأمرِ بصاحبِهِ، وليس ذلك في اللسانِ كما قال القرطبيُّ[1]، ويؤيّدُ هذا المعنى قولُهُ سبحانه : ﴿ وَلَقَد صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إذْ تَحُسّونَهُم بإذنِهِ حتى إذا فشِلتُم وتَنازَعتُم في الأمرِ وعَصيتُم مِن بعدِ ما أَرَاكُم ما تحِبّونَ مِنكُم مَن يُريدُ الدُّنيا ومنكم مَن يُريدُ الآخِرَةَ ثمَّ صَرَفكُم عنهم لِيَبتَلِيَكُم ولَقَد عفا عَنكُم واللَّهُ ذو فَضلٍ على المؤمنينَ ﴾[2]، والحَسُّ : هو الاستئصالُ بالقتلِ، وحينَ يكونُ الاستئصالُ ضرورةً قِتاليَّةً يكونُ هدفاً سامياً يجبُ على القائدِ أَن يحرِصَ عليه؛ لأنَّ اللَّهَ شرعَهُ .

ولا يكونُ الاستئصالُ مِن غيرِ ضحايا، لذا أوجبَ اللَّهُ على نبيِّهِ أنْ يُحرِّضَ عليه المؤمنينَ وأنْ يذكِّرَهم بأنَّ التَّضحيةَ - التي قد تكلّفُهم أرواحَهم - هي جزءٌ من الهدفِ الذي يحرِصُ على تحقيقِهِ : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ حَرِّضِ المؤمنينَ على القِتالِ إنْ يَكُن منكُم عشرونَ صابِرونَ يَغلِبوا مائتين وإنْ يكُن مِنكُم مائةٌ يغلِبوا أَلْفاً مِنَ الَّذينَ كَفروا بأنَّهُم قومٌ لا

---

(١) « تفسير القرطبي » (٨/٢٠٥) . (٢) آل عمران : ١٥٢ .

يَفقَهونَ ﴾[1]، وحين تنالُ التَّضحيةُ من دمِ المجاهدِ وروحهِ يكونُ قد ألمَّ بأبوابِ الجنَّةِ : ﴿ وَلا تَحسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سَبِيلِ اللَّهِ أمواتاً بَل أحياءٌ عِندَ ربِّهِم يُرزَقونَ ﴾[2].

وحرصُ المقاتلِ المؤمنِ على نَيلِ الشَّهادَةِ ليس معناه أنَّهُ سيبلُغها، فهناك شيءٌ آخر هو جزءٌ من الهدفِ، وهو إحرازُ النَّصرِ : ﴿ وَمَنْ يُقاتِل في سبيلِ اللَّهِ فيُقتَل أو يَغلِب فسوفَ نُؤتيهِ أجراً عظيماً ﴾[3]، والأجرُ العظيمُ يستوي فيه من نالَ الشهادةَ ومن أحرزَ النَّصرَ، لأنَّ الثَّاني - وإن تفوَّقَ عليه بالشَّهادةِ - كانَ حريصاً على أن يلحقَ بالأوَّل، وقد صحَّ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم : « تضمَّنَ اللَّهُ لمَنْ خرجَ في سبيلِهِ، لا يُخرجهُ إلّا جهادٌ في سبيلي، وإيمانٌ بي، وتَصديقٌ برسلي؛ فهو عليَّ ضامنٌ أَنْ أُدخلَهُ الجنَّةَ، أو أُرجِعَهُ إلى مسكنِهِ الذي خرجَ منهُ نائلاً ما نالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ »[4]، وحينَ يتَّضِحُ الهدفُ للمقاتلِ يشتدُّ حِرصُهُ على بلوغِهِ وتهونُ المشقَّاتُ عليهِ .

□ ثانياً : اعتمادُ الوسيلةِ الصَّحيحةِ لتحقيقِ الهَدَفِ :

ووضوحُ الهدفِ وحدَهُ للقيادةِ لا يكفي، وإن كان لا بدَّ منه لنجاحِ القيادةِ، وللوصولِ إلى هذا الهدفِ لا بدَّ من الوسيلةِ الصَّحيحةِ الدَّقيقةِ التي يقتدرُ بها القائدُ على تحقيقِ الهدفِ، والوسيلةُ الصَّحيحةُ التي تُسلِمُ

(1) الأنفال : ٦٥ .
(2) آل عمران : ١٦٩ .
(3) النساء : ٧٤ .
(4) رواه مسلم .

إلى الهدفِ هي مجموعةُ أُمورٍ يتدخَلُ بعضُها ببعضٍ ويؤثّرُ كلُّ واحدٍ منها في الآخَرِ نجدُها مبثوثةً في آي القرآنِ :

أ - الحاجةُ الحقيقيَّةُ الدَّاعيةُ للقتال : ﴿ وقاتِلوا في سبيلِ اللَّهِ الَّذينَ يقاتِلونَكُم ولا تَعتَدوا إنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ المعتدينَ ﴾[1].

ب - الإحاطةُ الدَّقيقةُ بنفسيَّاتِ الَّذينَ يُقصَدونَ بالقتالِ .

ج - تسخيرُ جميعِ الإمكاناتِ الماديَّةِ والمعنويَّةِ للقتالِ : ﴿ وأعدُّوا لهُم ما استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ ومِن رِباطِ الخَيلِ تُرهِبونَ به عَدوَّ اللَّهِ وعدوَّكُم وآخرينَ مِن دونِهم لا تعلمونهُم اللَّهُ يعلمُهُم وما تُنفِقوا مِن شيءٍ في سبيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إليكُم وأنتُم لا تُظلَمونَ ﴾[2].

د - تسخيرُ الحوافزِ للفصلِ والتَّمييزِ بينَ المقاتلينَ : ﴿ عَفا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لهم حتَّى يتبيَّنَ لَكَ الَّذينَ صَدَقوا وتَعلَمَ الكاذبينَ ﴾[3].

هذه هي الأمورُ الأربعةُ التي استخدمَها الرَّسولُ القائدُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم للوصولِ إلى الهدفِ المحدَّدِ، وقد نسجَها الوحيُ الأمينُ في سلكٍ واحدٍ فصارَت الوسيلةَ الفعَّالةَ لتحقيقِ الهدفِ .

ولَم تكنِ الحاجةُ القتاليَّةُ عندَ الرَّسولِ في يومٍ مِنَ الأيَّامِ حاجَةً اقتصاديَّةً لإشباعِ الجسدِ وإرواءِ غلَّتهِ وظمئهِ، بل كانَت لرَفعِ آصارِ الشركِ

(١) البقرة : ١٩٠ .
(٢) الانفال : ٦٠ .
(٣) التوبة : ٤٣ .

والأعرافِ الباطلةِ وتحقيقِ العدلِ والأمنِ اللّذينِ حرَمَهُما الإنسانُ آماداً طويلةً، وأَخذِ السّوطِ الظّالمِ مِن أيدي جلاوذَةِ السّلطَةِ، وإقامةِ نظامٍ يُطبّقُ شرائعَ السّماءِ في الأرضِ، وهذه كلُّها مجموعةٌ في قولِهِ تعالى : ﴿ وَعدَ اللّهُ الّذينَ آمَنوا منكُم وعَمِلوا الصّالحاتِ لَيستَخلِفنَّهُم في الأرضِ كما استخلفَ الّذينَ مِن قبلِهِم وليُمكِّنَنَّ لهُم دينَهُمُ الّذي ارتَضى لهُم ولَيُبَدِّلنَّهُم من بعدِ خَوفِهِم أَمناً يَعبُدونَني لا يُشركونَ بي شيئاً ومَن كَفرَ بعدَ ذلك فأولئكَ هُم الفاسقونَ ٥ وأقيموا الصّلاةَ وآتوا الزّكاةَ وأطيعوا الرّسولَ لعلّكُم تُرحَمون ﴾[1]، وقولِهِ : ﴿ الّذينَ إنْ مكّنّاهم في الأَرضِ أَقاموا الصّلاةَ وآتوُا الزّكاةَ وأَمَروا بالمعروفِ ونَهَوا عنِ المنكرِ وللّهِ عاقبةُ الأمورِ ﴾[2].

ولو كانَتِ الحاجةُ القتاليّةُ عندَ الرّسولِ حاجةً اقتصاديّةً لانتهى بِهِ الأَمرُ عند تحقيقِ هذهِ الحاجةِ، ولانصرَفَ همُّهُ إلى تنميةِ هذه الحاجةِ وتوسيعِ قاعدتِها والبحثِ عن روافِدَ جديدةٍ لها ديمومتُها، ولما شغلَ نفسَهُ ولا أَصحابَهُ في ركوبِ المخاطرِ وقطعِ المفاوِزِ وبَذلِ الأنفُسِ، وإنْ كانَ الإنسانُ - وهو يقيمُ في أرضٍ ضيّقةٍ وينمو يوماً بعدَ يوم - يستنفِدُ كثيراً من أسبابِ العيش، فيُرغَمُ على مجاوزةِ أَرضِهِ لتحصيلِ ما فقدَ من هذه الأسبابِ، فتقعُ الحروبُ الطّاحنةُ والفتَنُ المهلِكةُ، وهذه نظريّةٌ كانَت منتفيةً تماماً من واقعِ الرّسولِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم وأصحابهِ، فكان يكفيهِ

(١) النور : ٥٥و٥٦ .

(٢) الحج : ٤١ .

أن يفتحَ مكَّةَ - وقد كانَ - ثمَّ يشكِّلَ قوَّةً رادعةً يكفُّ بها الأطماعَ الوالبةَ، أو تعملُ على أن تكونَ مكَّةُ والمدينةُ دارَ سلامٍ يأوي إليها المتخاصمونَ للتَّحاكم، فيحصُلُ مِن جلبِ الوافدين عليها للعبادةِ والتَّحاكُمِ ما يكفيهِ ويكفي أصحابَه، وما يكونُ لهم مِن عقبٍ مِن بعدهم وذريَّةٍ، وقد تكفَّلُ اللَّه لمكَّةَ أنْ يأتيها رزقُها من كلِّ مكانٍ : ﴿ أَوَلَم نُمكِّن لهُم حَرَماً آمِناً يُجْبى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيءٍ رِزقاً مِن لَدُنَّا ﴾[1].

كما لَم يكنْ هدفهُ عليه الصَّلاة والسَّلام هدفاً توسعيًّا ليحكُمَ أكبرَ جزءٍ مِن الأرضِ، إذ ليسَ يُرادُ من التَّوسُّعِ إلَّا الحصولُ على المكاسبِ الماديَّةِ والمعاشيَّةِ، وهذه كان يمكنُ توفُّرُها للرَّسولِ مِن فتح مكَّةَ واهتمامهِ بها - كما ذكرنا مِن قبلُ - فقد أوصى عليه السَّلام أنْ لا يبقى في الجزيرة مُشرِكٌ[2] ليجعلَ منها قاعدةً مكينةً للتَّوحيدِ، يكفُلُ للجيشِ المتحرِّكِ للفتحِ حمايةً داخليّةً، فإذا عادَ منهزِماً وجدَ داراً يأوي إليها، يمتنعُ بها من العدوِّ اللاحقِ بهِ، وهذه الوصيَّةُ تُطلِعُنا على حقيقةِ الحاجةِ التي كان ينطلقُ منها الرَّسولُ ﷺ في قتالهِ، فهي حاجةٌ إيمانيَّةٌ دينيَّةٌ محضٌ، يكونُ بها الجنديُّ في قتالهِ تحتَ لواءِ النَّبيِّ - في حياتهِ وبعدَهُ - أقدرَ على الوصولِ إلى الهدفِ، ويكونُ الهدفُ بها أَدْنى إلى ذلك الجنديِّ ولا ريبَ، وهذه الحجَّةُ تظهرُ في كثيرٍ من نصوص القرآنِ الدَّاعيةِ إلى القتالِ،

(١) القصص : ٥٧ .
(٢) فيما رواه البخاري من حديث ابن عباس .

كما في قولِه سبحانه : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكفَّارَ والمنافقينَ واغلُظ عليهم ومأواهُم جهنَّمُ وبئسَ المصيرُ ﴾(١)، والجهادُ اصطلاحٌ قرآنيٌّ يعني أنَّ الباعثَ والحاجةَ للقتالِ هي حاجةٌ إيمانيَّةٌ محضةٌ، وقوله : ﴿ وَقاتِلوا في سبيلِ اللَّهِ الَّذينَ يُقاتِلونَكُم ولا تَعتَدوا إنَّ اللَّهَ لا يحبُّ المُعتدينَ ﴾(٢)، وقولِهِ تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ كَفروا وصدُّوا عن سبيلِ اللَّه قَد ضَلُّوا ضَلالاً بعيداً ﴾(٣)، أي : فالحاجةُ داعيةٌ لقتالِهم، وقولِهِ : ﴿ انفِرُوا خِفافاً وثِقالاً وجاهِدوا بأموالِكُم وأنفُسِكُم في سبيلِ اللَّهِ ذلكُمْ خيرٌ لكُم إنْ كُنتُم تعلَمونَ ﴾(٤)، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ .

وقد أحاطَ الرّسولُ الكريمُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم عِلماً بنفسيَّاتِ البشرِ سواءٌ منهم مَنْ كانَ داخلَ أرضِ الجزيرةِ؛ وهم الذين ماتَ الرّسول صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وقد دخلوا جميعاً في الإسلام : ﴿ ورأَيتَ النَّاسَ يَدخُلونَ في دينِ اللَّهِ أفواجاً ﴾(٥)، أمَّا مَن كان منهم خارجَها؛ وهم الذين تولَّى أصحابهُ مِن بعدِهِ فتحَ بلادِهم وإبلاغَهم دعوةَ اللَّهِ : ﴿ هوَ الَّذي أرسلَ رَسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ على الدِّينِ كلِّهِ وَلو كرِهَ المشركونَ ﴾(٦)، ﴿ هُوَ الذي أرسلَ رَسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ على الدِّينِ كلِّهِ وكَفى باللَّهِ

---

(١) التوبة : ٧٣، والتحريم : ٩ .
(٢) البقرة : ١٩٠ .
(٣) النساء : ١٦٧ .
(٤) التوبة : ٤١ .
(٥) النصر : ٢ .
(٦) التوبة : ٣٣، الصف : ٩ .

شَهيداً ﴾[1]، فمَن كانَ منهم ضالِعاً في الكفرِ، عاتياً على الحقِّ، ويستبيحُ بيضةَ الدِّينِ، مستكبراً على اللَّهِ، مُبرِماً مع شيطانهِ عقداً أن لا يلينَ ولا يُلينَ؛ فهذا قد عرفهُ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، وعرفَ أنْ لا سبيلَ إلى هدايتهِ أو ردِّهِ عن غوايتهِ أو كفِّ أذيَّتِهِ، فلا يصلُحُ معه إلَّا السَّيفُ، فوضَعه فيهم بعدَ أن أَمرَهُ اللَّهُ أَن يغلُظَ عليهِ بالقتالِ، فأمرَهُ : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ جاهدِ الكفَّارَ والمنافقين واغلُظْ عَليهِم ﴾[2]، ﴿ وقاتِلوا المُشركينَ كافَّةً كما يُقاتِلونَكُم كافَّةً ﴾[3].

ومَن كانَ منهم ليسَ غارقاً في الكفرِ، ولا موغلاً جدًّا في الباطلِ، ولديه أُذنٌ صاغيةٌ، لا يستكبرُ عنِ الحقِّ إنْ دعاهُ، وفي قلبهِ وَمضةُ خيرٍ يلمحُ بها من بُعدٍ معالمَ الهُدى؛ فهذا قد عرفهُ الرَّسول صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، وعرفَ أنَّ إظهارَهُ بالحُجَّةِ والبرهانِ على حقيقةِ الإسلامِ يرفعُ عن قلبهِ غشاوةَ الباطلِ، فمشى إليه والسَّيفُ في غمدهِ، وهو يقرأُ عليه قولَهُ تعالى : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين قَد تبيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغيِّ فمَن يكفُر بالطَّاغوتِ ويؤمِن باللَّهِ فقد استمسَكَ بالعُروَةِ الوُثقى لا انفِصامَ لها واللَّهُ سميعٌ عليمٌ ﴾[4]، وقوله : ﴿ ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والمَوعظةِ الحَسَنةِ وجادِلهُم بالتي هي أَحسنُ إنَّ ربَّكَ هوَ أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن سبيلهِ وهو أَعلمُ بالمُهتدين ﴾[5]، وقولَه : ﴿ وَلا تجادِلُوا أهلَ الكتابِ إلَّا بالَّتي

---

(1) الفتح : ٢٨ .
(2) التوبة : ٧٣، التحريم : ٩ .
(3) التوبة : ٣٦ .
(4) البقرة : ٢٥٦ .
(5) النحل : ١٢٥ .

هيَ أحسَنُ إلّا الَّذينَ ظَلمُوا منهم وقُولُوا آمنَّا بالَّذي أنزِلَ إلينا وأُنزِلَ إليكُم وإلهُنا وإلهُكُم واحدٌ ونحنُ لهُ مسلمون ﴾(١).

ولا ريبَ أنَّ معرفَةَ النُّفوسِ والإحاطةَ بما تكونُ عليه، يُسهِّلُ على القائدِ التَّعامُلَ مع مَن يقفونَ أمامَه، ويعرِفُ كيفَ يدخلُ وكيفَ يخرجُ، وتكونُ خسارتهُ يسيرةً جدًّا، أمَّا إذا عَميَ عليه أمرُ النُّفوسِ؛ فإنَّهُ إذا سَهُلَ عليه موردُها يصعبُ عليه الصُّدورُ عنها، وتكونُ خسارتهُ جسيمةً جدًّا .

والقائدُ النَّاجحُ هو الذي يحرصُ على كلِّ جنديٍّ من جنودِهِ؛ لأنَّ الجنديَّ هو الثَّروةُ القتاليَّةُ التي تمسكُ بآلةِ الحربِ، فإذا ضاعَتْ هذه الآلةُ أمكنَ الحصولُ على غيرِها، أمَّا ضياعُ الجنديِّ فيعني ضياعَ الآلةِ الحربيَّةِ أيضاً، فبِضَياعِه ضاعَتِ الآلةُ أيضاً، إذاً فعلى القائدِ أيضاً أن يحرِصَ على جنودِهِ حِرصَهُ على بلوغِ الهدفِ وإحكامِ الوسيلةِ .

وأمَّا تسخيرُ الإمكاناتِ الماديَّةِ والمعنويَّةِ فهذا أمرٌ أوحى به ربُّنا لنبيِّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم فقال : ﴿ وَأَعِدُّوا لهُم ما استَطَعتُم مِن قوَّةٍ ومِن رِباطِ الخيلِ تُرهِبونَ بهِ عدوَّ اللَّهِ وعدُوَّكُم وآخرينَ من دونِهم لا تعلمونَهُم اللَّهُ يعلمُهم وما تُنفقوا مِن شيءٍ في سبيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إليكُم وأنتُم لا تُظلَمون ﴾(٢)، ومن تسخيرِ هذهِ الإمكاناتِ معرفةُ التَّصرُّفِ بها على الوجهِ الصَّحيحِ الذي يكفُلُ تحقيقَ الهدفِ المقصودِ من القتالِ ولو تقديراً

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .
(٢) الأنفال : ٦٠ .

وتصوّراً، وإلّا كان الفشلُ هو الطَّريقُ إلى الهدفِ .

والقائدُ النَّاجحُ هو الذي يضعُ هذه الإمكانات موضعَها الصَّحيحَ، فلا يحبسُها إنْ كانَتِ الحاجةُ داعيةً ملحَّةً، ولا يُفلتُها إن كانَت قاضيةً بحبسِها : ﴿ وَلا تُلقُوا بأيدِيكُم إلى التَّهلُكَةِ ﴾[1]، والمعنى المتبادرُ لهذه الآيةِ أنْ لا يُغامِرَ الإنسانُ فيلقي نفسَه في المخاطرِ الشَّديدةِ التي تنتهي به إلى إهلاكِ نفسِه، ولعلَّ بعضَ الصَّحابة فَهِمُوا الآيةَ على هذا الوجهِ، فصوَّبَهُ لهم أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ، فقد أخرجَ التِّرمذيُّ عن أسلَمَ أبي عمرانَ التُّجيبي قالَ : « كنَّا بمدينةِ الرُّومِ، فأخرجوا إلينا صفًّا عظيماً من الرُّومِ، فخرجَ إليهم من المسلمين مثلُهُم أو أكثرُ منهم، وعلى أهلِ مِصرَ عقبةُ بنُ عامر، وعلى الجماعةِ فُضالةُ بنُ عبيدٍ، فحملَ رجلٌ من المسلمين على صفِّ الرُّوم حتى دخلَ فيهم، فصاحَ النَّاسُ وقالوا : سبحانَ اللَّه ! يُلقي بنفسِهِ إلى التَّهلكة، فقام أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ فقال : يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم لَتُؤوِّلونَ هذه الآيَةَ هذا التَّأويلَ؛ وإنَّما نزلَت هذه الآيةُ فينا معشرَ الأنصارِ لما أعزَّ اللَّهُ الإسلامَ وكثُرَ ناصِروهُ، فقال بعضُنا لبعضٍ سرًّا دونَ رسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ أموالَنا قد ضاعَتْ، وإنَّ اللَّهَ قد أعزَّ الإسلامَ وكثُرَ ناصِرُوهُ، فلو قُمنَا في أموالِنا فأصلَحنا ما ضاعَ منها، فأنزلَ اللَّهُ على نبيِّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يردُّ علينا ما قُلناهُ : ﴿ وأَنفِقوا في سبيلِ اللَّهِ وَلا تُلقُوا بأيديكُم إلى

(١) البقرة : ١٩٥ .

التَّهلُكة ﴾، فكانت التَّهلكةُ الإقامةَ على الأموالِ وإصلاحها وتَركَنا الغزوَ، فما زالَ أبو أيُّوب شاخصاً في سبيلِ اللَّهِ حتى دفِنَ بأرضِ الرُّوم »[1]، فانتفى ما وقعَ في أذهانِ أولئكَ الصَّحابةِ، وعلموا أنَّ الإقامةَ على المالِ وعدمِ بذلهِ في سبيلِ اللَّه هو التَّهلكةُ، ويؤكِّدُ هذا المعنى ما سبقَ هذا الجزءَ من الآيةِ وهو قولهُ : ﴿ وأنفِقوا في سبيلِ اللَّهِ ﴾، ولا ريبَ أنَّ الإنفاقَ الذَّاهبَ بالمالِ من أيدي أصحابهِ في غيرِ طائلٍ هو كالإمساكِ عليه عندَ الحاجةِ إليه .

وهذا المعنى يُفهَمُ أيضاً من قولهِ تعالى : ﴿ وَأعِدُّوا لهُم ما استطعتُم مِن قوَّةٍ ومن رِباطِ الخَيلِ تُرهبونَ بهِ عدوَّ اللَّهِ وعدوَّكُم وآخرينَ مِن دونِهم لا تَعلمونهُم اللَّهُ يعلمهُم وما تُنفِقوا مِن شيءٍ في سبيلِ اللَّه يُوفَّ إليكُم وأنتُم لا تُظلمونَ ﴾[2]، فليسَ من الإعدادِ الصَّحيح إنفاقُ المالِ في غيرِ موضعهِ أو الإمساك عليه عندَ حاجتهِ؛ لأنَّ مِن الإعدادِ الصَّحيحِ التصوُّرَ السَّليمَ لأبعادِ أيِّ معركةٍ، وفرضَ فرصِ النَّصرِ والفشلِ منها معاً، وتقديرَ الإمكاناتِ الماديَّةِ التي تحتاجُها، وحين يُقصي القائدُ التَّصورَ السَّليمَ من حسابهِ يكونُ إعدادهُ إعداداً ناقصاً، بل محكوماً عليه بالفشلِ؛ لأنَّ التَّصوُّرَ هو الخطوةُ الأُولى في أيِّ أَمرٍ، بَل هو أصعَبُ

---

(١) رواه أبو داود، والنسائي في « الكبرى »، وإسناده صحيح، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب .

(٢) الأنفال : ٦٠ .

الخطواتِ وأَدقُّها، وعليه يتوقَّفُ النَّجاحُ أو الفشلُ، وقد نجحَ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم نجاحاً رائعاً وهو يصوغُ الوسيلةَ التي يأخذُ بها، وهو يمضي في طريقهِ إلى تحقيقِ الهدفِ .

وكان للحوافزِ النَّفسيَّةِ في حسابِ الرَّسولِ القائدِ دورُها الكبيرُ الفعَّالُ في إنجاحِ الوسيلةِ، ذلكم أنَّهُ لم يكن يدري حقيقةَ جميعِ النُّفوسِ التي تعملُ تحتَ قيادتهِ، فلا بدَّ إذاً من إثارةِ بعضِ الحوافزِ التي تُظهِرُ مكنونَ هذه النُّفوسِ، ويُعرَف بها مَن هُم أولئكَ الَّذينَ سيقاتلونَ معه، وبخاصَّةٍ وأنَّها لم تكن غزوةً واحدةً، ولو كانَت واحدةً لما احتاجَ إلى ذلك، ولكنَّها غزواتٌ، وكلُّ غزوةٍ تختلفُ عن الأُخرى في طبيعةِ الأَرضِ التي تجري عليها، وفي طبيعةِ المناخِ النَّفسيِّ والزَّمانيِّ والبيئيِّ الذي يصادِفُ وقوعَ الغزوةِ فيه، وفي طبيعةِ التَّخطيطِ والإِعدادِ لها، وتحكي لنا كتُبُ السِّيرةِ الشيءَ الكثيرَ من ذلك .

وينزلُ القرآنُ على الرَّسولِ بالحوافز : ﴿ انفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالِكُم وأنفُسِكُم في سبيلِ اللَّهِ ذلِكُم خيرٌ لكُم إن كُنتُم تعلمونَ ﴾[1]، ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا مالكُم إذا قيلَ لكُم انفِروا في سبيلِ اللَّه اثَّاقَلتُم إلى الأرضِ أَرَضيتُم بالحياةِ الدُّنيا مِن الآخرةِ فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا في الآخِرةِ إلّا قليلٌ ۝ إلّا تَنفِروا يُعذِّبكُم عذاباً أليماً ويَستبدِل قوماً غيرَكُم ولا تضرُّوه شيئاً واللَّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[2]، ﴿ إنَّ اللَّهَ

(١) التوبة : ٤١ .
(٢) التوبة : ٣٨ و ٣٩ .

اشترى مِنَ المؤمنينَ أنفُسَهُم وأَموالَهم بأنَّ لهُم الجنَّةَ يُقاتِلونَ في سبيلِ اللّهِ فيَقتُلُونَ ويُقتَلونَ وَعْداً عليهِ حقًّا في التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومَن أَوفى بعهدِهِ منَ اللَّه فاستبشروا ببيعكُم الذي بايعتُم بِهِ وذلكَ هُوَ الفَوزُ العظيمُ ﴾[1]، ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا هَلْ أدُلُّكُم على تجارةٍ تُنجيكُم مِن عذابٍ أليمٍ ○ تؤمنونَ باللَّهِ ورسولِهِ وتُجاهدونَ في سبيلِ اللّهِ بأموالِكُم وأنفُسِكُم ذلِكُم خيرٌ لكُم إنْ كنتُم تعلمونَ ○ يغفِر لكُم ذنوبَكُم ويُدخِلُكُم جنَّاتٍ تجري مِن تحتِها الأنهارُ ومساكنَ طيِّبةً في جنَّاتِ عَدنٍ ذلك الفوزُ العظيمُ ○ وأُخرى تُحبُّونَهَا نصرٌ مِن اللّهِ وفتحٌ قريبٌ وبشِّرِ المؤمنينَ ﴾[2]، ﴿ ولَئِن قُتلتُم في سبيلِ اللّهِ أو مُتُّم لمَغفِرَةٌ مِنَ اللّهِ ورَحمةٌ خيرٌ ممَّا يجمَعون ○ ولَئِن مُتُّم أو قُتِلتُم لإلَى اللَّهِ تُحشَرونَ ﴾[3]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ المشحونةِ بالحوافزِ التي يجدُ المؤمنونَ أنفسَهم إزاءَها في خِفَّةِ الرِّياحِ، وقوَّةِ العواصفِ، وبسالةِ الأُسودِ، فلا يردُّهم إلّا النَّصرُ أو الشَّهادةُ، فيرى فيهم النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم الحقيقةَ التي لا تقبلُ التبدُّلَ ولا التَّخلُّفَ، ويعرفُ أنَّهم الذين تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ بالنَّصرِ من السَّماءِ، وعلى أيديهم سيكونُ، فيقولُ لهم : ﴿ وَأَبشِروا بالجنَّةِ التي كُنتُم توعَدونَ ﴾[4]، ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اصْبِروا وصابِروا ورابِطوا واتَّقوا اللّهَ لعلَّكُم تُفلِحونَ ﴾[5].

---

(١) التوبة : ١١١ .
(٢) الصف : ١٠-١٣ .
(٣) آل عمران : ١٥٧ و ١٥٨ .
(٤) فصلت : ٣٠ .
(٥) آل عمران : ٢٠٠ .

وهي الحوافزُ نفسُها التي يجدُ المنافقونَ أنفسَهم إزاءَها في ثِقَلِ الصُّخورِ وضعفِ الطُّيور وخورِ المفزَّعةِ قلوبُهم مِن الرُّعبِ، فيرى فيهم الرَّسولُ القائدُ الهزيمةَ بكلِّ بشاعتِها ماثلةً أمامهَم، ويتخلَّفُ تقديرهُ أو ظنُّهُ فيهم إذْ يأذَنُ لهم في التَّخلُّفِ لدعوى ادَّعَوْها، فينزِلُ القرآنُ فاضحَهم عاتباً عليه : ﴿ عَفا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لهُم حتَّى يتبينَّ لكَ الَّذينَ صَدَقُوا وتَعلمَ الكاذبينَ ﴾[1].

وبعدَ أن ينكشفَ عُوارُهم لا يقبلُ اللَّهُ مِن الرَّسولِ القائدِ إلّا ضَربَ الصَّفحِ عنهم، وإقصاءَهم عن القتالِ تحتَ قيادتهِ، وعدم الاستعانةِ بهم : ﴿ فإن رَجَعَكَ اللَّهُ إلى طائفةٍ منهُم فاستأذنوكَ للخُروجِ فقُل لَنْ تَخرُجوا مَعيَ أبداً وَلن تُقاتِلوا مَعي عدوًّا إنَّكم رَضيتُم بالقُعودِ أوَّلَ مرَّةٍ فاقعُدُوا معَ الخالفينَ ﴾[2].

ولا ينبغي أن يكونَ عندَه إعجابٌ بأيِّ مظهرٍ من مظاهرِ قوَّتِهم؛ لأنَّها مظاهرُ خادعةٌ إذا أَلـمَّت بجماعةٍ أَربَت فيهمُ الغرورَ وأسلمتَهم إلى الفشلِ والهزيمةِ؛ لأنَّها لا تستمدُّ بقاءَها وقوَّتها من اللَّهِ : ﴿ ولا تُعجِبكَ أَموالُهُم وأولادُهُم إنَّما يُريدُ اللَّهُ أَنْ يُعذِّبَهُم بها في الدُّنيا وتَزهقَ أنفُسُهُمْ وهم كافِرونَ ﴾[3].

---

(١) التوبة : ٤٣ .

(٢) التوبة : ٨٣ .

(٣) التوبة : ٨٥ .

ممَّا سُقْنا مِن الأمثلةِ القرآنيَّةِ يَبِينُ لنا أنَّ إثارةَ الحوافزِ فيها تمحيصٌ وتمييزٌ وتفريقٌ بين المؤمنينَ وبين غيرِهم، تنتهي بالرَّسولِ القائدِ أن يصطفيَ الجنودَ الذين سيقاتلونَ تحتَ قيادتِهِ، وبانَ لنا أيضاً أنَّ هذا لم يقع إلَّا في خلالِ الغزواتِ؛ لأنَّ الإثارةَ كانت إمَّا في خلالِها وإمَّا قبلَ البدءِ بها .

□ ثالثاً : ميدانُ القتالِ :

ممَّا سبقَ عرفنا الهدفَ الذي نصبَه القرآن، والوسيلةَ التي يجدرُ بالقائدِ أن يسلُكَها للوصولِ إلى الهدفِ، ومن شرحِنا لهذينِ المبدأَينِ الأساسيَّينِ عرفنا الميدانَ الذي كان يَستهدِفهُ الرَّسولُ في غزواتِهِ، وفي السَّرايا التي كان يعقدُ أَلويَتها لأصحابه؛ هذا الميدانُ هو : المشركون والكافرون والمنافقون . ولا أحسبُني في داعيةٍ إلى مزيدٍ من الشَّرحِ والتَّفصيلِ ففيما ذَكَرنا آنفاً غِنيَةٌ .

□ رابعاً : تقديرُ النَّتائجِ :

ما من شكٍّ أنَّ أيَّ معركةٍ سوفَ تنتهي إلى نتيجةٍ؛ إمَّا سلباً وإمَّا إيجاباً، ولكِن يجبُ على القائِد في أيِّ معركةٍ أن يضعَ في حسابِهِ النَّتيجةَ التي يُقدِّر أنَّ المعركةَ ستَنتَهي إليها، وتقديرُ هذه النَّتيجة مرتبطةٌ ارتباطاً شديداً بالمبادىءِ الثَّلاثةِ السَّابقةِ، وليسَ تقديرُ النَّتيجةِ سلباً معناهُ وقوعُها كذلك، ولكنَّ التَّقديرَ على هذا الوجهِ يُلزِمُ القائدَ بوضعِ خطَّةٍ بديلٍ يطبقُها حينَ تفشلُ الخطَّةُ التي يُقدِّرُ بها النَّتيجةَ الإيجابيَّةَ، فإذا

أَغفلَ القائدُ الخطَّةَ بشقَّيها السَّلبيِّ والإيجابيِّ؛ فهو قائدٌ فاشلٌ يضعُ مصيرَ أُمَّتِهِ تحتَ رحمةِ الأعداءِ الذين يقاتِلُهُم، وحين يفشلُ القائدُ - حتى بعدَ أن يطبِّقَ الخطَّةَ البديلَ وقد أفرغَ جَهدَه في إنجاحِها - فيكونُ قد أدَّى دورَهُ الواجبَ عليه أن يؤدِّيَهُ .

والرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم لم يكن يعوِّلُ على وعدِ اللَّهِ له بالنَّصرِ وحدَه، بل كان يأخذُ بالأسبابِ أَخذاً مُحْكَماً، ثمَّ يُفوِّضُ الأمرَ إلى اللَّهِ في إنجازِ ما وَعَدَهُ، ولم يكن عليه الصَّلاة والسَّلام يقطعُ بالحصولِ على النَّصرِ إلّا إذا كان اللَّهُ سبحانه قد وَعدَ به، لِذا فقد كان أكثرُ حرصِهِ عليه الصَّلاة والسَّلام على الأسبابِ، مع توكُّلِهِ على اللَّهِ، فإن كانَ النَّصرُ حَمِدَ اللَّهَ وأثنى عليه وأكثرَ من الشُّكرِ له، وإنْ كانتِ الأُخرى عَرفَ أنَّهُ ما أُتيَ إلّا مِن خَللٍ في صفِّ أصحابِهِ، فيبحثُ عنه ليصلِحَ منه، فإذا رأَى أنَّهُ قَدِ استقامَ له عَزَمَ على اللَّهِ بإنزالِ النَّصرِ، بعد أن يكون قد استوفى الأسبابَ كلَّها وأعدَّ الأهبةَ كاملةً .

وما من غزوةٍ غزاها الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم إلّا كانت لها نتيجةٌ يجعلُ منها صلواتُ اللَّهِ عليه وسلامهُ درساً يقرؤُهُ أصحابهُ فيفيدونَ منه، ويديرونَ عليه تقديرَهم هم أنفسُهُم للغزوةِ الآتيةِ، فينشأُ لهم وللأُمَّةِ كلِّها مَلَكَةٌ علميَّةٌ محكمةٌ كانوا يستطيعونَ بها أن يقدِّروا على وجهِ التَّقريبِ النَّتيجةَ قبل تحقُّقِها .

ولْنأخذ مَثلَين اثنَين، واحداً للنَّتيجةِ الإيجابيَّةِ (النَّصرُ)، والآخرَ للنَّتيجةِ السَّلبيَّةِ (الهزيمةُ)، ثمَّ نعقدُ مقارنةً بين النَّتيجتينِ؛ لنرى أنَّ الأثرَ الذي أحدَثَتهُ كلُّ نتيجةٍ في واقعِ أَصحابِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم لا يختلفُ في حقيقتهِ عنِ الأثرِ الآخرِ؛ لأنَّهُ ألمَّ بما بالنَّفسِ البشريَّةِ وأظهرَهُ على النَّاسِ قرآناً يُتلى إلى يومِ القيامةِ .

كانتِ النَّتيجةُ في غزوةِ بدرٍ النَّصرَ المؤزَّرَ الذي رآهُ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ماثلاً قبلَ نهايةِ المعركةِ في أرضِها، فهتفَ بأصحابهِ قائلاً : « سيروا على بركةِ اللَّه، وأبشروا، فإنَّ اللَّه قد وَعَدَني إحدى الطَّائفتينِ، واللَّه لكَأنِّي أنظرُ إلى مصارعِ القومِ »[1]، وكان الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم واثقاً من النَّصرِ؛ لأنَّ اللَّهَ وعدَهُ إيَّاهُ بعدَ أن عَلِمَ منه أنَّهُ أخذَ بكلِّ الأسبابِ التي تنتهي به إلى النَّصرِ، ولم يكن تكافؤٌ بين الجيشينِ لا في العَدَدِ ولا في العُدَدِ، وكانتِ مُفاجأةً للمسلمينَ أنَّ قريشاً قد أتَت بدراً بخيُلائِها وكبريائِها، تُشاقُّ اللَّهَ ورسولَه، فلم يجدوا موقفاً خيراً من المواجهةِ، ولو أنَّهم رجعوا لكانَ أحدُ الأمرينِ : إمَّا أن تتبعهم قريشٌ إلى المدينةِ فتطل برأسِها عليها وتفني أكبرَ عددٍ من المسلمينَ؛ لأنَّها علمت أنْ ليس للمسلمينَ القوَّةُ التي تحميهم حتى في عُقرِ دارِهم، فأَجرَأها هذا عليهم، فأَصابوا منهم مقتلةً عظيمةً، وأضعفوا شوكتهم، وإمَّا أنْ يعودَ الرَّسولُ وأصحابهُ بلا قتالٍ، فيشيعَ في العربِ أنَّ محمَّداً

(١) « تفسير ابن كثير » (٢/٢٨٩) .

وأصحابَهُ قد ألقَتْ قريشٌ في قلوبِهِمُ الرُّعبَ فعادوا لائذينَ بمدينتَهم، لا يرجونَ من الغنيمةِ إلّا السَّلامةَ، فينخذِلُ مِن العربِ مَن كانت تحدِّثهُ نفسهُ بالإسلامِ عن الإيمانِ ولو إلى حينٍ، ريثما تعودُ الثِّقةُ إليهم باستعادةِ محمَّدٍ قوَّتهُ، فيكونُ هذا سبباً في بقاءِ الكثيرينَ على كفرِهم ولو إلى حينٍ، وإبطائِهم عنِ اللحوقِ بركبِ الإيمانِ مُدَّةً كان ينبغي أن تنقصَ من عُمرِ كُفرِهم، وتكون زيادةً في عمرِ إيمانِهم .

وكلا هاتينِ النتيجتينِ ضررٌ كبيرٌ يلحَقُ بالمسلمين، فإنْ كانتِ الأولى ؛ نقصَت مِن عددِهم بالقتلِ؛ وإنْ كانتِ الثَّانيةُ نقصَت مِنْ عددِهم بتأخيرِ الكثيرِ عن الإسلامِ، وما أقدمَت قريشٌ على الحربِ إلّا مِن أجلِ أن تَسمعَ بهمُ العربُ فتخافُها وتظلُّ لها الهيبةُ في قلوبِها، وتحجِمُ عنِ التَّفكيرِ بالإيمانِ بمحمَّدٍ ودينِهِ، ولكنَّ الاستكبارَ والغرورَ لا يأتيانِ إلّا بالوبالِ على أصحابِهما، فكانت بدرٌ مصرعَ الاستكبارِ والغرورِ .

لذا فكان حتماً مقضيًا على المسلمين - وقد رأوا الرَّغبةَ لائحةً بكلِّ إصرارِها على المواجهةِ في وجهِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم - أن يُواجِهوا قريشاً بكبريائِها وغرورِها، فَصَبَرُوا حتى ظَفَرُوا .

ويسجلُ القرآنُ الكريمُ هذه النَّتيجةَ في سورتينِ من سُوَرِه هما : ﴿ آل عمران ﴾، ﴿ والأنفال ﴾، بأُسلوبينِ ولفظينِ مختلفينِ، أمَّا في سورة ﴿ الأنفال ﴾؛ فإنَّ سياقَ الآياتِ كلِّها التي تتحدَّثُ عن غزوةِ بدرٍ

تُشعرُ بهذه النَّتيجةَ؛ لكنَّها أصْرحُ ما تكونُ في قولِهِ سبحانه : ﴿ وإذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إحدى الطَّائفَتينِ أنَّها لكُم وتَوَدُّونَ أنَّ غيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تكونُ لكُم ويريدُ اللَّهُ أن يُحِقَّ الحقَّ بكَلِماتِه ويَقطعَ دابِرَ الكافرِينَ ۝ ليُحِقَّ الحقَّ ويُبطِلَ الباطِلَ ولو كَرِهَ المُجرِمون ﴾[1]، وفي قولِهِ أيضاً : ﴿ فَلَمْ تَقتُلوهُم ولكنَّ اللَّهَ قتلَهُم وما رَمَيتَ إذ رمَيتَ ولكنَّ اللَّهَ رمى وليُبْلِيَ المؤمنينَ مِنهُ بلاءً حسناً إنَّ اللَّهَ سميعٌ عليمٌ ﴾[2].

ففي الآيةِ الأولى تحققَ موعودُ اللَّهِ لنبيِّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم بأَن أنالهُ ذاتَ الشَّوكةِ فَخَضَدَها، ومكَّنهُ مِن رقابِ عددٍ منهم فافتدوا منه أنفسَهم، وكان خروجُ الرَّسولِ وأصحابِهِ باديءَ ذي بدءٍ للاستيلاءِ على القافلةِ، وثلِّ تجارتِهم وإضعافِها، فكان الأَمرُ على غيرِ ما خطَّطَ وقدَّرَ، فأُطيحَ بِذِكْرِ قريشٍ في القبائلِ، وتَضَعْضَعَتْ ثقةُ القبائلِ بها، وصارَت أُحدوثَةَ النَّاسِ على الدَّهرِ .

أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ ففيها ما في الآيةِ الأُولى من تحقيقِ موعودِ اللَّهِ لنبيِّهِ أيضاً، وقد أسندَ اللَّهُ فيها التَّقتيلَ الذي أَصابَ المشركين والرَّميَ الذي نالَ منهم لنفسِهِ سبحانه، إشعاراً منه أنَّ الفضلَ - في النَّصرِ الذي حقَّقَهُ المسلمون بالرَّمي والقتلِ - هو له سبحانه، وأنْ ليس لهم منهُ إلّا آثارُهُ الحميدةُ، وهي مستوجبةٌ عليهِمُ الشُّكرَ للَّهِ وحدَهُ؛ لأنَّهُ مصدرُ الأسبابِ الظَّاهرةِ، وقد ذكرتِ الآيةُ الأولى ما جاءَ في الآيةِ الثَّانيةِ تعليلاً، وذلك

(١) الأنفال : ٧ و ٨ .
(٢) الأنفال : ١٧ .

قولهُ : ﴿ ويريدُ اللَّهُ أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماتهِ ويَقطعَ دابرَ الكافرين ﴾، إذاً القتلُ والرَّميُ سببٌ فيه، فالتقت الآيتانِ على إظهارِ النَّتيجةِ التي قدَّرَها الرَّسولُ الكريمُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم .

أمَّا في سورةِ ﴿ آل عمران ﴾ فقد ذكرَ اللَّهُ هذه النَّتيجةَ نصًّا، فليست في حاجةٍ إلى تأويل، فقالَ : ﴿ ولقَد نَصرَكُمُ اللَّهُ ببدرٍ وأنتُم أذلَّةٌ فاتَّقوا اللَّهَ لعلَّكُم تَشكرونَ ﴾[1]، وقد جاءَ ذِكرُها في سياقِ الحديثِ عن غزوةِ أُحدٍ التي أُثخِنَ فيها المسلمونَ بجراحاتِهم وهزيمتِهم، فجاءَ النَّصُّ بها صريحاً بأُسلوبِ التَّأكيد، تأسيَةً لقلوبِهم، وتَهويناً لمصيبتِهم، ولِذا أعقَبها بتذكيرِهم بحقِّ الشُّكرِ الواجبِ عليهم، وأنَّهُ لمَّا يمضِ طويلُ زمنٍ على هذهِ النَّتيجةِ : ﴿ فاتَّقوا اللَّهَ لعلَّكم تشكرونَ ﴾، فالشُّكرُ لا زالَ حقًّا في أعناقِهم، بل هو باقٍ في أعقابِهم إلى يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ، وليس لهم هنا في أُحُدٍ إلّا الصَّبرُ، فيلتقي الشُّكرُ والصَّبرُ معاً أمامَ قلوبِهم، فتهونُ المصيبةُ، وتعظمُ النِّعمةُ، فلا يكونُ مكانٌ في قلوبِهم لغيرِ النِّعمةِ، فيستذكِرُونَها في حربِهم وسلمِهم، في شدَّتِهم ورخائِهم .

وقدِ اشتملت هذه الآيةُ على شيءٍ من آيةٍ في ﴿ سورةِ الأنفالِ ﴾ وهي : ﴿ واذكُروا إذْ أنتُمْ قليلٌ مُستَضعفونَ في الأَرضِ تخافونَ أنْ يتخطَّفَكُمُ النَّاسُ فآواكُم وأيَّدكُم بنَصرِهِ ورزَقكُم مِنَ الطَّيِّباتِ لعلَّكم

(١) آل عمران : ١٢٣ .

تشكرونَ ﴾[1]، والقلَّةُ في العددِ تقضي بالاستضعافِ، والاستضعافُ يقضي بالذلَّةِ، فشاءَ اللَّهُ للقلَّةِ المستضعفةِ الذَّليلةِ أَنْ تقوى وتشتدَّ ويكونَ لها بأسٌ وأمرٌ ونهيٌ على النَّاسِ .

ويضربُ اللَّهُ مثلاً لذلك بني إسرائيل : ﴿ ونُريدُ أن نَمُنَّ على الَّذينَ استُضعِفُوا في الأرضِ ونَجعَلَهُم أئمَّةً ونَجعَلَهُم الوارثينَ ○ ونُمكِّنَ لَهُم في الأرضِ ونُريَ فِرعَونَ وهامانَ وجنودَهما منهُم ما كانوا يَحذَرونَ ﴾[2]،وتمضي هذه القلَّةُ المستضعفةُ الذَّليلةُ تضربُ فجاجَ الأرضِ فاتحةً قائمةً بأمرِ اللَّه، باسطةً أمرَها ونفوذَها على النَّاسِ، حتى إذا مالَت عن أمرِ اللَّهِ فلا ترى لنفسِها إلّا ما يرى لها شياطينُها؛ خسِرَت ما كانت قد نالَتهُ بأطرافِ رِماحها وشبا سيوفِها، وقضت سنينَ طويلة وهي ترفعُ بنيانَهُ .

وفي غزوةِ أُحُدٍ كانت النَّتيجةُ هزيمةً نكراءَ شديدةً فاقَت في شدَّتِها ونكارتِها كلَّ شدَّةٍ ونكارةٍ كانت في حسبانِ المسلمينَ، بل لم تكن في حسبانِهِم قط، لكنَّها كانت واضحةً ظاهرةً للرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وحذَّرَ أصحابَه من الانتهاءِ إليها إنْ هم أَخَلُّوا بهذا التَّنظيمِ ولم يَلتَزِموا بهِ .

ولم ينزل على الرَّسولِ وحيٌ قبلَ بدءِ المعركةِ يعلمُهُ بالنَّتيجةِ قبل

---

(١) الأنفال : ٢٦ .
(٢) القصص : ٥ و ٦ .

وقوعِها، لكنَّه حدسَها حدساً خفيًّا وافقَ رؤيا رآها قبلَ وصولِهِ أرضَ المعركةِ، فحينَ يثقُ القائدُ بجندِهِ، ويثقُ الجندُ بقائدِهم؛ تكونُ المكاشفةُ والمصارحةُ، وليس من حكمةِ النُّبوَّة - وحاشاها - أن يعلِمَهُم بها خشيةَ أن يصيبَهُمُ الوَهْنُ، فتكونُ النَّتيجةُ أَسوأَ بكثيرٍ ممَّا انتهت إليهِ، ولا شكَّ أَنَّ هذه النَّتيجةَ التي انتهت إليها الغزوةُ كانت سبباً في شدَّةِ تعلُّقِهم بشخصِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم .

ويذكرُ القرآنُ هذه النَّتيجةَ على وفقِ ما حدسَها الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم فيقول: ﴿ إنْ يَمسَسكُم قَرْحٌ فَقَدْ مسَّ القومَ قرحٌ مِثلُهُ وتلكَ الأيَّامُ نداولُها بينَ النَّاسِ وليَعلمَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا ويتَّخِذَ منكُم شهداءَ واللَّهُ لا يحبُّ الظَّالمينَ ﴾[1] أيْ : إنْ كنتُم قد أصابَتكُم جراحٌ وقُتِلَ منكم طائفةٌ فقد أصابَ أَعداءَكم كذلك جِراحٌ وقتلٌ .

وإذا كانتِ الهزيمةُ قد حاقَتْ بالمشركينَ في غزوةِ بدرٍ فإنَّ الشُّقةَ بينهم وبينَ مكَّةَ بعيدةٌ، وقد كانَت كذلك بالنِّسبَةِ للمسلمينَ، فإدخالُ بُعدِ الشقَّةِ في حسابِ الرِّبحِ الذي أصابَهُ المسلمونَ لم يكن بذي بالٍ، فهم والمشركونَ في ذلك سواءٌ .

أمَّا في غزوةِ أُحدٍ فقد كان المسلمون على بُعدٍ قريبٍ مِنَ المدينةِ، أمَّا المشركون فكانوا على بعدٍ بعيدٍ جدًّا من مكَّةَ، فإن أصابوا من المسلمينَ

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

ربحاً فهو ربحٌ كبيرٌ جدًّا لا يقاس به ربحُ المسلمين في بدرٍ إذا أَدخلنا بُعدَ الشقَّة في حسابِ الرِّبح والخسارةِ، ولعلَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قد حسبَ لهذا حِساباً في نفسهِ لم يُبدِهِ للمسلمينَ، فإن الذي يخلِّف أهلَهُ ومالَهُ وأرضهُ وراءَهُ ويقدِّم أرضَ عدوِّهِ يكونُ قد أَعدَّ نفسَهُ إعداداً مكيناً، ووضعَ في حسابِهِ الرِّبحَ وحدَه، وألقى بالخسارةِ من وراءِ ظهرِهِ، ونصبَ عَزمَهُ على إدراكِ النَّصرِ، وألقى في رُوعِ عدوِّهِ هذا قبلَ الموعِدِ الذي يكونُ قد حدَّدَهُ للمعركةِ، ويحرصُ كلَّ الحرصِ على الإمساكِ بزمامِ المبادرةِ، ثمَّ على عنصُرِ الفُجاءَةِ التي تُربِكُ العَدوَّ وتفسدُ عليه خطَّتهُ التي يكونُ قد وضعها متصوِّراً أنَّهُ قد يتمكَّنُ بها من ترويعِ عدوِّه؛ ذلكَ كلُّهُ لأنَّهُ إن فشلَ في تحقيقِ النَّصرِ يعلمُ علماً أَكيداً أنَّ خسارَتهُ ستكونُ أضعافاً مضاعفةً لخسارتِهِ التي سيُمنى بها لو كانَ قريباً من بلدِهِ .

ونجاحُ القائدِ في فرضِ خطَّتهِ القتاليَّةِ، وإنزالِها بعدوِّهِ، وإعلائِها على خطَّةِ عدوِّهِ ليسَ بالأمرِ اليسيرِ الهيِّنِ، وخصوصاً إذا عَمِيَت عليه خطَّةُ العدوِّ، ولم يبدُ له منها يسيرٌ أو كثيرٌ، وإذا عزمَ الأمرُ ومضى القائدُ لوجهتِهِ في إنزالِ خطَّتهِ على الواقعِ المنظورِ، واستفرغَ جُهدَهُ كلَّهُ في إصابةِ الحظِّ المقدورِ له، وفوَّضَ أمرَهُ للَّهِ سبحانه، ثمَّ أعلمَ جُندَهُ بالنَّتيجةِ التي يقدِّرُ أن تنتهيَ إليها المعركةُ، ثمَّ ألمَّت به وبِهِمُ الخسارةُ؛ فإنَّ هذا القائدَ يعظمُ جدًّا في عيونِ جُندهِ، ويَعودونَ على أنفسِهم بالملامَةِ، ويشتدُّ ذلك عليهم إنْ لَحِقَ بقائدِهم شيءٌ من الأَذى؛ لأنَّهُ ما أصابه إلّا بهم،

وليسَ ذلك يكونُ منهم فحسب، بل إنَّهم يحرصونَ في المستقبلِ أشدَّ الحرصِ على السَّمعِ والطَّاعةِ له، وعدمِ المخالفةِ عن أَمرٍ يقرِّرهُ فيما بعدُ، ويكونُ عندَهم في منزلةٍ لا يبلُغُها بغيرِ ذلكَ .

ومن هنا أقولُ : إنَّ النَّتيجةَ السَّلبيَّةَ التي انتهت إليها غزوةُ أحدٍ أحدثَت للمسلمينَ أثراً لا يقلُّ أهميَّةً عنِ الأَثرِ الإيجابيِّ الذي أَحدَثتهُ لهم غزوةُ بدرٍ، ويقيناً أنَّ الرّقعةَ الزَّمانيَّةَ والرّقعةَ المكانيَّةَ اللَّتين امتدَّت إليهما رسالةُ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم كانتا في أمسِّ الحاجةِ لمثلِ النتيجةِ التي انتهت إليها غزوةُ أُحدٍ؛ لأنَّ حُروباً كثيرةً ستقعُ بينَ المسلمينَ وبينَ غيرِهم ممَّن يقفونَ في وجهِ الدَّعوةِ، فَتعرُّفُهُم على الخطإِ من بدايةِ الطَّريقِ وهم يحملون الدَّعوة لإبلاغها فيما بعدُ سوفَ يجنِّبُهُم أخطاءً ومخاطرَ كثيرةً تنجُمُ عنها، فهي إذاً ضرورةٌ من ضرورات الدَّعوةِ كانت حتماً مقضيًّا .

لِذا كانتِ المواساةُ القرآنيَّةُ للرَّسولِ وللمؤمنين مُوازنةً وتذكيراً وتمحيصاً وتمييزاً : ﴿ وَلا تَهِنوا وَلا تَحزَنوا وأنتُمُ الأَعْلَونَ إنْ كُنتُم مؤمنينَ ○ إنْ يَمسَسْكُم قَرْحٌ فَقَد مسَّ القَومَ قَرْحٌ مثلُهُ وتلكَ الأَيَّامُ نُداوِلُها بينَ النَّاسِ وليَعلَمَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا ويتَّخِذَ منكُمْ شهداءَ واللَّهُ لا يُحبُّ الظَّالمينَ ○ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا ويَمحقَ الكافرينَ ﴾[1].

---

(١) آل عمران : ١٣٩-١٤١ .

هذه المبادئُ الأربعةُ : (تحديدُ الهدفِ، ثمَّ اعتمادُ الوسيلةِ لتحقيقِ الهدفِ، ثمَّ الميدانُ الذي تعملُ فيه هذه الوسيلةُ، وأخيراً تقديرُ النَّتائجِ) هي التي جعلَت من قيادَةِ النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أرفعَ وأنجحَ قيادة عرَفها تاريخُ البشريَّةِ، وكلٌّ واحدٍ منها أَثرٌ ومؤثِّرٌ لما قبلَهُ ولما بعدَهُ .

□ خامساً : تَحَمُّلُ المسؤوليةِ :

غنيٌّ عنِ القولِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم كان دائماً هو المثلُ الأَعلى في كلِّ شيءٍ لأصحابِهِ، وما كان له عليه الصَّلاة والسَّلام وهو المثلُ الأعلى في كلِّ شيءٍ أن يتركَ الأشياءَ للحظِّ المجرَّدِ، فإذا ما وافقت صواباً فَرِحَ واستبشرَ وردَّ تلك الموافقة لِحذقِه ودقَّةِ تقديرِهِ، وإذا ما وافقت خطأً اغتمَّ وابتأَسَ وعزا ذلك إلى القدرِ، فذلك من شَأنِ البشرِ غير الأنبياءِ، حتى البشرُ الصَّادقونَ في إيمانِهم لا يقبلونَ هذا لأنفسِهم، أمَّا شأنهُ عليه الصَّلاة والسَّلام فكان يأخذُ بالأسبابِ جملةً، ثمَّ يمضي لما يرى من غير تردُّدٍ ولا استبطاءٍ، فإن أصابَ نُجحاً فَرِحَ وبشَّر أصحابَهُ وشكرَ اللَّهَ عليه، وإنْ كان غيرَ ذلك فوَّضَ أمرَهُ إلى اللَّهِ وحده، ورأى أنَّ مرادَهُ في ذلك ليس في سواهُ، فصبرَ ولم يجزَعْ، وتأوَّلَ في كلا الأمرين قولَهُ سبحانه: ﴿ لكَيلا تحزَنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿ لكَيلا تَأْسَوا على ما فاتَكُم ولا تَفرَحوا بما آتاكُم ﴾[2].

---

(١) آل عمران : ١٥٣ .   (٢) الحديد : ٢٣ .

ولم يكن ليغيبَ عن رسولِ اللّه صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم أنَّ ما يصيبهُ في نفسهِ وما يصيب المسلمينَ من بلاء يقعُ في دائرةِ التَّربيةِ والإعدادِ النَّفسيِّ، وسدِّ الثَّغرةِ التي يمكنُ أن ينفذَ منها الخطأُ إليهم في المستقبلِ، ونجدُ هذا بارزاً في قولهِ سبحانه : ﴿ وما أصابَكُم من مُصيبَةٍ فبِما كَسَبَتْ أيدِيكُمْ ﴾[1]، وفي قولهِ : ﴿ أَوَلَمَّا أَصابَتكُم مُصيبةٌ قد أصَبْتُم مثلَيْها قُلتُم أنَّى هذا قُلْ هُوَ مِن عندِ أنفسِكُم إنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[2]، ويعلمُ رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم مِن نفسهِ أو مِن أصحابهِ الأمرَ الذي به تكونُ المصيبةُ فيهم، فلا يجدُ بُدًّا من إبدائهِ كيلا يُؤَاخذوا به أو بمثلهِ مرَّة أُخرى، فيستجيبُ لأمرِ اللّهِ وهو يخاطبهُ به : ﴿ قُل هُو مِن عندِ أَنفُسِكُم ﴾ ردًّا على تساؤلِهم : ﴿ أنَّى هذا ﴾ .

وبعد هذا كلِّه يتحمَّلُ الرَّسولُ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم تَبِعَةَ ما يقعُ كاملاً، ويتلقَّى الوحيَ فيها راضياً صابراً مُنيباً لا يجدُ في نفسهِ مفزعاً إلّا إلى ربِّهِ : ﴿ ما كانَ لنبيٍّ أنْ يكونَ لهُ أسْرى حتى يُثْخِنَ في الأرضِ تُريدونَ عَرَضَ الدُّنيا واللّه يُريدُ الآخرةَ واللّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ ﴾[3]، ولا يترُكهُ يتردَّدُ حائراً وَجِلاً في صدرِه، ويعالنُ به أصحابهَ كي يعلِّمَهم أنَّ نجاحَ القيادَةِ ليسَ فقط في إحرازِ النَّصرِ، بل ربَّما نجاحُها أكبرُ حين يتحمَّلُ القائدُ مسؤوليَّةَ ما آلت إليهِ المعركةُ من سلبيَّاتٍ، ويكون نجاحُها

---

(١) الشورى : ٣٠ .
(٢) آل عمران : ١٦٥ .
(٣) الأنفال : ٦٧ .

أَكبرَ وأَكبر حينَ لا يُخفي القائدُ على جُندِهِ من ذلك شيئاً، وهو يعلمُ أنَّ ما يقعُ في نفوسِهم منه ربَّما كانَ أعظمَ عليهم مِن أن يحتملوهُ، كما وقعَ في غزوةِ الحديبيَّةِ حينَ قَبِلَ بالصُّلح، وظاهرُهُ الإجحافُ لاحِقاً لا ريبَ بهِ وبأصحابهِ، ويرتفعُ صوتُ جُرأَة عمرَ[1]، ثمَّ لا يجدُ في نفسهِ حَرجاً ممَّا قَبِلَ به نبيُّه محمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، ويعودُ بهم إلى المدينةِ ونفوسُ بعضِهم لا زالَت في ضيقٍ من عقدِ الصُّلحِ الذي أبرَمهُ مع المشركينَ، فلا يلبثونَ أنْ يسمعوه يتلو عليهم : ﴿ إنَّا فَتَحْنا لكَ فَتْحاً مُبيناً ﴾[2]، فيعلمونَ أنَّهُ الحقُّ من ربِّهم، فتبردُ صدورُهم، وتهدأُ نفوسُهم، وتغشاهم سكينةٌ تمضي بهم، فيجدونَها مفسَّرةً لهم عندَ فتحِ خيبرَ، ويوقنونَ أنَّ كلمتَهُ لهم في الحديبيَّةِ : « إنِّي رسولُ اللَّهِ »[3] هي الميسمُ الذي لا يحسُنُ بهم أنْ يَدَعُوهُ، حليةٌ رائعةٌ تطلعُ في مفرِقِهِ شمسُ المعرفةِ الواثقةِ لكلِّ الأجيالِ الإنسانيَّةِ المقبلةِ .

وهكذا فإنَّنا واجدونَ عظمة محمَّدٍ القائدِ الحكيم المُلهَمِ تتجلَّى في كلِّ موقفٍ قتاليٍّ وتظهرُ في كلِّ غزوةٍ باعتمادهِ وتوكُّلهِ على اللَّهِ، ثمَّ بأخِذهِ بهذه المبادىءِ الخمسةِ :

١ - تحديدُ الهدفِ من كلِّ غزوةٍ من بدايتِها .

٢ - واعتمادُ الوسيلةِ المحكمةِ لتحقيقِ هذا الهدفِ .

---

(١) أخرجه البخاري . (٢) الفتح : ١ .

(٣) رواه البخاري ومسلم من حديث سهل بن حنيف .

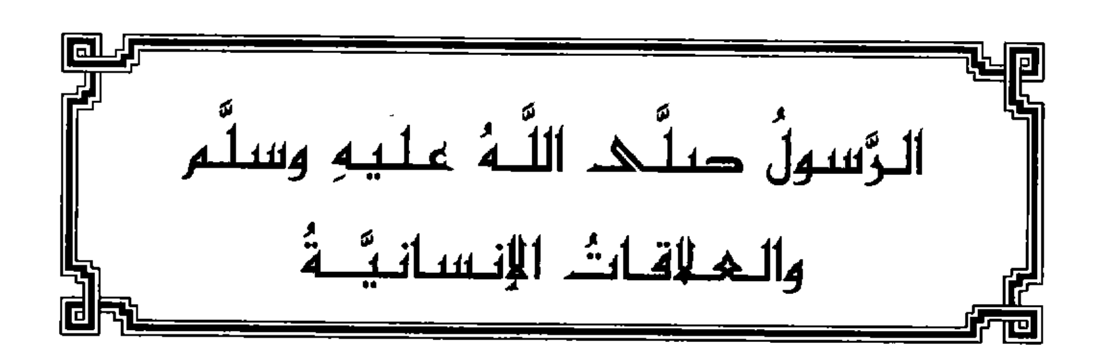
٣ - ثمَّ تحديدُ الميدانِ الذي سيعمَلُ فيه هذه الوسيلة .

٤ - ثمَّ تقديرُ النَّتيجةِ وحدسُها قبلَ نهايةِ الغزوةِ .

٥ - وأخيراً تحمُّلُ المسؤوليَّةِ كاملةً في كلِّ نهايةٍ .

وممَّا لا ريبَ فيه أنَّ اعتمادَ الرّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم هذه المبادىءَ الخمسةَ هو في حدِّ ذاتِهِ حكمةٌ مُلْهَمةٌ، ذلكم أنَّ كلَّ واحدٍ منها يعتمدُ على السَّابقِ له، أَمَّا الأَوَّلُ فإنَّهُ أمْرٌ ضروريٌّ، بل أَمرٌ فطريٌّ، ليسَ في شؤونِ القتالِ وحدَهُ؛ بل في كلِّ شأنٍ من شؤونِ الحياةِ الإنسانيَّةِ، ومن الفطرةِ الإسلاميَّةِ والشُّموليَّةِ يمكنُ اعتمادُ الغايةِ من خَلقِ الإنسانِ أصلاً في تحديدِ الهدفِ المتوخَّى في كلِّ شأنٍ .

○ ○ ○ ○ ○



الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم والعلاقاتُ الإنسانيَّةُ

كانَت كلُّ رسالةٍ جاءَ بها نبيٌّ تنقطعُ بموتهِ، وإنْ بَقِيَت بعدَهُ فإلى أن يَبعَثَ اللَّهُ نبيًّا غيرَهُ، يحتوي ميراثَهُ، ويحمِلُ رسالَتهُ .

وكانَت العَلاقةُ بينَ أيِّ نبيٍّ يبعثُ وبين غيرهِ لا تعدو دائرةَ مَن يُبعَثُ فيهِم مِن أُمَّتهِ وقومهِ وحدَهُم، وإذا تتبَّعنا القرآنَ في آياتهِ وهو يحدِّثُنا عنِ الأنبياءِ السَّابقينَ ويقصُّ علينا أنباءَهُم، نجِدُهُ إذا قدَّمَ النَّبيَّ في الذِّكرِ على مَن بُعِثَ فيهم يقولُ : « إلى قومهِ »، كقولهِ : ﴿ لَقَدْ أرسَلنا نوحاً إلى قومِهِ ﴾[1]، وكقولهِ : ﴿ ولوطاً إذْ قالَ لقَومِهِ ﴾[2]، وإذا قَدَّمَ في الذِّكْرِ المبعوثَ فيهم النَّبيُّ على النَّبيِّ نفسِهِ يقولُ : « أَخَاهُم »، كقولهِ ﴿ وإلى ثمودَ أخاهُم صالحاً ﴾[3]، وكقولهِ : ﴿ وإلى مدينَ أَخَاهُم شعيباً ﴾[4]، حتى الأنبياءُ الذينَ اتَّسعت دائرةُ رسالتِهِم، وامتدَّ زمانُها

(١) الأعراف : ٥٩ .

(٢) الأعراف : ٨٠ .

(٣) الأعراف : ٧٣ .

(٤) الأعراف : ٨٥ .

أكثرَ من رسالاتِ غيرِهم مِن الأنبياءِ، يُذكَرونَ بمثلِ ما ذُكرَ سائرُ الأَنبياءِ أو بما يُشبهُهُ، فعَن إبراهيمَ يقولُ اللَّه سبحانه : ﴿ وإبراهيمُ إِذْ قالَ لقومِهِ ﴾[1]، وكقولِهِ : ﴿ وإذْ قالَ موسى لقَومِهِ ﴾[2]، وكقوله : ﴿ وإذْ قالَ عيسى ابنُ مَريمَ يا بَني إِسرائيلَ ﴾[3].

ويُجْمِلُ القرآنُ هذا التَّفصيلَ السَّابقَ بشأنِ النُّبوَّةِ والأنبياءِ وأنَّ كلَّ نبيٍّ بُعثَ لقومِهِ خاصَّةً بقولِهِ : ﴿ وإنْ مِن أُمَّةٍ إلّا خلا فيها نَذيرٌ ﴾[4]، والنَّذيرُ في القومِ من أنفسِهم، كَيْلا يكونَ لهم على ربِّهم أنَّهُ بعثَ إليهم مِن غَيرِ أنفُسِهم، ويؤكِّدُ هذا الذي ذَكَرنا قولهُ سبحانهُ : ﴿ وما أَرسَلنا مِن رسولٍ إلّا بلسانِ قومِهِ ليُبيِّنَ لَهُم ﴾[5]، ولكلِّ قومٍ لِسانٌ؛ فلا يخاطَبُ غيرُهُم بلسانِهِم، ولا يُخاطَبونَ هُم بِلِسانِ غيرِهِم، إذ لا يُعقَلُ أن تُخاطَب أُمَّةٌ بِلَغَةِ أُمَّةٍ غيرها، وبخاصَّةِ الوحيُ الذي يُقصدُ بهِ هِدايةُ الأُمِمِ كافَّةٍ، ولو كُلِّفَت أُمَّةٌ إتِّباعَ نبيٍّ لا يَعرفُ لُغتَها ولا تعرفُ لغتهُ لكانَ ذلك - ليسَ شاقًّا وعسيراً فحسبُ - بل تكليفاً بما لا يطاقُ، واللَّهُ لا يكلِّفُ النَّاسَ ما لا يُطيقونَ، وإلّا كان ظُلماً وحاشا للَّهِ أنْ يكونَ كذلك .

وظلَّ الأَنبياءُ يتتابَعونَ تترى، وظلَّتْ الرّسالاتُ تَنزِلُ بتقديرِ العزيزِ

---

(1) العنكبوت : ١٦ .
(2) الصف : ٥ .
(3) الصف : ٦ .
(4) فاطر : ٢٤ .
(5) إبراهيم : ٤ .

الحكيم فيها خيرُ النَّاسِ وهدايَتُهُم، فاهتدى منهم مَن اهتدى، وضلَّ منهم مَن ضَلَّ، فأصابَ الخيرُ مَن اهتدى وأَخطأَهُ مَن ضَلَّ، وطُويَت قُرونٌ، وهَلَكَت أممٌ، وتعاقبَت على الأَرضِ أَدهارٌ حتى شاءَ اللَّهُ سبحانه أَن يجمعَ كُلَّ الرِّسالاتِ ويطويَها في رسالةٍ واحدةٍ، يحملُها رسولٌ واحدٌ، ليجعلَ مِنَ الشعوبِ والقبائِلِ أُمَّةً واحدةً، تتوجَّهُ جميعاً برَغْبِها ورَهَبِها إلى ربٍّ واحدٍ، فبعثَ اللَّهُ نبيَّهُ ورسولَهُ محمَّداً صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ماحياً وعاقباً[1] وخاتماً ورحمةً: ﴿ وما أَرسَلناكَ إلَّا رَحْمَةً للعالمين ﴾[2]، ﴿ ما كانَ محمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلكِن رسولَ اللَّهِ وخاتمَ النَّبيِّينَ ﴾[3]، ﴿ وَأَنزَلنا إِليكَ الكتابَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بينَ يَديهِ مِنَ الكتابِ ومُهيمِناً عليه ﴾[4].

فرسالَتُهُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم شاملةٌ عامَّةٌ، زمانُها الدَّهرُ كلُّه، ومكانُها الأَرضُ كلُّها، والمخاطبونَ بها الثَّقلانِ كُلُّهم، ولُغَتها العربيَّةُ، وليسَتِ العربيَّةُ لسانُ المُخاطبينَ بها جميعاً، فهي لغةُ العربِ وحدَهم، فكيفَ يَصحُّ أَن تَكُونَ الأُمَم غيرَ العربِ مخاطبةٌ برسالةٍ نزلَت بلغةٍ خاصَّةٍ

(١) الماحي والعاقب: اسمان من أسمائه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، والماحي: الذي محا اللَّه به الكفر، ومنه قوله صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم: « وأنا الماحي الذي يمحو بي اللَّه الكفر »، والعاقب: الذي ليس بعده نبي، ومنه قوله صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم: « وأنا العاقب »، وفي « صحيح البخاري » قال رسول اللَّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم: « لي خمسة أسماء: أنا محمَّد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو اللَّه بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر النَّاس على قدمي، وأنا العاقب ».

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) الأحزاب: ٤٠.

(٤) المائدة: ٤٨.

بأُمّةٍ واحدةٍ ؟! أليسَ ذلك وحدَه يكفي دليلاً على أَنَّ لهذهِ اللغةِ خصيصةٌ جعلت لها فضلاً على جميعِ اللغاتِ أوّلاً ؟ ثمَّ كانَ لَها بهذا الفضلُ شرفُ تعلُّقِ الشعوبِ بِها وانصهارُها في الخيرِ ثانياً، ثمَّ انكشافُ هذا الفَضلِ عَن سُهُولةِ تعلُّمِ هذه اللغةِ واستيعابها لِمَا عَجَزَت كلُّ اللغاتِ عَن استيعابهِ من معانٍ وأفكارٍ ومُصطلحاتٍ ثالثاً .

ويجدرُ أنْ نذكرَ أنَّ رسالاتِ النُّبوَّاتِ السَّابقةِ كلِّها في الإسلامِ ووفرةِ مزاياهُ بما زِيد عليه، التي جَعَلت منهُ دينَ الفِطرةِ ﴿ فِطرَةَ اللَّهِ الَّتي فَطرَ النَّاسَ عليها لا تَبديلَ لِخَلقِ اللَّهِ ذلك الدِّينُ القيِّمُ ﴾[1]، وأن خصائصَ عظيمةً اختصَّ اللَّهُ بها العربَ مِن سائرِ الأُممِ والشعوبِ كانَ منها اصطِفاءُ اللَّهِ نبيَّهُ محمَّداً عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ منهم، بضميمَتها إلى ما سبقَ ممَّا ذِكرنا من خصائصِ اللغةِ؛ مكَّن للإسلام في الأرضِ ما لم يُمكَّن لرسالاتِ الأنبياءِ السَّابقةِ، وجعلَ له قُدسيَّةً بالِغَةَ التَّأثيرِ لَم تَبلُغْهَا في التَّأثيرِ قُدسيَّةُ الرِّسالاتِ السَّابقةِ، فليس يُعذَرُ أحدٌ بكفرهِ إذ تبلُغُهُ دعوةُ الإسلامِ على وجهٍ صحيحٍ : ﴿ وَمَنْ يَبتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فَلَنْ يُقبَلَ منهُ وهوَ في الآخرَةِ مِنَ الخاسرينَ ﴾[2].

فالقرآنُ بِلُغَتهِ وأُمَّتهِ أوجبَ حُدوثَ علاقاتٍ واسعةٍ جاوَزَت حُدودَ أرضِ الجزيرة لِتَصِلَهُ بالشعوبِ والأُممِ قَاطِبةً، ليكونوا من بعدُ الأُمَّةَ

---

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

الواحدةَ التي بشَّرَ بِها القرآنُ فأَنشأَ يخاطبُهُم بقولِهِ : ﴿ هُوَ الَّذي أَرسلَ رَسُولَهُ بالهُدى ودينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ وَلو كرِهَ المشرِكونَ ﴾[1].

وتختلفُ هذه العلاقاتُ باختلافِ حالِ المتعلِّقةِ بهم، ولا تقتَصِرُ عليهِم وحدَهُم في وقتِ نزولِ الوحيِ، فهي خالدةٌ باقيةٌ على الدَّهرِ صالحةٌ لهم ما بقي لهم وجودٌ على الأَرضِ، فطبيعتُها من طبيعةِ القرآنِ، وهم صِنفانِ، فإمَّا أَنْ يكونوا أَهلَ كتابٍ، وإمَّا أَنْ يكونوا غيرَ ذلك، ولكلٍّ مِن الفريقينِ أُسلوبٌ خاصٌّ يتَّفقُ مع طبيعةِ تكوينهِ النَّفسيِّ والاعتقادِيِّ، حتى لو لم يُذكرْ في النَّصِّ القرآنيِّ اسمُهُ أو وصفُهُ الدَّالُّ عليهِ صراحةً لكانَ الأسلوبُ وحدَهُ كافياً في مَعرِفتهِ .

فأهلُ الكتابِ؛ يحدِّدُ القرآنُ علاقاتِ النَّبيِّ بهم على النَّحو التَّالي : فهو يحذِّرُ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم مِن أَهلِ الكتابِ ليُنشِيءَ في نفوسِ المسلمين منهم نوعاً من الحَذَرِ في حياتِهِ وبعد مماتِهِ خشيةَ أن يُضلُّوهُم ويردُّوهُم عَن دينِهِم، وذلكَ بإظهارِ النَّاسِ على حقيقةِ ما يجولُ في صدورِهم، كقولِهِ سبحانه : ﴿ وَدَّ كَثيرٌ مِن أَهلِ الكتابِ لَو يَردُّونَكُم مِن بعدِ إيمانِكُم كُفَّاراً حَسداً مِن عندِ أَنفُسِهِم مِن بعدِ ما تبيَّنَ لهُم الحقُّ ﴾[2]، وكقولِهِ سبحانه: ﴿ ما يَوَدُّ الَّذينَ كَفروا من أهلِ الكتابِ

---

(1) التوبة : ٣٣، والصف : ٩ .
(2) البقرة : ١٠٩ .

ولا المشركينَ أنْ يُنزَّلَ عليكُم مِن خَيرٍ ﴾[1]، وكقولِهِ : ﴿ وَدَّتْ طائِفةٌ مِن أهلِ الكتابِ لو يُضلُّونكم ﴾[2]، وكقولِهِ : ﴿ وَأَنزَلْنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بينَ يَديهِ مِنَ الكتابِ ومُهَيْمِناً عليه فاحكُم بَينَهم بما أَنزلَ اللَّهُ ولا تَتَّبِعْ أَهواءَهم عمَّا جاءَكَ مِنَ الحقِّ لكلٍّ جَعَلنا منكُم شِرعَةً ومنهاجاً ولو شاءَ اللَّهُ لجعَلَكُم أُمَّةً واحدةً ولكِن لِيَبلُوَكُم في ما آتاكُم فاستَبِقوا الخيراتِ إلى اللَّهِ مَرجِعُكُم جميعاً فينبِّئُكُم بما كُنتُم فيه تختلفونَ ○ وأَنِ احْكُم بينَهم بما أنزلَ اللَّهُ ولا تَتَّبِع أهواءَهم واحذَرهُم أن يفتِنوكَ عن بعضِ ما أنزلَ اللَّهُ إليكَ فإن تَوَلَّوا فاعلَم أنَّما يُريدُ اللَّهُ أن يُصيبَهُم ببعضِ ذُنُوبِهِم وإنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ لفاسِقُونَ ﴾[3]، وكقولِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ أُوتوا نَصيباً مِنَ الكتابِ يَشترونَ الضَّلالةَ ويُريدونَ أن تَضِلُّوا السَّبيلَ ﴾[4]، أَو بإقامةِ الحجَّةِ عليهم بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم قَد أَبلغَهُم ما يستقيمُ به أمرُهُم في دنياهُم كقولِهِ سبحانهِ : ﴿ يا أَهْلَ الكتابِ قَد جاءَكُم رَسُولُنا يُبيِّنُ لكُم كثيراً ممَّا كنتُم تُخفُونَ مِنَ الكتابِ ويَعفو عَن كثيرٍ ﴾[5]، وكقولِهِ : ﴿ يا أَهْلَ الكتابِ قد جاءَكُم رسُولُنا يُبيِّنُ لكُم على فَترَةٍ من الرُّسُلِ أن تقولوا ما جاءَنا مِن بَشيرٍ ولا نَذيرٍ فَقَد جاءَكُم بَشيرٌ ونَذيرٌ ﴾[6]، أو يكشفُ ذريعَتَهُم الباطلةَ في

---

(١) البقرة : ١٠٥ .

(٢) آل عمران : ٦٩ .

(٣) المائدة : ٤٨-٤٩ .

(٤) النساء : ٤٤ .

(٥) المائدة : ١٥ .

(٦) المائدة : ١٩ .

نقمَتَهُم على الإسلامِ وأهلِهِ كقوله : ﴿ قُلْ يا أَهلَ الكتابِ هَل تَنقِمونَ منَّا إلَّا أَنْ آمنَّا باللَّهِ وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ مِنْ قَبلُ وأنَّ أكثَرَكُم فاسِقونَ ﴾[1]، وكقولِهِ : ﴿ ومِن أهْلِ الكتابِ مَنْ إنْ تَأْمَنهُ بِقِنطارٍ يُؤَدِّهِ إليكَ ومِنهُم مَن إنْ تَأمَنهُ بدِينارٍ لا يؤَدِّه إليكَ إلّا مادُمتَ عليهِ قائماً ذلك بأنَّهم قالوا ليسَ عَلينا في الأُمّيِّين سَبيلٌ ويقُولونَ على اللّهِ الكَذِبَ وهُم يعلمونَ ﴾[2]، أو بتعريَةِ باطِلِهم في العقيدةِ والدِّينِ : ﴿ يا أَهْلَ الكتابِ لم تُحاجُّونَ في إبراهيمَ وما أُنزلَت التَّوراةُ والإنجيلُ إلّا مِنْ بعدهِ أَفَلا تَعقِلونَ ﴾[3]، ﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَكفُرونَ بآياتِ اللّهِ وأنتُم تَشهدونَ ﴾[4]، ﴿ يا أَهلَ الكتابِ لِمَ تَلبِسونَ الحقَّ بالباطِلِ وتَكتمونَ الحقَّ وأنتُم تَعلمونَ ﴾[5]، أو بالتَّحذيرِ مِن ولايَتِهم : ﴿ لا تَتَّخِذوا بِطانَةً مِن دُونِكُم لا يألونَكُم خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّم قَد بَدَتِ البَغضاءُ مِن أفْواهِهم وما تُخفي صُدُورهُم أكبرُ قَدْ بيَّنَّا لكُمُ الآياتِ إنْ كنتُم تعقِلون ﴾[6]، ﴿ لا تَتَّخذوا الَّذينَ اتَّخذوا دينَكُم هُزُواً ولَعِباً منَ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ مِن قبلكُم والكفَّارَ أَولياءَ ﴾[7]، أو بفضحِ علاقاتِهِمُ المريبةِ بأقرانِهمُ الكفَّارِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ أُوتُوا نَصيباً مِنَ الكتابِ يُؤْمنونَ بالجِبتِ والطَّاغوتِ ويقولون للَّذينَ كَفَروا هؤلاءِ أَهْدى منَ الَّذينَ آمَنوا سَبيلاً ﴾[8]، أو

---

(1) المائدة : ٥٩ .
(2) آل عمران : ٧٥ .
(3) آل عمران : ٦٥ .
(4) آل عمران : ٧٠ .
(5) آل عمران : ٧١ .
(6) آل عمران : ١١٨ .
(7) المائدة : ٥٧ .
(8) النساء: ٥١ .

بإظهارِ حقيقةِ ما في نفوسِهم مِنَ الإيمانِ بالنَّبيِّ وبرسالتِهِ رَغمَ محاولاتِهم إخفاءَ ذلك ﴿ وإنَّ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ لَيَعلَمونَ أنَّهُ الحقُّ مِن ربِّهِم ﴾[1]، ﴿ الَّذينَ آتيناهُمُ الكتابَ يَعرِفونَهُ كما يَعرِفونَ أبناءَهُم ﴾[2]، أو بالتَّحذيرِ مِن طاعَتِهم في أَيِّ أَمرٍ : ﴿ إِنْ تُطيعوا فَريقاً مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ يَردُّوكُم بعدَ إيمانِكُم كافرينَ ﴾[3]، ﴿ فاحْكُمْ بينَهُم بما أنزَلَ اللَّهُ ولا تَتَّبع أَهواءَهم عمَّا جاءَكَ مِنَ الحقِّ ﴾[4]، ﴿ وَأَنِ احْكُم بينهم بما أنزلَ اللَّهُ ولا تَتَّبع أهواءَهم واحذَرهُم أنْ يَفتِنوكَ عَن بعضِ ما أنزَلَ اللَّهُ إليكَ ﴾[5]، أو بإبانةِ الاستكبارِ المستنكِفِ بهم عن الحقِّ : ﴿ ولمَّا جاءَهُم كِتابٌ مِن عندِ اللَّهِ مصدِّقٌ لِما معهُم وكانوا مِن قبلُ يَستَفتِحونَ على الَّذينَ كَفروا فلمَّا جاءَهم ما عَرَفوا كَفَروا بِهِ فَلَعنَةُ اللَّهِ على الكافرينَ ﴾[6]، ﴿ وَلمَّا جاءَهُم رَسُولٌ مِن عندِ اللَّهِ مصدِّقٌ لِمَا معهُم نَبَذَ فريقٌ مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ كتابَ اللَّهِ وراءَ ظهورِهِم كأنَّهُم لا يعلمونَ ﴾[7]، ﴿ وَلَئِن أتَيتَ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ بكلِّ آيةٍ ما تَبِعوا قبلَتَك ﴾[8].

ومع كلِّ ما تقدَّمَ؛ فإنَّ القرآنَ لا يَحظُرُ على نبيِّ اللَّهِ أَن تكونَ له

---

(1) البقرة : ١٤٤ .
(2) البقرة : ١٤٦، والأنعام : ٢٠ .
(3) آل عمران : ١٠٠ .
(4) المائدة : ٤٨ .
(5) المائدة : ٤٩ .
(6) البقرة : ٨٩ .
(7) البقرة : ١٠١ .
(8) البقرة : ١٤٥ .

بأهلِ الكتابِ علاقةٌ لتوطيدِ أَواصِرِ الاستقرارِ في المجتمع : ﴿ وطعامُ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ حِلٌّ لكم وطَعامُكُم حِلٌّ لهُم والمُحصناتُ مِنَ المؤمناتِ والمُحصناتُ مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ من قَبلِكُم إذا آتيتُموهُنَّ أُجورَهُنَّ مُحصِنينَ غيرَ مسافِحينَ ولا متَّخذِي أَخدَانٍ ﴾[1]، ويشرِكُهُم القرآنُ في حَوزَةِ الدِّفاعِ عَن أرضِ الإسلامِ تأكيداً للاستقرارِ الذي ينشدهُ لهم : ﴿ قاتلوا الَّذينَ لا يُؤمنونَ باللَّهِ ولا باليومِ الآخرِ ولا يحرِّمونَ ما حرَّمَ اللَّهُ ورسولُهُ ولا يدينونَ دينَ الحقِّ مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ حتى يُعطوا الجزيةَ عَن يَدٍ وهُم صاغِرونَ ﴾[2].

ويُميطُ القرآنُ للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم الغطاءَ عَن قلوبِ أَهلِ الكتابِ لِيُظهِرَهُ على مكنونِ ما فيها مِن خِلافٍ ومِن بُغضِ بعضِهِم لبَعضٍ، فلا يقيمُ لهم وزناً: ﴿ وَقالَتِ اليَهودُ ليسَتِ النَّصارى على شيءٍ وقالَتِ النَّصارى ليسَتِ اليَهودُ على شيءٍ وهُم يَتلُونَ الكتابَ ﴾[3]، ﴿ وَمِنَ الَّذينَ قالوا إنَّا نَصارى أَخَذنا ميثاقَهُم فَنَسُوا حظًّا ممَّا ذُكِّروا به فأَغرَينا بينهم العداوَةَ والبغضاءَ إِلى يومِ القيامةِ ﴾[4]، ﴿ وقالَتِ اليَهودُ عُزيرٌ ابنُ اللَّهِ وقالتِ النَّصارى المسيحُ ابنُ اللَّهِ ﴾[5]، ولكِن بالرَّغمِ مِن هذهِ العداوةِ المُستَتِرَةِ بعضِهم لبعضٍ، فإنَّهم يَقِفُونَ أمامَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ

(١) المائدة : ٥ .
(٢) التوبة : ٢٩ .
(٣) البقرة : ١١٣ .
(٤) المائدة : ١٤ .
(٥) التوبة : ٣٠ .

عليهِ وسلَّم بِكَلِمَةٍ واحدةٍ ومنطقٍ واحدٍ: ﴿ وقالَتِ اليَهودُ والنَّصارَى نحنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وأحبَّاؤهُ ﴾[1]، ويكون هناك تفريقٌ بيِّنٌ في العلاقاتِ بين أَهلِ الكتابِ : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذينَ آمَنوا اليهودَ والَّذينَ أشرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً للَّذينَ آمَنوا الَّذينَ قالوا إنَّا نَصارى ذلك بِأنَّ منهم قسِّيسينَ ورُهباناً وأنَّهم لا يَستكبرونَ ﴾[2].

ولكن مِنَ الفريقينِ طائِفَة أَذْعَنَت للحقِّ، وأَصغَت لِنداءِ الإيمانِ، فهؤلاءِ نظرةُ الإِسلام إليهِم سواءٌ : ﴿ مِنْ أَهلِ الكتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتلونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيلِ وهُم يَسجُدونَ ﴾[3]، ﴿ وإنَّ مِنْ أَهلِ الكتابِ لَمَنْ يُؤمِنُ باللَّهِ وما أُنزِلَ إليكُم وما أُنزِلَ إليهم خاشعينَ للَّهِ لا يَشتَرونَ بآياتِ اللَّهِ ثمناً قليلاً أُولئكَ لهُم أَجرُهُم عِندَ ربِّهم ﴾[4]، فإذا نَزَعَ أَهلُ الكِتابِ في عداوَتِهم مَنزَعاً يُعرَفُ بِهِ فيهم أنَّهم موضِعونَ في الحربِ وملقون بعهدِ الذِّمَّةِ ومُدَبِّرون أَمراً يكيدونَ به للإسلامِ وأَهلِهِ، فحينئذٍ يكونون قَد استباحوا حِماهم بسوءِ صَنيعهم، واستجازوا بذلك قِتالَهُم : ﴿ قاتِلوا الَّذينَ لا يُؤمنونَ باللَّهِ ولا باليومِ الآخرِ ولا يُحرِّمونَ ما حرَّمَ اللَّهُ ورَسولُهُ ولا يَدينونَ دينَ الحقِّ مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ حتّى يُعطُوا الجزيةَ عن يَدٍ وهُم صاغِرونَ ﴾[5].

---

(١) المائدة : ١٨ .

(٢) المائدة : ٨٢ .

(٣) آل عمران : ١١٣ .

(٤) آل عمران : ١٩٩ .

(٥) التوبة : ٢٩ .

وبالرَّغم مِن كُلِّ ما عليه أَهلُ الكتابِ فإنَّ دعوتهم إلى عقيدةِ التَّوحيد تظلُّ الأَمرَ الذي لا يتقدَّمهُ أَمرٌ، فهمُّ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم كلُّه مُوَجَّهٌ إلى إخراجِهِم مِن جَورِ العقيدةِ الباطلةِ إلى عَدلِ الإسلامِ : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم أَلَّا نَعبُدَ إلَّا اللَّهَ ولا نشرِكَ بِهِ شيئاً ولا يتَّخِذَ بَعضُنا بعضاً أَرْبَاباً مِن دونِ اللَّهِ فإنْ تَوَلَّوا فقولوا اشهَدوا بأنَّا مُسلمون ﴾[1].

مِن مجموعِ هذهِ الأُمورِ تَكوَّنَتِ الدَّائرةُ الكاملةُ للعَلاقاتِ الإنسانيَّةِ التي أقامَها القرآنُ بين النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وبين أهلِ الكتابِ لكي تكونَ هي الدَّائرةَ التي يبقى فيها وُجودُ المسلمينَ وهُم يتعاملونَ مع أهلِ الكتابِ .

أمَّا غيرُ أهلِ الكتاب فينقسمونَ إلى قسمينِ اثنينِ : كفَّارٌ صرحاءُ، وكفَّارٌ أخفياءُ؛ وهم المنافِقُونَ، والنِّفاقُ داءٌ خطيرٌ جِدًّا، يُخشى منه على المجتمعِ الإسلاميِّ أكثرَ بكثيرٍ ممَّا يُخشى عليهِ منَ الشِّرك، لأنَّ الشِّركَ يُعلِنُ عن صاحبِهِ، ولا يَستطيعُ صاحِبهُ أن يَتوارى بهِ مِنَ النَّاسِ، أمَّا النِّفاقُ فصاحِبهُ له وجهانِ : وجهٌ خفيٌّ حاقدٌ، ووجهٌ ظاهرٌ يبدو سَمحاً طيِّباً .

وخُطورَةُ النِّفاقِ تَأتي مِن أنَّ العقوبةَ التي يجبُ أَن ينالها المنافِقُ

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

- وهي القَتلُ - هو أَبعدُ ما يكونُ عنها، لأنَّ البيِّنةَ التي يستحقُّ بها العقوبةَ غيرُ متحقِّقةٍ، فهو مستَتِرٌ بشرِّهِ ومَكرهِ فلا بيِّنةَ، ربَّما امتدَّت ظِلالُ مكرهِ وشرِّه السَّوداءُ إلى كثيرٍ مِنَ النَّاسِ فاستظلُّوا بها يُبيِّتونَ الشَّرَّ للإسلامِ، ويتربَّصونَ الدَّوائرَ بأهلهِ، وبذلك يستشري خَطرُ النِّفاقِ، ويتفاقَمُ ضررُ المنافقينَ، فلا يَحجِزُهُ إلّا رحمةٌ مِنَ اللَّهِ وَحدَهُ .

وهناكَ قَدرٌ مشتركٌ في نوعٍ مِن العلاقاتِ بينَ الكفَّارِ جميعاً وبين أهلِ الكتاب؛ يحدِّدها باعتبارِ أنَّهم جميعاً يشتركون في قدرٍ معيِّنٍ مِن العقيدةِ، فناسبَ أن يُحذِّرَ القرآنُ النَّبيَّ والمؤمنينَ مِن ولايتِهم جَميعاً، لِئلّا تَعدو بهم هذه الولايةُ إلى الرِّضا بما هُم عليهِ مِن الشِّركِ، قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تتَّخِذوا الَّذينَ اتَّخذوا دينَكم هُزُواً ولَعِباً مِن الَّذينَ أُوتوا الكتابَ مِن قَبلِكُم والكُفَّارَ أَولياءَ واتَّقوا اللَّهَ إِنْ كُنتُم مؤمنينَ ﴾[1]، قال ابنُ جريرٍ : « نهى اللَّهُ أَنْ يتَّخذوا مِن أهلِ الكتابِ وَمِن عَبَدَةِ الأوثانِ وسائرِ أَهلِ الكفرِ أَولياءَ دونَ المؤمنين »[2]، وقال تعالى: ﴿ لا يتَّخِذِ المؤْمنونَ الكافرينَ أولياءَ مِنْ دُونِ المؤمنينَ ومَنْ يفعَل ذلكَ فليسَ مِنَ اللَّهِ في شيءٍ إلّا أَنْ تتَّقوا مِنهُم تُقاةً ﴾[3]، ولفظُ الكافرين في هذهِ الآيةِ يتناولُ كلَّ أصنافِ الكافرينَ لجُحودهِم وكُفرِهم، والموالاةُ لا تنفي المصانَعة والمخالَقة التي دعا إليها الإسلامُ معَ النَّاسِ جميعاً

---

(١) المائدة : ٥٧ .

(٢) « تفسير الطَّبري » (٤٣/١٠) .

(٣) آل عمران : ٢٨ .

تأليفاً لِقُلوبهِم وتقريباً لهم منَ المؤمنين، قال مجاهدٌ في هذه الآية : « إلّا مصانعةً في الدُّنيا ومخالقةً »[1].

وَقَد سمَّى اللّهُ اليهودَ والنَّصارى كُفَّاراً في كثيرٍ منَ الآياتِ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفرَ الّذينَ قالوا إنَّ اللّهَ هو المسيحُ ابنُ مَريَمَ ﴾[2]، ﴿ لَمْ يَكُن الَّذينَ كَفَروا مِن أَهلِ الكِتابِ والُمشركينَ مُنْفكّينَ حتى تأتِيَهُم البيِّنةُ ﴾[3]، ﴿ ما يَودُّ الّذينَ كَفَروا مِن أهلِ الكِتابِ والُمشركينَ ﴾[4]، ﴿ إنِّي مُتَوَفِّيكَ ورافِعُكَ إليَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الّذينَ كَفَروا ﴾[5]، ﴿ فلا تأسَ على القومِ الكافِرينَ ﴾[6].

وقد فرّقَ القرآن بين أهلِ الكتابِ، وجعلَ بعضَهم أدنى إلى المسلمين من بعضٍ آخر : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً للَّذينَ آمَنوا اليَهودَ والَّذينَ أَشرَكوا وَلَتَجِدنَّ أَقربَهُم مودَّةً للَّذينَ آمَنوا الَّذينَ قالوا إنَّا نَصارى ذلك بِأَنَّ منهُم قِسّيسينَ ورُهباناً وأنَّهُم لا يَستكبِرونَ ﴾[7]، وهذا الإدناءُ مبنيٌّ على ما ينشأُ في قلوبِ النَّصارى مِن بعضِ مودَّةٍ وإلفٍ للمسلمينَ لمعايشتِهم وسكناهُم بين ظهرانيهِم، على خلافِ اليهودِ الذين ينفردونَ بأنفسِهم، فإذا ذهبَ هذا مِن قلوبِهم استوَوا معَ اليهودِ في عداوَتِهم،

---

(١) « تفسير الطَّبري » (٣١٥/٦) .
(٢) المائدة : ١٧ و ٧٢ .
(٣) البينة : ١ .
(٤) البقرة : ١٠٥ .
(٥) آل عمران : ٥٥ .
(٦) المائدة : ٦٨ .
(٧) المائدة : ٨٢ .

فحينئذٍ لا تختلفُ نظرةُ القرآنِ إليهِم عن نَظرتهِ إلى اليهودِ لأنَّهُم سَواءٌ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تتَّخِذوا اليَهودَ والنَّصارى أولياءَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ومَن يَتَولَّهُم مِنكُم فإنَّهُ منهُم ﴾[1].

وكما أنَّ القرآنَ حدَّدَ علاقاتِ أهلِ الكتابِ مع النَّبيِّ والمؤمنينَ من جزئيَّاتٍ عَديدةٍ، فإنَّ العلاقاتِ التي حدَّدها مع غيرِ أهلِ الكتابِ تكوَّنَت مِن جزئيَّاتٍ عديدةٍ أيضاً؛ إلّا أنَّها أَوسَعُ وأكبرُ منَ العلاقاتِ مع أهلِ الكتابِ، لسببين :

الأوَّل : أنَّ الكفرَ هو أوَّلُ ما واجهَ الإسلامَ .

الثَّاني : أنَّ أَهلَ الكِتابِ بما أُوتُوا مِن عِلمٍ يظلُّونَ أَدنى إلى الإسلامِ مِنَ الكفَّارِ .

فالكفرُ ذنبٌ عظيمٌ لا يغفرهُ اللَّهُ لِصاحبهِ إذا ظَلَّ مُقيماً عليهِ، قال تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَغفِرُ أن يُشرَكَ بهِ ويَغفِرُ ما دونَ ذلكَ لِمَن يشاءُ ومَن يُشرِك باللَّهِ فَقَدِ افترى إِثماً عظيماً ﴾[2]، ومِن أَوَّلِ الطَّريق يأمرُ اللَّهُ نبيَّهُ أَنْ يُعلنَ المفاصلةَ معَ المشركينَ لكي لا يطمَعُوا في تنازلاتٍ : ﴿ قُل يا أيُّها الكافِرون ٥ لا أعبُدُ ما تَعبُدونَ ٥ ولا أنتُم عابِدونَ ما أعبُدُ ٥ ولا أنا عابِدٌ ما عَبدْتُم ٥ ولا أنتُم عَابِدونَ ما أعبُدُ ٥ لكُم دِينُكُم وَليَ دينِ ﴾[3]،

---

(١) المائدة : ٥١ .
(٢) النساء : ٤٨ .
(٣) سورة الكافرون .

وإذا استبدَّ الكُفرُ بأهلِهِ، وطغى عليهم، وأغلقَ مَنافذَ الهُدى إلى قلوبهم، فلا فائدةَ تُرجَى من إنذارِهم ووعظِهم : ﴿ إنَّ الَّذينَ كَفَروا سَواءٌ عليهم أأَنذَرتَهُم أم لَم تُنذِرهم لا يُؤمنونَ ﴾[1]، ﴿ وقال الَّذينَ كَفروا لَن نؤمنَ بِهذا القرآنِ ولا بالَّذي بينَ يَدَيهِ ﴾[2]، فإنَّ الكفرَ يردُّ أهلَهُ إلى دائرةِ الاستكبارِ، فَيَرونَ أنفُسَهُم فيها في منزلةٍ لا يَجدُرُ بهم أن ينزلوا عنها وَلو لدرَجةٍ واحدةٍ، ويفقِدُهم الرُشدَ الذي يردُّهُم ويُخرجُهم مِن دائرةِ الاستكبارِ هذهِ، ويحسَبونَ أنفسَهُم بها على خيرٍ، فيهزؤونَ بالنَّبيِّ وَمَن مَعَهُ ويسخرون : ﴿ وقالَ الَّذينَ كَفَروا للَّذينَ آمَنُوا لَو كانَ خَيراً ما سَبقُونا إليهِ ﴾[3]، ﴿ بَلِ الَّذينَ كَفَروا في عِزَّةٍ وشِقاقٍ ﴾[4]، ﴿ وإذا رآكَ الَّذينَ كَفَروا إنْ يتَّخِذونَكَ إلّا هُزواً أهذا الّذي يذكُرُ آلهَتكُم وهُم بذِكرِ الرَّحمنِ هُم كافرونَ ﴾[5]، ﴿ زُيِّنَ للَّذينَ كَفَروا الحياة الدُّنيا ويَسخرونَ مِن الَّذينَ آمَنوا ﴾[6]، ﴿ وإذا رَأَوكَ إنْ يتَّخِذونَكَ إلّا هُزُواً أَهذا الَّذي بَعثَ اللَّهُ رَسولاً ﴾[7].

وهنا يترفَّقُ القرآنُ بالنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ويواسيهِ بقولِهِ : ﴿ فَلا تَذْهَب نَفسُكَ عليهم حَسَراتٍ ﴾[8]؛ أي : « لا تأسَف على

---

(١) البقرة : ٦ .
(٢) سبأ : ٣١ .
(٣) الأحقاف : ١١ .
(٤) ص: ٢ .
(٥) الأنبياء : ٣٦ .
(٦) البقرة : ٢١٢ .
(٧) الفرقان : ٤١ .
(٨) فاطر : ٨ .

ذلك فإنَّ اللَّهَ حكيمٌ في قَدرِه، إنَّما يُضلُّ ويَهدي مَن يشاءُ لِمَا له في ذلكَ منَ الحُجَّةِ البالغةِ والعلمِ التَّامِّ »[1]، ويقولُ له أيضاً : ﴿ فَلَعلَّكَ باخِعٌ نَفسَكَ على آثارِهم إن لَم يُؤمِنوا بهذا الحَديثِ أَسَفاً ﴾[2]: « فما عليك إلّا أن تُبَلِّغَهُم رِسالةَ اللَّهِ، فلا تأسَف عليهم، ولا تهلِك نَفسَكَ أَسَفاً وحُزناً »[3]، وهو عينُ المعنى الذي جاءَ في قولِهِ : ﴿ لَعلَّكَ باخِعٌ نفسَكَ ألَّا يكونوا مُؤمنينَ ﴾[4]، وقال : ﴿ وَمَنْ كَفرَ فلا يَحزُنْكَ كُفرُهُ ﴾[5]، ويطمئنُّ قَلبُه إلى قَدرِ اللَّهِ فيخفُّ حُزن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم بسببِ إعراضِ الكفَّارِ عن دَعوتِهِ وهو الحريصُ أشدَّ الحِرصِ على إخراجِهم منَ الكفرِ إلى الإيمانِ .

ومع ذلك فليسَ الكفرُ صِبغةً يفرضُها اللَّهُ على الكفَّارِ، بل الكُفرُ صنيعُ أَيديهِم وحدَهُم ولا يشقُّ على أَحدِهم أن يُخرِجَ نفسَهُ مِنه، قالَ تعالى : ﴿ مَن كَفرَ فعليهِ كُفرُهُ ﴾[6]، وقال : ﴿ فمَن كَفَرَ فَعَليهِ كُفرُهُ ﴾[7]، وقال : ﴿ فَمَن شاءَ فَليُؤمِن ومَن شاءَ فَليَكفُر ﴾[8]، و ﴿ وقالَ الَّذينَ كفروا للحقِّ لمَّا جاءَهم إنْ هذا إلّا سحرٌ مبينٌ ﴾[9]، و

---

(١) « مختصر ابن كثير » (٢/٤٢٠) .
(٢) الكهف : ٦ .
(٣) « مختصر ابن كثير » (٢/٥٦٥) .
(٤) الشعراء : ٣ .
(٥) لقمان : ٢٣ .
(٦) الروم : ٤٤ .
(٧) فاطر : ٣٩ .
(٨) الكهف : ٢٩ .
(٩) سبأ : ٤٣ .

﴿ وَلَئِن جِئتَهُم بآيةٍ ليقولَنَّ الّذينَ كَفروا إنْ أنتُم إلّا مُبطلونَ ﴾[1]، وهؤلاءِ الكفَّارُ يجعلونَ مِن كُفرهِم دَعوةً لِيُبَرِّئوا بها أنفُسَهم عند شياطينِهم : ﴿ وقالَ الّذينَ كَفَروا للّذينَ آمَنوا اتّبِعوا سَبيلَنا ﴾[2]، ولا يردُّهُم عَن باطِلهم شيءٌ ممَّا يجيءُ به النَّبيُّ معجزةً ظاهرةً : ﴿ وَلَئِن جِئتَهُم بآيةٍ ليقولنَّ الّذينَ كَفَروا إنْ أنتُم إلّا مُبطِلونَ ﴾[3]، وينتهونَ إلى القطعِ والجزمِ بإقامَتِهِم على كُفرِهم كي يُيئِسوا النَّبيَّ منهم : ﴿ وقالَ الّذينَ كَفَروا لَن نؤمنَ بهذا القرآنِ ولا بالّذي بينَ يَديهِ ﴾[4]، ثم ينقلونَ كفرَهُم إلى غيرِهم طَمعاً في الإبقاءِ على عَددِهم أن ينقصَ : ﴿ وقالَ الّذينَ كَفروا لا تَسمَعوا لِهذا القرآنِ والغَوا فيه ﴾[5].

ومنطقُ الكفَّار يخرجُ بهِم عن دَائرةِ الذَّوقِ ويُنسِيهم نِعمةَ اللّهِ عليهِم : ﴿ وقالَ الّذينَ كَفَروا للّذينَ آمَنوا أنُطعِمُ مَن لو يشاءُ اللّهُ أَطعَمهُ ﴾[6]، ﴿ وإذا فَعَلوا فاحِشةً قالوا وجَدنا عَليها آباءَنا واللّهُ أمَرَنا بِها ﴾[7]، ﴿ سيقولُ الّذينَ أشرَكوا لو شاءَ اللّهُ ما أشرَكنا ﴾[8]، ﴿ وقالَ الّذين أشرَكوا لو شاءَ اللّهُ ما عَبَدنا مِن دُونِهِ من شيءٍ ﴾[9].

وَيُنَبِّهُ القرآنُ نبيَّهُ والمؤمنينَ إلى وجوبِ بَترِ العلاقاتِ معَ الكافرينَ إذا

---

(1) و (3) الروم : ٥٨ . (2) العنكبوت : ١٢ .

(4) سبأ : ٣١ . (5) فصلت : ٢٦ .

(6) يس : ٤٧ . (7) الأعراف : ٢٨ .

(8) الأنعام : ١٤٨ . (9) النحل : ٣٥ .

أصرُّوا عَلى كُفرِهم وأَبوا الاستجابة للدَّعوةِ ولو كانوا أقربَ النَّاسِ إليهم، وبَترِ غيرهِم على ذَلكَ إن فعلُوهُ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا آباءَكُم وإخوانَكُم أَولياءَ إنِ استحبُّوا الكُفرَ على الإيمانِ ومَن يَتولَّهُم مِنكُم فأُولئكَ هُم الظَّالمونَ ﴾[1]، ﴿ لا تَجِدُ قَوماً يؤمِنُونَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ يُوادُّونَ مَن حادَّ اللَّهَ ورسولَهُ ولو كانوا آباءَهُم أو أَبناءَهُم أو إخوانَهم أو عَشيرَتهم ﴾[2]، ﴿ قُل إنْ كانَ آباؤُكُم وأبناؤُكُم وإخوانُكُم وأزواجُكُم وعَشيرَتكُم وأموالٌ اقترفتُمُوها وتِجارَةٌ تَخشَونَ كَسادَها ومساكِن تَرضَونَها أحبَّ إليكُم مِنَ اللَّهِ ورسولِهِ وجهادٍ في سبيلِهِ فتربَّصُوا حتى يَأتِيَ اللَّهُ بأَمرِهِ ﴾[3]، ويحذِّرهم مِنَ الاستغفارِ لهم : ﴿ ما كانَ للنَّبيِّ والَّذينَ آمَنوا أن يَستغفِرُوا للمُشركينَ وَلو كانوا أُولي قُربى مِن بَعدِ ما تبيَّنَ لَهُم أنَّهُم أصحابُ الجحيمِ ﴾[4].

ولا يكونُ بَترُ العلاقاتِ مَعهُم إلّا بعدَ أن أَبرأَ النَّبيُّ ذمَّتهُ، فبلَّغهُم رسالةَ ربِّهم، وصدعَ بها فيهِم، ولم يُقعِدْهُ عنها سخريتُهُم ولا أذاهُم وقتالُهم : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إليكَ مِن ربِّكَ وإنْ لَم تَفعَل فما بَلَّغتَ رِسالتَهُ واللَّهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إنَّ اللَّهَ لا يَهدي القَومَ الكافرينَ ﴾[5]، ﴿ ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ ﴾[6]،

---

(١) التوبة : ٢٣ .

(٢) المجادلة : ٢٢ .

(٣) التوبة : ٢٤ .

(٤) التوبة : ١١٣ .

(٥) المائدة : ٦٧ .

(٦) النحل : ١٢٥ .

﴿ فلا ينازِعُنَّكَ في الأمْرِ وادعُ إلى ربِّكَ ﴾[1]، ﴿ ولا يَصُدُّنَّكَ عَن آياتِ اللَّهِ بعدَ إذ أُنزِلَت إليكَ وادْعُ إلى ربِّكَ ولا تَكونَنَّ مِنَ المشرِكينَ ﴾[2]، ﴿ فَاصدَع بما تُؤمَر وأَعرِض عن المُشركين ﴾[3]، حتى إذا استَنفدَ النَّبيُّ كلَّ الأسبابِ التي تُفَرِّغُ من قلوبِ الكفَّار كفرَهم وتَحلُّ محلَّهُ الإيمانَ باللَّهِ ورسولِهِ، فيأمَنَ جَانِبهُم أن يَكِيدُوا في خَفاءٍ أَو علانيَةٍ له وَلِدَعوتهِ، والإسلامُ دعوةٌ عالميةٌ يجبُ أن تَبلُغَ مَسامعَ النَّاسِ في كلِّ أقطارِ الأرضِ، فإذا حِيلَ بينها وبينَ النَّاسِ من فردٍ أو جماعةٍ فحينئذٍ لم يبقَ حاكماً فيهم إلّا السَّيفُ وأوّلُ ما يجبُ إعمالُ السَّيفِ في الرِّقابِ الغليظةِ التي أغلَظَتها أَوزارُ أصحابِها وأوزارُ أَتباعِهِم فحمَلوا بها الآثامَ جميعاً : ﴿ فقَاتِلوا أئمَّةَ الكُفرِ إنَّهُم لا أَيمانَ لهُم لَعلَّهُم يَنتَهون ﴾[4]، ولا يكونُ في قتالِهم رَأفةٌ تحملُ على رفعِ السَّيفِ عنهم إلّا أن يُسلِموا : ﴿ وقاتِلوا المُشركينَ كافَّةً كما يُقاتلونَكُم كافَّة واعلَموا أنَّ اللَّهَ معَ المتَّقين ﴾[5]، ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا قاتِلوا الَّذينَ يَلونَكُم مِنَ الكفَّارِ وَليَجِدوا فيكُم غِلظةً ﴾[6]، وقتالُهم يكونُ في أيِّ مكانٍ حتى في المسجدِ الحرامِ : ﴿ واقتُلوهُم حيثُ ثَقِفتُموهُم وأخرِجوهُم من حيثُ أخرجُوكُم والفتنَةُ أشدُّ مِن القَتلِ ولا تُقاتِلوهُم عِندَ المسجدِ الحرامِ حتى

(١) الحج : ٦٧ .
(٢) القصص : ٨٧ .
(٣) الحجر : ٩٤ .
(٤) التوبة : ١٢ .
(٥) التوبة : ٣٦ .
(٦) التوبة : ١٢٣ .

يُقاتِلوكُم فيهِ فإن قاتَلوكُم فاقتُلوهُم كذلكَ جزاءُ الكافرينَ ﴾[1]، ويمتدُّ قتالُهم حتى يُقضَى على الفتنةِ فلا يعودُ أصحابُها إلى التَّفكيرِ في إشعالِ فَتيلِها : ﴿ وقاتِلوهُم حتَّى لا تكونَ فِتنَةٌ ويَكونَ الدِّينُ للَّهِ ﴾[2]، ﴿ وقاتِلوهُم حتى لا تكونَ فِتنةٌ ويكونَ الدِّينُ كُلُّهُ للَّهِ ﴾[3]، وقتالهم ليسَ مُخَوِّفاً مهما بلغُوا مِن القُوَّةِ والمَنَعةِ : ﴿ قَاتِلوهم يُعذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيدِيكُم ويُخزِهِم ويَنصُركُم عليهم ﴾[4]، ﴿ فلا تَخافُوهُم وخَافونِ إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ ﴾[5].

أمَّا الفريقُ الثَّاني مِن الكُفَّارِ، وهُم المُنافِقونَ، فإنَّ للنَّبيِّ معهم شأناً خاصًّا عرَضَهُ القرآنُ في العديدِ من آياتِهِ، بحيث يبقى على الدَّهرِ طريقةً منهجيَّةً سديدةً لِكلِّ أجيالِ المسلمين في تعامُلِهم مع هذا الصِّنفِ مِنَ الكفَّارِ إذا ظهرَت لهم علاماتُهم وأحوالُهم .

وأوَّلُ ما يجبُ أَن نعلَمَهُ أنَّ النِّفاقَ لَم يُعرَف إلّا في المدينةِ بعدَ قدومِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم إليها، فجاسَ النِّفاقُ في قلوبِ بعضِ أهلِها، وغرَّتهُم الأمانيُّ الخادعةُ، وتوهَّجَت في صدورِهم نارُ العداوَةِ، وظنُّوا أنَّهم بالِغونَ أمراً يدبِّرونه في خفاءٍ للإسلامِ وأهلِهِ، فمضوا في عداوتِهم شَوطاً بعيداً، يتوكَّؤونَ على شرارِ الخلقِ، وشرعوا لأمثالهم في

---

(١) البقرة : ١٩١ . (٢) البقرة : ١٩٣ .

(٣) الأنفال : ٣٩ . (٤) التوبة : ١٤ .

(٥) آل عمران : ١٧٥ .

كلِّ جيلٍ أن يَتَّبِعُوا سبيلَهُم لِيحمِلُوا خطاياهم كاملةً على ظهورِهِم .

وإذا كان النِّفاق هو الكفر المستَسِر، فالنَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم لا يعلمُ أهلهُ إلّا بِوَحيٍ من ربِّهِ، لأنَّهُ لا يعلمُ الغيبَ، قال تعالى : ﴿ ومِن أَهلِ المَدينةِ مَرَدُوا على النِّفاقِ لا تَعلمُهُم نحنُ نَعلَمُهُم ﴾[1]، والنِّفاقُ وشيجةٌ بين المنافقينَ يتداعونَ بها، ويلتقون على التَّناصُرِ فيما بينَهُم عليها : ﴿ المُنافقُونَ والمُنافِقات بعضُهُم مِن بعضٍ ﴾[2]، وإذا كانوا لا يُعرَفونَ لِخَفاءِ كُفرِهم واستِسْرارِهِ، فإنَّ لهُم صِفاتٍ تفضحُهُم فيُحذَرُونَ، فَمن صِفاتِهم : ﴿ يَأمُرونَ بالمُنكَرِ ويَنهَونَ عنِ المعروفِ ويَقبِضونَ أَيدِيَهُم ﴾[2]، ﴿ يخادِعونَ اللَّهَ وهُوَ خَادِعهُم وإذا قاموا إلى الصَّلاة قاموا كُسالى يُراؤُونَ النَّاسَ ولا يَذكرونَ اللَّهَ إلّا قليلاً ﴾[3]، ﴿ مُذَبذَبينَ بينَ ذلكَ لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ ﴾[4]، ﴿ رأَيتَ المُنافِقين يَصدُّونَ عنكَ صُدوداً ﴾[5]، ﴿ وإذا لَقوا الَّذينَ آمَنوا قالوا آمنَّا وإذا خَلَوْا إلى شياطينِهِم قالوا إنَّا مَعَكُم إنَّما نحنُ مُستَهزِئُون ﴾[6]، ﴿ ويَحلِفونَ باللَّهِ إنَّهم لَمِنكُم وما هُم مِنكُم ولكِنَّهُم قومٌ يَفرَقُونَ ﴾[7]، ﴿ ويَحلِفونَ باللَّهِ لَكُم ليُرضُوكم واللَّهُ ورسولهُ أحقُّ أن يُرضُوهُ إن كانوا مُؤمِنينَ ﴾[8]،

(١) التوبة : ١٠١

(٢) التوبة : ٦٧ .

(٣) النساء : ١٤٢ .

(٤) النساء : ١٤٣ .

(٥) النساء : ٦١ .

(٦) البقرة : ١٤ .

(٧) التوبة : ٥٦ .

(٨) التوبة : ٦٢ .

﴿ وَمِنهُم الَّذينَ يُؤذونَ النَّبيَّ ويقولونَ هو أُذُنٌ ﴾[1].

والمنافقون لا تحركهُم - للإبقاءِ على نفاقِهم مستوراً - إلّا النَّفعيَّةُ الطَّاغيةُ المستبدَّةُ بنفوسِهم : ﴿ لَو كانَ عَرَضاً قَريباً وسَفَراً قاصِداً لاتَّبعوكَ وَلكِن بَعُدَت عليهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحلِفونَ باللَّهِ لَوِ استَطَعنا لخَرَجنا معكُم يُهلِكُونَ أنفُسَهُم واللَّهُ يعلمُ إنَّهُم لكاذِبونَ ﴾[2]، ﴿ ومِنهُم مَن يَلمِزُكَ في الصَّدقاتِ فإنْ أُعطُوا مِنها رَضُوا وإنْ لَم يُعطَوْا مِنها إذا هُم يَسخَطون ﴾[3]، فما ينبغي أن تأذَنَ لهم في التَّخلُّفِ عنكَ إنِ استأذنوكَ لتعرفَ حقيقةَ أمرِهم : ﴿ عفا اللَّهُ عنكَ لِمَ أَذِنتَ لهُم حتى يتبيَّنَ لكَ الَّذينَ صَدَقوا وتَعلَمَ الكاذبين ○ لا يَستأذِنُكَ الَّذينَ يُؤمنونَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ أن يُجاهِدُوا بأموالِهم وأنفُسِهم واللَّهُ عليمٌ بالمتَّقينَ ○ إنَّما يَستأذِنُكَ الَّذين لا يُؤمنونَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ وارتابَت قلوبُهُم فهُم في رَيبِهِم يتَردَّدون ○ وَلو أرادوا الخروجَ لأعَدُّوا لهُ عُدَّةً وَلكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعاثَهُم فثَبَّطَهُم وقِيلَ اقعُدوا مَعَ القاعِدينَ ﴾[4].

والنفاقُ لا يمدُّ يَدَه ولا يطمئنُّ إلّا لِمَن به منه شبهٌ : ﴿ أَلَم تَرَ إلى الَّذينَ نافَقوا يَقولونَ لإخوانِهِمُ الَّذينَ كَفَروا مِن أهلِ الكتابِ لَئِن أُخرِجتُم لَنَخرُجَنَّ مَعكُم ولا نطيعُ فيكُم أحَداً أبَداً وإن قُوتِلتُم لنَنصُرَنَّكُم واللَّهُ

---

(١) التوبة : ٦١ .

(٢) التوبة : ٤٢ .

(٣) التوبة : ٥٨ .

(٤) التوبة : ٤٣-٤٦ .

يَشهَدُ إنَّهُم لكاذِبونَ ﴾[1]، وإن دَعَوكَ لأمرٍ فلا تستمِع إليهم ولا تَستَجِب لهم ولا تُطِعهُم فإنَّهم لا يضمرُونَ إلّا الشرَّ : ﴿ ولا تُطِعِ الكافِرينَ والمنافِقينَ ودَع أذاهُم وَتوكَّل على اللَّهِ وكفى باللَّهِ وكيلاً ﴾[2]، وحينما تبدو سوءاتُ نفوسِهم، وتنكشِفُ حقيقتُها حتى لكأنَّ العيونَ تقرؤُها كلماتٍ وسطوراً؛ فلا يَجمل أن يفكرَ في الاستعانةِ بهِم لأنهم سوفَ لا يعملونَ إلّا على التَّخذيلِ وإثارةِ الفتنةِ وتوهينِ الصَّفِ : ﴿ لَو خَرجُوا فيكم ما زادُوكُم إلّا خَبَالاً ولأَوضَعوا خِلالكُم يَبغُونَكُم الفِتنةَ وفيكُم سمَّاعونَ لهُم واللَّهُ عليمٌ بالظَّالمينَ ﴾[3].

وإذا كان البلاءُ يميزُ الخبيثَ من الطيِّب، ويردُّ كلَّ أمرٍ إلى أصلهِ، فإن كان واهياً زادَه وَهْياً، وإن كان قويًّا زادَه قوَّةً، فإنَّهُ يضعُ فاصلاً واضحاً بين المنافقينَ وبين المؤمنينَ، فيميزُ هؤلاءِ من هؤلاءِ، فلا يبقى من أمرِ المنافقينَ خَفِيٌّ يعذرُ بهِ النَّبيُّ في ركونهِ إليهِم : ﴿ وما أصابَكُم يومَ التَقى الجمعان فبإذنِ اللَّه وليَعلَمَ المؤمنينَ ○ وليَعلَمَ الَّذينَ نافَقوا وقيلَ لهُم تَعالَوا قاتِلوا في سبيلِ اللَّهِ أو ادفَعوا قالوا لو نَعلَمُ قِتالاً لاتَّبَعناكُم هُم لِلكُفرِ يومئذٍ أقرَبُ منهُم للإيمانِ يقولونَ بأفواهِهِم ما ليسَ في قلوبهِم واللَّهُ أعلَمُ بما يَكتمونَ ﴾[4].

والنِّفاقُ داءٌ عميقٌ لا تكشِفهُ إلّا البصائرُ المؤمنةُ بما يُبدي من

---

(١) الحشر : ١١ .
(٢) الأحزاب : ٤٨ .
(٣) التوبة : ٤٧ .
(٤) آل عمران : ١٦٦-١٦٧ .

سوءاتِ أهلِهِ وعيونِهِمُ المنكرةِ بفلتاتِ ألسنتِهِم بين الحينِ والآخرِ، فيزدادونَ بها انكشافاً وظهوراً : ﴿ إذ يقولُ المُنافِقونَ والَّذينَ في قُلوبِهم مَرَضٌ غرَّ هؤلاء دينهُم ﴾[1]، ﴿ وإذْ يقولُ المنافقونَ والَّذينَ في قلوبهم مَرضٌ ما وَعَدَنا اللَّهُ ورَسولهُ إلّا غُروراً ﴾[2]، فتراهم لذلك يحذرونَ أَشدَّ الحذرِ من نزولِ القرآن على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم خشيةَ افتضاحهم وظهورِ أمرهم : ﴿ يَحذَرُ المنافقونَ أَنْ تُنزَّلَ عليهم سورةٌ تُنبّئُهُم بما في قلوبِهم قُلِ استَهزِئوا إنَّ اللَّهَ مُخرجٌ ما تَحذَرونَ ﴾[3].

ثمَّ يأمرُ اللَّهُ نبيَّهُ إذا عرفَ أعيانَهُم أن يقبِضَ يَده عنهم، وأن يقاتِلَهُم كما يقاتِلُ المشركينَ، وأن يغلُظَ عليهم وَأن يشتدَّ عليهم : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمنافقينَ واغلُظ عليهِم ﴾[4].

○ ○ ○ ○ ○

---

(١) الأنفال : ٤٩ .

(٢) الأحزاب : ١٢ .

(٣) التوبة : ٦٤ .

(٤) التوبة : ٧٣، والتحريم : ٩ .

مُعْجِزَاتُهُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم

المعجزةُ : « هي أمرٌ خارقٌ للعادةِ مقرونٌ بالتَّحدِّي، سالمٌ عن المعارضَةِ »[1]، وهي مختصَّةٌ بالأنبياءِ وحدَهُم، فمَنِ ادَّعاها مِن غيرِهِم فهو كاذبٌ، وفرقٌ بينها وبين الكرامةِ، يقول الفيروزآبادي : « المعجزةُ مختصَّةٌ بالنَّبيِّ دائماً، ووقتُ إظهارِها مردَدٌ بين الجوازِ والوجوبِ، وتُقرنُ بالتَّحدِّي، وتحصلُ بالدُّعاءِ، ولا تكونُ ثمرةَ المعاملاتِ المرضيَّةِ، ولا يمكنُ تحصيلُها بالكسبِ والجهدِ، وأمَّا الكرامة؛ فموقوفةٌ على الوليِّ، ويكون كِتمانُها واجباً، وإن أرادَ إظهارَها وإشاعَتها زالَت وبطُلَت »[2].

وَمِن تمامِ القولِ أن نَذكُرَ أن الولايةَ التي بها يكونُ الإنسانُ وليًّا ليست وَقفاً على أفرادٍ مخصوصينَ في الأُمَّةِ، وتكونُ ثمرةً للمعاملاتِ المرضيَّةِ، وتحصلُ بالكَسبِ والجُهدِ، ولا تبلغ الكرامةُ درجةَ المعجزةِ، ولا يُرادُ بها التَّحدِّي، وقد تكون للوَليِّ كَراماتٌ عِدَّةٌ، كما تكون للنَّبيِّ معجزاتٌ عِدَّةٌ كذلكَ، والنَّبيُّ يُؤمَرُ بإظهارِ معجزتهِ لأنَّها مِن الوحي،

(١) « لوامع الأنوار البهية » (٢/٢٨٩-٢٩٠) .

(٢) « بصائر ذوي التمييز » (١/٦٦) .

خلافاً للوَلِيِّ؛ فهو بقصدِ إظهارِها يُعاقَبُ بحرمانِها، أمَّا إن ظَهرَت مِن غير قصدٍ لذلك فيكونُ للَّهِ حكمةٌ في ظهورِها، وعلى صاحبِها أن لا يغترَّ بظهورِها، فربَّما كان ذلك ابتلاءً مِن اللَّه له، فيوقعُ نفسَهُ في مهلكةِ الحرمانِ .

وقد حازَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم قَصبَ السَّبقِ بين الأنبياءِ بمعجزاتِهِ، كما حازَهُ بتفضيلِهِ الذَّاتيِّ عليهِم جميعاً، وذلك فضلُ اللَّهِ يؤتيهِ مَن يشاءُ، ولم يكُن النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم نبيًّا بالمعجزاتِ، بل كانَت بهِ المعجزاتُ، فهو رسولُ اللَّه إلى خلقهِ وأَمينهُ على وحيِهِ، وهذا كافٍ في بلوغِ المنزلةِ التي يطمعُ في بلوغِها بشرٌ، ويقصُرُ عنِ التطلُّعِ إليها العقلُ والبصرُ، غيرَ أنَّه كان فضلاً مِن اللَّهِ عليهِ أن آتاهُ مِن الآياتِ البيِّناتِ، والدَّلائلِ الظاهراتِ ما يكفي في إقناعِ المعاندينَ المنكرينَ أنَّهُ رسولٌ يُوحى إليه مِن ربِّهِ .

وَقَدِ اجتمَعت معجزاتُ الأنبياءِ جميعاً بين يديهِ صلواتُ اللَّه وسلامه عليه مدوَّنةً في أفْضلِ معجزاتِهِ وأكملِها وأجلِّها وأعظمِها وهي القرآنُ، فأظلَّها بظلةِ إعجازِهِ القاهرِ بنظمِهِ ومعناهُ ولفظِهِ، فكانَ معجزةَ المعجزاتِ وآيةَ الآياتِ، يُدرِكُ ولا يُدرَكُ، ويَغلِبُ ولا يُغلَبُ، ويَنالُ ولا يُنالُ، ليس كمثلهِ شيءٌ مِن كلامِ البشرِ، لا يأتيهِ الباطلُ، ولا يعتريهِ التَّبديلُ، يأتي يومَ القيامة شاهِداً ومَشهوداً .

وما دمنا بصددِ الحديثِ عن معجزةِ القرآنِ فلا بدَّ مِن ذكرِ بعضِ الوجوهِ التي كانَ بها القرآنُ معجِزاً، نذكُرها جملةً لا تفصيلاً .

يقولُ الفيروزآبادي : « ومذهبُ أهلُ السُّنَّةِ أنَّ القرآنَ معجزٌ مِن جميعِ الوجوهِ نظماً ومعنىً ولفظاً، لا يشبههُ شيءٌ مِن كلامِ المخلوقينَ أصلاً، مميَّزٌ عن خُطَبِ الخطباءِ، وشعرِ الشُّعراءِ بإثني عشرَ معنى، لو لَم يكن للقرآنِ غيرُ معنىً واحدٍ من تلك المعاني لكانَ معجِزاً فكيف إذا اجتمَعت فيه جميعاً ؟!

ومجملُها؛ إيجازُ اللَّفظِ، وتشبيهُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، واستعارَةُ المعاني البديعةِ، وتلاؤمُ الحروفِ والكلماتِ، والفواصلِ والمقاطعِ في الآياتِ، وتجانُسُ الصيغِ والألفاظِ، وتعريفُ القصصِ والأحوالِ، وتضمينُ الحِكَمِ والأسرارِ، والمبالغةُ في الأمرِ والنَّهيِ، وحسنُ بيانِ المقاصدِ والأغراضِ، وتمهيدُ المصالحِ والأسبابِ، والإخبارُ عمَّا كان وعمَّا يكون »[1].

وكُلُّ مَن ذكرَ شيئاً مِن وجوهِ الإعجازِ ليس من هذه فمردُّهُ إليها، فهي جِماعُ الإعجازِ كلِّهِ في القرآنِ .

وحينما كانَ الكفَّارُ يُلبِّسون بمنطقِ الحقِّ الذي يواجههُم به النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم لا يجدونَ في مستودعِ فصاحَتِهم ما يقدِرونَ بهِ على الرَّدِّ عليهِ يقولونَ له : ما أنتَ بأهلٍ لما تدَّعيهِ : ﴿ وَقالوا لَولا نُزِّلَ

---

(١) « بصائر ذوي التمييز » (٦٨) .

هذا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القَريَتَين عَظيم ﴾[1]، ويطلبونَ منهُ أن يأتِيهم بآيةٍ بيِّنةٍ على صدقِ دعواه ليؤمنوا به ويتّبعوه : ﴿ وَقالُوا لَن نُؤمِنَ لكَ حَتّى تَفجُرَ لنا مِنَ الأرضِ يَنبوعاً ٥ أوْ تكونَ لكَ جنَّةٌ مِن نَخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفجِّرَ الأنهارَ خِلالَها تفجِيراً ٥ أو تُسقِطَ السَّماءَ كما زَعَمتَ عَلينا كِسَفاً أوْ تَأتيَ باللّهِ والملائكةِ قَبيلاً ٥ أو يكونَ لكَ بَيتٌ مِن زُخرُفٍ أو تَرقَى في السَّماءِ ولَن نُؤمنَ لِرُقِيِّكَ حَتى تُنزِّلَ علينا كِتاباً نَقرَؤُهُ ﴾[2] فما يكونُ جوابهُ إلّا أن يقولَ : ﴿ سُبحانَ ربِّي هَل كُنتُ إلّا بَشراً رَسُولاً ﴾[3]، ثم يَفضحُ القرآنُ ما يُسرُّونَ من الجحودِ والإصرارِ على الكفرِ : ﴿ وإن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤمِنوا بِها ﴾[4]، ويأمرُ اللّهُ نبيَّهُ أن يُعلِمَهُم أنَّ الأمرَ في هذه الآياتِ بيدِ اللّهِ وحدَهُ، وأنَّهم لَن يؤمنوا بها إن بدَت لهم : ﴿ وَما كانَ لِرَسولٍ أن يَأتيَ بِآيةٍ إلّا بإذنِ اللّهِ ﴾[5]، ﴿ قُل إنَّ اللّهَ قادر على أن يُنزِّلَ آيةً ولكنَّ أكثَرَهُم لا يَعلمُونَ ﴾[6]، ﴿ وَلَئِن جِئتَهُم بآيةٍ لَيقولَنَّ الّذينَ كَفروا إن أنتُم إلّا مُبطِلونَ ﴾[7]، ﴿ وما تأتيهِم مِن آيةٍ مِن آياتِ ربِّهم إلّا كانوا عنها مُعرضينَ ﴾[8]، ﴿ إنَّ الّذينَ حَقَّت عَليهِم كَلمةُ رَبِّكَ لا يُؤمِنونَ ٥ وَلَو جاءَتهُم كُلُّ آيةٍ حَتّى يَرَوْا العَذابَ

---

(١) الزخرف : ٣١ .
(٢) الإسراء : ٩٠-٩٣ .
(٣) الإسراء : ٩٣ .
(٤) الأنعام : ٢٥ .
(٥) غافر : ٧٨ .
(٦) الأنعام : ٣٧ .
(٧) الروم : ٥٨ .
(٨) الأنعام : ٤ .

الأليمَ ﴾[1]، قال أبو جعفرَ الطَّبريُّ : « ﴿ وَلو جاءَتهم كلُّ آيةٍ ﴾ وموعظةٍ وعبرةٍ فعاينوهُم حتى يعاينوا العذابَ الأليمَ كما لم يُؤمن فرعونُ ومَلؤُهُ إذ حقَّت عليهِم كلمةُ العذابِ حتى عاينوا العذابَ الأليمَ »[2].

وكان طلبُهم - أن يأتيهم النَّبيُّ بآيةٍ - يقترنُ أحياناً بالإثارةِ والسّخريةِ والاتهامِ : ﴿ بَل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بَلِ افتراهُ بَلْ هُوَ شاعرٌ فَلْيَأتِنا بآيةٍ كَما أُرسِلَ الأوَّلونَ ﴾[3]، فيردُّ عليهم متهدداً متوعداً : ﴿ إنْ نَشَأ نُنَزِّل عليهم مِن السَّماءِ آيةً فظلَّت أعناقُهم لها خَاضِعينَ ﴾[4]، ﴿ وإن يَرَوا آيةً يُعرِضوا وَيَقُولوا سِحرٌ مُستَمِرٌّ ﴾[5].

وإذا كانوا لا يريدونَ إلّا إظهارَ عجزِ النَّبيِّ ليكونَ ذلك سبيلاً إلى إبقاءِ سلطانِهم على الضعفاءِ، والحيلولةِ بينهُم وبينَ الإيمانِ، وصرفِ النَّاسِ عن دعوةِ الحقِّ، فذلك أمرُ سفاهةٍ ينبغي أن يُجَلَّ بالنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم عن مجاراتِهم فيهِ، لذا فلَم يحفَلِ القرآنُ بمرادِهم، وجعلَ أمرَ الإيمانِ بدعوةِ الحقِّ منوطاً بنورِ آياتهِ والوقوفِ على الأسرارِ العظيمةِ فيها، لأنَّ ذلك أدعى لثباتِ الإيمانِ واستقرارهِ، والظهورِ على العجزِ النَّفسيِّ الذي أطبقَ عليهم بكلِّ جُحودِهم وعنادِهم، ويسَّر لهم فهمَهُ والعلمَ بهِ : ﴿ وَلَقَد يَسَّرنا القُرآنَ للذِّكرِ ﴾[6].

---

(1) يونس : ٩٦-٩٧ .

(2) « تفسير الطَّبري » (٥/٢٠٤) .

(3) الأنبياء : ٥ .

(4) الشعراء : ٤ .

(5) القمر : ٢ .

(6) القمر : ١٧و٢٢و٣٢و٤٠ .

مِن هُنا كانتِ المعجزاتُ التي قامَت أمامَ عنادِ الكفَّارِ وجحودِهم، وصدَّتهُم عن النَّيلِ منَ القرآنِ تدورُ حولَ محورِ القرآنِ، ومَن أعظمِ الشواهدِ على ذلك عِلمُ علماءِ بني إسرائيلَ به : ﴿ أَوَ لَمْ يَكُن لَهُم آيَةً أَن يَعلَمَهُ عُلماءُ بَني إسرائيلَ ﴾[1]؛ والمعنى : « أوليسَ يَكفيهِم منَ الشاهدِ الصَّادقِ على ذلك أنَّ علماءَ بني إسرائيل يجدونَ ذكرَ هذا القرآنِ في كتبهِمُ التي يدرسُونَها »[2]، ووجهُ الإعجازِ فيه أنَّ الكتبَ السَّماويَّة التي سبقتِ القرآنَ جاءَ ذكرُهُ فيها، فصدَّقَ بهِ أهلُها، فكانتِ البشارةُ به قَبلَ بعثِ النبيِّ الذي سيبشرُ به بعد نزولهِ معجزةً ظاهرةً أيَّدَ اللَّهُ بها نبيَّهُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم .

وقد أفاضَ القرآنُ في ذكرِ المعجزاتِ والآياتِ التي كانَت للأنبياءِ السَّابقينَ، ففيها المقنعُ الكافي لمن أرادَ أن يذَّكَّرَ أو أرادَ النَّجاةَ لنفسهِ، ولا ريبَ أنَّهم كانوا على عِلمٍ بما أصابَ بعضَ الأقوامِ السَّابقةِ من عذابٍ واستئصالٍ لكفرِهم بأنبيائِهم وبالمعجزاتِ التي جاؤوا بها من عندِ ربِّهم، فكان مَنُّ اللَّهِ بهم أن حبَسَ عنهُم هذهِ المعجزاتِ لئلّا يُصيبهُم ما أصابَ مَن قَبلَهُم من سوءِ العذابِ، قال تعالى : ﴿ وَما مَنَعَنا أَنْ نُرسِلَ بِالآياتِ إِلّا أَن كذَّبَ بها الأوَّلونَ ﴾[3]؛ جاءَ في سببِ نزولِ هذه الآية : « قالَت قريشٌ للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم : ادعُ لنا ربَّكَ أنْ يجعلَ لنا الصَّفا ذهباً

---

(١) الشعراء : ١٩٧ . (٢) « مختصر ابن كثير » (٢٢٣/٣) .

(٣) الإسراء : ٥٩ .

ونؤمنُ بكَ . قال : « وتَفعَلون » ؟ قالوا : نعم . قال : فدعا، فأتى جبريلُ فقالَ : إنَّ ربَّك يقرأُ عليكَ السَّلامَ، ويقول لكَ : « إن شِئتَ أَصبحَ لهم الصَّفا ذهباً، فمَن كفرَ منهم بعدَ ذلك عذَّبتهُ عذاباً لا أُعذِّبهُ أحداً منَ العالمينَ، وإن شئتَ فتحتُ لهم أبوابَ التَّوبةِ والرَّحمةِ، فقالَ : بل بابَ التَّوبةِ والرَّحمةِ »[1]، والمعنى : « أنَّ اللَّهَ تعالى لم يرسلِ الآياتِ التي طلبَها المشركونَ من قريشٍ إلّا أنَّهُ قد كذَّبَ بها الأوَّلونَ بعدما سألوها، وجرَت سنَّةُ اللَّهِ تعالى فيهِم وفي أمثالهم أنَّهُم لا يؤخَّرونَ إن كذَّبوا بِها بعدَ نُزولِها »[2]، ولما قالوا : ﴿ فليأتِنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأوَّلونَ ﴾[3]، ردَّ عليهِم بقولِهِ : ﴿ ما آمَنَت قبلَهُم مِن قَريةٍ أهلَكناها أفَهُم يُؤمِنونَ ﴾[4]، قال في « المختصر » : « أي:ما آتينا قريةً مِنَ القرى الذين بُعثَ فيهم الرُّسلُ آيةً على يَدَيْ نبيِّها فآمنوا بها؛ بل كذَّبوا فأهلكناهُم بذلك، أفهؤلاءِ يؤمنونَ بالآياتِ لو رأَوها دُونَ أُولئك ؟ كلَّا »[5].

هذا إلى جانبِ أنَّ القرآنَ العظيمَ - وهو معجزةُ النَّبيِّ محمَّد صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم الباقيةُ على الدَّهر؛ بل معجزةُ المعجزاتِ جميعاً - كان سجلًّا لمعجزاتِ الأنبياءِ السَّابقينَ، فَبِتِلاوتهِ تُحجَزُ نُفوسُ النَّاسِ عن أسبابِ

(١) رواه أحمد، والنسائي، وابن جرير، والحاكم، وقال ابن كثير : سنده جيد، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي .

(٢) « مختصر ابن كثير » (٢/٥٤٠) .

(٣) الأنبياء : ٥ .

(٤) الأنبياء : ٦ .

(٥) « مختصر ابن كثير » (٣/٣٥) .

الهلاكِ والمعاصي .

مِن أجلِ ذلك اكتفى القرآنُ بذكرِ مُعجزَتين للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، واحدةٍ كانت بطلبِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم مِن اللَّه وهي معجزةُ انشقاقِ القمرِ، والثَّانيةِ كانت مِن غيرِ طلبٍ منه فكانَت تكريماً عظيماً له ومواساةً لقلبهِ، وكلاهما وقَع في السَّماءِ، ليُظهِرَ اللَّهُ نبيَّهُ عليهم بأنَّ كلمتَهُ ستكونُ فوقَ كلمتِهم، وكأنَّ ذلك كانَ منَ اللَّهِ إعلاناً لنبيِّه بذلك، وبخاصَّةٍ وأنَّهما كانتا في مكَّةَ وهو في حالٍ من الضَّعفِ هو وأصحابُه، وأنَّ القدرةَ التي تُحدِثُ المعجزاتِ في السَّماءِ هيِّنٌ عليها أن تُحدِثَ المعجزاتِ في الأرضِ، وأنَّ الأشواقَ النَّبويَّةَ أشواقٌ علويَّةٌ لا تجدُ لها مستقرًّا تأوي إليهِ ولا مُستراحاً تطمئنُ فيه إلّا في ملكوتِ السَّماءِ، فإليها يتوجَّهُ، وفيها يقلِّبُ طرفَهُ، ومن أطرافها يستلهِمُ الحكمةَ، ومنها يتنزَّلُ عليهِ الوحيُ .

ولكي يُقيمَ اللَّهُ الحجَّةَ عليهم، ويُظهِرهُم على ما بأنفسِهم مِن عنادٍ وجحودٍ، وليعلمَهم أنَّ المعجزاتِ شيءٌ من خَلقهِ فلا يعجز عن شيءٍ منها، وأنَّها لا تكون إلّا بإذنٍ منه وحدَه سبحانهُ أجرى لهم آيةً على يَدَي نبيِّهِ .

والآيةُ الأُولى التي تذكرُها لنا سورةُ ﴿ القمر ﴾ في مطالِعها، فكما أنَّ القمرَ يبدأُ بمطالعهِ كذلك تبدأُ سورةُ القمرِ بذكرِ هذهِ الآيةِ في

مطلعِها:﴿ اِقْتَرَبَتِ السَّاعةُ وانْشقَّ القَمرُ ﴾[1]، معجزةٌ ضخمةٌ عظيمةٌ كهذهِ يذكرُها القرآنُ في كلمتينِ اثنتينِ فقط؛ لأنَّ القمرَ انفلقَ فَلقَتين، فليكُن التَّعبيرُ عنها فقط بكلمتين أيضاً، وليدَع للعقلِ البشريِّ في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكانٍ أن يتصوَّرَ هَولَ هذه المعجزةِ التي بِشقَّيها ربَّما يعقُبها دمارُ العالَم، ولكنَّها لأنَّها مُعجزةٌ يلتئمُ شِقَّاها فيهدأُ رُوعُ العالَم، ويؤمنُ بأنَّ معارفَهُ التَّجريبيَّة كلَّها لا يمكن أن تبلغَ به حدَّ التَّصديقِ أنَّ شيئاً مِن ذلك يكونُ، فما يكونُ مِن سبيلٍ إلى التَّصديقِ بها إلّا التَّسليمُ القلبيُّ المحضُ وَردُّ ذلك إلى عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ .

جاءَ في سببِ هذه المعجزةِ : « أنَّ أهلَ مكَّةَ سألوا النَّبيَّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم آيةً، فانشقَّ القمرُ بمكَّة مرَّتين، فنزلت : ﴿ اقْتَرَبَت السَّاعَةُ وانشقَّ القَمَر .. ﴾ إلى قولهِ: ﴿ سِحرٌ مستَمرٌّ ﴾ »[2].

أمَّا المعجزةُ الثَّانيةُ فهي معجزةُ الإسراءِ والمعراجِ، وإذا كانَ العقلُ يُبعِدُ - بل يُحيلُ - انشقاقَ القمرِ فهو لمعجزةِ الإسراءِ والمعراجِ أشدُّ إبعاداً وإحالةً؛ ذلكُم أنَّ انشقاقَ القمرِ شيءٌ مَرئِيٌّ إذا وقعَ لا يُنكرُ، فيعودُ العقلُ إلى تصديقِ ما أحالَ أو أبعدَ حُدوثَهُ، ثمَّ إنَّ القمرَ جُرمٌ لم يكن عندَ العربِ معروفاً بما كشفَهُ العِلمُ وأظهرَ النَّاسَ على ما فيهِ، فأن ينشطرَ

---

(١) القمر : ١ .

(٢)رواه الترمذي وقال : حسن صحيح، والطبري، والحاكم وقال : على شرط الشيخين، وقال الذهبي : وأصله في الكتابين .

شَطرينِ وينفلِق فلقتينِ أمرٌ يمكنُ تَأويلُهُ عِلميًّا مع صِغَرِ دائرةِ العرب إذ ذاكَ، التي قد تَضيقُ عن الاستمرارِ في التَّأويل، فتردُّه أخيراً إلى حركةِ الأنواءِ التي كانت عقيدةً راسخةً فيهم، مكَّنَت لكثيرٍ مِن الخرافاتِ في عقولِهم .

أمَّا أن يرتحلَ إنسانٌ مِن مكَّةَ إلى بيتِ المقدسِ ليلاً في مِثل لَمحِ البصرِ، ثم يُصعَدَ بِهِ إلى السَّماءِ ولا يُرى، ويعودُ ولا يحسُّ به أحدٌ، فهذا لا يدنوا أبداً من دائرةِ العقلِ، وقد عقَلتِ العربُ كلَّ الأساطيرِ والخرافاتِ التي بَلَغتها ورسخَت في صُدورِها، وأَخَذَت عليها كلَّ أقطارِها، وملأَت اجربةَ علمِها، ولكنَّها لم ولَن تُصدِّقَ الذي حدَّثَ به محمَّدٌ النَّاسَ .

ولكَي يقطعَ اللَّهُ على العربِ والبشرِ جميعاً طريقَ الشَّكِّ في هذه المعجزةِ الفذَّةِ سجَّلَها في كتابهِ، فقالَ في شأنِ الإسراء : ﴿ سُبحانَ الَّذي أَسرى بِعَبدهِ لَيلاً منَ المسجدِ الحَرامِ إلى المَسجدِ الأَقْصى الَّذي بارَكنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن آياتِنا إنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ ﴾[1]، وقالَ في شأنِ المعراج : ﴿ وَلقَد رَآهُ نَزلَةً أُخرى عِندَ سِدْرَةِ المنتَهى عِندَها جَنَّةُ المأوى إذ يَغشى السِّدرَةَ ما يَغشى ما زاغَ البَصرُ وما طَغى لَقَد رأى مِن آياتِ رَبِّهِ الكُبرى ﴾[2]، أي لقَد رأى النَّبيُّ جِبريلَ مرَّةً أُخرى عندَ سِدرَةِ المنتهى، وسِدرةُ المنتهى هذه قريبٌ منها الجنَّةُ، ولقد رأى النَّبيُّ في عروجِهِ

---

(١) الإسراء : ١ .

(٢) النجم : ١٣ - ١٨ .

إلى السَّماءِ الكثيرَ منَ الآياتِ الدَّالَّةِ على عظمتهِ وتفرُّدهِ بالألوهيَّةِ سبحانه .

وكان الجوُّ المكيُّ مشحوناً بكلِّ آفاتِ النُّفوس الظَّالمةِ الآملةِ في زوالِ تأثيرِ هذا النبيِّ، فترادفَت عليهِ واحدةٌ تِلوَ الأُخرى تبحثُ عن منفذٍ تدخلُ منهُ إلى قلبهِ، علَّها تُبصِرُ شيئاً ممَّا تؤمِّلُ أَن تَلويَهُ إليها بحيلةٍ أو طمعٍ أو رهبةٍ، فآلَت كسيرةً حسيرةً بخيبتِها، فقلبُ النَّبيِّ قلعَةٌ مِن النُّورِ السَّرمديِّ يحيطُ بها سورٌ منيعٌ منَ القوَّةِ الإلهيَّةِ، لا تستطيعُ قُوى الأرضِ مجتمعةً أن تقتحمَهُ، فتعودُ والرَّهبةُ توهِنُها وتفرِّقُها أجزاءاً صغيرةً لا تجتمعُ واحدةٌ منها معَ الأُخرى .

وفي المدينةِ تبدأُ معركةٌ عَقَدِيَّةٌ جديدةٌ بين كتابِ اللَّهِ الأعلى وبين الخرافاتِ المسطورةِ في صحائفِ التَّوراةِ التي مَسَختها أقلامُ الأحبارِ الظالعةُ في التَّحريفِ والتَّبديلِ .

وَتشرئبُّ إلى بني إسرائيل في يَثربَ مِن وراءِ القرونِ الرُّوحُ اليهوديَّةُ السَّوداءُ التي ظلَّت تحرِّكُ أجيالَهُم الغابرةَ قُروناً طويلةً لِتذكرَهُم بأنْ يكونوا من تاريخ تلك الأجيالِ على ذكرٍ، فيصنَعوا صَنيعهُم مع أنبيائِهم، فيسألوا النَّبيَّ الخاتمَ : ﴿ أن تُنَزِّلَ عَليهِم كِتاباً منَ السَّمَاءِ ﴾[1] كما نزلتِ التَّوراةُ على موسى مكتوبةً، قالوا ذلك على سبيلِ التَّعنُّتِ والكفرِ

---

(١) النساء : ١٥٣ .

والتَّعجيزِ، فأَعلمَ اللَّهُ نبيَّهُ أنَّ هؤلاءِ اليَهودَ أخَذوا سَمتَ آبائِهم وأجدادِهِمُ الذين قالوا لموسى : ﴿ أَرِنا اللَّهَ جَهرَةً ﴾[1]، فكانت العقوبةُ السَّريعةُ العاجلةُ لتجاوُزِهم حدَّ الأدبِ مَع اللَّهِ رازقِهِم وخالقِهم : ﴿ فَأَخَذتهُم الصَّاعِقَةُ بِظُلمِهِم ﴾[2].

ويَسكُنُ قلبُ النَّبيِّ وهو يتلقَّى الوحيَ بذلك، ويمضي معَ الشَّوطِ القرآنيِّ الذي يَهدِمُ فيه بمعولِ الوحي كُلَّ العقائدِ التَّوراتيَّةِ الباطلةِ، وَيشيدُ بأمرِهِ صَرحَ التَّوحيدِ الخالدِ، فلا يُنال إلّا حين تُنزَعُ منه أوَّلُ لبِنَةٍ، فيسَّاقَطُ كلُّه في صدورِ أحفادِ المجاهدينَ، ولا يبقى منه فيها إلّا رسومٌ باهتةٌ لا تعني عندَهُم شيئاً، ولا تذكرَهُم بصنيعِ أسلافِهِمُ المجاهدينَ، كما أذكرَت روحُ اليهودِ يهود يثربَ فَطَفِقوا يؤذونَ النَّبيَّ ويَستعدونَ حقدَهُم عليهِ .

○ ○ ○ ○ ○

(١) و (٢) النساء : ١٥٣ .

أسماؤُهُ وصفاتُهُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم

إنَّ السِّرَّ في عظمةِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم هي أنَّه رسولٌ يُوحى إليهِ من ربِّهِ، وليسَ أجلَّ قَدراً لعبدٍ عند ربِّه من اصطفائهِ إيَّاهُ رسولاً ينقلُ وحيَهُ عنه لخلقهِ، وقد بلغَ النَّبيُّ محمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ذروةَ الذَّروةِ مِن بينِ الأنبياءِ جميعاً، فهو مقدمُهم وإمامُهم وسيدُهم، فكانَ له منَ الأسماءِ والصِّفاتِ ما لم يكُن لأحدٍ منهم مِثلُها، وله منَ الأسماءِ التي تحدَّثَ عنها وعلَّمها الأمَّةَ الكثيرُ، ولكنَّ القرآنَ ذكرَ أعلاها وأمثلها وأجمَعَها لِسواها .

فمن أسمائهِ أحمدُ : ﴿ وإذْ قالَ عيسى بنُ مَريمَ يا بَني إسرائيلَ إنِّي رَسُولُ اللَّهِ إليكُم مُصَدِّقاً لِما بينَ يَدَيَّ منَ التَّوراةِ ومُبشِّراً بِرسولٍ يأتي مِن بَعدي اسمُهُ أحمَدُ ﴾[١]، قال صاحبُ « الشفاءِ » : « أمَّا أحمدُ الذي أتى في الكتبِ، وبشَّرت به الأنبياءُ، فمنَعَ اللَّهُ تعالى بحكمتهِ أن يُسمَّى به أحدٌ غيرُهُ، ولا يُدعى به مدعوٌّ قبلهُ حتى لا يدخُلَ لَبْسٌ على ضعيفِ القلبِ أو شكٌّ »[٢].

---

(١) الصف : ٦ .

(٢) « شرح الشفا » لملا علي القاري (٢/٦٢٦) .

ومنها محمَّدٌ .. وقد وردَ ذكرُ هذا الاسمِ في القرآنِ في أربعةِ مواضعَ؛ **الأوَّلُ** : في سورة ﴿ آل عمران ﴾ : ﴿ وما مُحمَّدٌ إلّا رسولٌ قَد خَلَت مِن قَبلهِ الرُّسلُ ﴾[1]، **والثَّاني** : في سورةِ ﴿ الأحزاب ﴾ : ﴿ ما كانَ مُحمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِن رِجالِكُم ﴾[2]، **والثَّالثُ** : في سورة ﴿ محمَّد ﴾ : ﴿ وَآمَنُوا بما نُزِّلَ على مُحمَّدٍ ﴾[3]، **والرَّابعُ** : في سورة ﴿ الفتح ﴾ : ﴿ محمَّدٌ رسولُ اللَّهِ والَّذينَ مَعهُ أشدَّاءُ على الكفَّارِ رُحماءُ بَينهُم ﴾[4].

ومنها : المُزَّمِّلُ، والمدثِّرُ، والنُّورُ، والسِّراجُ المنيرُ، والمنذِرُ، والنَّذيرُ، والبشيرُ، والمبشِّرُ، والشَّاهِدُ، والدَّاعي، والشَّهيدُ، والحقُّ المبينُ، وخاتمُ النبيِّينَ، والرَّؤوفُ، والرَّحيمُ، والأمينُ، وقدمُ الصِّدقِ، ورحمةٌ للعالمين، ونعمةُ اللَّهِ، والعروةُ الوثقى، والصراطُ، والنَّجم الثَّاقب، والكريمُ، والنَّبيُّ الأميُّ، وداعي اللَّهِ، وقد وردَ ذكرُ هذه الأسماءِ النَّبويَّةِ الشريفةِ في القرآنِ إمَّا صريحةٍ، وإمَّا مستنبطةً .

فالمزملُ : ﴿ يا أيُّها المزمِّلُ ﴾[5]، والمدثِّرُ : ﴿ يا أيُّها المدَّثِّرُ ﴾[6]، والنُّورُ : ﴿ قَد جاءَكم مِنَ اللَّهِ نورٌ ﴾[7]، والسِّراجُ المنيرُ : ﴿ وسِراجاً

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .
(٢) الأحزاب : ٤٠ .
(٣) محمد : ٢ .
(٤) الفتح : ٢٩ .
(٥) المزمل : ١ .
(٦) المدثر : ١ .
(٧) المائدة : ١٥ .

منيراً ﴾[1]، المنذرُ : ﴿ وتُنذِرَ يومَ الجمعِ ﴾[2]، ﴿ لِتكونَ مِن المُنذِرينَ ﴾[3]، والنَّذيرُ والبشيرُ والمبشِّرُ والشَّاهدُ والدَّاعي : ﴿ إنَّا أَرْسَلناكَ شَاهِداً ومُبشِّراً ونَذيراً ○ وداعياً إلى اللَّهِ بإذنهِ ﴾[4]، ﴿ فَقَد جاءَكُم بشيرٌ ونَذيرٌ ﴾[5]، ﴿ إنْ أَنا إلّا نذيرٌ وبشيرٌ لِقَومٍ يُؤمِنونَ ﴾[6]، ﴿ إنَّني لكُم مِنهُ نَذيرٌ وبشيرٌ ﴾[7]، ﴿ إنَّا أَرسَلناكَ بالحقِّ بَشيراً ونَذيراً ﴾[8]، ﴿ إنَّا أَرسَلناكَ شاهداً ومُبشِّراً ونَذيراً ﴾[9]، ﴿ إنَّا أَرسَلنا إليكُم رَسولاً شاهِداً عليكُم ﴾[10]، والشَّهيدُ : ﴿ ويكونَ الرَّسولُ عليكم شَهيداً ﴾[11]، ﴿ وجِئنا بكَ على هَؤلاءِ شهيداً ﴾[12]، ﴿ وجِئنا بِكَ شهيداً على هؤلاءِ ﴾[13]، ﴿ لِيَكونَ الرَّسولُ شَهيداً عليكُم ﴾[14]، وخاتمُ النَّبيِّينَ : ﴿ ما كانَ محمَّدٌ أبا أَحدٍ مِن رِجالِكُم وَلكِن رَسولَ اللَّهِ وخَاتمَ النَّبيِّينَ ﴾[15]، والرَّؤوفُ الرَّحيمُ : ﴿ بِالمؤمِنين رَؤوفٌ

---

(١) الأحزاب : ٤٦ .

(٢) الشورى : ٧ .

(٣) الشعراء : ١٩٤ .

(٤) الأحزاب : ٤٥-٤٦ .

(٥) المائدة : ١٩ .

(٦) الأعراف : ١٨٨ .

(٧) هود : ٢ .

(٨) البقرة : ١١٩، وفاطر : ٢٤ .

(٩) الفتح : ٨ .

(١٠) المزمل : ١٥ .

(١١) البقرة : ١٤٣ .

(١٢) النساء : ٤١ .

(١٣) النحل : ٨٩ .

(١٤) الحج : ٧٨ .

(١٥) الأحزاب : ٤٠ .

رحيمٌ ﴾[1] وقدمُ صدقٍ : ﴿ وبَشِّرِ الَّذينَ آمَنوا أنَّ لهُم قَدَمَ صدقٍ عندَ ربِّهِم ﴾[2]، ورحمةٌ للعالمين : ﴿ وَما أرسَلناكَ إلّا رَحمةً لِلعالمينَ ﴾[3]، ونعمةُ اللَّه : ﴿ واذْكُروا نِعمةَ اللَّهِ عَليكم ﴾[4]، والكريمُ : ﴿ إنَّهُ لقَولُ رَسُولٍ كَريمٍ ﴾[5]، والنَّبيُّ الأُمِّيُّ : ﴿ الَّذينَ يتبعونَ الرَّسول النبيَّ الأُمِّيَّ ﴾[6]، ﴿ فآمنوا باللَّهِ ورسولهِ النبيِّ الأمِّيِّ ﴾[7]، وداعيَ اللَّهِ : ﴿ يا قَومَنا أجيبوا دَاعيَ اللَّهِ ﴾[8].

وأكثرُ هذهِ الأسماءِ ذكراً ما اشتقَّ من مادتي (نَذرَ) و (بَشَّر)، لأنَّ القرآنَ هو الذي حَوى حدودَ الحلالِ والحرامِ، وناطَ بالنَّبيِّ مهمَّةَ التَّبليغ عن ربِّهِ فقالَ : ﴿ يا أيُّها الرّسولُ بلِّغ ما أُنزِلَ إليكَ مِن رَبِّكَ وإنْ لَم تَفعَل فما بلَّغت رِسَالَتَهُ ﴾[9]، فدعا النَّاسَ إلى الحلالِ وبشَّرَهُم بالجنَّةِ إن لَزِموهُ، ونهاهُم عنِ الحرامِ وأنذرهُم النَّارَ إن اقتَرفوهُ، فكانَت مهمَّةُ التَّبليغِ دائرةً بينَ النِّذارةِ والبشارةِ، وبها يكون المبلِّغُ في منزلةٍ بينَ الخوفِ مِن عقابِ اللَّهِ وبينَ الرَّجاءِ في ثوابِهِ، فلا يجدُ في نفسِهِ إلّا الرَّغبةَ الملحَّةَ في الصَّالحاتِ الباقياتِ التي تُلجئهُ إلى اللَّهِ في سرِّهِ وعلانيَّتِهِ، يستقيمُ بها على المحجَّةِ الواصلةِ إلى رضوانِ اللَّهِ في الآخرةِ .

(١) التوبة : ١٢٨ .
(٢) يونس : ٢ .
(٣) الأنبياء : ١٠٧ .
(٤) البقرة : ٢٣١ .
(٥) الحاقة : ٤٠، والتكوير : ١٩ .
(٦) الأعراف : ١٥٧ .
(٧) الأعراف : ١٥٨ .
(٨) الأحقاف : ٣١ .
(٩) المائدة : ٦٧ .

خصوصيَّاته صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم

إنَّ المهامَّ الجسامَ التي يحملُها الأنبياءُ وهم يبلِّغونَ النَّاسَ وحيَ ربِّهم تجعلُهُم بمعزلٍ عَن كلِّ ما تشتهي نفوسُ البشرِ، فإنَّ همَّ الدَّعوةِ أكبرُ من أن يُذكرَ معهُ همٌّ، إلّا أن يكونَ همَّ إعراضِ النَّاسِ عنها، وبهذا فُضِّلوا على النَّاسِ جميعاً، وهم يَفضُلُ بعضُهم بعضاً بقدرِ ما يكونُ مِن همٍّ في صدرِ الواحدِ منهم .

وقد أخذَ اللَّهُ الميثاقَ على النَّبيِّين أَن يؤمنوا بمحمَّدٍ إن هم أدرَكُوهُ، وهو إعلامٌ من اللَّهِ لأُمَمِ هؤلاءِ النَّبيِّين أن يُؤمنوا بهِ وأن يُصدِّقوا دعوتَهُ، فكانَ همُّه أكبرَ من همِّ أيِّ نبيٍّ منَ الأنبياءِ، بَل كان أكبرَ من همِّهم مجتمعينَ، فما فكَّر يوماً في أمرِ نفسهِ منقطعاً عن أمرِ أُمَّتهِ، وما أخلَدَ إلى الرَّاحةِ منذ تلقَّى الوَحيَ عن ربِّهِ، أنهضَهُ اللَّهُ إلى الدَّعوةِ من أوَّلِ يومٍ، بقولهِ : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾(١)، وظلَّ في كَبِدٍ حَسَرَ به عَن ساقهِ، وجِدٍّ أوفى بهِ على النِّهايةِ؛ مع رعايتِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حقَّ الرِّعايَة لكلِّ حقٍّ عليه لربِّهِ أو لنفسهِ أو لغيرهِ حتى أتاهُ اليقينُ .

(١) المدثر : ٢ .

فبشرٌ هذا شأنهُ حريٌّ أن يكونَ له بعضُ خصوصيَّاتٍ يتجاوزُ بها ما شرعَهُ اللَّهُ للنَّاسِ كافَّةً إلى ما شرعَهُ لهُ خاصَّةً، إعانةً لهُ على نوالِ بعضِ ما يَشُقُّ نوالُهُ، وتَهويناً عليه ما يلاقي من شدَّةٍ وعَنَتٍ، ومواساةً لنفسهِ التي لا تجدُ راحتها وسكونَها إلّا في جدِّها النَّاهضِ دائماً للقيامِ بأعباءِ الدَّعوةِ التي أُلقيت عليهِ .

فمن هذه الخصوصيَّات :

□ **عصمةُ اللَّهِ لهُ مِنَ النَّاسِ**، وذلك قولهُ تعالى : ﴿ واللَّهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[1]، أي : يحفظُكَ مِن أذى أعدائِكَ وتعرُّضِهم لكَ بالنَّيلِ منكَ، وجاءَ في هذهِ الآيةِ ما رواه الشيخان : عن جابرٍ قالَ : غَزَونا معَ رسولِ اللَّهِ غزوةً قِبَلَ نَجدٍ، فأدرَكنا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم في وادٍ كثيرِ العِضاهِ، فنزلَ تحتَ شجرةٍ، فعلَّقَ سَيفَهُ بغُصنٍ من أغصانها، وتفرَّقَ النَّاسُ في الوادي يستظلُّون بالشَّجر، قال : فقالَ : « إنَّ رجلاً أتاني وأنا نائمٌ، فأخذَ السَّيفَ، فاستيقظتُ وهو قائمٌ على رأسي، فلم أشعر إلّا والسَّيفُ صلتاً في يدهِ، فقالَ لي : مَن يمنعُكَ مني ؟ قلتُ : اللَّهُ، فشامَ السيفَ فها هو ذا جالسٌ » .

□ **عمومُ رسالته**، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَما أَرسَلناكَ إلّا كافَّةً للنَّاسِ بَشيراً ونَذيراً ﴾[2]، أي : وما أرسلناكَ إلّا جامعاً للنَّاسِ بالإنذارِ

---

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) سبأ : ٢٨ .

والإبلاغِ، أو تكفُّهُم عَمَّا هم فيهِ منَ الكفرِ وتدعوهُم إلى الإسلامِ، وقولُه: ﴿ قُل يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رسولُ اللَّهِ إليكُم جميعاً ﴾[1]، فقد بشَّر بذلك موسى وعيسى - عليهما السَّلام - ثمَّ أمرَ نبيَّه أنَّهُ يقولُ ذلك بنفسهِ توكيداً لما جاءَت به بُشرى الأنبياءِ وتحدثاً بنعمةِ اللَّهِ عليهِ .

□ **تحريمُ نكاحِ زوجاتهِ من بعدهِ وإنزالُهنَّ منزلَةَ الأمَّهاتِ للمؤمنين**، وذلك قوله : ﴿ وَأَزْواجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾[2]، ﴿ وما كانَ لكُم أنْ تُؤذوا رَسولَ اللَّهِ ولا أنْ تَنكِحُوا أزواجَهُ مِن بَعدهِ أبَداً ﴾[3]، وهذا تشريفٌ منَ اللَّهِ تعالى لهنَّ في وجوبِ التَّعظيمِ والمبرَّةِ والإجلالِ وحرمةِ النِّكاحِ على الرِّجال وحجبهنَّ عنهم، وفي « القرطبي » : « وهذا من خصائصهِ تمييزاً لشرفهِ وتنبيهاً على مرتبتهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، قال الشَّافعي : وأزواجهُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم اللاتي ماتَ عنهن لا يحلُّ لأحدٍ نكاحُهنَّ، ومن استحلَّ ذلك كانَ كافراً، لقولهِ تعالى : ﴿ وَما كانَ لكُم أنْ تُؤذوا رسولَ اللَّهِ ولا أن تَنكِحُوا أزواجَهُ مِن بعدهِ أبداً ﴾ »[4].

□ **جوازُ نكاحِ مَن وَهَبَت نَفسَها لهُ على غيرِ مَهْرٍ**، وذلك قوله : ﴿ وامرأَةً مُؤمِنَةً إنْ وَهَبَت نَفسَها للنَّبيِّ إنْ أرادَ النَّبيُّ أن يَستَنكِحَها

---

(١) الأعراف : ١٥٨ .
(٢) الأحزاب : ٦ .
(٣) الأحزاب : ٥٣ .
(٤) القرطبي (٢٢٩/١٤) .

خالصةً لكَ مِن دونِ المؤمنين ﴾[1]، روى مسلمٌ عن عائشةَ رضيَ اللَّه عنها قالت : « كنتُ أغارُ على اللّاتي وَهَبنَ أنفسهنَّ لرسولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وأقول : أمَا تَستَحي امرأةٌ تَهِبُ نَفسَها لرجلٍ، حتى أنزلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ تُرجي مَن تشاءُ مِنْهُنَّ وتُؤوِي إليكَ مَن تَشاءُ ﴾ فقلت : واللَّهِ ! ما أرى ربَّكَ إلّا يُسارِعُ في هواك »، وروى البخاريُّ عنها أنَّها قالَت : « كانت خَولَةُ بنتُ حكيم من اللّائي وَهَبن أَنفُسَهُن لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم » .

□ **جَمعُهُ بيـنَ أكـثر مِن أربعِ نسوةٍ معاً بالزَّواج؛** ومعلومٌ أنَّ الرّسولَ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم لم يجمَع امرأةً إلى خديجةَ رضي اللَّه عنها فلما ماتَت جمعَ بينَ أكثرِ مِن أربعٍ، وهو العددُ الذي أباحَهُ اللَّهُ للمؤمنِ في آنٍ معاً .

ولَم يكن زواجُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ولا تجاوزُهُ فيه الأربعَ لِمحَضِ الرَّغبةِ في الزَّواجِ، فذلكَ أمرٌ لا يَحسُنُ أن يَقِفَ العقلُ عندَهُ، بل يجبُ أن يتجاوَزهُ إلى ما هو أرغبُ للَّهِ وأحبُّ إلى رسولِهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم وأدنى إلى طبيعةِ النَّفسِ النَّبويَّةِ، والمتتبِّع أخبارَ زيجاتِهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم في سيرتِهِ يعلمُ ذلك حقَّ العلمِ، فهو لم يتزوَّج بِكراً غيرَ عائشةَ رضي اللَّه عنها أمَّا سائرُ نسائِهِ فقد بنى بهنَّ ثيّباتٍ، ولو أرادَ أجملَ النِّساءِ خَلْقاً، وأنقاهُنَّ أصلاً، وأكمَلُهُنَّ خُلُقاً

(١) الأحزاب : ٥٠ .

وعقلاً لتمَّ له ذلك، لكنَّه صلواتُ اللَّهِ وسلامهُ عليه كان - وهو يحملُ في قلبِهِ همَّ أُمَّته كلّها - يجدُ لكلٍّ واحدةٍ من أزواجِهِ في نفسهِ سبباً رفيعاً مُلحًّا يدفعُهُ بأمرِ ربِّه إلى البناءِ بها غيرَ ناظرٍ إلى التَّقاليدِ الموروثةِ والأعرافِ السَّائدةِ، فليس شيءٌ يعدِلُ عنده ما يجدُهُ في نفسهِ سبباً إلى ذلك بِأمرِ ربِّه، ولو كان للتَّقاليدِ والأعرافِ إيماءَةٌ واحدةٌ عندَه لما أقدمَ على الزَّواج من زينَبَ بنتِ جحشٍ رضي اللَّهُ عنها .

ولستُ أريدُ أن أذهبَ في هذا الكتابِ إلى التَّحليلِ العقليِّ والشَّرعيِّ الواسعِ لزيجاتِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، فقد كتبَ في ذلك الكثيرُ من العلماءِ والكُتَّابِ بما لا أَجِدُ عندي مزيداً عليهِ، غيرَ أنَّهُ لابدَّ منَ التَّعريجِ بالقلمِ عليه للإلمامِ بطرفٍ منه ليأتيَ الكتابُ كاملاً مستوفياً الجوانبَ الحياتيَّةَ كلَّها التي تتَّصل بحياتهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم .

ο ο ο ο ο

بينَ مَقامَي البَشريَّةِ والنُّبوَّةِ

لَم يكن النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم إلّا واحداً مِن البشرِ، له من الرَّغائبِ والضَّروراتِ ما للبشرِ جميعاً، غيرَ أنَّهُ جعلَ من رغائبهِ وضروراتهِ هذه وسيلةً واصلةً بينه وبينَ النَّاسِ مِن حولهِ، يتألَّفُهم بها، ويجمعُهُم عليها، ويعلِّمهم الاستقامةَ بها على جادَّةِ الهدى، فليست هي عندَه لنفسهِ لكنَّها للآخرينِ، فرأى فيه النَّاسُ بها أُنموذجاً كاملاً مجموعةً فيهِ كلُّ القيمِ والفضائلِ، تتحرَّك في عقولِهم فكراً، وتسري في أرواحِهم روحاً، وتتذَبذَبُ في قلوبهم نوراً، وتدورُ من حولِهم في اللَّيلِ والنَّهارِ عطاءً وبَذلاً، وهو لا يَرجو من وراءِ ذلكَ كلِّه جزاءً ولا شكوراً، إلّا ما يَرجوهُ مِن رضا ربِّه عليه، غير مُتَسَخِّطٍ على قضاءِ اللَّهِ فيه بما يلحقُهُ به من أذى في نفسهِ وجسمهِ وأهلهِ.

ولا تكتملُ النُّبوَّةُ - بكلِّ ما فيها ولها من كمالٍ - إلّا أنْ تمرَّ بتجاربَ ليرى النَّبيُّ فيها حظَّ بشريَّتهِ المحضَ، فليُمَحِّص نَفسَهُ بنفسِهِ، ويعرفُ أن يُكوِّنَ هذا الحظَّ البشريَّ من غيرِ نظرٍ في تجاربِ مَن حولَهُ، ويعرفُ قدرَ ما تحتمله بشريَّتهُ المحضُ من صبرٍ حين البلاءِ، وقد أفضَت

هذه التَّجاربُ بنا إلى نتيجةٍ محدَّدةٍ واضحةٍ وهي : أَنَّهُ لو خُلِّيَ بينَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم وبينَ الجانبِ البشريِّ فيه لَكَفاهُ أن يكون بهِ نبيًّا .

وقد مرَّ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم بتجاربَ انكشفَ بها للنَّاسِ جميعاً الجانبُ البشريُّ فيه، واشتدَّت وطأتهُ عليه اشتداداً عظيماً لم يفلِتهُ منها إلَّا الوحيُ الكريمُ، فعادَ بعدهُ الجانبُ البشريُّ مستخفياً بظلِّ النُّبوَّةِ الحفيِّ بكلِّ طيوبِ الحقِّ والهدى والنُّورِ، وخلَّدَ القرآنُ هذه التَّجاربَ آياتٍ تُتلى تعبَّدَ اللَّهُ بها المؤمنين إلى يومِ القيامةِ، يستشرفونَ بها مقامَ النُّبوَّة في جانبيها البشريِّ والنَّبويِّ، فيرون في كلِّ جانبٍ منها أنفسَهُم، فلا يَعيبونَ بها بشريَّتهُم إن جنحَت بهِم إلى الخطإ، ولا يطمعونَ في إدراكِ مقامِ النُّبوَّةِ لِقُصورِهم البشريِّ عنها، ويرضَونَ لها بما تصيبُ من أثرٍ يَقْفونَ به النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، ويصيبونَ به ممَّا تنزَّلَ عليهِ من وحيِ ربِّهِ، فيجدونَ في صدورِهم برداً وسلاماً وأمناً ويقيناً، وإن أصابوا شيئاً ممَّا تجنَحُ بهِ بشريَّتُهم إليهِ .

□ من هذهِ التَّجارب تجربةِ قصَّةِ الإفكِ، ويسجِّلها القرآنُ الكريم في ستِّ عشرةِ آيةٍ تبدأُ مِن قولهِ تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ جاؤُوا بالإفكِ عُصبَةٌ مِنكُم لا تَحسَبوهُ شرًّا لكُم بَل هُوَ خيرٌ لكُم لكلِّ امرِئٍ مِنهُم ما اكتَسَبَ مِن الإثمِ والَّذي تولَّى كِبرَهُ منهُم لهُ عَذابٌ عظيمٌ ﴾[1] إلى قوله تعالى : ﴿ الخَبيثاتُ للخَبيثينَ والخَبيثونَ للخَبيثاتِ والطَّيِّباتُ للطَّيِّبينَ والطَّيِّبونَ

(١) النور : ١١ .

للطَّيِّباتِ أُولئكَ مُبرَّؤُونَ ممَّا يقولونَ لهُم مَغفِرةٌ ورِزقٌ كَريمٌ ﴾[1]، ويتلقَّى النَّبيُّ الكريم صلوات اللّه وسلامه عليه هذه الآياتِ تحملُ إليهِ بشرى براءَة عائشة ممَّا زوَّرَ المنافقونَ والمغرِضونَ عليها في أنفسهم، وأذاعوها في النَّاسِ بألسنتِهِم، ابتغاءَ إثارةِ الفتنةِ وإذايةِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم في أحبِّ شيءٍ إليهِ في دنياهُ وأَنفسِهُ وأغلاهُ، وإيغار صدورِ المؤمنينَ على بيتِ النُّبوَّةِ، وإيقاعِ البلبلةِ، والشَّكِّ في طهارةِ أَضوءِ ما في نفوسِهم، ولو دَرَوْا أنَّ الوحيَ سيفضحُهم ويُقطِّعُ أَلسِنَتَهُم الخبيثةَ، وقلوبَهُم المريضة إرْباً إرْباً، وينثرُها على أرضِ المدينةِ لِتُداسَ بأقدامِ المؤمنينَ؛ لما قالوا ما قالوا، ولما تَخوَّضُوا في السُّوءِ الذي أرداهُم وكبَّهم على وجوهِهم، في رَدحَةِ الخزيِ الذي نالوا !!

وكان النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم حينَ طفِقَ المنافقون يذيعونَ كذِباً عن عائشةَ حديثَ الإفكِ قد خالَطهُ شيءٌ من الارتيابِ في أمرِها، حتى قالَ لها : « يا عائشةُ ! فإنَّهُ بلغني عنكِ كذا وكذا، فإن كُنتِ بَريئةً فسيُبرِّئُكِ اللَّهُ، وإن كنتِ أَلمَمتِ بذنبٍ فاستغفري اللَّهَ وتوبي إليهِ، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبه ثمَّ تابَ تابَ اللَّهُ عليهِ »، قالت عائشةُ : فلما قَضى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم مقالتَهُ قَلَصَ دَمعي حتى ما أُحسُّ منه قَطرةً، وقلتُ لأبي : أَجِب عني رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، قال : واللَّهِ ما أدري ما أقولُ لرسولِ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم !

(١) النور : ٢٦ .

فقلتُ لأمي : أجيبي عني رسولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّم فيما قالَ، قالَت : واللَّهِ ما أدري ما أقولُ لرسولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ! قالت : وأنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ لا أقرأُ كثيراً مِن القرآنِ، فقلتُ : إنِّي واللّهِ لقد علِمتُ أنَّكم سَمِعتُم ما يتحدَّثُ بهِ النَّاسُ، ووقرَ في أنفُسِكُم، وصدَّقتُم بِهِ، ولئن قلتُ لكُم إنِّي بريئةٌ - واللَّهُ يعلمُ إنِّي بريئةٌ - لا تُصدِّقونَني بذلك، وَلئِن اعترفتُ لكُم بأمرٍ - واللَّهُ يعلمُ أنِّي بريئة - لَتُصدقُنِّي، واللّهِ ما أجدُ لي ولكم مثلاً إلّا أبا يوسفَ إذ قالَ : ﴿ فَصَبرٌ جميلٌ واللّهُ المستعانُ على ما تَصِفون ﴾[1]، ثمَّ تحوّلت على فراشي وأنا أرجو أن يبرِّئني اللّهُ، ولكِن - واللّهِ - ما ظَننتُ أَن ينزلَ في شَأني وَحيٌ وَلأنا أحقرُ في نفسي مِن أن يُتكلَّم بالقرآنِ في أمري، ولكنِّي كُنتُ أرجو أن يرى رسولَ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم في النَّومِ رُؤيا يبرِّئُني اللّهُ بها، فواللّهِ ! ما رامَ رسولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم مجلسَهُ ولا خرجَ أحدٌ من أهلِ البيتِ حتى أنزلَ اللّهُ عليهِ، فأَخَذَهُ ما كانَ يأخذهُ من البُرَحاءِ، حتى إنَّهُ لَيتحدَّرُ منه مثلُ الجُمانِ مِن العَرقِ في يومٍ شاتٍ، فلما سُرِّيَ عن رسولِ اللّه صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم وهو يَضحَكُ، فكان أوَّلُ كلمةٍ تكلَّمَ بها أن قالَ لي : « يا عائشة ! احمَدِي اللّهَ فقد برَّأَكِ اللّهُ »، فقالت أُمِّي : قُومي إلى رسولِ اللّه، فقلت : لا واللّه لا أقومُ إليهِ ولا أحمَدُ إلّا اللّهَ، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿ إنَّ الَّذينَ جاؤوا بالإفكِ عُصبَةٌ منكُم ﴾ الآيات»[2].

---

(١) يوسف : ١٨ .

(٢) متفق عليه .

وكان الأمرُ مُفظِعاً ثقيلاً باهظاً على نفسِ النَّبيِّ الكريمِ، فعائشةُ أحبُّ النَّاسِ إليه، وأقربُهم إلى قلبهِ، وأوعبُهم لحديثهِ، وهي ابنةُ رفيقهِ الأثيرِ عندَه، وأسرعُ النَّاسِ إلى الإيمانِ بهِ والتَّصديقِ بدعوتهِ، وقد حازَت مِن الفضائلِ الكريمةِ والمزايا الجميلةِ ما أحلَّها مِن نفسهِ منزلةً رفيعةً، فهل يُطْبِقُ حديثُ الإفكِ بفكَّيهِ عليها ويمزقُها فلا يحظى بها من بَعدُ ؟ أم أنَّ جسدَها الغضَّ الطَّاهرَ سيكون قويًّا صلباً تتكسَّرُ عليه أنيابُ الإفكِ، وتظلُّ عائشةُ هي عائشةَ التي صانَها اللَّهُ لنبيِّهِ وطهَّرها تطهيراً لخليلهِ ؟

ويمضي شهرٌ كاملٌ والنَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم يحملُ من الهمِّ ما لا تطيقهُ الجبالُ، فعائشةُ مغيَّبةٌ عن بصرهِ، مُذْنَفَةٌ يسحقُها الهمُّ سحقاً، لا يَقوى على فراقِها، وأبو بكر يتقطَّع قلبهُ الرَّقيقُ تحتَ مطارقِ إرجافِ المنافقينَ، والصَّحابةُ يروحونَ ويجيئونَ في حَسرةٍ جاسيةٍ تبدو على وجوهِهمُ الرَّائقةِ بالإيمانِ رهقاً وصفرةً وعبوساً، وَأرضُ المدينةِ تمورُ من تحتِ أقدامِ أهلِها المؤمنينَ والمنافقينَ ممَّا أثقلَتها ألسنةُ الخائضينَ الكاذبينَ، والسَّماءُ ساكنةٌ لا تبدو على صفحتها الزَّرقاءُ الرَّائقةُ حركةٌ تنبئُ عن أمرٍ ذي بالٍ، وفجأة تنفطرُ السَّماءُ، وينزلُ جبريلُ - عليه السَّلام - يحمِلُ معه البُشرى الخافقةَ بالأنينِ، وما كانَت عائشةُ تحسَبُ أنَّ المنزلةَ التي نالَتها عندَ النَّبيِّ ارتفعَت إلى السَّماء فنالَتها عندَ اللَّهِ، ولكنَّ الثِّقةَ في رحمةِ اللَّهِ بلغَت من نفسِها مبلغاً عظيماً، فما عجبَت أن يأتيها النَّبيُّ ببراءتِها، فقد كانَت منها ليقينِها بها قابَ قوسينِ أو أَدنى، بل عَجبٌ أن

تُصبحَ براءَتها قرآناً يُتلى على الدَّهر، تقول : « واللَّه ما ظَننتُ أن ينزلَ في شأني وحيٌ، ولأَنا أَحقرُ في نفسي مِن أنْ يُتكلَّمَ بالقرآنِ في أمري، ولكن كنتُ أرجو أن يَرى رسولُ اللّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم في النَّومِ رُؤيا يبرِّئُني اللَّهُ بِها » .

وما هُو إلّا أن ينفصلَ الوحيُ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم حتى يُقبلَ على عائشةَ والفرحُ يملأُ قلبهُ العظيمَ وهي مستلقيةٌ على فِراشها من حُمَّى نافضٍ أَلمَّت بها عقبَ سماعِها خبرَ الإفك، ليقرأ عليها نبأَ طهارتها آياتٍ نزلَ بها الوحي الامينُ عليه .

ومع البلاءِ الذي حلَّ بعائشة - وكانَ عظمهُ مِن إعراضِ الرّسولِ عنها - فقَد رفَعها الأدبُ مكاناً عليّا، وَأَنالها تَصديقُها النَّبيَّ شرفاً مكيناً، فما هي إلّا أن سمعت بُشراها تغلفُها نداوةُ الفمِّ النَّبويِّ الطَّاهرِ حتى تبدَّدَ همُّها، وسكنَت ثورةُ نَفسِها، وغشيَتها سكينةٌ مِن ربِّها، وقالت - في عِتابِ رضيٍ هادىءٍ، والفخرُ يملأُ ثناياها وصدرَها، وهالةٌ مِن أريجِ الحبِّ الإلهيِّ تحيطُها من كلِّ أقطارِها : « بحمدِ اللّه لا بحمدِ أحدٍ ولا بحمدِكَ »، وتعود عائشةُ إلى بيت النُّبوَّةِ الكريمِ الطَّاهرِ، والأجيالُ المؤمنةُ كلُّها تشاركها فرحتَها وعَودَتها إلى بيتِ النُّبوَّةِ وهي تقرأُ آياتِ براءَتِها آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ .

□ ومن هذه التَّجارب أيضاً تجربةُ زواجهِ من زَينبَ بنتِ جحشٍ

رضي اللَّه عنها التي عصفَت بتقاليدِ وأعرافٍ موروثةٍ خضعَ لها المجتمعُ الإسلاميُّ الأوَّلُ فترةً لم يكن لأحدٍ - حتى للنَّبيّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم - منها انفكاكٌ أو عنها تحوُّلٌ، إلّا أنْ يَحدُثَ تحوُّلٌ نفسيٌّ شاملٌ للمجتمع فجأةً، وهذا أمرٌ عسيرٌ على مجموعةٍ صغيرةٍ من الأفرادِ، بل على فردٍ واحدٍ فكيفَ بأفرادِ المجتمعِ كلِّهم ؟!

إذاً فلا مناصَ مِن أن يكونَ تشريعٌ سماويٌّ يخضعُ لهُ المجتمعُ المسلمُ بأسرهِ، وإن كان يثقُلُ أولَ الأمرِ على النُّفوسِ، ولكي يخفِّفَ مِن ثِقَله هذا يكونُ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم هو الموقعُ الأوَّلُ لإنفاذِهِ، وقد كانَ، ويسجِّلُ القرآنُ هذه التَّجربةِ في أربعِ آياتٍ من سورةِ ﴿ الأحزاب ﴾ : ﴿ وإذ تَقولُ للَّذي أنعمَ اللَّهُ عليه وأَنعَمتَ عليه أَمسِك عليكَ زَوجَكَ واتَّقِ اللَّهَ وتُخفِي في نَفسِكَ ما اللَّهُ مُبديهِ وتَخشى النَّاسَ واللَّهُ أحَقُّ أن تخشاهُ فلمَّا قَضى زيدٌ منها وَطَراً زَوَّجناكَها لكي لا يكونَ على المؤمنينَ حَرَج في أزواجِ أدعيائِهم إذا قَضَوا مِنهنَّ وطَراً وكانَ أمرُ اللَّهِ مَفعولاً ۝ ما كان على النَّبيِّ مِن حَرَجٍ فيما فَرَضَ اللَّهُ لهُ سُنَّةَ اللَّهِ في الَّذينَ خَلَوا مِن قَبلُ وكانَ أمرُ اللَّهِ قَدَراً مَقدوراً ۝ الَّذينَ يُبلِّغونَ رسالاتِ اللَّهِ ويَخشَونهُ ولا يَخشَونَ أحداً إلّا اللَّهَ وكفى باللَّهِ حسيباً ۝ ما كانَ محمَّدٌ أبا أَحَدٍ مِن رِجالكُم وَلكن رَسُولَ اللَّهِ وخاتَمَ النَّبيِّينَ وكانَ اللَّهُ بكلِّ شيءٍ عليماً ﴾[1].

(١) الأحزاب : ٣٧-٤٠ .

وبالرّغمِ مِن أنَّ الوحيَ هُو الذي أَذِنَ للنَّبيِّ أن يتزوَّجَ زينَبَ فقد كان شاقًّا عليهِ ذلك جدًّا، فإن خَرقَ الأعرافِ السَّائدةِ، والخروج على التَّقاليدِ الموروثةِ أمرٌ إدٌّ لا يحتمله ولا يسيغه إلّا إنسانٌ أُوتيَ حظًّا وافراً من القُدُراتِ النَّفسيَّةِ والعقليَّةِ تُقَدِّرُه على التَّصدِّي لسهامِ التَّشهيرِ والطَّعنِ التي يصوِّبُها مرسلُوها إلى أشرفِ ما يملكُهُ ذلكَ الإنسانُ .

وينشبُ صراعٌ مريرٌ في نفسهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ينشَطرُ شطرينِ، شطرٌ يؤُزُّهُ أزًّا إلى إعلانِ ما يعتلِجُ فيها من وجوبِ الاستجابةِ لأمرِ ربِّهِ فلا يُخفي منه شيئاً، وشطرٌ يكادُ يمسكُ عليهِ لسانهُ ألّا يبوحَ بذاتِ صدرهِ لما فيهِ مِن طَرحٍ لأمرٍ تعارفَ عليه النَّاسُ ردحاً طويلاً مِن الزَّمنِ، أو يكونَ هو موضعَ التَّجربةِ فيهِ، وهُو مِن بدايةِ الأمرِ يَعلمُ أنَّهُ لا يملِكُ إلّا الاستجابةَ الطَّائعةَ لأمرِ ربِّهِ، لكنَّ الجانب البشريَّ فيه لا بدَّ وأن يكونَ لهُ دورٌ في هذا الصِّراعِ، فزيدٌ ابنهُ بالتَّبنِّي، وزينبُ ابنةُ عمَّتهِ وافرةُ الحُسنِ، عريقةُ الحَسبِ، والنَّاسُ مِن حولهِ يرقبونَ بعيونٍ مفتَّحةٍ وآذانٍ صاغيةٍ انقطاعَ علاقةٍ بين زوجينِ لِتبدأَ بعدَها فوراً علاقةٌ جديدةٌ، أحدُ طرفَيها النَّبيُّ الكريم صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم أبو زيدٍ، والطَّرفُ الآخرُ زينبُ التي زوَّجها النَّبيُّ لابنهِ زيدٍ، إنَّهُ لبهمٌ شديدٌ مفظعٌ، فهل سَهلٌ على إنسانٍ محبٍّ رقيقٍ كمحمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم أن يَحُلَّ ما عقدَهُ بالأمسِ لغيرهِ ليعقِدَ اليومَ لنفسهِ، وأن يكون هذا ابنه، وعلمُ اليقين يملؤُهُ أنَّ الألسنةَ الحدادَ الشِّدادَ سوفَ تنبري دفعةً واحدةً لانتقاصِهِ واتِّهامِهِ، غيرَ

حامدةٍ له ما أقدَمَ عليهِ إذ شَرَعَ لهم أمراً كانوا في حرجٍ شديدٍ منه .

وأخيراً وفي احتدامِ هذا الصِّراع يظهرُ جانبُ النُّبوَّةِ على الجانبِ البشريِّ - وهو لا بدَّ ظاهرٌ - ويخرجُ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم على النَّاس ليتلوَ عليهم هذهِ الآياتِ، غيرَ مُخفٍ منها شيئاً، وَلو أخفَى شيئاً لأَخفى : ﴿ وتُخفي في نفسِكَ ما اللَّهُ مُبديهِ وتَخشى النَّاسَ واللَّهُ أحقُّ أن تَخشاهُ ﴾[1]، ولكنَّه الوحيُ الذي لن يجدَ في نفسِهِ حيالَهُ إلّا الاستجابةَ والتَّسليمَ والرِّضا، ولن يجنيَ بهِ إلّا الخيرَ مِن ربِّه - الذي يُؤدِّب بهِ - على نفسهِ وعلى أُمَّتهِ في حياتهِ وبعدَ موتهِ، فقد رأى من فضلِ ربِّه عليهِ في رخاءٍ وشدَّةٍ ما يجعلهُ واثِقاً مطمئنًّا لكلِّ ما يكونُ له .

وإذا لبستهُ خشيةٌ مِن النَّاسِ، فهو بخَشيتهِ الموهوبةِ له مِن اللّهِ لا ينبغي له أن يخشى أمراً سواه، وما زواجهُ من زينبَ زوجِ ابنهِ إلّا شيئاً من رسالةِ ربِّه، فما يكونُ لهُ أن يبقيَهُ سرًّا مُمسِكاً عليه به لسانهُ كما حاوَل زيدٌ أن يُمسِكَ عليهِ زينَبَ بعدَ أن قالَ لهُ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم : « أمسِك عليكَ زَوجكَ »، وكأنَّ الجانبَ البشريَّ هنا كان يُمنِّي النَّبيَّ أن يَنقَضِيَ الخلافُ بين زيدٍ وزينب، وتظلَّ حياتُهما الزَّوجيَّة قائِمةً، فهو منازَع بين إذنِ اللّهِ لهُ بالزَّواج مِن زينَبَ وإن طلَّقَها زيدٌ ابنهُ، وبين الرَّجا في أن تظلَّ زينبُ زوجاً لزيدٍ لو استقامَ الأمرُ بينَهما .

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

ولكنَّ حكمة اللَّه سبحانهُ فوقَ كلِّ تقديرٍ ورجاءٍ، وليس يُنزَعُ الأمرُ مِن بينِ اثنين، ولا يستقرُّ بين اثنينِ إلّا بإرادةِ اللَّهِ، وإرادةُ اللَّهِ لا تجري إلّا وِفقَ حكمةٍ يقدرُها، وحكمةُ اللَّهِ قد تظهرُ في أمرِ اللَّهِ ونهيِهِ وقد لا تظهرُ، فإن ظهَرَت فتمامُ التَّشريعِ كائنٌ بظهورِها، وإن خَفِيَت فتمامُ التَّشريعِ كائنٌ بخفائها .

وحيالَ ذلك فلا يجدُ النَّبيُّ في نفسهِ إلّا قَطعَ علائقهِ البشريَّةِ معَ كلِّ الأسبابِ الدَّاعيةِ إلى تقويتِها من بُنُوَّةِ زيدٍ، وقرابةِ زينبَ، ورقابةِ النَّاسِ، ليكونَ الظّهورُ كلُّه لجانبِ النُّبوَّةِ ولا بدَّ .

□ وهناكَ تجربةٌ ثالثةٌ يخلِّدُها القرآنُ في آياتهِ البيِّناتِ المحكماتِ كان لها تأثيرٌ في حياةِ النَّبيِّ الخاصَّةِ صلوات اللَّه وسلامه عليه وتشريعُ حُكمٍ للأُمَّةِ يَعودونَ إليهِ إذا ألزمَ أحدُهُم نَفسَهُ ما ألزَمَ به النَّبيُّ عليه السَّلامُ نفسَه، هذه التَّجربةُ سجَّلها القرآنُ في قولِهِ : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ ما أحَلَّ اللَّهُ لكَ تَبتَغي مَرضاةَ أزواجِكَ واللَّهُ غفورٌ رحيمٌ ٥ قَد فَرَضَ اللَّهُ لكُم تَحِلَّةَ أيمانِكُم واللَّهُ مولاكُم وهوَ العليمُ الحكيم ٥ وإذْ أَسَرَّ النَّبيُّ إلى بَعضِ أزواجِهِ حديثاً فلمَّا نبَّأت بهِ وأظهرَهُ اللَّهُ عليه عَرَّفَ بَعضَهُ وأعرَضَ عَن بَعضٍ فلمَّا نبَّأها بهِ قالَت مَن أنبأكَ هذا قالَ نبَّأنيَ العليمُ الخبيرُ ٥ إنْ تَتوبا إلى اللَّهِ فَقَد صَغَت قلوبُكُما وإن تظاهَرا عليه فإنَّ اللَّهَ هُو مَولاهُ وجِبريلُ وصالحُ المؤمنينَ والملائكةُ بعدَ ذلك ظهيرٌ ٥ عسى ربُّه إن طَلَّقكُنَّ أن يُبدِلَهُ أزواجاً خَيراً مِنكُنَّ مُسلِماتٍ مُؤمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ

سائِحاتٍ ثيِّباتٍ وأَبكاراً ﴾[1].

وإذا كان البشرُ يجدُ في نفسهِ أحياناً ميلاً لشيءٍ ما قد يجدُ مثلَهُ عند غيرِ من يَميلُ بهِ إليهِ، فإنَّ تعليلَ هذا الأمرِ - أدركَ الإنسانُ علَّتهُ أو لَم يُدرِكها - لا يوقفُهُ على شيءٍ ذي بالٍ، فالطَّبيعةُ البشريَّةُ قد فُطِرَت على ذلك، وهذه الطَّبيعةُ يلتقي فيها الأنبياءُ بغيرِهِم، وقد كان للنَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم مِن هذهِ الطَّبيعةِ حظٌّ لا بدَّ مُدركُهُ لكي لا يستقرَّ في قلوبِ أصحابه منَ التَّقديسِ ما يحملُهم على نسيانِ الجانبِ البشريِّ فيهِ، ثمَّ يبلغونَ بهِ في تقديسِهم إيَّاه ما بلغتهُ الأُمَمُ السَّابِقةُ في تقديسِهم أنبياءَهُم، وهذا ما يرفُضهُ كلَّ الرَّفضِ النَّبيُّ البشرُ لا بظهورِ جانبِ النُّبوَّةِ فيه على جانبِ البشريَّة، بل بما أُودِعَ فيه من استعدادٍ فطريٍّ ينأَى به عن مثلِ هذا .

وفي سببِ نزولِ هذه الآيات تَروي لنا عائشةُ رضي اللّه عنها : « أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم كان يمكثُ عِندَ زينَبَ بنتِ جحشٍ ويشرَبُ عندَها عسلاً، فتواصيتُ أنا وحفصةُ أنَّ أيَّتنا دخلَ عليها النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم فلتقُل : إنِّي لأَجِدُ منكَ ريحَ مغافير، أكلتَ مغافير ؟ فدخلَ على إحداهما فقالت له ذلك، فقالَ : « لا بل شَربتُ عسلاً عند زينبَ بنت جحشٍ، ولَن أعودَ له »، فنزلت : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لكَ ﴾[2] إلى ﴿ إن تَتوبا إلى اللَّهِ ﴾ لعائشةَ

(١) التحريم : ١-٥ .

(٢) التحريم : ١ .

وحفصةَ، ﴿ وإِذْ أَسَرَّ النَّبيُّ إلى بعضِ أزواجِهِ حديثاً ﴾، لقوله : (بَل شرِبت عسلاً) »[1].

ويداخل نفسَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم شيءٌ يمتزجُ فيه الحرصُ على رِضا أزواجِهِ جميعاً بالتَّكتُّم على ما قد يعكِّرُ هذا الرِّضا، ولَعَمرُ الحقِّ؛ إنَّهُ لأدبٌ نفسيٌّ عظيمٌ يُجمِلُ تعاملَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم مع أزواجِهِ ليكونَ موضعَ القدوةِ الذي تتوجَّهُ إليهِ أبصارُ المسلمين وهُم يَتناجونَ مع أزواجِهِم وفي بيوتِهِم أو يتحدَّثون إليهنَّ جَهاراً، فلا يجدُ شيئاً باجتهادِهِ تقرُّ به أنفسُ زَوجتيه ابنتي أعزِّ أصحابِهِ على نفسِهِ أبي بَكر وعمرَ رضي اللَّه عنهما وهذا موقفٌ فيه الوفاءُ الكبيرُ منه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ممتزجاً بالحبِّ الفائقِ لا لزوجتَيهِ فحسب؛ بَل لأبويهِما أيضاً، وأيُّ وفاءٍ وأيُّ حبٍّ أعظمُ من وفائهِ ومن حُبِّه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم، فهما عظيمانِ بعظمهِ .

ولَم يكُن في علمِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ولا في ظَنِّهِ أنَّ الوحيَ سَينزلُ عليه بعتاب ربِّه قائلاً : ﴿ لِمَ تُحرِّم ما أحلَّ اللَّهُ لكَ تَبتَغي مَرضاةَ أزواجِكَ ﴾[2]، وإلّا ما كان ليفعلهُ لأنَّهُ قبلَ أن يفكِّر في الحرصِ على رِضا أزواجِهِ فهو أشدُّ ما يكونُ حرصاً على رضا ربِّه، وقد عاتبه اللَّهُ في مواطن كثيرة، فما يكون له أن يضيفَ عتاباً جديداً إليهِ، غيرَ أنَّ الحكمةَ الإلهيَّة اقتضَت أن يحرِّمَ النَّبيُّ على نفسِهِ شيئاً حلالاً، ليشرعَ لأُمَّته

(١) متفق عليه من حديث عائشة .   (٢) التحريم : ١ .

حُكماً جديداً لا نظيرَ قبله، وذلك قوله تعالى : ﴿ قَد فرضَ اللَّهُ لكم تَحِلَّةَ أيمانكم ﴾[1]، فجعلَ تحريمَ الشيء يستوجبُ الكفَّارةَ على المحرِّم، يعود بعدها إلى ما حرَّم من حلالٍ على نفسهِ .

وقد جاءَ في سببِ تحريمِ النَّبيِّ ما أحلَّ اللَّهُ له أنَّ الغيرةَ نَشبَت في صَدرَي عائشةَ وحفصةَ من ماريةَ أُمِّ إبراهيمَ، فلم يزالا به حتى جعلها على نفسهِ حراماً، وهنا تظهر البشريَّةُ في شخصه صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم كأقوى وأوضح ما تكون البشريَّةُ في إنسانٍ، وتدرِك الحكمةُ الإلهيَّة ماريةَ، فتخبرُ حفصَةُ عائشة بما أسرَّ إليها النَّبيُّ فيُكفِّرُ ويعودُ إليها .

ولعلَّ في هذهِ الوقائعِ الثَّلاثِ ما يُغنينا عن تتبُّعِ غيرِها لنتبيَّنَ منها بشريَّةِ النَّبيِّ الإنسانِ الذي قال عنه المشركونَ : ﴿ مالِهذا الرَّسولِ يأكُلُ الطَّعامَ ويَمشي في الأسْواقِ لَولا أُنزِلَ إليهِ مَلَكٌ فيكونَ معَهُ نَذيراً ﴾[2].

○ ○ ○ ○ ○

---

(١) التحريم : ٢ .

(٢) الفرقان : ٧ .

فَضْلُهُ على الأنبياءِ

النُّبوَّةُ هي النِّعمةُ الكبرى التي اختصَّ اللَّهُ بها نفراً مِن عبادِهِ، اصطفاهُم لها وحمَّلَهُم أمانَتها، فما من نبيٍّ إلّا عاشَ لها من لَدُنِ نزولِ الوحي عليهِ إلى أن اخترَمَتهُ المنيَّةُ .

وهي القَدرُ المشترَك في الفضلِ بينَ الأنبياءِ جميعاً، غيرَ أنَّ اللَّهَ سبحانهُ فضَّل بعضَ النَّبيِّين على بعضٍ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَد فَضَّلنا بعضَ النَّبيِّينَ على بعضٍ ﴾[1]، وقالَ : ﴿ تلكَ الرُّسلُ فضَّلنا بعضَهُم على بعضٍ ﴾[2]، ولو خُلِّي بين العقلِ وبين الأنبياءِ لحكَم العقلُ بِأَن أفضلَ الأنبياءِ هو محمَّدٌ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، فكيفَ وقد أفاضَ اللَّهُ عليهِ سبحانهُ في كتابهِ مِن فضلهِ ما كانَ به مقدَّماً على سائرِهم، ليقيمَ له في نفوسِ أُمَّتهِ صرحاً منيعاً مِن الحبِّ، يحفظونَ به دِينهُم الذي ارتضى لهم، ويكونَ به إيمانُهم في منأىً عن كلِّ أسبابِ الخسارِ والبوارِ .

ومن أصرحِ الآياتِ في بيانِ فضلهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم قوله تعالى:

---

(١) الإسراء : ٥٥ .   (٢) البقرة : ٢٥٣ .

﴿ وإذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيتُكُم مِن كِتابٍ وحِكمةٍ ثمَّ جاءَكُم رسولٌ مصدِّقٌ لِما مَعَكُم لتؤمِنُنَّ به ولتَنصُرُنَّهُ قال أَأَقرَرتُم وأَخذتُم على ذلِكُم إِصْري قالوا أَقرَرنا قالَ فاشهَدوا وأنا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[1]، فقد أخذَ اللَّهُ في هذهِ الآيةِ العهدَ على جميعِ الأنبياءِ أن يؤمِنوا بمحمَّدٍ وينصرُوهُ إن هُم أدرَكوا زمنَهُ، قال عليٌّ وابن عبَّاس رضي اللَّه عنهما : « ما بعثَ اللَّهُ نبيًا من الأنبياءِ إلَّا أخذَ عليهِ الميثاقَ لَئِن بَعثَ اللَّهُ محمَّداً وهو حيٌّ ليؤمِننَّ به ولينصرنَّه »[2]، وهي نصٌّ صريحٌ بأنَّ الأنبياءَ جميعاً قد بشَّروا أُممَهُم بنبوَّتهِ عليه الصَّلاة والسَّلام وهو ما لَم يكُن لنبيٍّ سواه، إلَّا أن يُصدِّقَ كلُّ نبيٍّ مَن قَبلهُ .

وفُضِّلَ عليهم بالشَّفاعَةِ، قال تعالى : ﴿ عَسى أن يَبعَثَكَ ربُّكَ مَقاماً مَحمُوداً ﴾[3]، قال ابنُ جريرٍ : « قالَ أكثرُ أهل التَّأويلِ : ذلك هو المقامُ الذي يقومهُ محمَّدٌ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم يومَ القيامةِ للشَّفاعةِ للنَّاسِ ليُريحَهُم ربُّهُم مِن عظيمِ ما هُم فيهِ مِن شدَّةِ ذلك اليومِ »[4].

وفُضِّلَ عليهم بأنَّهُ خاتَـمُ الأنبياءِ، قال تعالى : ﴿ ما كانَ محمَّدٌ أبا أَحدٍ مِن رِجَالِكُم وَلكِن رَسُولَ اللَّهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[5]، ويؤكِّدُ ذلك صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم بقوله : « فُضِّلتُ على الأنبياءِ بستٍّ؛ أُعطيتُ

---

(١) آل عمران : ٨١ .

(٢) « مختصر ابن كثير » (١/٢٨٧) .

(٣) الإسراء : ٧٩ .

(٤) انظر « تفسير الطبري » .

(٥) الأحزاب : ٤٠ .

جوامِعَ الكَلِمِ، ونُصرتُ بالرُّعبِ، وأُحِلَّت ليَ الغنائِمُ، وجُعِلَت ليَ الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأُرسلتُ إلى الخلقِ كافَّةً، وخُتِمَ بي النبيُّون »[1].

وفُضِّلَ بإشهادِهِ هو وأُمَّتهِ للأنبياءِ والرسلِ على أُمَمِهم، قال تعالى : ﴿ وكذلكَ جعَلناكُم أُمَّةً وسطاً لتَكونوا شُهداءَ على النَّاسِ ويكونَ الرَّسولُ عليكُم شهيداً ﴾[2]، قال أبو جعفر : « والشهداءُ جمع شهيدٍ، فمعنى ذلك : وكذلك جعلناكم أمَّةً وسطاً عُدولاً لتكونوا شهداءَ لأنبيائي ورسلي على أُمَمِهم بالبلاغ أنَّها قد بلغَت ما أُمِرَت ببلاغهِ مِن رسالاتي إلى أُمَمِها، ويكون محمَّدٌ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم شهيداً عليكُم بإيمانكُم بهِ وبما جاءَكُم بهِ مِن عندِي، كما حدَّثني أبو السَّائب قال : حدَّثنا حفص، عن الأعمشِ، عن أبي صالحٍ، عن أبي سعيدٍ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم : « يُدعى بنوحٍ عليه السَّلامُ يومَ القيامةِ، فيُقال له : هَل بلَّغتَ ما أُرسلتَ بهِ ؟ فيقولُ : نعم، فيُقال لقومه : هَل بلَّغكُم ؟ فيقولون : ما جاءَنا من نذيرٍ، فيقال له : مَن يَعلمُ ذلك ؟ فيقول : محمَّدٌ وأُمَّته، فهو قوله : ﴿ وَكَذلكَ جَعَلناكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ على النَّاسِ ويكونَ الرَّسولُ عليكم شَهِيداً ﴾ »[3].

---

(1) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه .

(2) البقرة : ١٤٣ .

(3) « تفسير الطبري » (١٤٣/٣) .

غزواتِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم

كلُّ شيءٍ لا يُعرَفُ إلّا بِضدِّهِ، ففضيلةُ الصِّدقِ لا تُعرَف إلّا برذيلةِ الكَذبِ، وقيمةُ الحقِّ لا تُدرَك إلّا بسفاهةِ الباطلِ، ولذَّةُ النَّصرِ لا تُذاقُ إلّا بمرارةِ الهزيمةِ .

ونحنُ إذا أَجلنا البَصيرةَ في غزواتِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم تجلَّت لنا عظمةُ القيادةِ المحمَّديَّةِ وهي تُمسكُ بيدِها الواثقةِ المطمئنَّةِ حبالَ النَّصرِ كلَّها في آنٍ معاً، وتحرِّكها كيفما شاءَت وأنَّى أرادَت، وبرزَت لنا من خلالِ غُبارِ النَّقعِ وصهيلِ الخيل وقعقعةِ السُّيوفِ وهديرِ الفرسانِ والإصرارِ الرَّغيب على الإمساكِ بناصيةِ النَّصرِ القدرةُ القتاليَّةُ الفذَّةُ على إدارةِ رحى المعركةِ والتَّحكُّمِ في مَسارِها والانتهاءِ إلى النَّتيجةِ المقدَّرةِ الدَّقيقةِ التي كان يتمتَّعُ بها الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، وقد تحدَّثنا في فصلٍ سابقٍ عن عناصر القيادةِ التي توفَّرت للرَّسولِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّم، وفي هذا الفصل سنتناوَل بالحديثِ إن شاءَ اللَّهُ غزواتِ ومشاهدَ الرَّسولِ التي تحدَّثَ عنها القرآنُ .

□ الأولى : غزوةُ بدرٍ :

تُعتبرُ غزوةُ بدرٍ أعظمُ معركةٍ وقعَت في تاريخِ الإسلامِ كلِّهِ بالرّغمِ مِن كثرةِ المعاركِ العظيمةِ، فهي الغزوةُ التي طعنَت كبرياءَ قريشٍ في الصَّميمِ، وشرخَت صرحَ طغيانِها، وأدْمَت أعقابَها، وهي تعودُ القَهقَرى ذليلةً مُندَحِرةً، تجرُّ معها ذيولَ الخيبةِ وعارَ الدَّهرِ، وقَد كانَت إلى عهدٍ قريبٍ جدًّا تُهدِّدُ الدَّعوةَ في عُقرِ دارِها، وتتهدَّدُ وجودَ الإسلام برمَّتِهِ في مأرزِهِ فوقَ أرضِ المدينةِ، فما بالُها اليومَ لا تنبس ببنتِ شَفَةٍ، وتُودِّع كبرياءَها وغطرسَتها فوقَ أرضِ بدرٍ حيث التقَت بقلَّةِ المسلمينَ المستضعفةِ ؟! إنَّهُ لحديثٌ عجيبٌ يقصُّه علينا القرآنُ في آياتِهِ المحكماتِ وهو ينسجُ لنا فيها قصَّةَ بدرٍ الكبرى .

جاءَ ذِكرُ غزوةِ بدرٍ في سورتينِ مِن سُورِ القرآنِ الكريمِ، وهما : ﴿ آل عمران ﴾ و ﴿ الأنفال ﴾، وهما مدنيتان، وغزوةُ بدرٍ كانت في السَّنةِ الثَّانيةِ مِن الهجرةِ كما هو مَعلومٌ، وغنيٌّ عَن القولِ أنَّ السَّردَ القرآنيَّ في بيانِ أحداثِ الغزوةِ يختلفُ عنهُ في سردِ السِّيرةِ، فالقرآنُ يهدِفُ من سَردهِ إلى إبرازِ العبرةِ، ولفتِ العقولِ والقلوبِ إلى ما في الغزوةِ من تأثيراتٍ وتأثُّراتٍ نفسيَّةٍ وحسِّيَّةٍ لا تُدرَكُ إلّا بمقدارِ ما يكونُ لدى الإنسانِ نفسهِ من استعدادٍ قلبيٍّ أو عقليٍّ لإدراكِهما، وهذا الإدراكُ متفاوتٌ بتفاوتِ القُوى العقليّةِ والقلبيّةِ المدركةِ، ويسوقُ هذا الإدراكُ الإنسانَ في النِّهايةِ إلى قَبولِ أو رفضِ أيّ شيءٍ يتناقَضُ مع هذا الشيءِ

المدرَك لديهِ، إذ يكونُ قد بَلغَ إدراكه الشيء المدرك مبلغَ اليقينِ الذي يرفضُ كلَّ أسبابِ الشَّكِّ التي تحاولُ إضعافَ اليقينِ، ويستوي هذا اليقينُ في أوَّلِهِ وفي آخرِهِ، لأنَّ اليقينَ شيءٌ نتيجةَ حالةٍ نفسيَّةٍ في غيبةٍ قصيرةٍ للإيمان، يشهدُ لذلك قولُه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم : « لا يَزني الزَّاني حينَ يَزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السَّارقُ حينَ يَسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ، والتَّوبةُ معروضةٌ بعدُ »[1]، فإذا ما زالت هذه الحالةُ بتذكرِ الإنسانِ إيمانَه، عادَ إليهِ اليقين وعادَ هو إلى يقينِه فرحاً مستبشراً مؤمِّلاً .

وهذا الذي ذكرنا يصدُقُ تماماً على غزوةِ بدرٍ، وأوَّلُ آيةٍ تحدَّثت عن غزوةِ بدرٍ حملَت هذهِ الحقيقةَ، وهي قولهُ سبحانه : ﴿ قَد كانَ لكُم آيةٌ في فِئَتَينِ التَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ في سبيلِ اللَّهِ وأُخرى كافِرة يَرونَهُم مِثلَيهِم رأيَ العينِ واللَّهُ يؤيِّدُ بِنَصرِهِ مَن يشاءُ إنَّ في ذلك لَعِبرَةً لأولي الأبصارِ ﴾[2].

وَتأتي هذهِ الآيةُ تهديداً لليهودِ أن يكونَ عاقبةُ أمرِهم على أيدِي المسلمينَ إن هُم ظلُّوا مقيمينَ على عداوَتِهِم ومكرِهِم كعاقبةِ المشركينَ الذين جاؤوا بخُيلائِهم إلى بدرٍ فكانَ عاقبةُ أمرِهم خُسراً، فهي تثيرُ فيهم النَّظر المتدبِّر للالتفاتِ إلى واقعِهم السيىءِ الذي غفلوا عنه غفلةَ المشركينَ عن واقعِهم، فأصابَهُم ما أصابَهُم، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ قَد كانَ لكُم آيةٌ في فئتينِ الْتقَتا ﴾، وهو التَّهديدُ الذي وجَّهَهُ القرآنُ للمشركينَ

(١) رواه مسلم .

(٢) آل عمران : ١٣ .

جميعاً إنْ لَم يتوبوا إلى رُشدِهم، ويُسلِموا إلى اللّهِ خالقِهم في قولهِ تعالى: ﴿ قُل للّذينَ كَفَروا إن يَنتَهوا يُغفَر لهم ما قَد سَلفَ وإن يَعودوا فَقَد مَضَت سنَّةُ الأوّلينَ ۝ وقاتِلُوهُم حتى لا تكُونَ فتنةٌ ويكونَ الدِّينُ كُلُّهُ للّهِ فإنِ انتَهوا فإنَّ اللّهَ بما يَعمَلون بَصيرٌ ﴾[١]، يقول ابنُ جريرٍ : « فمعنى الآية؛ قد كان لكُم يا معشرَ اليهودِ آيةٌ في فئتينِ التقتا، إحداهُما مسلِمةٌ والأخرى كافرةٌ، كثيرٌ عددُ الكافرةِ قليلٌ عددُ المسلمةِ، ترى الفئةُ القليلُ عددُها الكثيرَ عددُها أمثالاً أنّها إنّما تكثرُ مِنَ العددِ بمثلٍ واحدٍ، فهم يرونَهُم مثلَيهِم، فيكون أحدُ المثلين عند ذلك العددُ الذي هو مثلُ عددِ الفئةِ التي رأتهُم، والمثلُ الآخرُ الضِّعفُ الزّائدُ على عددِهم »[٢]، ويسوقُ ابنُ جريرٍ قبلَه خبراً عنِ ابنِ مسعودٍ قال : « قَد نَظرنا إلى المشركينَ فرأيناهُم يضعفونَ علينا، ثمَّ نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدونَ علينا رجلاً واحداً، وذلك قَولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وإذْ يُريكمُوهُم إذِ التَقَيتُم في أَعيُنِكُم قَليلاً ويُقلِّلُكُم في أعيُنِهم ﴾[٣] »[٤].

ونرى توكيدَ هذه الآية في قولِهِ سبحانه : ﴿ إذ يُريكَهُم اللّهُ في منامِكَ قَليلاً وَلو أراكَهُم كثيراً لَفَشِلتُم وَلتَنازَعتُم في الأمرِ ولكنَّ اللّهَ سلَّم إنَّهُ عليمٌ بذاتِ الصُّدور ۝ وإذْ يُريكُموهُم إذِ التقَيتُم في أعيُنِكُم قَليلاً ويقلِّلُكُم في أعيُنِهِم ليَقضيَ اللّهُ أمراً كانَ مَفعولاً وإلى اللّهِ تُرجَعُ

(١) الأنفال : ٣٨ و ٣٩ .

(٢) « تفسير الطبري » (٢٣٤/١) .

(٣) الأنفال : ٤٤ .

(٤) « تفسير الطبري » (٢٣٤/١) .

الأُمُورِ ﴾[1]، قال أبو جعفر : « يقولُ تعالى ذكرهُ : وإنَّ اللَّهَ يا محمَّدُ ! سميعٌ لما يقولُ أصحابُكَ، عليمٌ بما تُضمرونَه، إذ يُريكَ اللَّهُ عدوَّك وعدوَّهم ﴿ في منامِكَ قليلاً ﴾، يقول : يريكَهُم في نومك قليلاً، فتخبِرَهُم فبذلك، حتى قوَّيت قلوبَهم، واجترؤوا على حربِ عدوِّهم، ولو أراكَ ربُّكَ عدوَّكَ وعدوَّهم كثيراً لَفشلَ أصحابُكَ، فجبنوا وخافوا ولم يقدِروا على حربِ القومِ، ولتنازَعوا في ذلك، ولكنَّ اللَّهَ سلَّمَهُم مِن ذلك بما أراكَ في منامكَ من الرُّؤيا، وإذ يُري اللَّهُ نبيَّهُ في منامِهِ المشركينَ قليلاً، وإذْ يريهُم اللَّهُ المؤمنينَ إذْ لقوهم في أعينِهم قليلاً وهم كثيرٌ عددُهم، ويقلِّلُ المؤمنينَ في أعينِهم ليتركوا الاستعدادَ لهم، فتهونُ على المؤمنينَ شوكتُهم »[2].

وحينَ يكونُ هذا مِن بدايةِ المعركةِ، فإنَّ نهايَتها تكونُ واضحةً محدَّدةً في أذهانِ الجندِ المقاتلين، وتطغرُ نفوسُهم إليها في حماسةٍ وشدَّةٍ وحرصٍ على تحقيقِها على الوجهِ الذي وضَحت في أذهانِهم منذُ البدايةِ، وكانت بدرٌ هي التَّجربةُ الأولى التي خاضَها المسلمون جنباً إلى جنبِ مع نبيِّهِم، واللَّهُ يعلمُ ما تكنُّهُ الصُّدورُ وما تخفيهِ القلوبُ، فلا يسلمُهم اللَّهُ للرُّعبِ والجبنِ لتحيقَ بهم الهزيمةُ في أوَّلِ تجربةٍ عسكريَّةٍ، وبخاصَّةٍ وهُم على قلبِ رجلٍ واحدٍ في إجماعِهم على القتال مع النَّبيِّ، فكان التَّخفيفُ مِن اللّهِ سبحانه عليهم أن أراهُم عددَ عدوِّهم لا يزيدُ على

(1) الأنفال : ٤٣ و ٤٤ .

(2) « الطبري » (٦/٥٦٩-٥٧٢) .

مِثلَي عددِهم، فأن يلقى الرَّجلُ الرَّجلينِ ليس كما يلقى الرَّجلُ ثلاثةً أو أربعةً، وقلَّلهُم في أعينِ عدوِّهم، فلا يُلقُون لهم بالاً، ولا يأخُذونَ الأُهبةَ والاستعدادَ بالرُّوحِ المعنويَّةِ لهم، بل يستهينونَ بهم، فالتقى ذَكاءٌ عارِمٌ في روحِ المؤمنين المعنويَّةَ، واستهتارٌ وعدمُ مبالاةٍ من جانبِ المشركينَ، وهذا وحدَهُ كافٍ في استخلاصِ النَّصرِ ولو كان بين أنيابِ الذِّئابِ والأُسودِ .

وبعدما يَزيدُ على مئةِ آيةٍ من هذه الآيةِ تعود سورةُ ﴿ آل عمران ﴾ للحديثِ عن غزوةِ بدرٍ ... إنَّهُ انقطاعٌ طويلٌ بين الحديثِ عن بدايةِ المعركةِ والحديثِ عن وسطِها وآخرِها، ما الحكمةُ مِن هذا ؟ إنَّ القلمَ لا يُدركُ سرَّ هذا الانقطاع إلّا أن يكونَ طرحُ عنصرِ التَّشويقِ النَّفسيِّ يمدُّ قارئَ القرآنِ بحبلٍ طويلٍ منه ليعرفَ ما كان من بعدِ هذه البدايةِ النَّفيسةِ التي أشارَت بوضوحٍ إلى النَّتيجةِ الحاصلةِ، فكما أنَّ نفوسَ الجندِ المقاتلينَ كانت عارمةٌ بالحماسَةِ والحرصِ على تحقيقِ النَّصرِ، فليكن لقارِئَ أَحداثِ هذه الغزوةِ حظٌّ من الشَّوقِ لمعرفةِ ما قصَّ القرآنُ على النَّاسِ من خبرِها، وما انتَهت إليهِ بعدَ هذه البدايةِ الرَّائعةِ المطلولةِ بالرِّجاءِ، فيلتقي شوقُ القارئَ بعدَ قرونٍ معَ حماسةِ الجنديِّ المسلمِ قبلَ قرونٍ، فيؤلِّفانِ حبلاً متيناً يمسكُ بهِ المسلمونَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يرجونَ به النَّجاةَ من الذُّلِّ الذي يرتقبهُ الجبناءُ المخذولونَ وهم مقنعونَ رؤوسهم لا يَرَونَ أَمامهم إلّا ما يرى القائِمُ على بطنهِ ويصوِّب نظرةُ إلى ترابِ الأرضِ، وفي ذلك إثارةٌ للمؤثِّراتِ النَّفسيَّةِ، وتعميقٌ للرُّوح المعنويَّة، وإجلاءٌ لكلِّ

خذلانٍ مِن بينِ أظهُرِ المسلمينَ .

ويمتزجُ الحديثُ في هذه الآياتِ عن غزوةِ بدرٍ وأُحُدٍ معاً، مقارنةً وتذكيراً وتبصيراً وحضًّا، فيولَدُ مِن هذه جميعاً الاقتدارُ على الوقوفِ في وجهِ القوَّةِ المتمرِّدة الباغيةِ بعدَ التَّوكُّلِ على اللَّهِ سبحانه، فلا يكون الفشلُ الذي يدبِّرُ لهُ أهلُ الباطلِ لإيقاعِ أهلِ الحقِّ في حبائلِهِ، ووقعَ في بعضِهِ المسلمون في أُحُدٍ، قالَ تعالى : ﴿ وإذْ غَدَوتَ مِن أهلِكَ تُبوِّىءُ المؤمنينَ مقاعِدَ للقتالِ واللَّهُ سميعٌ عليمٌ ○ إذْ همَّت طائفتانِ منكُم أن تَفشَلا واللَّهُ وَليُّهما وعلى اللَّه فليتوكَّل المؤمنونَ ○ ولَقَد نَصَركُمُ اللَّهُ ببدرٍ وأنتُم أذلَّةٌ فاتَّقوا اللَّهَ لعلَّكُم تَشكُرونَ ○ إذ تقولُ لِلمؤمنينَ ألَن يَكفِيَكُم أن يُمِدَّكُم ربُّكُم بثلاثةِ آلافٍ مِنَ الملائكةِ مُنزَلينَ ○ بلى إن تَصبِروا وتتَّقوا ويأتُوكُم مِن فَورِهم هذا يُمدِدكُم ربُّكُم بخَمسةِ آلافٍ مِن الملائكةِ مسوِّمين ○ وما جَعلهُ اللَّهُ إلّا بُشرى لكُم وَلتَطمئنَّ قلوبُكُم بهِ وما النَّصرُ إلّا مِن عندِ اللَّهِ العزيزِ الحَكيمِ لِيقطعَ طَرفاً مِن الَّذين كَفَروا أو يَكبِتَهُم فَيَنقَلِبُوا خَائِبينَ ○ ليسَ لكَ مِنَ الأمرِ شَيءٌ أو يتوبَ عَليهم أو يُعذِّبهُم فإنَّهم ظالمونَ ○ وللَّهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ يَغفرُ لِمَن يَشاءُ ويُعذِّبُ مَن يَشاءُ واللَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾[1].

وهذا المزجُ التَّفصيليُّ في الحديثِ لم يكن لغيرِ بدرٍ وأُحُدٍ، إلّا ما جاءَ من إشارةٍ سريعةٍ إلى ما حقَّقهُ المسلمونَ من نصرٍ في مواطنَ كثيرةٍ،

(١) آل عمران : ١٢١-١٢٩ .

تذكيراً بنعمةِ اللَّهِ عليهم وهُم في موقفِ العجبِ الذي هاضَهُم في بدايةِ غزوةِ حُنينٍ، فَلمَّا ذهبت من نفوسِهم نشوةُ العجبِ بكثرتِهم عادَ إليهم النَّصرُ، ولَم يطُل الزَّمنُ بين الأمرينِ إلّا بمقدارِ ما فَزِعَت نفوسُهم إلى اللَّهِ، ووأَدوا تلكَ النَّشوةَ فيها، فأبصَروا الطَّريقَ، ولاحت لهم سيماء النَّصرِ المحقَّقِ .

وما دمنا بصددِ الكتابةِ عن غزوةِ بدرٍ فإنَّهُ يغنينا عنِ الكتابةِ عن غزوةِ أُحدٍ هنا ما سنفصِّلُ فيه القولَ عند الحديثِ عنها إلّا ما يجبُ أن يُذكرَ لاستكناهِ العبرةِ وما أجلَّها من عبرةٍ .

فقد همَّ الفشلُ بطائفتينِ من المسلمينَ، ودبَّ إلى قلوبِهم دبيبهُ، فلا يكون ذلك داعياً إلى وقوعِ الفشلِ فعلاً وإصابةِ المسلمينَ جميعاً بسهامِهِ، فإن كان ما وقعَ لهاتينِ الطَّائفتين مردُّه إلى القلَّةِ العدديَّة، أو إلى الظَّنِّ أن الإعدادَ عندهم لم يكن مكافئاً للإعدادِ عند قريشٍ وأشياعِها، أو عدمِ الاستعدادِ النَّفسيِّ لخوضِ قتالٍ ما نهزوا إليه ابتداءً، إلى غيرِ ذلك مِن الأسبابِ النَّفسيَّةِ أو الحسيَّةِ، فإنَّ في غزوةِ بدرٍ مثاراً للتَّأمُّلِ في أيِّ معركةٍ وقعَت بعدَها أو ستقَعُ، لترِدَ بكلِّ أسبابها الماديَّةِ والمعنويَّةِ إلى أرضِ بدرٍ لتقاسَ بها، ولا يظن أنَّ معركةً وقعَت لم يتحقَّق لها التَّكافؤُ الماديُّ الصِّرفُ كما كان لغزوةِ بدرٍ، بيدَ أنَّ التَّفوُّقَ الإيمانيَّ في جندِ الإسلامِ الذي فجَّرَ الطَّاقاتِ القتاليَّةَ البطوليَّةَ على أرضِ بدرٍ لم يكن للمشركينَ فيها نصيبٌ، فكانَ النَّصرُ الذي ذكَّرَ اللَّهُ بِهِ المسلمينَ نعمةً منه عليهم يومَ

أُحُدٍ : ﴿ وَلَقَد نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدرٍ وأنتُم أذِلَّةٌ فاتَّقوا اللَّهَ لعلَّكم تَشكرونَ ﴾[1]، هذا هو موطنُ العبرةِ البالغةِ ومناطُ الدَّرسِ المحكمِ في ذكرِ ما كان من نصرٍ حقَّقه اللَّهُ للمسلمين في بدرٍ .

والحديث عن غزوةِ بدرٍ في هذهِ الآياتِ جاءَ في قولهِ تعالى : ﴿ وَلَقَد نَصَرَكُم اللَّه ببدرٍ وأنتُم أذلَّةٌ فاتَّقوا اللَّهَ لعلَّكُم تَشكرونَ ○ إذ تقولُ للمؤمنين أَلَنْ يَكفيَكُم أن يُمدَّكُم ربُّكُم بثلاثةِ آلافٍ مِن الملائكةِ مُنزَلينَ ○ بلى إن تَصبِروا وتَتَّقُوا ويأتُوكُم مِن فَورِهم هذا يُمدِدكُم ربُّكُم بخَمسةِ آلافٍ مِن الملائكةِ مسَوِّمين ○ وما جَعلهُ اللَّهُ إلّا بُشرى لكُم ولِتَطمئنَّ قُلوبكُم بهِ وَما النَّصرُ إلّا مِن عِندِ اللَّهِ العزيزِ الحكيمِ ○ ليَقطعَ طَرفاً مِن الَّذينَ كَفروا أو يَكبِتَهُم فيَنقَلبُوا خَائبِينَ ﴾[2].

ويتوِّجُ القرآنُ الحديثَ عن غزوةِ بدرٍ بالنَّصرِ، لأنَّهُ إِحدى الغايتينِ اللتينِ ينتهي إليهما القتالُ، ولا يجدرُ بالمؤمنِ الذي يعرفُ قدرَ الجهادِ أنْ يحرصَ على غيرِهما في قتالِهِ، وإذا كانَ أجملُ ما يوضعُ على الرَّأس هو التَّاج، فإنَّ تاجَ المعركةِ هو النَّصرُ، لذا تصدَّر (النَّصرُ) الحديثَ عن غزوةِ بدرٍ، وبخاصَّة وأنَّ غزوةَ بَدرٍ هي غزوةُ الغزواتِ، فناسبَ أن يُصدَّرَ الحديثُ عنها بالنَّصرِ، فكان ذكرهُ في هذا الموضع يشبهُ البُشرى للمؤمنينَ في أيِّ غزوةٍ لموقعهِ بعدَ شيءٍ مِن الحديثِ عن غزوةِ أُحدٍ التي دبَّ الإحساسُ بالفشل إلى صدورِ بعضِ مَن شَهِدوها .

---

(١) آل عمران : ١٢٣ .

(٢) آل عمران : ١٢٣-١٢٧ .

ولم يكنْ تحقُّقُ النَّصرِ للمؤمنينَ في بدرٍ لتفوّقٍ في العَدَدِ والعُدَدِ، فقد كانوا مستضعفين يخافونَ أن يتخطَّفَهُم النَّاسُ مِن أرضِهم: ﴿ واذْكُروا إذْ أنتُم قليلٌ مُستَضعَفُونَ في الأرضِ تَخافونَ أن يَتَخطَّفَكُم النَّاسُ فآواكُم وأيَّدكُم بِنَصرِهِ ورَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّباتِ لَعلَّكُم تَشكُرون ﴾[1]، فَقد كانَ لشيءٍ آخرَ لا يَخضَعُ لِتقديرِ العَقلِ وَتجربةِ الإرادَةِ الإنسانيَّةِ .

وفي هذهِ الآية زيادةُ فَضلٍ مِن اللّهِ عَلى المؤمِنين أحرزوها إلى جانبِ النَّصرِ البهيجِ، فَمع الاستضعافِ والخوفِ وقلَّةِ العددِ لا يمكنُ أنْ يكونَ نصرٌ في حسابِ العقلِ المجرّدِ، لكنَّ حسابَ العقلِ لم يكن له موردٌ هنا في غزوةِ بدرٍ، فقد طُمسَتِ الأرقامُ، وغابَت النِسبُ، وتهاوَتِ المقاديرُ، ولم يبقَ منازعٌ للإيمانِ - المنحةُ الإلهيَّة الخالصةُ للمؤمنينَ في بدرٍ - وخلصَ الإيمانُ بأهلِهِ إلى النَّتيجةِ الدَّقيقةِ التي ليس لغيرِها موقعٌ هنا، فكان مع نعمةِ النَّصرِ والظهورِ على المشركينَ الأمنُ والرِّزقُ الذي أَصابوه أنفالاً وغنائمَ .

ومعَ الذِّلَّةِ يكونُ الاستضعافُ والخوفُ، ومع العزَّةِ تكونُ القوَّةُ والأمنُ، فالتَّعبير في آيةِ ﴿ آل عمران ﴾ بالذلَّةِ في قولِهِ: ﴿ وأنتُم أذلَّةٌ ﴾ مُشعرةٌ بما صرَّحَت به آيةُ ﴿ الأنفال ﴾ في قوله: ﴿ مُستَضعَفون تخافونَ أن يَتخطَّفكُم النَّاسُ ﴾[2] فأغنَت كلمةٌ عن تركيبٍ .

---

(١) و (٢) الأنفال: ٢٦ .

وجملةُ ﴿ وأَنتُم أذلَّةٌ ﴾ قيدٌ حاليٌّ لما كان عليهِ المؤمنونَ عند إصابَتِهُم النَّصرَ، فهي لا تُشعِرُ مَن هُم عليها بما يمكنُ أن يُصيبوا مِن النَّصرِ إلّا إذا كان لهم تعلُّقٌ آخرُ خفيٌّ لا يراه النَّاسُ ولا يُدرَكُ بالتَّأمُّلِ العقليِّ فيكونُ لهم به رجاءٌ، وحين يكونُ يكونُ فجأةً بلا مقدِّماتٍ، فتختلطُ المقدِّماتُ بالنَّتيجةِ حتى يكونا شيئاً واحداً لا يُميَّزُ أَحدهما مِن الآخرِ .

وإذا تحقَّق النَّصرُ فيجبُ أَن يكونَ له شيءٌ يحميهِ مِن التَّفرقِ والتَّشتُّتِ والانفصالِ عن أهلهِ، فيظلُّ محمولاً في قلوبهِم، وليسَ يحميهِ شيءٌ كالتَّقوى، ومهمَّةُ المحافظة على النَّصرِ بعدَ إحرازهِ أخطرُ وأصعبُ مِن مهمَّةِ الحرصِ على إحرازهِ، فيفرِّطونَ فيهِ، فيتسلَّلُ من بينِ أظهرِهم وهم لا يشعرونَ، حتى إذا فاجأتهُمُ الكوارثُ العاديَّةُ بتفريطِهم ذكروا تقصيرَهُم حيالَ النَّصرِ، ولكن تذكُّرهُم تقصيرَهم لا يعيدُ لهم شيئاً مما فاتَ، فتسقُطُ رؤوسُهُم على صدورِهم ندامةً وهمًّا .

والتَّقوى نعمةُ عظيمةٌ تحفظُ كلَّ نعمةٍ دونها فهي سيدتُها وحافظتها، لذا كان مطلوباً ممَّن وُفِّقوا لنيلِها أن يَشكروا المنعمَ بها عليهِم سبحانه، وهو حقيقٌ بالشُّكرِ والثَّناءِ لأَنَّهُ اللَّهُ .

وتلوحُ للمؤمنينَ - وهم يتناوَشونَ الموتَ فيفرُّ مِن بينِ أيديهِم مُندفِعاً نحوَ رقابِ صناديدِ قريشٍ وبُغاتِها - تباشيرُ النَّصرِ، إذ تتنزَّلُ عليهِم

الملائكةُ تحملُ التَّأييدَ معها والتَّسديدَ لهذه القلَّةِ المؤمنةِ المباركةِ، ينقلُها إليهم النَّبيُّ القائدُ البصيرُ الملهمُ : ﴿ أَلَن يَكفيَكُم أَنْ يُمِدَّكُم ربُّكُم بِثَلاثةِ آلافٍ مِن الملائكةِ مُنزَلين ٥ بَلى إن تَصبِروا وتَتَّقوا ويأتوكُم مِن فَورِهِم هذا يُمدِدكُم ربُّكُم بِخَمسةِ آلافٍ مِن الملائِكَةِ مُسوِّمينَ ﴾[1]، وفي سورة ﴿ الأنفال ﴾ : ﴿ إذ تَستَغيثونَ ربَّكُم فاستجابَ لكُم أنِّي مُمِدُّكُم بألفٍ مِنَ الملائكَةِ مُردِفين ﴾[2]، والإردافُ هو التَّتابعُ في اللغةِ، يقالُ : (أردَفتهُ ورَدِفتُهُ بمعنى : تبعته واتبعتهُ، فلا يكون تعارضٌ بين آيةِ ﴿ الأنفال ﴾ وآيتي ﴿ آل عمران ﴾، فالمعنى على ذلك يكون : أنَّ اللَّهَ أتبعَ الملائكة بعضَهُم بَعضاً تأييداً للمؤمنينَ حتى انتهى عدَدهُم إلى خمسةِ آلافٍ معلمينَ، وكلمة ﴿ مردفين ﴾ في ﴿ الأنفال ﴾ أجملت الثَّلاثةَ والخمسةَ التي ذُكِرَت في ﴿ آل عمران ﴾ فأغنَت عن ذكرِها، قالَ ابنُ جريرٍ : « يجعلُ اللَّهُ إردافَ الملائكةِ بعضِها بعضاً وتتابُعها بالمصيرِ إليكم - أيُّها المؤمنون ! - مدداً لكم وبشارةً لكم، تبشِّرَكُم بنصرِ اللَّهِ إيَّاكُم، وما تُنصَرونَ على عدوِّكُم أيُّها المؤمنون ! إلّا أنْ ينصرَكُم اللَّهُ عليهم، لا بشدَّةِ بأسِكُم وقواكم، بَل بنصرِ اللَّهِ لكم، لأنَّ ذلك بيدهِ وإليهِ، ينصرُ مَن يشاءُ مِن خَلقهِ فهو العزيزُ الذي لا يقهرهُ شيءٌ ولا يغلبهُ غالبٌ، بل يقهرُ كلَّ شيء ويغلِبهُ لأنَّهُ خَلَقَهُ، وهو الحكيمُ في تدبيرهِ ونصرهِ مَن ينصرُهُ وخُذلانهِ من خَذلَ مِن خلقهِ، لا يدخلُ تدبيرَه وهنٌ ولا

---

(١) آل عمران : ١٢٤-١٢٥ .
(٢) الأنفال : ٩ .

خَللٌ »[1].

وهذه الآيات في ﴿ الأنفال ﴾ و ﴿ آل عمران ﴾ لَم تذكر أنَّهُ كانَ مِن الملائكةِ قِتالٌ، بَل كان نزولُهم تبشيراً للمؤمنينَ بالنَّصر يحرزونه على المشركين، وقد جاءَ لفظُ البشرى في الموضعينِ واحداً مع اختلافٍ يسيرٍ في جملةِ التَّركيبين، ففي ﴿ آل عمران ﴾ : ﴿ وما جعَلَهُ اللَّهُ إلّا بُشرى لكُم ولِتَطمئنَّ قُلوبكُم بهِ وَما النَّصرُ إلّا مِن عِندِ اللَّهِ العزيزِ الحكيم ﴾[2]، وفي ﴿ الأنفال ﴾ : ﴿ وما جعَلَهُ اللَّهُ إلّا بُشرَى ولِتَطمَئِنَّ بهِ قُلوبُكُم وما النَّصرُ إلّا مِن عِندِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾[3]، والعقلُ يؤيِّد تماماً ما ذكرهُ القرآنُ، فإنَّ مَلكاً واحداً - ولنقل هو جبريلَ - يكفي بأمرِ اللَّه لَه أن يحوِّل الجبالَ هباءً، والصخورَ تُراباً، وَأن يجعلَ البحرَ يابسةً واليابسةَ بحراً، والحزنَ سهلاً والسَّهلَ حَزناً، إلى غيرِ ذلكَ، فلو شاءَ اللَّهُ أَن يهزمَ المشركينَ ومحمَّدٌ وأصحابهُ في دُورِهم لفعلَ ذلك، لكنَّ اللَّهَ أرادَ أن يكونَ لهم عملٌ كَسبيٌّ يُثابونَ عليه عندَهُ، فلا حاجَةَ إذاً لنزولِ هذا العددِ اللجبِ مِن الملائكةِ إلّا أن يكونَ ذلك تكريماً من اللَّهِ لتلكَ القلَّةِ المؤمنةِ المباركةِ، ليحملَ هذا العددُ كلُّه البشرى بالنَّصرِ لهذهِ الفئةِ .

ولكي لا يكون لهؤلاءِ المؤمنينَ المقاتلينَ في بدرٍ أو في غيرِ بدرٍ لِنوالِهم النَّصرَ استشرافٌ قلبيٌّ يردُّونَ به النَّصرَ إلى أنفسِهم قرَّر اللَّهُ في

---

(١) « تفسير الطبري » (١٢/٤١٧-٤١٨) .

(٢) آل عمران : ١٢٦ . (٣) الأنفال : ١٠ .

هذا الموقفِ حقيقةً لا ينبغي أن تغيبَ عن بالِ أَحدٍ منهم في أيِّ وقتٍ من رخاءٍ أو شدَّةٍ وهي في قولِهِ سبحانه : ﴿ وما النَّصرُ إلّا مِن عِندِ اللَّهِ العَزيزِ الحكيمِ ﴾[1]، وإذا كانَ النَّصرُ من عندِ اللَّهِ سبحانهُ وحدَه فلا يحسنُ بالمؤمنين سواءٌ وهُم يقاتِلونَ في أرضِ المعركة أم وهُم يَستَعدُّونَ للقتالِ أنْ يكونَ لغيرِ اللَّهِ وَأسبابِ طاعَتهِ حضورٌ في أذهانِهم، واللَّهُ سبحانه يعلمُ ما تُخفي الصُّدورُ، فَعلمُهُ بحالِ المؤمنينَ يكفُلُ لهم النَّصرَ، ويمنحُهم أسبابَه، وتلوحُ لهُم سيماؤُهُ في الأُفقِ قبلَ أن تتحرَّكَ سنابِكُ خيلِهِم أو أقدامُهم على أرضِ القتالِ، وهذا ما كان مِن أصحابِ رسولِ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وهم يقاتلون تحتَ إمرتهِ في بدرٍ .

والتَّحوُّل الضَّخمُ الذي وقعَ للصَّحابةِ والنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يستثيرُهم بمثلِ السُّرعةِ التي كانَ، لم يتحقَّق لأيِّ فئةٍ في تاريخِ الحروبِ على الإطلاقِ، فهم قد خرجوا بقيادةِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بتقديرِ الحكيمِ الخبيرِ للاعتراضِ لقافلةِ أبي سفيانَ العظيمةِ وقادَهُم القَدرُ إلى أرضِ بدرٍ، فوجَدُوا أنفُسَهُم وجهاً لوجهٍ معَ قوَّةِ المشركينَ التي خَرجَت هي أيضاً من مكَّةَ لحمايةِ القافلةِ .

وهنا يدخلُ الصَّحابةُ في تجربةٍ جديدةٍ ليسَ لهم بها عهدٌ، لا يجدون عنها تحوُّلاً ولا محيصاً، وتعتلجُ في صدورِهم عواملُ مختلفةٌ تقسِمُهم فريقينِ اثنين، فريقٌ يَذكرُ ما فاتَه ممَّا كان يؤمِّلُ مِن فيءِ القافلةِ،

(١) آل عمران : ١٢٦ .

وفريقٌ ينظرُ إلى ما ينتظرهُ ممَّا يرجو مِن أجرٍ يُبوِّؤهُم منازلَ عاليةً في الآخرةِ، والفريقانِ هُم أطهرُ أهلِ الأرضِ وأحبُّهُم إلى اللّهِ حينذاك، ولا يُنتقصُ الفريقُ الأوَّلُ منها بِما كان يُؤثِرُ، فقد وصَفهُم اللّهُ بالمؤمنينَ، ولكنَّهُم اجتهدوا بما كانوا يؤمِّلونَ مِن غير ذاتِ الشَّوكَةِ، وفي ذَلك يقولُ القرآنُ : ﴿ كَما أَخرجَكَ ربُّكَ مِن بيتِكَ بالحقِّ وإنَّ فريقاً مِن المؤمنينَ لكَارِهُون ٥ يُجادلونَكَ في الحقِّ بعدَما تبيَّنَ كأنَّهم يُساقونَ إلى الموتِ وهم ينظرون ﴾[1].

وإذا كان فريقٌ قد آثرَ الأُولى على الثَّانيةِ، فإنَّ الفريقَ الآخرَ استطاعَ أن يؤثِّرَ بصلابَتِهِ وشدَّةِ موقفهِ وإيثارِهِ الثَّانيةَ على الأُولى على الفريقِ الأوَّلِ، ليصبحَ موقف الفريقينِ مُتلاحِماً واحِداً شديدَ البأسِ مُرهِباً، وكأنَّ موعودَ اللّهِ بالنَّصرِ كانَ منكشفاً لهم كلّه، لإحقاقِ الحقِّ - بكلماتِ اللّهِ وآياتِهِ التي ما كانَ الجهادُ في سبيلِ اللّهِ إلّا لحمايَتِها ونشرِها، فتكونُ كلمةُ اللّهِ هي العُليا في الأرضِ - وإزهاقِ الباطلِ فتكون كلمةُ الَّذينَ كفروا هي السُّفلى ثمَّ لا تلبثُ أن تضلَّ في رمالِ الصَّحراءِ : ﴿ وإذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحدَى الطَّائِفَتينِ أنَّها لكُم وتَودُّونَ أنَّ غَيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تكونُ لكُم ويُريدُ اللّهُ أن يُحِقَّ الحقَّ بِكَلِماتهِ ويَقطعَ دابِرَ الكافرينَ ٥ ليُحِقَّ الحقَّ ويُبطِلَ الباطلَ ولو كَرِهَ المُجرِمونَ ﴾[2].

وَحين يشتدُّ البأسُ ويطبقُ الرّعبُ على الإنسانِ لا يجدُ النَّومُ إلى

---

(١) الأنفال : ٥ و ٦ .

(٢) الأنفال : ٧ و ٨ .

عينيهِ سبيلاً، فغريزةُ الخوفِ تشتدُّ فيه حتى تطغى على كلِّ غريزةٍ، فتخنَسُ كلُّها إلّا هِيَ .

ولا أحسبُ أنَّ الرعبَ لو كان يكونُ أكثرَ منه في بدرٍ حيثُ لا تكافؤَ لا في عَدَدٍ ولا في عُدَدٍ، ثُمَّ لا يكونُ إلّا يقظةً عارمةً تندفعُ بكلِّ عراقَتِها في أعصابِ المسلمينَ، وتنسابُ شديدةً مع دَمائِهم، لكنَّ الرُّعبَ كان نسياً منسيًّا، وَلَم يكن له في صدورِهم ولا بينَ أظهُرِهِم مقامٌ، والمقاتلُ لكي يقوى على الوقوفِ بشجاعةٍ وقوَّةٍ أمامَ العدوِّ لا بدَّ لجسمهِ مِن قِسطٍ وافرٍ منَ الرَّاحةِ، وهذه لا تتحقَّقُ إلّا بالنَّومِ، فألقى اللَّهُ عليهم النَّومَ فناموا مِلءَ جفونِهم، وكانَ للشيطانِ حظٌّ فيهم فأصابتهم الجنابةُ فأُمطروا، قال تعالى : ﴿ إذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنةً مِنهُ ويُنزِّلُ عليكم مِنَ السَّماءِ ماءً ليُطهِّرَكُم بهِ ويُذهبَ عنكُم رِجزَ الشَّيطانِ وليَربِطَ على قُلوبِكُم ويثبِّتَ بهِ الأقدامَ ﴾[1].

يستيقظُ المسلمون مِن نومِهم وصدورُهم مملوءةٌ حماسةً، وأجسادُهم قَد أخذَت راحتَها، وعيونُهم ناظِرةٌ بأمرِ ربِّها إلى الغايةِ الرَّاشدة المستكنَّةِ وراءَ العُدوةِ القُصوى، وأرواحُهم تنقلُ الرَّجاءَ العظيمَ إلى الَّذينَ خُلِّفوا وراءَهم في المدينةِ وتهتِفُ لهُم بالبُشرى، واليقينُ يملأُ أقطارَ نفوسِهم إنَّ النَّصرَ منهم لَقريبٌ، فقد رأَوا مِن آياتِ ربِّهم ما يزيدُ مِن يقينهِم بهِ في كلِّ لحظةٍ، ولاحَت لهم في الآفاقِ ظُلَلُ الملائكةِ تتنزَّلُ

(١) الأنفال : ١١ .

بالبشرى والتَّثبيت ﴿ فثبِّتوا الَّذينَ آمَنوا ﴾[1].

وتدورُ رَحى المعركةِ في غيرِ تكافؤٍ لا في العَدد ولا في العُدَدِ، ويقدمُ المشركونَ في غطرسةٍ واستكبارٍ وازدراءٍ واستهانةٍ للفئةِ المؤمنةِ القليلةِ المستضعفةِ، وتنشبُ أوارُ الحربِ، ويقفُ الإيمانُ والشِّركُ وجهاً لوجهٍ فوقَ أرضِ بدرٍ لأوَّل مرَّةٍ في تاريخِ الجزيرةِ، ويعلو صوتُ الوحيِ إلهاماً للفئةِ القليلةِ المستضعفةِ المستيقنةِ الواثقةِ أن ﴿ فَاضرِبوا فَوقَ الأعناقِ واضرِبوا مِنهُم كُلَّ بَنانٍ ﴾[2]، فالأعناق تُضرب لأنَّها الرُّؤوس التي عليها بَيتُ التَّفكيرِ والتَّدبيرِ، والأيدي تُقطَعُ لأنَّها تنفِّذُ ما تفكِّرُ وتدبِّرُ تلكَ الرُّؤوسُ، وقد ظلَّت هذه الرُّؤوس والأيدي تمكرُ بالمسلمين وتوقِعُ الأذى بهم ثلاثةَ عشرَ عاماً، والآنَ جاءَ أوانُ قَطعِها وبَترِها، وَلم يكُن ذلكَ في حسبانِ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم وأصحابِهِ، ولكنَّ إرادةَ اللَّهِ ساقَت لهُم قُريشاً بكلِّ خُيلائها كي تذوقَ جَزاءَ ما أصابَت من أُولئكَ المستضعفين، وكانَ أمرُ اللَّهِ قَدراً مَقدُوراً : ﴿ إذْ يُوحي رَبُّكَ إلى الملائِكَةِ أنِّي مَعكُم فثبِّتوا الَّذينَ آمَنوا سأُلقي في قُلوبِ الَّذين كَفرُوا الرُّعبَ فاضرِبوا فَوقَ الأعناقِ واضرِبوا مِنهُم كُلَّ بَنانٍ ۝ ذلكَ بأنَّهُم شاقُّوا اللَّهَ ورسولَهُ ومَن يُشاقِقِ اللَّهَ ورسولَهُ فإنَّ اللَّهَ شَديدُ العِقاب ﴾[3]، ولما وقَعت أبصارُ المشركين على أصحابِ محمَّدٍ وهم يقفونَ في بسالةٍ، وشَررُ الموتِ يتطايرُ من فوقِ رؤوسِهِم، والسَّكينةُ تَغشاهم، امتلأَت

---

(١) و (٢) الأنفال : ١٢ .

(٣) الأنفال : ١٢ و ١٣ .

قلوبُهم رُعباً ﴿ سأُلقي في قُلوبِ الَّذينَ كَفرُوا الرُّعبَ ﴾[1].

وكان ثباتُ أصحابِ محمَّدٍ درساً لا ينساهُ التَّاريخُ، ولا يغيبُ عن عقولِ الأجيالِ، فقد كان الواحدُ منهم كأنَّهُ جبلٌ لا يُحِسُّ بالصخورِ الصَّغيرةِ وهي تتدحرَجُ على سفوحِهِ، فما وَهَنُوا، ولا نَكَصُوا، ولا مالوا إلى مهربٍ، ولا اختلفوا على قائِدِهِم، رغمَ كثافةِ عددِ المشركينَ وكثرةِ عُدَدِهم : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا لَقِيتُمُ الَّذينَ كَفروا زَحفاً فلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبارَ ﴾[2]، وأنشأَ القرآنُ قاعدةً قتاليَّةً مِن واقعِ المقاتلينَ الصَّحابةِ : ﴿ ومَن يُوَلِّهِم يومَئِذٍ دُبُرَهُ إلّا مُتَحرِّفاً لِقِتالٍ أو مُتَحيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَد باءَ بِغَضَبٍ مِن اللَّهِ ومأواهُ جَهنَّمُ وبئسَ المصيرُ ﴾[3]، فكانَت غزوةُ بدرٍ مصدرَ تشريعٍ محكمٍ سديدٍ للقتالِ في الإسلامِ، ولا يُلتفَتُ إلى قولِ مَن قال بِنسخِ هذه الآيةِ بقولِهِ تعالى : ﴿ الآنَ خفَّفَ اللَّهُ عَنكُم وعَلِمَ أنَّ فيكُم ضَعفاً فإن يكُن مِنكُم مائةٌ صابرةٌ يَغلِبوا مائتين وإنْ يَكُن منكُم ألفٌ يغلِبوا ألفَين بإذنِ اللَّهِ واللَّهُ معَ الصَّابرينَ ﴾[4]؛ لأنَّهُ لا حجَّةَ بيِّنةً ظاهرةً في النَّسخِ، قال أبو جعفرٍ في تأويلِ هذه الآيةِ : « وأَولى التَّأويلينِ في هذه الآيةِ بالصَّوابِ عندي قولُ مَن قال : حكمُها مُحكَمٌ، وأنَّها نزلَت في أهلِ بَدرٍ، وحُكمُها ثابتٌ في جميعِ المؤمنينَ، وأنَّ اللَّهَ حرَّمَ على المؤمنينَ إذا لَقوا العدوَ أن يُولُّوهُم الدُّبرَ منهزِمين إلّا لتحرفٍ لقتالٍ، أو لتحيزٍ إلى

---

(١) الانفال : ١٢ .
(٢) الأنفال : ١٥ .
(٣) الأنفال : ١٦ .
(٤) الأنفال : ٦٦ .

فئةٍ مِنَ المؤمنينَ حيثُ كانَت مِن أرضِ الإسلامِ، وأنَّ مَن ولَّاهُمُ الدُّبرَ بعدَ الزَّحفِ لقتالٍ منهزِماً بعدَ نيَّةٍ إِحدى الخلتين اللتين أباحَ اللَّهُ التَّولية بهما فقد استوجبَ مِن اللَّهِ وعيدَه، إلّا أن يتفضَّلَ عليهِ بِعَفوِه » .

وإذا كان اللَّهُ سبحانه قد شرعَ الأخذَ بالأسبابِ فليسَ معناه أنَّ ذلك هو الذي يحقِّقُ النَّتيجة على الوجهِ المقدَّرِ لها أو غيرِ المقدَّرِ، فكثيراً ما ترى الأسبابَ مُعطَّلةً وهي متبعةٌ، فيجبُ ردُّ الأسبابِ إلى مصدرِها مع الحرصِ عليها وعدمِ التَّفريطِ بواحدٍ منها، معَ الاعتقادِ بوجوبِ الأخذِ بها، والمقاتلُ حين يلجُ بابَ المعركةِ ويفضي إلى ساحتها لا يجوزُ أن يعقدَ الرَّجاءَ إلّا على وجهِ اللَّهِ سبحانه وحدَه، وقد ضربَ الصَّحابةُ في بدرٍ المثلَ الأعلى في ذلك، فعَرَفوا نعمةَ اللَّهِ عليهم بإظهارِهِ إيَّاهُم على عدوِّهم معَ قلَّةِ عَددِهم وقلَّة عُدَدهم ليعرفوا بذلك حقَّه وليشكروا بذلك نعمَتهُ قالَ تعالى : ﴿ فَلَم تَقتُلوهُم وَلكنَّ اللَّهَ قَتَلَهُم وما رَمَيتَ إذْ رَمَيتَ وَلكنَّ اللَّه رَمى وليُبلِيَ المؤمنينَ مِنهُ بلاءً حَسَناً إنَّ اللَّهَ سَميعٌ عليمٌ ﴾[1].

ثمَّ يلفتُ اللَّهُ المسلمينَ إلى أن يصرفوا كلَّ ما أصابوا من نُجحٍ ونصرٍ إلى اللَّهِ وحدَه، وأَن لا يكونَ للغرورِ سبيلٌ إلى قلوبهم فيكونوا على شاكِلةِ الكفَّار الَّذينَ أَوقعوا أنفُسَهُم بغرورِهم في شباكِ الموتِ، وتجرَّعوا غُصَصَ الذُّلِّ المرةِ الكريهَةِ، وأن ينظروا للنَّصرِ الذي أحرَزوهُ إلى أنَّهُ نِعمةٌ عظيمة أَنزَلها اللَّهُ عليهم، قالَ تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالَّذينَ خَرجوا مِن

(١) الأنفال : ١٧ .

دِيارِهِم بَطَراً ورِئاءَ النَّاسِ ويَصدُّونَ عَن سبيلِ اللَّهِ واللَّهُ بما يعملونَ مُحيطٌ ٥ وإذْ زيَّنَ لَهُم الشَّيطانُ أعمالَهُم وقالَ لا غالِبَ لكُم اليومَ منَ النَّاسِ وإنِّي جارٌ لكُم فلمَّا تراءَتِ الفِئتانِ نَكَصَ على عَقِبَيهِ وقالَ إنِّي بريءٌ منكم إنِّي أرى ما لا تَرَونَ إنِّي أخَافُ اللَّهَ واللَّهُ شديدُ العقابِ ﴾[1].

وعرَّفَ اللَّهُ الصَّحابة نِعمَهُ التي أَصابوها بانتصارِهم في بدرٍ بقولِهِ : ﴿ ذلكُم وَأنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيد الكافرينَ ﴾[2]، قالَ ابنُ جريرٍ : « يعني جلَّ ثناؤه : ﴿ ذلكم ﴾ هذا الفعلُ مِن قَتلِ المشركينَ وإمكانِهم من قَتلِهِم وأَسْرِهم فعلُنا، ﴿ وأنَّ اللَّهَ مُوهنُ كيد الكافرينَ ﴾، يقولُ : واعلَموا أنَّ اللَّهَ مع ذلك يُضعِفُ كيدَ الكافرين - يعني: مكرهم - حتى يذلُّوا وينقادوا للحقِّ أو يهلكوا »[3]، وقد تحقَّقَ موعودُ اللَّهِ لهم بذلِكَ، فكان انتصارُهم في غزوةِ بدرٍ وظهورُهُم على قريش وكِبرِها سبباً في وقوعِ الرُّعبِ في قُلوبِ المشركينَ من أهلِ الجزيرةِ الذين كانوا يَرَونَ في قريشٍ دِرعاً حاميةً لهم أن ينالَهُم محمَّدٌ بمكروهٍ، أو أن يجعلَ لدينهِ سُلطاناً قلبيًّا عليهم، فلا يملكون مِن ثَمَّ إلَّا الاستجابة له ونبذ دينهِمُ الوارثيهِ عن آبائِهِم .

ولا ينسى القرآنُ دَورَ المنافقينَ المرجفين كعادتِهِمُ التي لم تتخلَّف

(١) الأنفال : ٤٧-٤٨ .

(٢) الأنفال : ١٨ .

(٣) « تفسير الطبري » (١٣/٤٤٩) .

يوماً عن أمرٍ ذي بالٍ يفطنونَ إليهِ من أُمورِ المسلمينَ، وأيُّ أمرٍ أشدُّ خَطراً منَ القتالِ ؟ ﴿ إِذْ يقولُ المنافقونَ والَّذينَ في قلوبِهِم مَرَضٌ غرَّ هؤلاءِ دينُهُم ومَن يَتوكَّل على اللَّهِ فإنَّ اللَّهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾[1]، والنِّفاقُ لَم يكن في مكَّةَ كما هو معلومٌ، فإن كانَ بعضُ المنافقينَ خرجوا مِنَ المدينةِ مع النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم طمعاً في القافلةِ أن يُصِيبوا منها فَهُمُ الذين عناهُم القرآنُ، وهذا أقربُ إلى صريحِ الآيةِ، فإنَّ وصفَ النِّفاقِ لا ينزِلُ إلّا على الذين كانوا في المدينة فعلاً، وشابَهُم الحسدُ فكانَ مِن أمرِهم ما كان، وإن كانوا نفراً مِن مكَّةَ تكتَّموا في الإسلام خرجوا مع المشركين من مكَّةَ، فإطلاقُ وَصفِ النِّفاقِ عليهم فيه تجوُّزٌ إذ أَشبهوا المنافقين في مقالتِهم هذه .

وسواءٌ أكانوا أُولئكَ أم كانوا هَؤلاء فإنَّ مقالَتَهم هذهِ مقالةٌ لا يقولُها إلّا مِن كانَ في قلبهِ مَرضٌ، ويتمنَّى أن يُصابَ المسلمونَ بشرٍّ ما يصابُ ناسٌ في دنياهم، ولا تنبىءُ إلّا عَن دَخِيلةٍ تَستَعِرُ بنارِ المكرِ والسُّوءِ .

وسواءٌ أَقيلَت هذه الكلمة بصوتٍ مسموعٍ أم بصوتٍ مهموسٍ، فهي في الشَّرِّ سواءٌ، فإن كانَت الأُولى عَملت في نُفوسِ الضعفاءِ عمَلَها في التَّخذيلِ والتَّثبيطِ، وإن كانَت الثَّانيةُ فيكفي فِيها أنَّها توافِقُ هوىً في نُفوسِ غيرِهم ممَّن لم يشهَدُوا بدراً إذا اشتركوا في غزوةٍ أخرى، فإمَّا أن

(١) الأنفال : ٤٩ .

يُعيدوها على ملإٍ، فيصيبوا شيئاً يؤملونَهُ، وإمَّا أن يجدوا فيها عزاءً لأنفسهم أنَّها قيلت من قبلُ، فألقوا سمعهم إليها من بعد، فتناهت إليهم في سرٍّ ففرِحُوا بِها، وفي هذا القدرِ - إن عجزوا عن أكبرِ منهُ - عزاءٌ لنفوسِهمُ المريضةِ، فالحسدُ حالةٌ مرضيَّةٌ تنعكِسُ فيها الأشياءُ فتطحنُ كلَّ ما يشامُ فيهِ شيءٌ من خيرٍ ولو بعدَ حينٍ، وهو كما نعلمُ أوَّلُ درجاتِ النِّفاقِ، فإذا تفشَّى واستطالَ في النَّفسِ أصبحَ في منزلةٍ بينَ منزلتينِ، فإذا تسلَّط على القلبِ بهِ فأَحنى على صاحبهِ بكلِّ مؤثمةٍ من الهوى المفضي إلى سوءِ القولِ والفعلِ فهو النِّفاقُ المضلُّ الهاوي بأهلهِ إلى الدَّركِ الأَسفلِ من النَّار .

وفي غزوةِ بدرٍ لَم يجدِ المنافقونَ سبيلاً إلى أَكثرِ مِن قولهِمُ الذي قالوا، لأَنَّ النِّفاقَ لا يزال حديثَ عهدٍ بالأرضِ، ولَم يكُن المنافقونَ بعدُ قَد رأوا مِن خطرٍ يهدِّدهُم بدعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم فكانوا أقربَ إلى الموادعةِ والسُّكونِ، ولَو دَرَوا أنَّ النَّبيَّ سينتصرُ هذا الانتصار الرَّاغِم لأنوفِهم وأنفِ الكُفر مَعَهُم لأشعلوا المدينةَ ناراً ولأثاروا الجزيرة كلَّها ضِدَّهُ .

ولكنَّ اللَّه لهم بالمرصادِ في كلِّ مكرِهم فهو يبورُ، وتبقى الغَلبةُ القاهِرَةُ للَّهِ يَهبُها نبيَّهُ والمؤمنينَ ما ظلَّت وجوهُهم صامدة لوجهِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ توكُّلاً عليه ورجاءً فيه : ﴿ ومَن يتوكَّل عَلى اللَّهِ فإنَّ اللَّهَ عزيزٌ

حكيمٌ ﴾[1].

ومع كلِّ البشائر والأماراتِ التي أزجاها اللَّهُ للمؤمنينَ يومَ بَدرٍ بأنَّ النَّصرَ منهم دانٍ قريبٌ، فَقد أشعلَ النَّبيُّ الحماسةَ في قلوبِ أصحابهِ بتحريضهِ إيَّاهم على مناجزتِهمُ المشركينَ وصبرِهمُ على مشقَّةِ القتالِ : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ حَرِّضِ المؤمنينَ على القِتالِ إن يكُن مِنكُم عِشرونَ صابِرونَ يغلِبوا مائتين وإن يَكُن منكم مائةٌ يغلبوا أَلفاً مِنَ الذَّين كَفَروا بِأنَّهُم قومٌ لا يفقَهون ﴾[2].

وهؤلاءِ المؤمنونَ كانوا على قلبِ رجلٍ واحدٍ في عقيدتِهم وتماسُكِ صفِّهم وقوَّةِ بنيانِهم واجتماعِهم على حُبِّ نبيِّهم وصدقِ أُخُوَّتِهم، فأيَّدَ اللَّهُ بهم نبيَّهُ فأعزَّهم، وأيَّدهم بنبيِّه فأعزُّوهُ : ﴿ هو الذي أيَّدكَ بنصرِهِ وبالمؤمنينَ ◦ وألَّفَ بينَ قلوبِهم لو أنفَقتَ ما في الأرضِ جميعاً ما ألَّفتَ بينَ قلوبِهم ولكنَّ اللَّهَ ألَّفَ بَينَهُم إنَّهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾[3].

واللَّه سبحانه هو الذي يمنعُ بأسَ المشركينَ عَن المؤمنينَ ببأسِهِ، ويحميهِم مِن كلِّ مظاهِرِ القوَّةِ التي تحيطُ بالمشركين بقوَّتهِ : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ حَسبُكَ اللَّهُ ومَن اتَّبعَكَ من المؤمنين ﴾[4].

---

(١) الأنفال : ٤٩ .

(٢) الأنفال : ٦٥ .

(٣) الأنفال : ٦٢ و ٦٣ .

(٤) الأنفال : ٦٤

○ نهاية المعركة ونتائجها :

وكانت النِّهاية التي أُترِعَت بها أجسادُ المشركينَ جراحاتٍ، وقلوبُهم آلاماً وحسراتٍ، وعادوا إلى مكَّةَ في انكسارٍ وذلَّةٍ، وعادَ المسلمونَ في وَفرةٍ من عافيةٍ وغنيمةٍ وأسرى وشهداءَ، تَسبقُهُم البُشرياتُ إلى المدينةِ في فرحةٍ ترقُصُ في الصُّدورِ، وبسماتٍ تشرِقُ بها الوجوهُ، وأَشواقٍ تعبقُ بها الأجواءُ : ﴿ لِيَقطعَ طَرَفاً مِنَ الَّذينَ كَفَروا أو يَكبِتَهُم فيَنقَلِبوا خَائِبينَ ﴾[1].

أمَّا الغنائمُ فقد نزلَ القرآنُ بتقسيمِها كما نَزلَ بمشروعيَّتِها ﴿ يسألونكَ عن الأنفال قُل الأنفال للّهِ والرَّسولِ فاتَّقوا اللّهَ وأَصلِحُوا ذاتَ بينكم وأطيعوا اللّهَ ورسولَهُ إن كُنتُم مؤمنينَ ﴾[2]، ﴿ واعلَموا أنَّما غَنمتُم من شَيءٍ فإنَّ للّهِ خُمُسَهُ وللرَّسولِ ولذي القُربى واليتامَى والمساكينِ وابنِ السَّبيلِ إن كُنتُم آمَنتُم باللّهِ وما أنزلنا على عَبدِنا يومَ الفرقانِ يومَ التقى الجمعانِ واللّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[3]، ﴿ فكُلُوا ممَّا غَنِمتُم حَلالاً طيِّباً واتَّقوا اللّهَ إنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحيمٌ ﴾[4].

أمَّا الأَسرى فَقَد وقعَ خِلاف في الرَّأي عليهم بينَ الصَّحابةِ، فكانَ مِن رأيِ أبي بكرٍ أن يَستبقيهُم الرَّسولُ ويَستتيبهُم، وكانَ من رأيِ عمرَ أن تُضرَب أعناقهُم، وكان من رأيِ عبداللّهِ بن رواحةَ أن يُحرَقوا، ولم

(١) آل عمران : ١٢٧ .
(٢) الأنفال : ١ .
(٣) الأنفال : ٤١ .
(٤) الأنفال : ٦٩ .

يَكُن نَزلَ في أمرِهِم وحيٌ، وجاءَ الوحيُ يَفصِلُ فيهم مؤيِّداً رأيَ عمرَ : ﴿ ما كانَ لنبيٍّ أن يكونَ له أسْرى حتَّى يُثخِنَ في الأرضِ تُريدونَ عَرَضَ الدُّنيا واللَّهُ يريدُ الآخِرةَ واللَّهُ عزيزٌ حكيمٌ ○ ولولا كتابٌ مِنَ اللَّهِ سبقَ لمسَّكُم فيما أخَذتُم عذابٌ عظيمٌ ﴾[1]، وفي ذلك روي : « لمَّا كانَ يومُ بدرٍ قالَ رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم : ما تقولونَ في هؤلاءِ الأُسارى ؟ فقال أبو بكر: يا رسولَ اللَّه ! قومُكَ وأَهلُك، استبقِهِم واستَتِبْهُم لعلَّ اللَّهَ أن يتوبَ عليهم، وقالَ عمرُ : يا رسولَ اللَّه ! كذَّبوكَ وأخرجوكَ، فقدِّمْهُم فاضرب أعناقَهُم، وقال عبدُاللَّهِ بنُ رواحةَ : يا رسول اللَّه ! أنت في وادٍ كثيرِ الحطب فاضرم الوادِي عليهم ناراً، ثمَّ ألقِهِم فيه، قال : فسكت رسول اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم فلم يَردَّ عليهم شيئاً، ثمَّ قامَ فدخلَ، فقال ناسٌ : يأخذُ بقولِ أبي بكرٍ، وقالَ ناسٌ : يأخذُ بقولِ عمرَ، وقالَ ناسٌ : يأخذُ بقولِ عبداللَّهِ بن رواحةَ، ثمَّ خرجَ عليهم رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم فقالَ : إنَّ اللَّهَ ليُلَيِّنُ قلوبَ رجالٍ حتى تكونَ ألينَ من اللَّبن، وإنَّ اللَّهَ ليُشَدِّدُ قلوبَ رجالٍ فيهِ حتى تكون أشدَّ مِن الحجارةِ، وإن مَثلكَ يا أبا بكر ! كَمثلِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ قالَ : ﴿ فمَن تَبِعَني فإنَّهُ منِّي ومَن عَصاني فإنَّك غَفورٌ رحيمٌ ﴾[2]، وإنَّ مَثلكَ يا أبا بكر ! مَثَلِ عيسى عليهِ السَّلامُ قالَ : ﴿ إن تُعذِّبهُم فإنَّهُم عِبادُكَ وإن تَغفِر لهُم فإنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ ﴾[3]، وإنَّ مثلكَ يا عُمر ! كَمثل

---

(١) الأنفال : ٦٧ و ٦٨ . (٢) إبراهيم : ٣٦ .

(٣) المائدة : ١١٨ .

موسى عليهِ السَّلامُ قالَ : ﴿ ربَّنا اطمِس على أموالِهم واشدُد على قُلوبهِم فلا يُؤمِنوا حتَّى يَروُا العذابَ الأليمَ ﴾[١]، وإنَّ مَثلكَ يا عُمرُ ! كَمَثلِ نُوح عليهِ السَّلامُ قالَ : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ على الأرضِ مِن الكافرينَ دَيَّاراً ﴾[٢]، أنتم عالةٌ فلا ينفكَّنَّ أحدٌ منهم إلّا بفداءٍ أو ضربةِ عُنُقٍ »[٣].

أَمَّا الشهداءُ فقد سقطَ أربعة عشرَ شهيداً مِن خِيرَةِ أصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وأمَّا العافيةُ فقد كانُوا حُفاةً مستضعفين يُلاحقُهم الخوفُ فرجعوا من بدرٍ كما قالَ اللَّهُ : ﴿ واذكُروا إذ أنتُم قَليلٌ مُستَضعَفونَ في الأرضِ تَخافونَ أن يَتَخطَّفَكُم النَّاسُ فآواكُم وأيَّدَكُم بِنَصرِهِ وَرَزَقَكُم مِن الطَّيِّبات لَعلَّكُم تَشكُرون ﴾[٤]، وهكذا كانَت غزوةُ بدرٍ فتحاً عظيماً على المسلمينَ .

□ الثَّانيـة : غـزوة أُحُـد :

لَم يكد يمضي وقتٌ يسيرٌ على غزوةِ بدرٍ حتى بَدأت غزوةُ أُحُدٍ تفرضُ نتائجَها على الفريقينِ فوقَ أرضٍ واقعةٍ تحتَ حمايةِ المسلمينَ، أي أنَّ المعركةَ فُرِضَت على المسلمينَ فوقَ أرضِهم، وذلك له دِلالتهُ الكبيرةُ على التَّحدِّي الضَّخمِ الذي تقدَّم زحفَ المشركين إلى أرضِ المعركة، واستهانتهم بقوَّةِ المسلمينَ التي زعزعت قوَّتَهُم فوقَ أرضِ بدرٍ، وهو يعني أنَّ المصابَ الذي أوقعَهُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بالمشركينَ في بدرٍ

(١) يونس : ٨٨ .
(٢) نوح : ٢٦ .
(٣) « تفسير ابن كثير » (٢/٣٢٥) .
(٤) الأنفال : ٢٦ .

لم يبلُغ منهم مبلَغهُ، فسرعان ما عزموا الأمرَ، وحزموا التَّدبيرَ، ونَسوا مرارةَ الهزيمةِ، وصمَّموا على الثَّأرِ والنَّيلِ من لبانةِ النَّصرِ الذي أحرزَهُ المسلمون في بدرٍ .

وإذا كانت غزوةُ بدرٍ هي الفرقانَ الذي أعزَّ اللَّهُ بهِ الإسلامَ وأَذلَّ بهِ الكفرَ، والبدايةَ التي انطلقَ منها الإسلامُ في الجزيرةِ؛ فإنَّ غزوة أُحُدٍ كانت التجربة المرَّة التي علَّمت المسلمين كيف ينبغي أن تكون طاعةُ الأمير في العسرِ واليسر، والدَّرس العظيم الخطير الذي لُقِّنوه فلا يُنسى على الدَّهر، وظلَّت ندامةٌ تؤرِّقهم في نومهم ويقظتهم يتحيَّنونَ كلَّ فرصةٍ للتخفُّفَ منها بالطَّاعةِ الكاملةِ لرسولِ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم امتثالاً وتحقيقاً في نفوسهم لقولهِ تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعوا الرَّسولَ فإن تَولَّوا فإنَّما عليهِ ما حُمِّلَ وعَليكم ما حُمِّلتُم وإن تُطيعوه تَهتَدوا ﴾[1].

وتقفُ غزوةُ أُحدٍ مع أُختِها غزوةِ بدرٍ على طريقِ الإسلامِ العظيمِ معلَمَينِ كبيرينِ على شيئينِ قد يبدوانِ بادىءَ ذي بدءٍ نقيضينِ لكنَّهما في الحقيقةِ سواءٌ، وينتهيانِ بالإنسانِ إلى غايةٍ واحدةٍ، وهي تربيةُ الفردِ المسلمِ في كلِّ عصرٍ على الخضوعِ الكاملِ لأمرِ اللَّه المنزَّلِ على نبيِّهِ، هذان الشَّيئان هما :

أوَّلاً : أنَّ النَّصرَ لا يكُون إلّا مع الصَّبرِ والطَّاعةِ للأميرِ .

---

(١) النور : ٥٤ .

وثانياً : أنَّ الهزيمةَ حينَ تحيقُ بالجندِ قد تحملُ في ثناياها معنىً من معاني النَّصرِ يدركُهُ الجندُ بعدَ حينٍ .

وتعرضُ سورةُ ﴿ آل عمران ﴾ للحديثِ عن غزوةِ أُحدٍ في سبعٍ وأربعينَ آيةً، بدءاً من آية ١٢١ وانتهاءً بآية ١٦٨، وهذا العددُ من الآياتِ يُشعرُ بمكانةِ هذه الغزوةِ وشرفِها عندَ اللَّهِ الذي استحقَّت معه أن تُعرضَ هذا العرضَ ليظلَّ قرآناً يُتلى إلى يومِ القيامةِ .

وقد وردَت آيتانِ في هذا الحديثِ عن غزوة أُحُدٍ هُما : ﴿ ليسَ لكَ مِن الأمرِ شيءٌ أو يَتوبَ عليهِم أو يُعذِّبَهُم فإنَّهُم ظالمونَ ٥ وللَّهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ يَغفرُ لِمَن يَشاءُ ويُعذِّبُ مَن يَشاءُ واللَّهُ غَفورٌ رحيمٌ ﴾[1].

ويلوحُ لي - بنظرٍ اجتهاديٍّ محضٍ - أنَّ في هاتين الآيتين تذكيراً للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بالنِّعمةِ الكُبرى التي أصابَها هو وأصحابُهُ يومَ بدرٍ بما أحرزُوهُ من نصرٍ مؤزَّرٍ على قريش، فما أوقعت قريشٌ وأشياعها يومَ أُحُدٍ من أذىً بهِ وبأصحابهِ لا ينبغي أن يكونَ محزناً له إلى الحدِّ الذي يحملهُ على الدعاءِ عليهم أو اليأسِ من هُداهُم، فيذكرُهم دائماً بذلك الأذى، فإنَّ للَّهِ حكمة بالغة في ذلك لا يعلمُها النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم فإنَّ مَذاقَ حلاوَةِ النَّصرِ يُنسي مذاقَ مرارةِ الهزيمةِ، والعهدُ غيرُ بعيدٍ بينهما، فهو عامٌ واحدٌ وَفَتْ قريشٌ بإنفاذِ ما قالت بعدَه، وهذا

(١) آل عمران : ١٢٨-١٢٩ .

النَّظرُ يُلمحُ إليه قولهُ سبحانه : ﴿ إنْ يَمسَسْكُم قَرحٌ فَقَد مسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلهُ وتلكَ الأيَّامُ نُداولُها بينَ النَّاس وليَعلَمَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا ويتَّخذَ مِنكُم شهداءَ واللَّهُ لا يُحبُّ الظَّالمين ﴾[1]، فجمعَ هنا بين نتيجتي الغزوتينِ، وقرنَ بينهما في موضعٍ واحدٍ مِن القرآنِ، وفي السُّورة الأولى من السُّورتينِ اللتينِ جاءَ ذكرُ الغزوتين، ذكرَ النَّتيجةَ الأولى وهي النَّصرُ الذي أصابوه في غزوةِ بدرٍ، والنَّتيجةَ الثَّانيةَ وهي المصابُ الأليمُ الذي وقعَ بهم في غزوةِ أُحدٍ، فإنَّ حلاوةَ الأولى تُضعِفُ مرارَة الثَّانية، وهذا يحمِلُ العقلَ على التَّأمُّل والنَّظرِ في الأشياء كلِّها، وتقديرِ نهاياتها على أَحَدِ النَّتيجتينِ، ولا يكونُ أحدُهما أرجح من الآخرِ إلّا بمقدارِ ما يكونُ من تحقيقٍ لأسبابِهِ، فيكونُ ذلك حافزاً نفسيًّا كبيراً للمسلمينَ أن يستمسكوا بكلِّ سببٍ يُفضي بهِم - في إطارِ النَّظرِ الإيمانيِّ - إلى النَّتيجةِ الأولى في شبهِ يقينٍ أو يقينٍ .

قال أبو جعفرٍ في تأويلِ قولهِ : ﴿ ليسَ لكَ منَ الأمرِ شيء ﴾ الآية: « ليسَ إليكَ يا محمَّدُ ! مِن أمرِ خَلقي إلّا أن تُنفِذَ فيهم أمري، وتَنتَهي فيهِم إلى طاعَتي، وإنَّما أمرُهم إليَّ، والقضاءُ فيهم بيديَّ دونَ غيري، أقضِي فيهم وأحكُمُ بالذي أشاءُ من التَّوبة على مَن كفرَ بي وعَصاني وخالفَ أمري، أو العذابِ إمَّا في عاجلِ الدُّنيا بالقتلِ والنِّقمِ المبيرةِ، وإمَّا في آجِلِ الآخرةِ بما أعددتُ لأهلِ الكفرِ بي »[2].

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

(٢) « تفسير ابن جرير » (١٩٤/٧) .

« وقد نزلَت هذه الآية لمَّا أصابَ النَّبيَّ ما أصابَهُ يومَ أُحُدٍ مِن المشركين، فقال كالآيسِ لهم من الهُدى أو مِن الإنابةِ إلى الحقِّ : كيفَ يُفلِحُ قومٌ فَعَلوا هذا بنبيِّهم ؟ »[1]، فهي كالنَّهي له عليه الصَّلاة والسَّلام أن يقولَ ما قالَ فيهِم .

ويزيدُ القرآنُ هذا المعنى توكيداً بقولِهِ : ﴿ وللَّهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ يَغفِرُ لِمَن يشاءُ ويُعذِّبُ مَن يَشاءُ واللَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾[2]، فالمغفرةُ والعذابُ أمرانِ بيدِ اللَّهِ وحدَه لا يُنازعهُ فيهما أَحدٌ مِن خَلقِهِ، وحتى النَّبيُّ ليس له مِن الأمر إلّا أَن ينفِّذَ في خلقِ اللَّهِ أمرَهُ، فإن أطاعوه فلأنفُسِهِم وإن عصوه فعلَيها .

قال أبو جعفرٍ : « ليس لك يا محمَّد ! من الأمر شيءٌ، وللَّهِ جميعُ ما بينَ أَقطارِ السَّماواتِ والأرضِ مِن مَشرِقِ الشمسِ إلى مغرِبها، دونكَ ودونَهُم، يحكُم فيهِم بما يَشاءُ، ويقضي فيهِم بما أحبَّ، فيتوبُ على مَن أحبَّ من خلقهِ العاصين أمرَه ونهيَه، ثمَّ يغفرُ له، ويعاقِبُ من شاءَ منهم على جُرمهِ، فينتقمُ منهُ، وهو الغفورُ الذي يسترُ ذنوبَ مَن أحبَّ أن يسترَ عليه ذنوبَهُ مِن خلقهِ بفضلهِ بالعفوِ والصَّفحِ، والرَّحيمُ بهم في تركهِ عقوبَتهُم عاجلاً على عظيمِ ما يأتُونَ من المآثمِ »[3].

ولعلَّ سؤالاً يثورُ في الذهنِ : ما الحكمةُ مِن الحديثِ عن الرِّبا في

(1) « تفسير ابن جرير » (٧/١٩٥) .
(2) آل عمران : ١٢٩ .
(3) « تفسير ابن جرير » (٧/٢٠٣) .

خلالِ هذه الآياتِ التي تفصلُ لنا أُحداثَ غزوةِ أُحُدٍ ؟! وهو سؤالٌ حريٌّ بالنَّظرِ لنعرفَ الحكمةَ مِن ذلك .

إنَّ الجهادَ في سبيلِ اللَّهِ يحتاجُ إلى المالِ الذي به تظلُّ رايةُ الجهادِ مرتفعةً تخفقُ فوقَ رؤوسِ المجاهدينَ، وكما يجبُ أن تكونَ نفوسُ المجاهدين نقيّةً مِن الشوائبِ التي تبطلُ الجهادَ، يجبُ أنْ يكونَ المالُ المبذول للجهادِ أيضاً نقيًّا من الشوائبِ، وأوخَمُ شائبةٍ تذهبُ بنقاءِ جوهرِ المالِ هي الرِّبا، فإذا نزلَ الرِّبا بساحةِ المالِ زالَ رونَقُهُ ومُحيَت بركتُهُ، فلا ينفعُ الجهادَ صفاءُ نفوسِ المجاهدينَ حينئذٍ وحدَهُ، وحينئذٍ إمَّا أن تَقِفَ عجلةُ الجهادِ عن الاندفاعِ، وإمَّا أَن تعودَ إلى الوراءِ، لذا ناسبَ أنْ يذكرَ اللَّهُ حكمَ الرِّبا، فلا يظلُّ للقلوبِ متعلَّقٌ أبداً بما قَد يردُ إليهم مِن رِبا المالِ، ثمَّ إنَّ في ذكرِ حُكمِ الرِّبا تحريضاً للمجاهدينَ أن يعقِروا الرِّبا حيثُما لَقوه، لِئلّا يكونَ له سلطانٌ .

فمطلوبٌ منهم حينئذٍ أَن يُحكِموا الضَّربةَ للإطاحةِ بمراكزِ القوى الاقتصاديَّةِ التي ترقصُ نشوى بالمكاسبِ السُّحتِ، لتدفعَ بها إلى قوى البغيِ المنطلقةِ لمداهَمةِ الأمنِ المراد له أن يدخل كلَّ بيتٍ على وجه الأرض، لتقوِّيها وتمدَّها بأسبابِ الصُّمودِ والاستمرارِ، وما دامَ أنَّ الحربَ واقعةٌ فلتضع في حسابِها شيئاً آخرَ تستهدُفه فتفعلُهُ لا يقِلُّ في خَطَرِهِ وأثرِهِ عن خطرِ الشِّركِ وأثرِهِ، وهو الرِّبا .

ونُذكِّر هنا بما سَلفَ من ذكرِ غزوةِ أُحُدِ أثناءَ الحديثِ عن غزوةِ بدرٍ حيث قُلنا : « ويمتزج الحديثُ في هذه الآياتِ (من ١٢١ وحتى ١٢٩) عن غزوة بدرٍ وأُحُد معاً، مقارنةً، وتذكيراً، وتبصيراً، وحضًّا، فيولَدُ من هذه جميعاً الاقتِدارُ على الوقوفِ في وجهِ القوَّةِ المتمرِّدةِ الباغيةِ، بعدَ التوكُّلِ على اللّهِ سبحانه، فلا يكون الفشلُ الذي يدبرُ له أهلُ الباطلِ لإيقاعِ أهلِ الحقِّ في حبائلِهِ، ووقعَ في بعضه المسلمونَ في أُحُدٍ » إلى آخرِ ما جاءَ هناك، فلا يبقى داعٍ لإعادةِ ما ذكرنا هنا .

وبعدَ أن يَنهى اللّهُ عَن الرِّبا يأتي الأمرُ بطاعةِ اللّهِ وطاعةِ رسولِهِ، والمسارعةِ إلى جنَّةٍ عَرضُها السَّماواتُ والأرضُ أعدَّها اللّهُ للمتَّقينَ مِن عبادِهِ، وهم الَّذينَ يُنفِقُونَ في حالَي الرَّخاءِ والشدَّةِ، ويكظِمون غيظَهُم، ولا يُضمِرونَ في صدورِهِم الحقدَ والعداوةَ للمؤمنينَ، وإذا نالوا فاحشةً، أو ظَلموا انفسهم بمعصيةِ ربِّهم أسرعوا إلى التَّوبة منها والإنابةِ إلى اللّهِ، قال تعالى : ﴿ وَأَطيعوا اللّهَ والرَّسولَ لعلَّكم تُرحَمونَ ○ وسارِعوا إلى مَغفِرَةٍ مِن ربِّكم وجنَّةٍ عرضُها السَّماوات والأرضُ أُعدَّت للمتَّقين ○ الَّذينَ يُنفقونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكاظِمينَ الغيظَ والعافينَ عَن النَّاسِ واللّهُ يحبُّ المُحسنينَ ○ والَّذينَ إذا فَعَلوا فاحشةً أو ظَلَموا أنفُسَهُم ذَكروا اللّهَ فاستغفَروا لِذنوبِهِم ومَن يَغفِرُ الذُّنوبَ إلّا اللّهُ ولَم يُصرُّوا على ما فَعلوا وهم يعلمون ﴾[1].

(١) آل عمران : ١٣٢-١٣٥ .

ولا ريبَ أنَّ النَّصر لا يتوّجُ أيَّ معركةٍ من المعاركِ، ولا يحرزُهُ المجاهدونَ إلّا إذا تحقَّقت فيهِمُ الصِّفاتُ التي ذكرَتها هذه الآياتُ، وهي: طاعةُ اللَّهِ ورسولِهِ، وإيثارُ الجنَّةِ - بالعملِ الصَّالحِ - على الدُّنيا، والإنفاقُ والبَذلُ في سبيلِ اللَّهِ، وإماطةُ الإحَنِ وإبدالها بالصَّفحِ والعفوِ وكظمِ الغيظِ، والإسراعِ إلى الإقلاعِ عن الذَّنبِ والتَّوبةِ منه، فهذه في جُملَتها هي التي تبوِّىءُ المؤمنينَ مقاعدَ النَّصرِ، وتحرِّزهُم نواصيهِ، وتظهرُهم على عدوِّهم، فكانَ لا بدَّ أن يَسبقَ ذكرَها ذكرُ تفاصيلِ الغزوةِ، فتكونَ بمثابةِ المقدِّمةِ بين يَديها تنبيهاً مِن اللَّهِ للمجاهدينَ، أنَّهم إنْ تمسَّكوا بها ظفروا بما يُمنُّونَ أنفسَهُم من نصرٍ، وهي صفاتٌ لا يشقُّ تحقُّقُها، فهي يسيرةُ المنال، فإذا شقَّ تحققُها فمِن عندِ المجاهدينَ أنفسِهم وبها يكونُ الإعدادُ الصَّحيحُ لخوضِ المعركةِ .

ولكلِّ صفةٍ من هذهِ الصِّفاتِ دورُها وتأثيرُها النَّفسيُّ على المجاهدينَ، ومِن أيِّ صفةٍ بدأْتَ النَّظرَ فإنَّ الصِّفاتَ الأُخرى تأتي تابعةً لها، وتؤيِّدُها، وتؤكِّدُها، ولا شك أنَّ أعلاها طاعةُ اللَّهِ ورسولِهِ، فحيثما وُجدَ المؤمنُ فينبغي أن يكونَ مؤثراً طاعةَ اللَّهِ ورسولِهِ على كلِّ أمرٍ، وبها يكون السَّدادُ التَّامُّ فيه .

وهذه الطَّاعةُ تقودُ إلى أبوابِ الجنَّةِ بالتزامِ العملِ الصَّالحِ الموافقِ لها، وإذا أرخصَ المؤمنُ نفسَه في ميدانِ الجهادِ، كان المالُ عندَه يسيرَ البذلِ، فلا يقبضُ عليهِ يدَه، فيكون مجاهداً بمالِهِ ونفسِهِ معاً، وإماطةُ الإحَنِ

توثّقُ الصِّلةَ بين المجاهدينَ، فتتوجَّهُ قوَّتُهم جميعاً إلى غايةِ الجهادِ، وهي إعلاء كلمةِ اللَّهِ في الأرضِ، والمؤمنُ حين يحرِصُ على إعلاءِ كلمةِ اللَّهِ، ويرخصُ عنده المالُ والنَّفسُ، ويصرِفُ همَّهُ وجهدَه إلى الاشتغالِ بطاعةِ اللَّهِ ورسولِهِ لم يبقَ ذنبٌ يشغلهُ عن لزومِ بابِ التَّوبةِ، فلا يدعُ للشيطانِ حيلةً لِوُلوجِهِ .

وغزوةٌ مثلُ غزوةِ أُحُدٍ التي تحدَّى فيها صَلفُ الشِّركِ معقِلَ الإسلامِ تحدِّياً صارخاً لا يمكنُ أن يستطيعَ المسلمونَ دفعَ هذا الصَّلفَ إلّا إذا تحقَّقت فيهم هذه الصِّفاتُ، ورُئيت تتحرَّكُ ظاهراً في كلِّ خطوةٍ، مخلِّفةً وراءَها آثاراً تقْفوها الأجيالُ الآتيةُ، لأنَّها - وبلا أدنى شكٍ - من الغزواتِ الرَّئيسيَّةِ التي أثَّرت تأثيراً قويًّا في مسارِ الإسلامِ .

وبعد سردِ هذه المقدِّمة الضَّروريَّة لغزوةِ أُحُدٍ، يبدأُ القرآنُ في سردِ تفاصيل الغزوةِ سَرداً متلاحِقاً متلاحِماً، يقِفُكَ عليها، حتى لكأنَّك ترى وقائِعَها جميعاً ماثِلة أمامَ عينيكَ، لا تندُّ منها واحدةٌ .

ويحدِّدُ القرآنُ الوقتَ الذي بدأَت فيهِ الغزوةُ، وكان أوَّلَ النَّهار، وذلكَ قولهُ تعالى : ﴿ وإذْ غَدَوتَ مِن أهلِكَ تُبوِّئُ المؤمنينَ مَقاعدَ للقِتالِ واللَّهُ سميعٌ عليمٌ ﴾[1].

ويجمعُ القرآنُ في أربعِ كلماتٍ مِن هذه الآيةِ طريقة التَّعبئةِ التي

---

(١) آل عمران : ١٢١ .

اتَّبعها الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، هن : ﴿ تُبوِّئُ المؤمنينَ مَقاعِدَ للقِتالِ ﴾، ولا يمكنُ لكلمةٍ أن يكونَ لها قوَّةُ الدَّلالةِ على هذه الطَّريقة كَكلمةِ ﴿ تُبوِّئُ ﴾، يقال : بوَّأه منزلاً وفيه أنزلهُ، والمكانَ أحلَّهُ فيه وأقامَه، ففي التَّبوُّءِ معنى المقامِ الدَّائمِ، ومعنى هذا أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قد أقامَ أصحابهُ في مواقعِهم في أُحُدٍ بخطَّةٍ لو أنفذوها كما أرادَ لما لَحِقَ بهم ما لَحِقَهُم .

ويعودُ القرآنُ بذواكرِ المسلمينَ إلى الماضي، يستحضر مِنهُ أمامَهم طَرفاً من سير الأُمم والقرونِ الخاليةِ فيقولُ : ﴿ قَد خَلَت مِن قَبلِكُم سُنَنٌ فَسِيروا في الأرضِ فانظروا كيفَ كانَ عاقِبَةُ المكذِّبينَ ﴾[1]، ولقد كانتِ النَّتيجةُ الأليمةُ التي نجمَت عن غزوةِ أُحُدٍ تعبيراً عمليًّا للتأديبِ السَّماويِّ الذي حلَّ بالصَّحابةِ وأصابَهُم على يدِ المشركينَ، وإذا كانتِ هذه النَّتيجةُ عسيرةً شاقَّةً يصعُبُ جدًّا احتمالُها، فإنَّ النَّظرَ في مصائرِ الأُمم السَّابقةِ ممَّا يهوِّنُ عن عُسرِها، ومشقَّتِها، وقد وقعَ لهذهِ الأُممِ ما وقعَ للمشركينَ والمؤمنينَ في بدرٍ وأُحُدٍ، وما أصابَ الطَّرفين من خيرٍ ومن شرٍّ، وتلك المصائرُ نجمَت عن الأسبابِ التي نجمَت عن هاتينِ الغزوتينِ : (بدرٍ وأُحُدٍ) ممَّا يدعو المؤمنينَ إلى تعميقِ النَّظرِ واستجلاءِ العبرةِ منها، فلا يكونُ الفَرحُ مُبطراً لهم، ولا الحُزن مُقعداً لهم، بل عليهم هم أن يكونوا بينَ الأمرين معاً، فيذكُروا نعمةَ اللَّهِ عليهم فيشكروها، ويذكروا

---

(١) آل عمران : ١٣٧ .

البلاءَ الذي أصابَهُم بما كسبت أيدِيهم، فيجتَنبوا أسبابه، فلا يكون فيهم جَزعٌ ممَّا أصابَهم ونزلَ بهم من قتلٍ وجراحٍ، فالجزعُ - فضلاً عن أنَّهُ أمرٌ يفرغُ في قلوبِ النَّاس اليأسَ والقُنوطَ - يخلقُ في المجتمعِ الاضطرابَ والفوضى، فلا يُحكِم النَّاسُ أمراً من أُمورهم، فتفسدُ حياتُهم، ويضطربُ نظامُهم، لهذا نهاهُم القرآنُ عن الحزنِ المفضي بهم إلى الوَهَنِ والتَّخاذُلِ فقال : ﴿ وَلا تَهِنوا وَلا تَحزَنوا ﴾(١)، وقرَّر لهم حقيقةً كانوا قد ذهلوا عنها فقال : ﴿ وأنتُمُ الأعلَون إنْ كنتُم مؤمنينَ ﴾(٢)، والعُلوُّ كما يكونُ بالتَّمكينِ في الأرضِ والظُّهورِ على الأعداءِ؛ يكونُ أيضاً بالشَّهادةِ في سبيلِ اللَّهِ .

وفي هذا الذي أصابَ الأُمَمَ والشعوبَ غُنيةٌ لنفوسِ المؤمنينَ، وبيانٌ كافٍ لها أن تقعَ في أمرٍ تخالفُ به أمرَ ربِّها ممَّا يُحِلُّ بها ما حلَّ بالأُممِ السَّابقةِ مِن العذابِ والبلاءِ، ولا يُعرفُ هذا إلّا بالنَّظرِ في مساكِن هذه الأُمم : ﴿ فَسِيرُوا في الأرضِ فانظُروا كيفَ كانَ عاقِبةُ المُكذِّبين ﴾(٣)، وفي هذا حضٌّ للمؤمنينَ على لزومِ طاعةِ اللَّهِ والصَّبرِ على جهادِ أعدائهِ وأعدائِهم، وعدمِ الاشتغالِ بمغانمِ الدُّنيا العاجلةِ التي تصرفُهم عن إبرازِ النَّصرِ، وهو الغنيمةُ الباقيةُ .

وقد أدركَ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ضعفٌ في أبدانِهم وأنفسِهم وهم يرونَ المصيرَ الأليم الذي انتهت إليهِ غزوة أُحُدٍ مِن القتلِ

---

(١) و (٢) آل عمران : ١٣٩ .　　(٣) آل عمران : ١٣٧ .

المُبيرِ والجراحاتِ المثخنةِ، وذلك أشدُّ حالاتِ الضَّعفِ، وهو أمرٌ لا يُغالبُ في نفوسِ البشرِ إلّا أن يكونَ ما يغالبهُ يأتيهم من فوقِهم، يقطَعونَ معه أنَّ الأمرَ على خلافِ ما يَحدِسُونَ ويظنُّونَ، وأنَّ للّهِ حكمةً بالغةً فيهِ، وما عليهم إلّا أن يصبِروا ولا يَضعُفوا في طلبِ عدوِّهم في سبيلِ اللّهِ، وأن يَخلَعوا الحزنَ عن قلوبِهم، فتكونُ لهم الغلبةُ والعُلوُّ والظُّهورُ على عدوِّهم، والحروبُ تتقلَّب مع الأيَّامِ، فيكونُ الغالبُ فيها حيناً مغلوباً، والمغلوبُ حيناً غالباً، والذين سقَطوا على أرضِ أُحد أولئكَ الذين اصطفاهم اللّه إليه بكرامته، وردَّهم إليه بما أنالهم من شهادةٍ في سبيلهِ، وفضَّلهم على غيرهم بما عَلِمَ من إخلاص قلوبهم، فكان لهذه الغزوة فضلٌ من اللّه على المؤمنين إذ مازَ فيها الصَّادقين من غيرهم، وأظهرَ بها مواطنَ الضَّعفِ التي خذلَ بها المؤمنين، فأخذوا أنفسهم في مُقبلات الأيَّام بغيرها، فكان سبباً ظاهراً في مَحقِ الكافرين وقطعِ دابرهم، فكان في كلِّ ذلك عزاءٌ للمؤمنين، وتأسيةٌ لنفوسهم وشفاءٌ لما في صدورهم، وذلك كلُّه مجموعٌ في قوله سبحانه : ﴿ قَد خَلَت مِن قَبلِكُم سُنَنٌ فَسِيروا في الأرضِ فانظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ المُكذِّبينَ ○ هذا بيانٌ للنَّاسِ وهُدىً وموعظةٌ للمتَّقين ○ ولا تَهِنُوا وَلا تَحزَنوا وأنتُمُ الأعلونَ إن كنتُم مُؤمنينَ ○ إن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقد مسَّ القومَ قَرحٌ مثلهُ وتِلكَ الأيَّامُ نُداوِلُها بينَ النَّاسِ وَليَعلمَ اللّهُ الَّذينَ آمَنوا ويتَّخِذَ منكُم شهداءَ واللّهُ لا يحبُّ الظَّالمينَ ○ وليُمحِّصَ اللّهُ الَّذينَ آمَنوا وَيمحقَ

الكافرينَ ﴾(1).

ويُذكِّرهم اللَّهُ سبحانه بشيءٍ قد غطَّاهُ النِّسيانُ، أو الذُّهولُ من هَولِ الفجيعةِ على أرضِ المعركةِ فيقولُ : ﴿ ولَقَد كنتُم تَمنَّونَ الموتَ مِن قَبلِ أن تَلقَوهُ فقَد رأيتمُوهُ وأنتُم تَنظُرونَ ﴾(2)، فهلّا أقبلتُم على الموتِ للظَّفرِ بالنَّصرِ على الأعداءِ، أو كرامةِ الشّهادةِ في سبيلِ اللَّهِ، وكلاهما واصلٌ بأهلِهِ إلى الجنَّةِ، ﴿ أمْ حَسِبتُم أنْ تَدخُلوا الجنَّةَ ولمَّا يعلَمِ اللَّهُ الَّذينَ جَاهدُوا مِنكُم ويعلَمَ الصَّابرين ﴾(3).

وتَشيعُ قالةُ سوءٍ في المعركةِ أنَّ رسولَ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قد ماتَ، ورسولُ اللَّهِ ليسَ قائداً عسكريًّا يمكنُ أن يَحُلَّ مكانَه بموتهِ قائد آخر، فالقادةُ الأكفَّاءُ المهرَةُ القادرونَ - وإن كانوا قِلَّةً - لكن يمكنُ أن يوجدَ مَن يحلُّ مكانَ القائد الذي يموتُ في المعركةِ أو بعدِها، لكنَّ الذي قيلَ عنه بأنَّهُ قد ماتَ نبيٌّ، بل سيِّدُ الأنبياءِ وإمامُهم، ومعنى هذا أنَّ الوحيَ سينقطعُ، وأنَّ رسولَ السَّماءِ الذي نقلَ القرآنَ لن يهبطَ إلى الأرضِ، فالفجيعةُ فيه عظيمة، والمصابُ فيه فوقَ أن يحتملَهُ البشرُ .

وطافَت بالمسلمينَ طوائفُ الفتنةِ، تُلِحُّ عليهم بشراسةٍ مفظعةٍ، أنَّ الإسلامَ سيغرقُ في كارثةٍ لا تُدرَكُ متونُ شواطئها، فالنَّجاةُ منها لا ينفعُ معها شيءٌ، كاليأسِ يطبق بظلمتهِ السّوداءِ على قلوبهِم، فلا ترجو إلّا ما

(1) آل عمران : 137-141 . (2) آل عمران : 143 .

(3) آل عمران : 142 .

يرجو من قعدَ به اليأس حتى عن ذكرِ رجائه، فلن تصيبَ منه شيئاً، وإن كان نفرٌ قليلٌ منهم لم يروا في موتِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم إلّا ما يرونه في موتِ أيِّ إنسانٍ، فقد بلَّغ الرَّسول صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وحيَ ربِّه، وأوضحَ لأُمَّته المحجَّة، وأقامَ لها الدَّليلَ على صدقِ دعوتهِ ونبوَّته، وهل محمَّدٌ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم إلّا رسولٌ سبقتهُ رسلٌ ماتوا، وقد أوفوا بأُممِهم على الغايةِ ؟! وسيموتُ هو أيضاً .

ويسجِّلُ القرآنُ هذا كلَّهُ وغيرَهُ في قوله : ﴿ وما محمَّدٌ إلّا رسولٌ قَد خَلَت مِن قَبلهِ الرُّسل أَفإن ماتَ أو قُتِلَ انقَلَبتُم على أَعقابِكُم وَمَن يَنقلِب على عَقِبيهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شيئاً وسيجزي اللَّهُ الشَّاكرين ﴾[1].

وإذا كان محمَّدٌ قد حَظِيَ بحبِّ أصحابهِ، فقد حَظِيَ الأنبياءُ من قبلهِ بمثلِ ما حظيَ بهِ، فما كان ينالُ موتُ النَّبيِّ من أولئكَ الأنبياءِ من أقوامِهم ما نالَ من أصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم في أُحدٍ، بل ثبتوا وقاتلوا وما وَهَنُوا وما ضعفُوا وما استكانوا، وكانوا لا ينسونَ وهم في غمراتِ الموتِ أن يقولوا : ﴿ ربَّنا اغفِر لنا ذنوبنا وإسرافَنا في أمرِنا وثبِّت أقدامَنا وانصُرنا على القومِ الكافرينَ ﴾[2] فأغدقَ اللَّهُ عليهِم رحمَتهُ، وأظفرَهُم بأعدائِهم، ومكَّنَهُم مِن رِقابهِم، فلماذا لا يكونُ شأنُ أصحابِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم شأنَ أصحابِ الرُّسلِ السَّابقينَ مع أنبيائِهم ؟!

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .
(٢) آل عمران : ١٤٧ .

ويسجِّل القرآنُ هذا بقولِ : ﴿ وَكَأَيِّن مِن نَبيٍّ قاتَل مَعهُ رِبِّيُّون كَثيرٌ فما وَهَنُوا لما أَصَابَهُم في سَبيلِ اللَّهِ وما ضَعُفوا وما استكانوا واللَّهُ يحبُّ الصَّابرين ○ وما كان قولَهم إلَّا أَن قالوا ربَّنا اغفِر لَنا ذُنوبَنا وإسرافَنا في أمرِنا وثبِّت أقدامَنا وانصُرنا على القومِ الكافرينَ ○ فآتاهُم اللَّهُ ثوابَ الدُّنيا وحُسنَ ثوابِ الآخِرةِ واللَّهُ يحبُّ المحسِنينَ ﴾[1].

وفي هذه الآيات تذكيرٌ وتبكيتٌ وتقريرٌ، (تذكيرٌ) بما يجبُ أن يكونَ عليه أصحابُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم مِن قوَّةٍ وثباتٍ وعزيمةٍ، (وتبكيتٌ) على ما كانَ مِن بعضِهم من رجوعِ القهقَرى، (وتقريرٌ) بأنَّ الأجلَ لا يتجاوَزُ بصاحبِهِ حدَّهُ، وأنَّ بيدهِ وَحدَه اختيارَ اللونِ الذي يريدُ من الثَّوابِ، وَمن مجموع هذه الثَّلاثةِ يكونُ التَّصميمُ على قطفِ ثمارِ النَّصرِ، وتبديلُ المواقفِ الخطإِ بالصَّوابِ .

وأحرَصُ ما يجبُ أن يحرصَ عليه الجندُ المقاتلونَ أن لا يُلقُوا السَّمعَ لما يقولهُ أعداءُ الإسلامِ، مما يشوِّشونَ بهِ عليهِم ابتغاءَ تصديع صفِّهِم وتفريقِ كلمتهم وتوهينِ قوَّتهم فلا يكونُ لهم عليهم إلَّا ما يكونُ من الواهِن على القويِّ، وهل للواهِن إلَّا وهنُهُ ؟!

واللَّهُ سبحانهُ هو الذي يتولَّى نَصرَ أوليائهِ إن هم أَطاعوه وأطاعوا نبيَّه، وهو الذي يُلقِي الرعبَ في قلوبِ المشركينَ بسببِ شركِهم،

---

(١) آل عمران : ١٤٦-١٤٨ .

فيمكِّنَ لكم منهم، كما كانَ لكم في أوَّلِ المعركةِ، فقد أصبتُم منهم مقتلةً، ولم يبقَ بينكُم وبينَ نهايةِ المعركةِ إلّا بمقدارِ الوقتِ الذي استغرقَه خالدٌ وهو يباغتُ المسلمينَ من فوقِ جبلِ الرُّماةِ - وقد انصرفَ منهم فريقٌ لجمعِ الغنائمِ - فيُدميهِم، ويُنزلُ بهم صاعِقةَ سيفِهِ، وبأسَ رمحِهِ .

وتتحوَّل كفَّةُ المعركةِ إلى جانبِ المشركينَ، بعد أن كانت مفعمةً بالنَّصرِ المحقَّقِ، وتذهَبُ الغنائمُ، ويذهبُ النَّصرُ معها، ويُغلبُ المسلمونَ على أمرِهم، ويُسقطُ في أيديهِم، ويخرجونَ من أرضِ المعركةِ وقلوبُهم موقورةٌ حزناً وهمًّا، ولا يستذكرونَ إلّا ما كان منهم وهم يفرُّون مِن المعركةِ والرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يناديهِم قائلاً : « إليَّ عبادَ اللَّهِ ! إليَّ عبادَ اللَّهِ ! »، فتدركُهم ندامةٌ شديدةٌ، وعلموا أنَّ ما أصابهُم إنَّما كان بشؤمِ مخالفتهِم عن أمرِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، ويحكي لنا القرآنُ هذا الجزءَ من المعركةِ فيقولُ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إن تُطيعوا الَّذينَ كَفروا يَردُّوكم على أعقابِكُم فتَنقلِبوا خاسِرين ○ بلِ اللَّهُ مولاكُم وهُو خيرُ النَّاصِرينَ ○ سَنُلقي في قُلوبِ الَّذينَ كَفَروا الرُّعبَ بما أشرَكوا باللَّهِ ما لَم يُنزِّل بهِ سُلطاناً ومَأواهُم النَّارُ وبئسَ مثوى الظَّالمينَ ○ ولقد صَدَقكُم اللَّهُ وعدَهُ إذ تحسُّونَهُم بإذنهِ حتَّى إذا فَشِلتُم وتَنازَعتُم في الأمرِ وعَصَيتُم مِن بَعدِ ما أراكُم ما تُحبُّونَ منكُم مَن يُريدُ الدُّنيا ومِنكُم مَن يريدُ الآخِرة ثمَّ صَرفَكُم عَنهُم ليَبتلِيَكُم ولَقد عفا عنكم واللَّهُ ذُو فَضلٍ على المؤمنين ○ إذ تُصعِدونَ ولا تَلوونَ على أحَدٍ والرَّسولُ يَدعوكُم في أُخراكُم فأثابَكُم

غمّاً بغمٍّ لِكَيلا تَحزَنوا على ما فاتَكُم ولا ما أصابَكُم واللّهُ خبيرٌ بما تعملون ﴾[1].

ويَنظرُ اللّهُ إلى المؤمنينَ، وقد أصابَهم ما أصابهُم، وقد علمَ ما في قلوبهِم من همٍّ وغمٍّ، فيُنزلُ عليهِم الأمنَ والطّمأنينةَ، ويصرفُ عنهُم الهمَّ والغمَّ فقد بلغ بهم الدَّرسُ الذي لقَّنهُم اللّهُ إيَّاهُ مبلغاً عَلِمَ اللّهُ به منهم صِدقَ النَّدمِ في سرعةٍ وأَوبةٍ شديدتين إليه، فغشَّاهم بالنُّعاسِ، وألبسَهُم ثوبَه، وألقى في قلوبِهم السَّكينةَ، واطمأنُّوا بها إلى قضاءِ اللّهِ وقدرهِ فيهم، وأيقنوا أنَّ اللّه سبحانه قد أدَّبهُم فرضُوا .

وكانَ في صفوفِ المؤمنين طائفةٌ من المنافقينَ، خرجوا مع المؤمنينَ وهم يؤمِّلونَ الهزيمةَ لهم، فكان ما أمَّلوا، لكنَّهم لم ينجَحُوا، فقد حلَّ بهم ما لم يقدِروا على دفعهِ عن أنفسِهم، وعجَّل اللّهُ لهُم العقوبةَ، فأذاقَهم لباسَ الجزعِ والقلقِ والخوفِ .

ومع ما أصابَ المؤمنينَ من الهزيمةِ، وما وقعَ بهم من الشَّرِ - وهذا ما كان يرجوهُ المنافقون - فإنَّهم لم يستطيعوا أن يُبيحوا بذاتِ أنفسهِم،فازدادوا نفاقاً إلى نفاقِهم، ورَبَت ظلمةُ قلوبهِم، وأطبقت عليهِم الحيرةُ المفجعةُ وهم ينظرون إلى الأمنِ والطّمأنينةِ والسَّكينةِ التي بدت ظاهرةً بالنُّعاس الذي ملأَ عيونَ المؤمنينَ .

---

(١) آل عمران : ١٤٩-١٥٣ .

ويفضحُهم اللَّهُ في قرآنهِ إلى يومِ يلقونهُ، وينشر ما تُكِنُّ صدورُهم مِن إفكٍ وخزيٍ فيقولُ : ﴿ وَطائفةٌ قَد أهمَّتهُم أنفُسُهم يظنُّونَ باللَّهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهليَّةِ يقولون هَل لَنا مِن الأمرِ مِن شَيءٍ قُلْ إنَّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ يُخفُونَ في أنفُسِهم ما لا يُبدونَ لك ﴾[1].

وكان ظنُّهم الذي ظنُّوا؛ أنَّ الهزيمة التي حلَّت بالمسلمينَ في هذه الغزوةِ ستكونُ هي الماحية المعفيةَ على آثارِ الإسلام؛ فلا تقومُ للمسلمينَ بعدها قائمة .

ولم يتحقَّق لهم ظنُّهم هذا، واجتمعَ إلى ما عراهم من خوفٍ وقلقٍ وجزعٍ، وإلى ما أسبغَ اللَّهُ على المؤمنينَ من طمأنينةٍ وأمنٍ، فتثقُلَت بذلك نفوسُهم، واثَّاقلت على الأرضِ أرجلُهم، ونَكصُوا على أعقابِهم إلى المدينةِ وهم لا يدرون ما يكونُ مِن أمرِهم مع النَّبي صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وما كانوا يدرونَ أنَّ القرآنَ سيفجعُهم وسيفضحُهم، فتكونَ الرَّابعة التي تعدلُ الثَّلاثة السَّابقة، بل إنَّهم وسموا بها أنفسَهم خزياً في الدُّنيا، وذلًّا وعذاباً في الآخرةِ، فإن نَجَوا مِن الأُولى لو لم ينزل بها القرآنُ، لما أفلتوا مِن الثَّانيةِ قطُّ وأنَّى يفلتون ؟!

إنَّ القرآنَ وهو يعرضُ للحديثِ عن غزوةِ أُحُدٍ لا يعرضُ لتفصيلِ أحداثِ الغزوةِ واستنباطِ العبرةِ منها فحسبُ؛ بل إنَّه يحلِّلُ مواقفَ

(١) آل عمران : ١٥٤ .

الأفرادِ تحليلاً نفسيًّا عميقاً، ليضبطَ مسارَ الفردِ في الجماعةِ، في كلِّ موقفٍ من المواقفِ، فيربِّي فيه القدرةَ على الالتئامِ مع الجماعةِ، والانفصامِ منها من غير أن يؤذي نفسَهُ، أو يُلحِقَ الأذى بالآخرينَ، بل لا يكونُ منه التئامٌ ولا انفصامٌ إلّا ومصلحةُ الجماعةِ ماثلةٌ أمامَ عينيهِ يُبصرُ بها وكأنَّها ترقبهُ في ظاهرِهِ، وتنفذُ إلى أعماقِ نفسهِ، فتستظهرُها، وتكشِفُ له خباياها فيعرِفُ ما دقَّ منها وما جلَّ، فيبقى مشدوداً إليها في قوَّةٍ لا تعرِفُ الوهنَ ولا التَّردُّدَ .

ويزيدُ القرآنُ مِن فضحِ المنافقين، فيبكِّتُهم، ويُرضِخُ آنافهُم الهزيلةَ بكبريائِها السَّخيفةِ، حينَ يذكِّرهُم بحقيقةٍ لا يحسنُ أن تغيبَ عن ذهنِ إنسانٍ أيِّ إنسانٍ فيقولُ : ﴿ قُل لو كُنتُم في بُيوتِكُم لَبَرَزَ الَّذينَ كُتبَ عَليهُم القَتلُ إلى مَضاجِعهم ﴾[1] ردًّا على مقالتهم ﴿ لَو كانَ لنا مِن الأمرِ شيءٌ ما قُتِلنا ها هُنا ﴾[2]، وهي مقالةُ الوَرِمِ قلبهُ، الحاقنِ بظلمةِ الحقدِ، الآملِ أن يلقى لقولِهِ سمعٌ مِن بعدهِ، فيقولُ ويفعلُ ما تسوِّلُ له نفسهُ من فسادٍ وفتنةٍ، يمزِّقُ به وحدةَ الجماعةِ، ويوهنُ قوَّتها .

وحين تُغيّبُ الأنانيَّةُ في جوفِها مصلحةَ الجماعةِ، وتدكُّها بمقامعِ أثرَتِها، لا يبقى رجاءٌ فيها قطُّ، ويصيرُ عبثاً أن تُذكَّرَ بشيءٍ كان يُرجى لها بهِ نجاةٌ .

---

(١) آل عمران : ١٥٤ . (٢) آل عمران : ١٥٤ .

ويضعُ القرآنُ أمامَ المؤمنين وغيرهم حقيقةً يجبُ أن تظلَّ ماثلةً في أذهانِهم، فتكونُ حافزاً قويًّا لهم على الجهادِ والبذلِ والتَّضحيةِ : ﴿ وَلِيَبتَلِيَ اللَّهُ ما في صدورِكُم وليُمحِّصَ ما في قُلوبكُم واللَّهُ عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ ﴾[1]، وحين يقرأ المؤمنُ هذهِ الآية يتَّهمُ نفسَه أمامَها، فلا يرى مُميطاً لهذه التُّهمةِ كالبروزِ للقتالِ، والتَّصدِّي للموتِ في سبيلِ اللَّهِ، أمَّا المنافقُ فإنَّهُ حينَ يقرؤها يخشى الافتضاحَ، فيؤثرُ العافيةَ، لأنَّه يعلمُ من نفسِهِ أنَّهُ لن يتقدَّمَ شبراً واحداً للموتِ لشدَّةِ حرصِهِ على الحياةِ، والمنافقونَ في هذا يلتقونَ مع اليهودِ في طريقٍ واحدٍ، ويسجِّل القرآنُ هذا أيضاً على اليهود : ﴿ قُل يا أيُّها الَّذينَ هادوا إن زَعمتم أنَّكم أولياء للَّهِ مِن دُونِ النَّاس فتمنَّوا الموتَ إن كُنتم صادِقينَ ۝ ولا يتمنَّونهُ أبداً بما قدَّمَت أيدِيهِم واللَّهُ عليمٌ بالظَّالمين ﴾[2]، وفي سورة البقرة : ﴿ ولَن يتمنَّوهُ أبداً بما قدَّمت أيديهم واللَّهُ عليمٌ بالظَّالمينَ ۝ ولَتجِدنَّهُم أحرصَ النَّاسِ على حياةٍ ومِن الَّذينَ أشرَكُوا ﴾[3].

وهكذا يَفصِلُ القرآنُ في كلِّ قضيَّة بين الإيمانِ وبين النِّفاقِ فصلاً لا يبقى معه لبسٌ لا في الذِّهنِ ولا في الواقعِ، فتستبينُ الأمورُ كلُّها استبانةً تضعُ كلَّ أمرٍ في مكانِهِ، فيراهُ النَّاسُ في كلِّ عصرٍ كما هو ليكون لهم فيه عِظةٌ واعتبارٌ .

---

(١) آل عمران : ١٥٤ .

(٢) الجمعة : ٦-٧ .

(٣) البقرة : ٩٥-٩٦ .

وتدركُ رحمةُ اللَّه ومغفرتهُ تلكَ الطَّائفةَ التي لاذت بالفرارِ مِن أرضِ المعركةِ، وفيها جُلَّةٌ مِن الصَّحابةِ، لئلّا تظلَّ عيباً يلاحقُهم بعد موتِهم فينزِّلُ براءتَهم منه، يُسكِتُ بها ألسنةَ المتخوِّضينَ في زمانِهم ومَن بعدَهُم فيقولُ : ﴿ إنَّ الَّذينَ تَولَّوا مِنكُم يومَ التقى الجمعانِ إنَّما استزلَّهُم الشَّيطانُ ببعضِ ما كَسبوا ولَقد عَفا اللَّه عَنهُم إنَّ اللَّه غفورٌ حليمٌ ﴾[1]، وفي البشريَّة ضعف لا يبينُ إلّا حينَ تُحيطُ بهذه البشريَّةِ من كلِّ جوانِبها أسبابٌ تنزعُ عنها لباسَها فتُبدِيها كما هي، فلا يكونُ فيمَن بعدَ الصَّحابةِ حرجٌ إن هُم أدركتهُم بشريَّتهُم بضعفِها، وهذا من رحمةِ اللَّهِ بهذهِ الأُمَّةِ، إذ لا تكونُ خصيصةً لأهلِ أُحُدٍ وحدَهم .

ويأتي التَّحذيرُ للمؤمنينَ أن يقولوا أو يعتقدوا اعتقادَ الكافرينَ الذين يقولونَ : لو أنَّ إخوانَنا لم يضربوا في الأرضِ للتِّجارةِ أو يخرجُوا للحربِ لَما ماتوا ولَما قُتِلوا، ويكونُ هذا التَّحذيرُ في سياقِ الحديثِ عن غزوةِ أُحُدٍ للجراحاتِ والقتلِ التي أصابَت المسلمينَ فيها، ولا شكَّ أنَّ القتلَ والجراحاتَ التي تعقبُها هزيمةٌ تُحدِثُ في النَّفسِ صدعاً كبيراً، تسقطُ فيه كثيرٌ من معاني الإيمان أحياناً، فيجيءُ القرآنُ محذِّراً المؤمنينَ أن يكون فيهم شيءٌ من عقيدةِ الكافرينَ أو قولِهم .

وهذا الاعتقادُ عندَ الكافرينَ يجلبُ عليهِمُ الحسرةَ، ويبعثُ في صُدورِهم النَّدامةَ، لأنَّهم ربَّما أصابَهم موتٌ لم ينالوا أجرَهُ، قال تعالى :

(١) آل عمران : ١٥٥ .

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَكونوا كالَّذين كَفروا وقالوا لإخوانِهم إذا ضَربوا في الأرضِ أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندَنا ما ماتوا وما قُتلوا ليَجعلَ اللَّهُ ذلك حَسرَةً في قلوبِهم واللَّهُ يُحيي ويُميتُ واللَّهُ بما تعملون بصيرٌ ﴾[1].

والموتُ الذي أصابَ المسلمين يومَ أُحُدٍ والذي يصيبُ المسلمينَ بعدَ أُحُدٍ كما أصابَ أهلَ أُحُدٍ لا يختلفُ، فهو الموتُ، فما ينبغي أن يقعدَ بالمسلمينَ عن الجهادِ لإعلاءِ كلمةِ اللَّهِ في الأرضِ، لأنَّ مَن يدركهُ الموتُ وهو يقاتلُ في سبيلِ اللَّهِ تكونُ المغفرةُ مقارنةً له، فما يكادُ يسقطُ على الأرضِ حتى تكونَ ذنوبهُ قد فرَّت منه، فما عاد للذَّنبِ على جسدِهِ مستقرٌّ .

والأمواتُ كلُّهُم جميعاً سيلتقونَ على عرصَاتِ الآخرةِ أمامَ ربِّهم ومُبدىءِ خلقِهم، يُعرَضونَ عليه لا تخفى منهم خافيةٌ، كلٌّ يتقدَّمهُ عملهُ، فيُجزى عليه، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر .

وأهلُ أُحُدٍ؛ مؤمنوهم وكافروهم ومنافقوهم سيقِفون يوماً بين يَدي اللَّه للحساب، ويومئذٍ لا ينفعُ الكافرين كفرهُم، ولا المُنافقين نفاقهم، فيحيقُ بهم الخسرانُ المبينُ، أمَّا المؤمنونَ فإنَّهم سينجيهم إيمانهُم، فتكملُ لهم السَّعادةُ التي بدأت تحيكُ خيوطَها في الدُّنيا تضحياتُهم وبذلهُم وجهادهُم، واكتملَت بكلِّ وشيِّها وحواشيها في الآخرةِ، قال تعالى : ﴿ وَلئن قُتِلتُم في سَبيلِ اللَّه أو مُتُّم لمَغفِرَةٌ مِن اللَّهِ ورَحمةٌ خيرٌ ممَّا

(١) آل عمران : ١٥٦ .

يجمعون ٥ وَلَئن مُتُّم أو قُتِلتُم لَإلى اللَّهِ تُحشَرونَ ﴾[١].

وكما أنَّ المؤمنينَ في سلمِهم في حاجةٍ إلى الشُّورى، فهم كذلك في حربِهم، لأنَّ السِّلمَ لا يدومُ إلّا بحربٍ تدفعُ عنه العوادي التي تبغي هدمهُ وإزالته، فلا بدَّ إذاً مِن الأخذِ بالأسبابِ التي تمكِّنُ الحربَ من تحقيقِ غاياتها .

وقد كان للشُّورى المكانُ الأوفى في حسابِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم مع أصحابه، فما كانَ يكادُ يقطعُ بأمرٍ إلّا ويعرضُهُ على أصحابهِ أوّلاً، فإذا استقرَّ معهم على رأيٍ أمضاهُ .

وكانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يقصدُ من وراءِ مشورةِ أصحابهِ إلى أمرينِ مهمَّينِ : **الأوَّل** : تأليفُ قلوبِهم، **والثَّاني** : تعليمُهم أن تكون الشُّورى أساساً في شؤونِ حياتِهم .

وقد ظهرَت الشُّورى بأجلى صُوَرِها في غزوةِ أُحُدٍ، وسجَّلَها القرآنُ في وقائعِها، فكانَت جزءاً منها، وأضْحَت قاعدةً ضروريَّةً مِن قواعدِ الحربِ أبدَ الدَّهرِ، تدلُّ على براعةِ القيادةِ وحُسنِ إدارتِها، ولو لم يكُن لغزوةِ أُحُدٍ من أثرٍ خلَّفتهُ إلّا هذا، لكانت من أعظمِ الغزواتِ في تاريخِ الحروبِ العسكريَّةِ، التي دارَت بينَ مُعسكرينِ .

ولم يكن النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يضعُ الشورى في أوجِ اعتبارهِ

---

(١) آل عمران : ١٥٧-١٥٨ .

لمجرَّد أنَّها قاعدةٌ تحكمُ أمرَ القتالِ فحسبُ؛ بل كانَت عندَه شيئاً من رحمتِهِ التي وسعَت أصحابهُ بل أُمَّتهُ جميعاً في كلِّ أعصارِها .

ولم تكنِ الشُّورى في حسابِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم شيئاً علميًّا محضاً، قائماً على التَّفكيرِ العقليِّ المحضِ؛ بل كانت مقرونةً بالتَّوكُّلِ الخالصِ على اللَّهِ سبحانه .

إذاً فالشُّورى النَّبويَّةُ كانت ذاتَ أُطرٍ ثلاثةٍ، تلتقي كلُّها على صعيدِ الأمرِ الذي تطيفُ به الشُّورى، وهي : الرَّحمةُ، والتَّوكُّلُ، والضَّرورةُ، وبهذا وضعَ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم معنى الشورى في غزوة أُحُدٍ في صياغةٍ عمليَّةٍ رائعةٍ، لم تُعرَف عن أَحَدٍ من قبلٍ، وتسعَدُ بها الأُمَّةُ بعدَه .

وقد حفِظَ لنا التَّاريخُ أسماءً عديدةً لقادةٍ اشتهروا بالبسالةِ والشَّجاعةِ والمهارةِ الحربيَّةِ فَشَلوا في قطعِ الطَّريقِ الواصلةِ إلى المجدِ الذي كانوا يؤملونَ الوصولَ إليه بسببِ استبدادِهم، وتفرُّدِهم في الرَّأي، ورؤيتهُم أنفسَهُم فوقَ الرَّأي إذا كانَ مِمَّن دونَهم .

ولقد ظلَّ النَّصرُ حليفَ القادةِ المسلمينَ الذين اقتدوا برسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم وتمسَّكوا بالشُّورى قاعدةً ضروريَّةً في الحربِ، وسجَّلوا في صحائفِ التَّاريخِ أروعَ صورِ البطولةِ والنَّصرِ، حتى صارَت توضَع في مناهجِ المدارسِ والكليَّاتِ العسكريَّةِ في بلادِ غيرِ المسلمينَ،

اعترافاً منهم أوّلاً بالقدراتِ العسكريَّةِ لهؤلاء القادةِ، وثانياً : عجزُهم عن العثورِ في تاريخِ الحروبِ على مثلِ هذه الصُّوَرِ .

قال تعالى : ﴿ فَبِما رَحمةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لهُم ولو كُنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانفضُّوا مِن حَولِك فاعفُ عنهُم واستغفِر لهُم وشاوِرهُم في الأمرِ فإذا عَزَمتَ فتوكَّل على اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يحبُّ المتوكِّلينَ ﴾[1]، ومعلومٌ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم نَزلَ على رأيِ الشَّبابِ مِن أصحابهِ بعدَ مشاورتِهم، وأصابهُ هو والمسلمين ما أصابهُ، ومع ذلك لم يأذن له الوحيُ بتركِ مشاورتِهم، بل أمرَهُ أن يشاورهُم، فإنَّ المشاورةَ لا تنتهي دائماً إلى تحقيقِ ما تهواه الأنفُس؛ بل يكونُ أحياناً غيرَ ما تهواهُ، ولا يكونُ هذا نتيجةُ الخطإِ في التَّصوُّر والتَّفكير، بل ربَّما كان نتيجةَ الممارسةِ العمليَّة للخطواتِ التي رَسَمتها الشورى، فلا يعاب حينئذٍ بذلك مَن أدلى برأيٍ في أَمرٍ ما وقد أفرغَ جهدهُ فيه، لأنَّه لم يكن يقصد إلى النَّتيجة التي لا يريدها .

وَلم يكن أصحابُ الرَّسول صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم الشَّبابُ يرَونَ في اجتهادِهم - وقد شاورَهم الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم في أُحُدٍ - إلّا تحقيقاً لمصلحةِ الإسلامِ وإرضاءً للَّهِ سبحانه .

ولم يخالج النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم شكٌّ في ذلك، فكانَ أن

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

أمرَه الوحيُ أن يظلَّ يشاورَهم، وفي ذلك تأسية لجراحاتِهم النَّفسيَّةِ التي أرهقتهُم كثيراً، لعلمهِم انَّهم باجتهادِهم الذي خالفوا فيه مُرادَ النَّبيّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، لم يجنوا إلّا الهزيمةَ والجراحَ والتَّقتيلَ، فلمَّا أدركتهُم النَّدامةَ واساهُم ربُّهم بأن أمرَ نبيَّهُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أن لا يكُفَّ عن مشاوَرتهم، وأن يعفو عنهم، وأن يستغفرَ لهم .

ثمَّ يزيدُ من مواساتهم، فيرُدّ النَّصرَ والهزيمةَ إليه هو، لئلّا تبلغ النَّدامةُ في أنفسِهم اكثرَ ممَّا بلغتَ فيقولُ : ﴿ إن يَنصُركُم اللَّهُ فلا غَالبَ لكُم وإن يَخذُلكُم فَمَن ذا الذي يَنصرُكُم مِن بَعدِهِ وعلى اللَّهِ فليتوكَّل المؤمنونَ ﴾[1].

ولعلَّ بعض الألسنةِ المستطيلةِ تخوَّضَت في النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ظُلماً وعُتوًّا، فنَسبوا إليه مشيناً لا يُنسَبُ للأتقياء بله الأنبياء، فقالوا بأنَّه غلَّ شيئاً وآثر بهِ نفسَهُ .

وإذا كانت الهزيمةُ هي التي انتَهى إليها المسلمونَ في أُحُدٍ، فهل يُعقَل أن يكونوا قد حصلوا على غنائمَ ؟ فالواقعُ يكذِّبهُم، ويردُّ افتراءَهم، ويبرئُ الرَّسول صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم .

وكما أنَّ الغُلولَ يكونُ في الأشياءِ الماديَّةِ المحسَّةِ، فإنَّه يكونُ بإخفاءِ شيءٍ من الوحي، والأنبياءُ والرُّسلُ هم الأمناءُ على الوحيِ، وما

(١) آل عمران : ١٦٠ .

اصطفاهم اللَّهُ سبحانه إلّا لما يعلمُ فيهم من صفاتٍ وخلائقَ ليسَت لغيرِهم، وسيدُهُم ومقدمهُم هو محمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، فلو جازَ عقلاً - وهو لا يجوز - أن يُخفي نبيٌّ من الأنبياءِ شيئاً من الوحي عن أُمَّتِهِ فذلك بعيدٌ كلَّ البعدِ عن نبيِّنا صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم .

وهذا الثَّاني من نوعي الغُلولِ هو شرُّهُما، ولا يكون قطُّ هذا من نبيّ، فالأنبياءُ مهمَّتهُم إبلاغُ رسالاتِ ربِّهِم إلّا أن يكونَ افتراءً عليهم وبهتاناً .

ولعلَّ الكفَّارَ والمشركينَ قالوا على الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أمراً في أُحُدٍ ألصقُوه بِهِ، ثمَّ ادَّعوا أنَّه أخفاهُ عن أصحابِهِ .

وأبعُد ما يمكنُ تخيلهُ في هذا، أنَّ أمراً وقعَ له تعلُّقٌ بشخصِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ثُمَّ خَشيَ مِن النَّاسِ فأخفاهُ عنهم، فهو مدفوعٌ بالقرآنِ نفسهِ، وذلك قولهُ سبحانه : ﴿ واتَّقِ اللَّه وتُخفِي في نَفسِكَ ما اللَّهُ مُبدِيهِ وتَخشى النَّاسَ واللَّهُ أَحقُّ أن تَخشاهُ ﴾[1]، فلو كانُ الرَّسول مُخفياً أمراً عنِ النَّاسِ لأخفى هذه الآيةَ، وأيُّ خيانةٍ - وحاشا لنبيٍّ أن يفعَلها - أعظمُ من إخفائهِ وحيَ ربِّهِ، واللَّهُ يأمرُ نبيَّهُ فيقولُ : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بلِّغ ما أُنزلَ إليكَ مِن رَبِّك وإن لَم تَفعَل فما بلَّغتَ رِسالتهُ ﴾[2].

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

(٢) المائدة : ٦٧ .

وغزوةُ أُحدٍ كانت ساحةً راجَت فيها الشَّائعاتُ، وأعظمُها شائعةُ موتُ الرَّسول صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، إمعاناً من المشركين في السخريةِ مِن المسلمين، وتوهيناً لقوَّتِهم، وزعزعةً لصفِّهِم .

والشَّائعاتُ مِن أقوى الأسلِحةِ التي تستخدمُها الجيوشُ في الحروبِ، وحين تنجحُ الشَّائعةُ في المعركةِ تُضعفُ معنويَّاتِ الجندِ، وتوهِنُ عزيمَتَهُم وتخذِّلُهُم .

وممَّا يساعدُ على تتابعِ الشَّائعاتِ قَبولُ النَّاسِ للأولى منها، فإذا وجدَت مستقرًّا لها في أسماعِ النَّاس وقلوبِهم جاءَتِ التي بعدَها امتداداً لها، حتى يجتمعَ منها الجمُّ الكثيرُ، فلا يعود للنَّاسِ قدرةٌ على ردٍّ واحدةٍ منها، وإن كانوا مِن قبلُ قَد كانوا يقدِرونَ على ردِّها، لأنَّها باجتماعِها تصبحُ ذاتَ قوَّةٍ منيعةٍ لا يغلبُها النَّاسُ حتى العقلاءُ، فإنَّها تجوزُ عليهم، وتفلتُ من عقولِهِم، ولا يجدونَ لهم سبيلاً عليها، وهذا هو الخطرُ الحقيقيُ الذي يقبعُ بكلِّ ثقلِهِ وعرامتِهِ وسوأَتِهِ حتى على أهلِ التَّقوى والذَّكاءِ مِن النَّاس، فلا ينفعُهم شيءٌ من ذكاءٍ أو مِن تقوى .

وَمن ذلك ما وقعَ للمسلمينَ يوم أُحُدٍ، فقد نفذَ سهمُ الشَّائعةِ الأولى فيهِم، فلما ظهرَ للأعينِ سوءُ افترائِهم، وتعرَّى للنَّاس كذبهُم، وأيقنَ المسلمونَ بحياةِ نبيِّهم صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، اتبعهُ المشركونَ والمنافقون بسهمٍ آخرَ هو أشدُّ من الأوَّلِ، فقالوا غلَّ النَّبيُّ الوحيَ،

وامتدَّت يدهُ إلى غنيمةٍ .

ولم يتطرَّق لأذهانِ المسلمين يوماً شكٌّ في صدقِ نبيِّهم صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وأنَّهُ لا يُخفي عليهم - ممَّا يوحى إليه - شيئاً، فهل يُعقَلُ أن يصدِّقوا مقالةَ أعداءِ اللَّهِ في نبيِّهم صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ؟!

لَئن صدَّقَ المسلمون الشَّائعة الأُولى، فإنَّهم لَن يُصدِّقوا الثَّانيةَ، فإنَّ الموتَ حقٌّ، والمنيةُ تخترمُ النَّاسَ جميعاً، فما لهم لا يصدِّقون ؟ أمَّا الغُلولُ في الوحي أو في الغنيمة، فهذا شيءٌ لا يدنو من قريبٍ أو بعيدٍ مِن أذهانِهِم، فإنَّهم لا يصدِّقون مثلَ هذا في بعضِهُم البعضَ، فكيفَ يصدِّقونهُ في نبيِّهم صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ؟! فما من صحابيٍّ ممَّن لازموا الرَّسولَ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم سفراً وحضراً إلّا وقد روى عنه شيئاً، وقد سمعوا منه تحذيراً شديداً في كتمانِ شيءٍ ممَّا عِلمُوا ونقلوا عنه، وقد علموا جميعاً من أنفسِهم الزُّهدَ والوَرع اللذين تعلموهما من سلوكِ نبيِّهم صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، فأيقنوا أنَّهُم فوقَ الشبهاتِ، وأنَّهم أكبرُ من كلِّ الدُّنيا، فهي عرضٌ يزولُ ولا يبقى منه شيءٌ، فكيفَ يقعون تحتَ تأثيرِهِ، وقد أنبأهُم نبيُّهم صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم بأنَّ من رَغِبَ عن الدُّنيا أحبَّهُ اللَّهُ، ورأَوْا فيه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم المرآةَ الصَّادقةَ الصَّافيةَ لكلِّ ما أدراهم وأخبرَهم به، ورأوا أنفسَهُم في هذهِ المرآةِ على الصُّورةِ التي رسمَها لهم الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم بقلمِ الوحي .

والفريقانِ المتقاتلانِ في أُحُدٍ كلٌّ منهما ينحازُ إلى فكرةٍ ينتسبُ إليها، ويتبنَّاها بقوَّةٍ، ولا يفترُ في الدِّفاعِ عنها، وينالُ كلٌّ منهم الدرجةَ التي تؤهلُها له فكرتُه، فيذوقُ حلاوةَ النَّعيمِ، أو يتردَّى في سواءِ الجحيم، وليسَ لأحدٍ في ضلالهِ عذرٌ أو حُجَّةٌ تدفعُ عنه سوء العذاب، فقد أمضى اللَّهُ لوحيهِ الحجَّة الباقيةَ على الخلقِ جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم، عرفَ ذلك مَن عرفَ، وجهلَ ذلك مَن جَهلَ، ولا عُذرَ لجاهلٍ بجهلهِ، والفضلُ للَّهِ أوَّلاً وآخراً على من عرفَ، ولو فكَّرَ المشركونَ قليلاً وقدَّروا لانتهوا إلى الإيمانِ وهُم في أوجِ الانتصارِ يومَ أُحُدٍ، ولامتدَّت أيديهم إلى السيوفِ التي يقاتلون بها الرَّسول ومَن معه فكسَّروها، فالرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم من أنفسِهم وما جرَّبوا عليهِ كذباً قطُّ، ولا خيانةَ أبداً، فلما جاءَهم بما جاءَهم كفروا وتولُّوا، ولقد عَلموا أنَّهم ليسوا على شيءٍ، ولكنَّه الاستكبارُ .

والاستكبارُ هو الذي حملَهم على الخروجِ من مكَّةَ لملاقاةِ المسلمينَ في أُحُدٍ، وكان مِن وراءِ خروجِ الرَّسولِ من المدينة إلى أُحد إصرارُ الشَّبابِ من الصَّحابةِ، فالتقى على أرضِ المعركةِ خطَّانِ كبيرانِ، التقيا على صعيدٍ واحدٍ، غيرَ أنَّهما مختلفانِ في الغايةِ والهدفِ، واختلافُ الغايةِ مع توحدِ الأسبابِ لا يحقِّقُها إذا كانت الأسبابُ في جوهرِها غيرَ صحيحةٍ وغيرَ مستقيمةٍ .

ولو ردَّ الفريقانِ؛ المؤمنونَ والمشركونَ الأمرَ إلى مصدرهِ الصَّحيحِ

لامتنعَ كلاهُما عن خوضِ هذه الغزوةِ، لأنَّ الأسبابَ تتوحَّدُ في قوَّةٍ واستقامةٍ، ولكنَّ للَّهِ أمراً لا بدَّ نافذاً، ليميزَ اللَّهُ الخبيثَ من الطيِّب، فيجعل الخبيثَ بعضه على بعضٍ، فيركُمهُ جميعاً في جهنَّمَ .

والمصدرُ هو الوحيُ المنزَّلُ على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ﴿ لقَد منَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إذْ بَعثَ فيهِم رَسُولاً مِن أنفُسِهم يَتلو عليهِم آياتهِ ويُزكِّيهِم ويُعلِّمُهُم الكتابَ والحِكمةَ وإن كانوا مِن قبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾(١).

وهكذا فإنَّنا واجدون الوحيَ لا يدعُ النَّاسَ في أشدِّ الأحوالِ رهَباً إلى أنفسهِم، بل يردُّهم إليه، ويطلعُهم على الصَّوابِ، ويكشفُ لهم عن وجهِ الحقِّ، فلا تكونُ لهم حجَّةٌ لا لمؤمنهِم ولا لكافرهِم، أمَّا المؤمنُ فيذكِّره بأنَّ الخطأَ الذي وقعَ فيه لو أنظرَ نفسَه لاستبانَ فيهِ وجهُ الصوابِ فاجتنبهُ، وأما الكافر فإنَّه لو أنظر نفسَهُ لما اندفعَ وراءَ استكبارهِ ليرديهِ في صغارٍ في الدُّنيا، وفي عذابِ الهُونِ في الآخرةِ، وليسَ وراءَ الوحي لطالبٍ يدٌ .

ويختمُ اللَّهُ الحديثَ عن غَزوةِ أُحُدٍ بهذه الآياتِ : ﴿ أَوَلمَّا أَصابَتكُم مصيبةٌ قَد أَصَبتُم مِثلَيها قُلتُم أنَّى هذا قُل هُو مِن عِندِ أنفسِكُم إنَّ اللَّهَ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ ○ وما أَصَابَكُم يومَ التقى الجمعانِ فبإذنِ اللَّهِ وليَعلمَ

(١) آل عمران : ١٦٤ .

المؤمنين ○ وليَعلمَ الَّذينَ نافَقوا وقيلَ لهم تَعالَوا قاتِلوا في سبيلِ اللَّهِ أو ادفَعوا قالوا لو نَعلَم قِتالاً لاتَّبعناكُم هُم لِلكُفرِ يومئذٍ أقربُ منهُم للإيمانِ يقولونَ بأفواهِهم ما ليسَ في قُلوبِهم واللَّهُ أعلمُ بما يَكتُمونَ ○ الَّذينَ قالوا لإخوانِهم وقَعَدوا لَو أطاعُونا ما قُتِلوا قُل فادْرَؤُوا عَن أنفُسِكُم الموتَ إنْ كنتُم صادِقينَ ﴾[1] يُجملُ فيها نتائجَ الغزوةِ :

○ **أوَّلاً** : الرَّبطُ بين أُحُدٍ وبَدرٍ، وذلك يُذكِّرُهُم بأنَّ ما أَلمُّوا بِهِ يومَ بدرٍ من النَّصرِ والغنيمةِ إنَّما كانَ بسببِ طاعتِهِم نبيِّهم وعدمِ المخالفةِ عن أمرِهِ .

○ **ثانياً** : أنَّ ما ألمَّ بهم يومَ أُحُدٍ من قتلٍ وجراحٍ إنَّما كانَ بسبب من عندِ أنفسِهم .

○ **ثالثاً** : أنَّ الغزوةَ كانَت كاشفةً لمعادِن النَّاسِ، فعُرِفَ المنافقونَ بتخاذُلِهم وفسادِ أقوالِهم، وعُرِفَ المؤمنونَ بصبرِهِم وتضحياتِهم .

○ **رابعاً** : التَّحذيرُ من أُولئكَ المنافقينَ الذين خذَلوا النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وأصحابهُ، وأن لا يُخدَع هو وأصحابهُ بما يقولونَ بألسِنَتِهم .

○ **خامساً** : أنَّ القتالَ لا يسرعُ في الآجالِ كما أنَّ القعودَ عنهُ لا يؤخِّرُ فيها، فالموتُ نهايةُ المطافِ للإنسانِ، وفي ذلك حثٌّ على القتالِ، وتشجيعٌ على الاستمرارِ في الخروجِ معَ الرَّسول صلَّى اللَّه عليه وسلَّم

---

(١) آل عمران : ١٦٥-١٦٨ .

للغزوِ لنشرِ دعوةِ اللَّهِ في الأرضِ .

وهكذا فإنَّنا نرى أنَّ غزوة أُحدٍ كانت درساً عمليًّا أخذهُ المسلمونَ بقوَّةٍ ودفعوا الثَّمنَ فيه غالياً، ظلَّ حاضراً في أذهانِهِم في كلِّ غزواتِهِم مع رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وبَعدَه، فكان النَّصرُ لهم حليفاً لم يتخلَّف .

□ الثَّالثةُ : غزوةُ الأحزابِ :

غزوةُ الأحزابِ مِن أعظمِ الغزواتِ خُطورةً، وأشدُّها تأثيراً في حياةِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وأصحابِهِ، فقد رقيت هذه الغزوةُ فوقَ الغزواتِ، وأدلَت عليها جميعاً بما كانَ لها من حظوةِ السَّماءِ، وظلَّت تخطُر على التَّاريخِ تُباهي الغزواتِ والمعاركَ التي وقعت فوقَ أطباق الثَّرى، وكان الفوزُ فيها للحقِّ وأهلِهِ .

إن غزوةَ الأحزابِ نمطٌ فريدٌ في تاريخِ الحروبِ، فإنَّ الثَّمرةَ الطيِّبةَ التي جناها المسلمونَ فيها تدلَّت بأغصانِها من السَّماءِ، وأدنَتها مِن أيديهِم يدُ اللَّهِ، فرأوا فيها معجزة النَّصرِ، وانتصارَ المعجزةِ .

تحدثَ القرآنُ عن غزوةِ الأحزابِ في سبع عشرةَ آيةً مِن سورةِ الأحزابِ، من قولهِ تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اذكروا نعمةَ اللَّهِ عليكُم ﴾[1] الآيات إلى قولهِ تعالى : ﴿ وكان اللَّهُ قويًّا عَزيزاً ﴾[2].

---

(١) الأحزاب : ٩ .

(٢) الأحزاب : ٢٥ .

والقرآنُ حين يتحدَّثُ عنِ الغزواتِ لا يتحدَّثُ عنها بطريقةٍ واحدةٍ، فهو تارةً يغفلُ ذكرَ الأسبابِ والمقدّماتِ، وتارةً يهتمُّ بالنَّتائجِ والنِّهاياتِ، وتارةً يُفصِّلُ في مجرياتِ أحداثِ الغزوةِ، وتارةً يقرنُ بين المقدّماتِ والنِّهاياتِ والأحداثِ في نسقٍ واحدٍ مؤتلفٍ، وكلُّ واحدةٍ من هذه تحكُمها طبيعةُ الغزوةِ، ومكانتُها، وأثرُها في الواقعِ الإسلاميِّ العامِ .

وغزوةُ الأحزابِ جمَعت بينَ أُولئكَ جميعاً، فقد تحدَّثتِ الآياتُ القرآنيَّةُ عن مقدماتِها، ونهايتِها، ومجرياتِها في إيجازٍ بليغٍ، لا يمكنُ للعقلِ وحدَه أن يعمل في تصويرِها مِن غيرِ أن يكونَ للإيمانِ الدَّورُ الأظهرُ والأمثلُ في تكوينِ الصورةِ واكتمالِها عنها .

وتبدأُ هذه الآياتُ بتذكيرِ المؤمنينَ بالنِّعمةِ العظيمةِ التي أصابوها في هذه الغزوةِ، وهذه البدايةُ تعجيلُ النِّهايةِ التي انتهَت الغزوةُ إليها، وهي نهايةٌ سارَّةٌ جميلةٌ ولا شكَّ، فإنَّ كلمةَ : ﴿ نعمة ﴾ لا تكونُ إلّا في التَّبشيرِ بشيءٍ، والتَّعجيلُ بذكرِ النِّهايةِ وضعٌ للنِّهايةِ موضعَ البدايةِ، ووضعٌ للبدايةِ موضعَ النِّهايةِ، لو ذُكرَت النِّهايةُ بغيرِ هذه الكلمةِ لم يكن للتعبيرِ القرآنيِّ ذلك الوقعُ المؤثرُ على النُّفوسِ .

إذاً فالتَّعبيرُ القرآنيُّ هو الذي يجعلُ للشيءِ الذي يعرضهُ التَّأثيرَ القائمَ على النُّفوسِ، ولا يكون للمعنى ذلك التَّأثيرُ القائمُ إلّا إذا كانَ منسجماً مع الصُّورةِ اللفظيَّةِ التي تحتويهِ .

وممَّا زادَ في قوَّةِ تأثير هذهِ النِّهايةِ وجمالِها أن جاءَت مقترنةً ببدايةِ الغزوةِ، ولم تأتِ مقترنةً بنهايتِها، ولم يُفصل بين البدايةِ ومجرياتِ الغزوةِ إلّا بحرفِ الفاءِ فقط، وأمَّا مُجرياتها فقد جاءَت في ستِّ كلماتٍ فقط، وهي : ﴿ فَأَرسَلنا عَلَيهِم رِيحاً وَجُنُوداً لَم تَرَوْها ﴾[1]، فأيُّ إعجازٍ هذا الذي رَسمَ غَزوةً بكامِلها بمقدماتِها، ومجرياتِها، ونهايتِها، في ثلاث عشرةَ كلمةٍ وهي : ﴿ اذكُروا نِعمةَ اللَّهِ عليكُم إذ جاءَتكُم جُنودٌ فأرسَلنا عليهِم رِيحاً وجُنوداً لَم تَرَوها ﴾[1]، ثمَّ تَرَكَ للعقلِ وحدَه أن يتملى تفاصيلها الدَّقيقةَ ؟!، إنَّه إعجازُ القرآنِ، كلامُ اللَّهِ الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديهِ ولا مِن خلفهِ .

وكانَ لليهودِ دورٌ خطيرٌ في هذهِ الغزوةِ، لم يأتِ ذكرهُ في الحديثِ عنها، إذ اكتُفيَ عنه بذكرهِ في الحديث عن غزوةِ بني قريظةَ التي جاءَ ذكرها عقيب غزوةِ الأحزابِ مباشرةً، فأغنى عن ذكرهِ في غزوة الأحزاب .

وحينَ يتحدَّثُ القرآنُ عن غزوةٍ من الغزواتِ، فإنَّهُ يُعنى عنايةً كبيرةً بإظهار الأحوالِ والانفعالاتِ النَّفسيَّةِ التي تنشأُ عن هذه الغزوةِ أو تلك، لأنَّ سَوقَ الأحداثِ وتفصيلها ليسَ هو الشيءِ الذي يُعنى به القرآنُ، فهو يريدُ أن يُبرزَ العبرةَ، والعبرةُ لا تكونُ مؤثِّرةً قويَّةً إلّا إذا سيقَت مِن خلالِ تلكَ الأحوال والانفعالاتِ النفسيةِ .

---

(١) الأحزاب : ٩ .

وإذا أردنا أَن ندخلَ في تفاصيلِ غزوةِ الأحزابِ، فإنّنا نكادُ نشاهدُها ونلمسُها مِن قريبٍ، حتى لكأنَّها قد وقعَت حينَ نقرؤُها حروفاً وكلماتٍ .

فقولُه تعالى : ﴿ إذ جَاءَتكُم جُنودٌ ﴾ لا نَعرفُ منه كيف جاءَت، حتى إذا قَرأنا قوله تعالى : ﴿ إذْ جاؤوكُم مِن فَوقِكُم ومِن أسفَلَ مِنكُم ﴾[1]، عرفنا أنَّ هذه الجنود أحكَمت الحصارَ على المدينةِ إِحكاماً شديداً، وهذا ما وقعَ فعلاً فقد توارَدَت على المدينةِ أحزابُ المشركينَ من منافذِها التي تنتهي إلى داخِلها، وإن كانَ يمكنُ أن يَلقوا شدَّةً في ذلك .

ويؤكِّد هذا ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وإذْ زاغَتِ الأبصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ وتظنُّونَ باللَّهِ الظُّنونا ﴾[1]، وليس أدلَّ على التَّعبير عن الفزعِ الذي ملأَ نفوسَ المسلمينَ يومَ الأحزابِ من مثل قولِهِ : ﴿ وإذْ زاغَتِ الأبصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجرَ ﴾[1]، فلم تعُدِ الأبصار قادرةً على تركيزِ نظرِها في شيءٍ، ولا على استيعابِ شيءٍ ممَّا يقعُ نظرُها عليه، فإنَّ الذهنَ لا يُلمُّ بشيءٍ أبداً إلّا إذا كان في حالةِ استقرارٍ وسكينةٍ، وأينَ الاستقرارُ والسَّكينةُ في أذهانِ المسلمينَ يومَ الأحزابِ ؟ وقد قفزَتِ الأرواحُ إلى الحناجرِ فهي تكادُ تخرجُ مِن أقطارِ النُّفوس، ولا تجدُ أيسرَ من الحناجرِ فتقفزُ إليها، ولكن هذا لا يقدِّرُها على النجاةِ مِن الموتِ الذي فزعَت منه وخافَت، فتستقرُّ في الحناجرِ مضطربةً فزعةً، فلا هي قادرةٌ

---

(1) الأحزاب : ١٠ .

على الخروجِ منها - إذ ليسَ ذلك إليها وإنَّما لخالقها وحدَه - ولا هي قادرةٌ على العودة إلى حيثُ كانَت، فقد أوثَقها الفزعُ والخوفُ بالحناجرِ، فهي إذاً بينَ الحياة وبين الموتِ، بين الرَّجاء في النَّجاةِ، وبين الخوفِ من الهلاكِ .

إنَّهُ الهولُ الذي أَحاطَ بالمسلمينَ مِن كلِّ جانبٍ، ولفَّهم لفًّا عنيفاً أضحَوا معه عاجزينَ عن التَّدبُّرِ والتَّفكيرِ، بل أخرجَ الكثيرينَ منهم عن الظنِّ السَّويِّ في اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فربَّما ظنُّوا في أنفسِهم أنَّ اللَّهَ قد تخلَّى عَن المسلمينَ فليس بناصِرهم، وربَّما ظنُّوا أنَّ المشركين سوفَ يستأصلونَ شأفةَ المسلمين، والرسولُ أولُهُم وربَّما ظنُّوا أنَّ الإسلام ليس الدِّين الحقّ الذي يستأهلُ أهلهُ النَّصرَ، فهم مقهورونَ بعجزِهم . وكلُّ هذه الظُّنون لا تعدو دائرةَ المنافقين أو نفراً وَهَنوا لما أصابَهم فلحقوا بالمنافقينَ في بعضِ ظنونِهم، وأمسكُوا على هذهِ الظُّنون ألسنتَهم، وحبسوها في صدورِهم، حتى يكونَ أمرٌ مِن الأمرِ بنصرِ المسلمينَ أو بهزيمتِهم، وإن كانتِ الهزيمةُ أقربَ وأدنى إلى ظنِّهم .

وتضطربُ القلوبُ في الحناجرِ اضطراباً شديداً يؤثِّرُ على الأجسامِ تأثيراً قويًّا حتى إنَّه ليظهرُ في حركاتٍ لا إراديَّةٍ؛ في جيئةٍ وذهابٍ، وفي صعودٍ ونزولٍ، وفي سَنةٍ ويَقَظةٍ، وفي جوعٍ وشبعٍ، وفي ريٍّ وظمأٍ، وهذا أشدُّ ما لقيَ المسلمونَ مِن بلاءٍ في هذه الغزوةِ، وذلك قولهُ : ﴿ هُنالِكَ

ابتُليَ المؤمنونَ وزُلزِلوا زِلزالاً شَديداً ﴾[1].

وحينَ يبلغُ الأمرَ بجندٍ - وهم محاصرونَ - هذا المبلغَ؛ فإنَّ ذلكَ مُؤذنٌ بنهايةٍ مفجعةٍ، لا يُنتَظر لهُم بعدَها رجاءٌ في نجاةٍ منها، وهي اهتمامُ كلِّ فردٍ منهم بشأن نفسهِ، لا يعنيه أَحَدٌ ممَّن حولهُ أبداً، لأنَّه وهو ينتظرُ هذه النِّهايةَ المفجعةَ لا يقوى على استجماع تفكيرهِ المشتَّتِ في أرجاءِ نفسهِ الفزعةِ المُضطربةِ، فهو بذلك لا يمكنُه أن يُحدِّد جهةً ينجو منها إذا وطئتهُ أقدامُ الغزاةِ المحاصرينَ، فكيفَ يمكنهُ أن يفكِّرَ في شأنِ غيرهِ، وشأنهُ هو نفسهُ لا يُمسكُ منه بشيءٍ ؟! وحين يُصبحُ الجندُ على مثلِ هذه الحالِ، فإنَّ ذلك واضعٌ فيهم التفرُّقَ والتَّشتُّتَ لا محالةَ .

ولكنَّ اللَّه سبحانهُ الذي يعلمُ من نفوسِ هؤلاءِ المسلمينَ ما لا يعلمونَ هُم منها - وهو الذي أنزلَ بهم هذه الشدَّةَ ابتلاءً لهم واختباراً - لم يكن ليَدعهُم لمثلِ هذه النهاية، أو لآثارِها، فيدركهم بنصرِه، ويَكلأهُم بعينِ رعايتِه، ويرسلَ على المشركينَ والأحزابِ ريحاً وجنوداً لم يروها، قال تعالى : ﴿ فأرسَلنا عليهم رِيحاً وجُنوداً لم تَرَوْها ﴾[2].

ويكونُ للمنافقينَ دورٌ يتفقُ مع طبيعتهِم المنحرفة الخبيثة، فلا يجدونَ في أنفسِهم خفَّةً إلّا لكلمةِ سوءٍ، ولا توجُّهاً لقلوبهِم إلّا نحوَ

---

(١) الأحزاب : ١١ .　　(٢) الأحزاب : ٩ .

الشَّرِّ والإفسادِ، ويرونَ مِن واقع المسلمينَ الفزعَ المضطربَ ما يمكِّنُ لما يُريدون، أو هكذا كانوا يظنُّون، فيُلقُون بدلاء ألسنتهِم في آبارِ الفتنةِ، ويرفعونَ الأقنعةَ عن وجوهِهم الكالحةِ، وتصعدُ الكلماتُ النَّتنةُ من قلوبِهم فلا تستقرُّ حتى على ألسنتهم من استعجالٍ لا تطيقُ معهُ صبراً على الانتظارِ والإبطاءِ، فقالت فئةٌ منهم : ﴿ ما وَعَدَنا اللَّهُ ورَسولهُ إلّا غُروراً ﴾[1]، وقالت فِئةٌ أُخرى : ﴿ يا أهلَ يَثربَ لا مُقامَ لكُم فارجِعوا ﴾[2]، وتأتي فئةٌ ثالثةٌ لم تملك أن تواريَ كلمتها بلطفِ الاعتذارِ فتقول في تعليلِ استئذانها : ﴿ إنَّ بيوتَنا عَورةٌ ﴾[2] فيعجِّلُ اللَّهُ بافتضاحِهم فيقولُ : ﴿ وما هي بعورةٍ إن يُريدُون إلّا فِراراً ﴾[2]، والفرارُ هنا ليسَ في ظنِّي من خوفٍ، فالمنافقون ضَامِنون أن لا يوقعَ المشركونَ ولا اليهودُ بهم شرًّا، إن انتَصروا - بل إنَّهُ زيادةٌ في إضعافِ صفِّ المسلمينَ - وقد عَلِموا ما حاقَ بهم، ونزلَ في قلوبهم من فزعٍ واضطرابٍ .

وإذا كان هذا هو الدَّورُ الذي لعبَهُ المنافقونَ في غزوةِ الأحزابِ فهو الدورُ الذي يُنتَظرُ أن يلعبوه في كلِّ زمانٍ، فالأُمَّة حينئذٍ مندوبةٌ لكفِّ يدِ المنافقين، وكشفِ وجوهِهم للنَّاسِ جميعاً، وتعريتِهم تحتَ الشَّمسِ حتى يراهُم كلُّ أحدٍ فلا يخفونَ عليه، ثمَّ لا يكون لهم قدرةٌ على التَّحرُّك بين المؤمنين بفسادِهم وشرِّهِم .

---

(١) الأحزاب : ١٢ .　　(٢) الأحزاب : ١٣ .

والمنافقون لا يطولُ لبثُهم أمام الاختبارِ، فهم سُرعانَ ما يستجيبونَ لدعاةِ الشَّرِّ والفتنةِ، ولا يتورَّعون من إعلانِ حقيقةِ ما تُكنُّه صدورُهم، ويبدونَ ما كانوا يُخفونَ من قبل : ﴿ وَلَو دُخِلَت عَليهِم مِن أقطارِها ثمَّ سُئلُوا الفِتنةَ لأَتوها وما تَلبَّثوا بِها إلّا يَسيراً ﴾[1].

وإذا انكشَفَت عوراتُ المنافقينَ، وبدا ما كانوا يُخفونهُ، فما ينبغي أن يُصدّقوا في قولٍ أو عَهدٍ، لأنَّ معدِنَ النِّفاقِ واحدٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ومعدِنُ الشيءِ لا يتغيَّرُ، وإن تغيَّرت ألوانهُ وظواهرُه، هذه حقيقةٌ ثابتةٌ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَد كانوا عاهَدوا اللّهَ مِن قَبلُ لا يُوَلُّونَ الأدبارَ وكانَ عَهدُ اللّهِ مَسؤولاً ﴾[2].

وَصدقُ العَهدِ أو تخلُّفهُ لا يظهرُ إلّا تحتَ منظارِ التَّجربةِ، والبطءُ في ظهورِ حقيقةِ العهدِ أو الشرعةِ فيه يكونُ تبعاً لجسامةِ التَّجربةِ أو صِغرِها، وقَد كانتِ التَّجربة في غزوةِ الأحزابِ جسيمةً ضخمةً، لذا ما لَبثَ عهدُ المنافقينَ أن بدا تخلُّفهُ في لواذهِم ببيوتِهم، وفرارِهم مِن أرضِ القتالِ، وتبريرِهم ذلك بأنَّ بيوتَهُم مكشوفةٌ للأعداءِ فهم يريدونَ حِمايتَها والدِّفاع عنها، وربَّما داخَلَهم ريبٌ أنَّ المشركينَ إن دَخَلُوا المدينةَ فلا يفرِّقونَ بينَ المؤمنينَ والمنافقينَ في القتلِ والإيذاءِ فليأخذوا الحيطة إذاً لأنفسهم، وليَمتنِعوا في بيوتهم، فإذا دَخَلَ المشركونَ المدينةَ عَلموا أنَّهم لم يُقاتلوهُم، ولم يصدُّوهم عن دخولها، فَنَجوا من سيوفِهم وأسلحتهم،

(١) الأحزاب : ١٤ .
(٢) الأحزاب : ١٥ .

ونالوا مِنهُم خَيراً .

لكن معَ كلِّ ما منُّوا به أنفسَهم مِن النَّجاةِ، وأخذِهم الحيطةَ لأنفسِهم؛ فإنَّ شيئاً ممَّا فعلوا لن يردَّ عنهم الموتَ، ولن يدفعَ عنهم الهلاكَ، لأنَّ الأسبابَ ليس لها حسابٌ في تدبير اللَّهِ وتقديرِهِ، فهي معطَّلةٌ إذا أرادَ اللَّهُ سبحانهُ شيئاً، قال تعالى : ﴿ قُل لَن يَنفعُكُمُ الفِرارُ إن فَرَرتُم مِنَ الموتِ أو القتلِ وإذاً لا تُمتَّعونَ إلّا قَليلاً ○ قُل مَن ذا الَّذي يَعصِمكُم مِنَ اللَّهِ إن أرادَ بكُم سُوءاً أو أرادَ بكُم رَحمةً ولا يَجدونَ لهُم مِن دونِ اللَّهِ وليًّا ولا نَصِيراً ﴾[1].

ولم يقف دورُ المنافقين في غزوةِ الأحزابِ عندَ هذا الحدِّ، بل تجاوزهُ إلى التَّخذيلِ والتَّشكيكِ، فقالوا لإخوانهم الَّذينَ بينهُم وبينهُم مودَّةٌ : هلمَّ إلينا، وانعموا بالظِّلالِ والثِّمارِ، ولا تشقُّوا على أنفسِكُم بالخروجِ للقتالِ لئلّا يصيبكُم القتلُ والجراحُ، ثم لا تُصيبوا حظًّا من النَّصرِ .

ثمَّ إنَّهم معَ قُعودِهم عن القتالِ، وتخذيلِهم إخوانَهم عنِ المشاركةِ في الجهادِ، حين رأوهُم قد عادوا بالعافيةِ والنَّصرِ، لم يمنعُهم الحياءُ أن ينسِبوا لأنفسِهم شيئاً ممَّا عادَ بهِ إخوانهُم، فأطلقوا لألسنتهِمُ العنانَ في ادِّعاءِ الشجاعةِ والنَّجدةِ، ورفعوا عقائرهُم المنكرةَ بمطالبةِ المجاهدينَ مقاسَمتهُم ما غَنِمُوهُ .

---

(١) الأحزاب : ١٦ و ١٧ .

وجرّأهُم على ما قالوا ورفعوا به أصواتُهم ظنُّهم أنَّ الأحزابَ التي أحاطَت بالمدينة لا زالَت في مواقِعها لم تبرحها، ولو أنَّهم أيقنوا أنَّ هذه الأحزابَ تستهدفُهم بقتالِها، لآثروا السَّلامةَ بالبقاءِ في الباديةِ، بعيداً عن مواطنِ الخوفِ والفزعِ، يلوذون بجبنِهم وشحِّهم بها، يرقبونَ ما يجري على أرضِ المعركةِ، لا يرجونَ إلّا هزيمتكُم والظَّفرَ بكُم، ليُبدوا لكم الشَّماتة والفرح بما أصابكُم، ولم يكن للمنافقينَ رجاءٌ إلّا هذا، لتعودَ لهم السِّيادةُ على أرضِ المدينةِ بعدَ أن يئسوا اليأسَ كلَّه من عودتِها إليهم، فجاءَت غزوةُ الأحزابِ لتحيي فيهم هذا الرَّجاءَ من جديدٍ، ويحذرُ اللَّهُ نبيَّه والمؤمنينَ أن يكونَ للمنافقينَ دورٌ في القتالِ، لأنَّهم لو قاتلوا لَن يصبروا في القتالِ إلّا قليلاً، ثم ينهزمونَ ويفرُّونَ، وفي فرارِهم وهزيمتِهم إضعافٌ لمعنويَّاتِ المجاهدينَ، وهذا شرُّ ما يُصابُ به المجاهدون في أثناءِ القتالِ، قال تعالى : ﴿ قَد يَعلمُ اللَّهُ المُعوِّقينَ منكُم والقائلينَ لإخوانِهم هَلُمَّ إلينا ولا يأتونَ البأسَ إلّا قليلاً ○ أشحَّةً عليكم فإذا جَاءَ الخوفُ رأيتَهُم يَنظرونَ إليكَ تَدورُ أعيُنُهُم كالذي يُغشَى عليهِ مِن الموتِ فإذا ذَهبَ الخوفُ سَلَقوكُم بألسنةٍ حِدادٍ أشحَّةٍ على الخيرِ أُولئكَ لَم يُؤمِنوا فأحبطَ اللَّهُ أعمالَهُم وكان ذلكَ على اللَّهِ يَسيراً ○ يَحسَبونَ الأحزابَ لم يَذهبوا وإن يأتِ الأحزابُ يَودُّوا لو أنَّهُم بادُونَ في الأعرابِ يَسألونَ عن أنبائِكُم ولو كانوا فيكُم ما قاتَلوا إلّا قَليلاً ﴾[1].

---

(١) الأحزاب : ١٨-٢٠ .

ومِن خِلالِ الفزعِ والخوفِ والشِّدَّةِ المطبقةِ على المؤمنينَ ببأسِها، والتَّخذيلِ والتَّشكيكِ تبرزُ الصُّورةُ الرَّائعةُ المشرقةُ للقيادةِ المقتدرةِ بإذنِ ربِّها؛ صورةُ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وهو يحملُ همَّ أُمَّتِهِ في غزوةِ الأحزاب وبعدَها إلى قيامِ السَّاعةِ، ومصيرِ الأرضِ التي لو قُدِّرَ للأحزابِ أن تستوليَ عليها لضاقَت عليهم الأرضُ كلُّها برحبِتها، فلا يراه أصحابه إلّا يقظاً متحرِّكاً لا تأخذهُ عنهُم غفلةٌ، ولا تستميلهُ من دونِهِم راحةٌ، ولا يتخيَّرُ لنفسهِ مستراحاً آمناً ولا مستراداً هنيئاً، فيستذكرون به وعداً أُنزلَ عليهم من قبل، رأوه ماثلاً أمامهم في شخصهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، يقيناً يعبقُ بشذى الإيمانِ وروحِ الجنانِ، فيصوِّبونَ إليه عيونَهم، فيزيدُهم إيماناً باللَّهِ ورسولِهِ، وتسليماً لكلِّ ما قَد يأتيهم به الوحيُ من أمرٍ ونهيٍ، ويظنُّون أنَّ النَّصرَ منهم قريبٌ، وإن تمالأت عليهمُ تلكَ الأحزابُ الكاثرةُ، قال تعالى : ﴿ لَقَد كانَ لكُم في رَسولِ اللَّهِ أُسوةٌ حَسنةٌ لمن كانَ يَرجُو اللَّهَ واليومَ الآخرَ وذَكرَ اللَّهَ كثيراً ٥ ولمَّا رأى المؤمنونَ الأحزابَ قالوا هذا ما وَعَدَنا اللَّهُ ورسولهُ وصدقَ اللَّهُ ورسولُه وما زادَهُم إلّا إيماناً وتَسليماً ﴾[1].

وإذا كان المنافقون قد أخلوا مكانَهم، وأعملوا ألسنَتَهُم في التَّخذيلِ والتَّشكيك، وهم يرجون أن يصيبوا من صفِّ المسلمينَ صدعاً يدخلون منه إليهم فيفرِّقُوهم، فإنَّ رِجالاً حَولَ محمَّد صلَّى اللَّه عليه وسلَّم آلَوْا

(١) الأحزاب : ٢١-٢٢ .

على أنفسهم أن يظلوا ماضينَ على أمرِ اللّهِ، لا يضرُّهم تخذيلُ مخذلٍ، مقيمين على العهدِ، لا يضعفهُم تشكيكُ مشكِّكٍ، حتى يلقوا ربَّهم سبحانه في موتٍ أو شهادةٍ، وهم المعنيُّون في قولهِ سبحانه : ﴿ مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صَدقُوا ما عاهَدوا اللّهَ عليهِ فمِنهُم مَن قَضى نحبَهُ ومنهُم مَن يَنتظِرُ وما بدَّلوا تَبديلاً ﴾[1]، وبهؤلاءِ الرِّجالِ كان النَّصرُ الذي أنزلهُ اللّهُ سبحانه على المؤمنين في غزوةِ الأحزابِ، لأنَّ النَّصرَ لا يكونُ مِنحةً للعاجزينَ القاعدين الخوَّارين، بل للأقوياءِ القائمين المثابرين .

وإذا كانَ قد أصابَ المسلمينَ في غزوةِ الأحزابِ الفزعُ والخوفُ، فليس يعني هذا أنَّ إيمانهم قد وهنَ في صدورِهم، فإنَّ في جبلَّةِ الإنسانِ الضَّعفُ الذي لا يقوى على مغالبتهِ بنفسهِ أحياناً، إلّا إذا كان له روافدُ من قوَّةٍ تأتيهِ من خارجِ نفسهِ، والذي أحاطَ بالمسلمين يومَ الأحزابِ من الأعدادِ البشريَّةِ الكاثرةِ، ووفرةِ السِّلاحِ والشّوكةِ، والإحساس النَّفسيِّ أنَّ الجزيرةَ قد ألقَت إليهم بثقلِها، وانبجَسَت من أرجائِها عيونُ الشَّرِّ، تدفعُ بهِ نحوَ المدينةِ لتغمرَها وتغرقَها، كلُّ ذلك كشفَ عن الضَّعفِ البشريِّ .

لكن هذا الضَّعفَ لم يلبث أن انخنسَ في أعماقِهم خوفاً وفَرَقاً من وَقدَةِ عزيمةِ الإيمانِ التي توهَّجَت أن تحرقهُ ثم لا يكونُ له وجودٌ فيهم، واستطاعت فئة ممَّن صدقَت في إيمانها ودينها أن تعيدَ إلى المؤمنين الثِّقة الإيمانيَّة فكانَت هذه الفئةُ هي الوقدةَ المتوهِّجةَ التي أقصَت عن نفوسِ

(١) الأحزاب : ٢٣ .

المؤمنينَ الضَّعفَ بصدقِها، فنالَت أجرَها مِن اللَّهِ سبحانه جزاءً وِفاقاً : ﴿ لِيَجزيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصدقِهِم ﴾[1]، أَما المنافقونَ فإنَّ لهم شأناً آخرَ، فَمن ماتَ على نفاقه فمآله عذاب النَّارِ، ومن تابَ ونزعَ مِن نفاقهِ فبابُ اللَّهِ مفتوحٌ يدخلُ مِنهُ إليهِ، ليغرفَ من معينِ رحمتهِ : ﴿ ويُعذِّبَ المنافقينَ إن شاءَ أو يتوبَ عليهِم إنَّ اللَّهَ كان غَفوراً رَحيماً ﴾[1].

○ نتيجة الغزوة :

لكلِّ غزوةٍ من غزواتِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم نتيجةٌ تنتهي إليها، ومن مجموع نتائج هذه الغزوات يكونُ الهدفُ الكليُّ لها، الذي وضعهُ الرَّسول صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بأمرٍ من ربِّهِ عزَّ وجلَّ، وليس يملكُ أحدٌ من البشر مهما بلغَ مِن قوَّة النَّفاذ في الرَّأي والحكمةِ، وقوَّةِ البدنِ والجماعةِ أن يصوغَ هدفاً أسمى وأقدرَ على توحيدِ جماعةِ المجاهدينَ، وشحنِ قلوبهِم بالحماسةِ من هذا الهدفِ، بل إنَّه ليسَ من حقِّه ذلك، وهو : « أن يكونُ الدِّين كلُّهُ في الأرض للَّهِ وحدهُ » .

ونتيجةُ غزوةِ الأحزاب أوجزَها ربُّنا سبحانه بقوله : ﴿ وَردَّ اللَّهُ الَّذينَ كَفَروا بغَيظِهِم لم يَنالُوا خَيراً وكَفى اللَّهُ المؤمنينَ القتالَ وكانَ اللَّهُ قَويًّا عَزيزاً ﴾[2].

وبإمعان قليلٍ للنَّظر نرى أنَّ هذه الآيةَ إلى جانبِ ذكرِها النَّتيجةَ قد

(1) الأحزاب : ٢٤ .

(2) الأحزاب : ٢٥ .

أشارَت بكلِّ جزءٍ منها إلى جانبٍ من جوانب أحداثِ الغزوةِ، وقد أسلَفنا تفصيلها فلا نعيدهُ .

أمَّا الآيةُ فقد أوجزَت نتيجةَ الغزوةِ في أمورٍ أربعةٍ وهي :

○ **أوَّلاً** : رجوعُ الذين كفروا عن المدينةِ : ﴿ وردَّ اللَّهُ الَّذينَ كَفَروا ﴾ .

○ **ثانياً** : فشلُهُم الذَّريعُ في تحقيقِ أيِّ نجاحٍ : ﴿ لَم يَنالوا خَيراً ﴾ .

○ **ثالثاً** : وضعُ إصرِ القِتالِ عَن المؤمنين : ﴿ وكفَى اللَّهُ المؤمنينَ القِتالَ ﴾ .

○ **رابعاً** : أن يكونوا على ذكرٍ دائمٍ بفضلِ اللَّهِ عليهم ﴿ وكانَ اللَّهُ قويًّا عزيزاً ﴾ .

ومن خلالِ الآياتِ التي عرضَت للحديثِ عن غزوةِ الأحزابِ تبدو لنا المعجزةُ الإلهيَّةُ التي تصدَّت للأحزابِ وهم في أوجِ كبريائِهم وخُيلائهِم، فردَّتهم على أعقابِهِم خاسِرينَ، وحَفِظَ اللَّهُ للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم الجُهدَ الضَّخمَ الذي كان سيُبذَلُ في هذهِ الغزوةِ، ليظلَّ مَذخوراً لغزواتٍ أُخرى مَسطورةٍ في صفحةِ الغيبِ، شاهداً للإيمانِ على مضائهِ وقوَّتهِ، ولأهلِ الإيمانِ على تمكُّنِهم واستخلافِهم في الأرضِ، عنوانَ عدالةٍ وعزَّةٍ وسؤددٍ .

□ الرَّابعة : غزوةُ بني قُريظة :

الفاصلُ الزَّمنيُّ بينَ غزوةِ الأحزابِ وبين غزوةِ بني قريظةَ، يكادُ يكونُ هو الفاصل بينَ الآياتِ التي تحدثَ فيها القرآنُ عن الأُولى منهما، وبينَ الآياتِ التي تحدَث فيها القرآنُ عن الثَّانيةِ .

بل إنَّ غزوةَ بني قريظةَ كانت امتداداً لغزوةِ الأحزابِ، إذ لَم يكد الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ينفضُ يديه من آثارِ غزوةِ الأحزابِ حتى نزلَ الوحيُ بأمرِ اللَّه له أن يتوجَّهَ إلى بني قُريظةَ .

وكانت قريظةُ قد نقضَت عهدَها الذي كانَت أبرَمتهُ مع النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وتحالَفت مع الأحزابِ سرًّا على المسلمينَ .

يقولُ ابنُ كثيرٍ : « فلما نقضَت قريظةُ، وبلغَ ذلكَ رسول اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، ساءَهُ وشقَّ عليهِ وعلى المسلمينَ جدًّا، فلما أيَّدهُ اللَّهُ تعالى ونَصرَهُ وكبَتَ الأعداءَ وردَّهُم خائبين بأخسرِ صفقةٍ، ورجعَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم إلى المدينةِ مؤيَّداً منصوراً، ووضعَ النَّاسُ السِّلاحَ، فبينما رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يغتسلُ مِن وعثاءِ تلك المرابطةِ في بيت أُمِّ سلمةَ رضيَ اللَّهُ عنها، إذ تبدَّى لهُ جبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ معتجِراً بعمامةٍ مِن إستبرق على بغلةٍ عليها قطيفةٌ من ديباجٍ، فقال : أوضَعتَ السِّلاح يا رسولَ اللَّهِ ؟! قال صلَّى اللَّه عليه وسلَّم : نعم، قالَ: لكنَّ الملائكةَ لم تَضع أسلحَتها، وهذا الآن رجوعي من طلبِ

القومِ، ثمَّ قال : إنَّ اللَّه تباركَ وتعالى يأمرُكَ أن تنهضَ إلى بني قريظةَ، فنهضَ رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم مِن فورِهِ، وأمرَ النَّاسَ بالمسيرِ إلى بني قريظةَ - وكانت على بُعد أميالٍ من المدينةِ - وذلك بعدَ صلاةِ الظهرِ، وقالَ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم : (ولا يُصلِّيَنَّ أحدٌ منكُم العصرَ إلّا في بني قُريظةَ)، فسارَ النَّاسُ، فأدركتهُم الصَّلاةُ في الطَّريقِ، فصلَّى بعضهم في الطَّريق؛ وقالوا : لم يُرِد منا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم إلّا تعجيلَ المسير، وقال آخرون : لا نصلِّيها إلّا في بني قريظةَ، فلَم يعنِّف واحداً من الفريقين، وَتَبِعَهُم رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وقد استخلفَ على المدينةِ ابنَ أُم مكتومٍ رضيَ اللَّهُ عنه، وأعطى الرَّايةَ لعليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللَّه عنهُ »[1].. إلى آخر ما أوردهُ في « تفسيره » .

وجاءَ ذكرُ غزوةِ بني قريظةَ في سورةِ الأحزاب في آيتينِ اثنتينِ فقط: ﴿ وأنزَلَ الَّذينَ ظاهَروهُم مِن أهلِ الكِتابِ مِن صَياصِيهِم وقَذفَ في قُلوبِهم الرُّعبَ فَريقاً تَقتُلونَ وتَأسِرونَ فَريقاً وأورَثَكُم أرضَهُم ودِيارَهُم وأموالَهُم وأرضاً لَم تَطَؤُوها وكانَ اللَّهُ على كلِّ شَيءٍ قَديراً ﴾[2].

وتطوي هاتانِ الآيتانِ أحداثَ الغزوةِ العديدةِ التي رسمَتها أقدامُ الصَّحابةِ وحوافرُ خيلِهم على طولِ الطَّريقِ مِن المدينةِ إلى منازلِ بني قريظةَ، وحولَ أسوارِ حصونِهُم المنيعةِ المنيفةِ، والكلماتِ التي رددتها ألسنتُهم، والأصواتَ التي تردَّدَ صداها في أرجاءِ الأرضِ المنبسطةِ حولَ

(١) « تفسير ابن كثير » (٣/٤٧٧-٤٨٧) .

(٢) الأحزاب : ٢٦ و ٢٧ .

تلكَ الحصونِ، والتَّدبيرَ العقليَّ المسدَّدَ بالوحي السَّماويِّ، والدَّعواتِ التي جَأَرَت بها قلوبُ الصَّحابةِ المتدفِّقةُ حُبًّا للَّهِ وللرَّسولِ، المفعمةُ بالشَّوقِ الكبيرِ إلى الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ، وصورةُ سعدِ بن مُعاذٍ سيِّدِ الأوسِ وهو ينهضُ من قبَّتِهِ داخلَ المسجدِ، فيمتطي حِماراً ليَلحقَ برسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، فيقولُ كلمةَ الفصلِ في يهودِ بني قُرَيظةَ، التي توافقُ حُكمَ اللَّهِ من فوقِ سبع سماواتٍ : « إنِّي أحكُمُ أن تُقتَلَ مُقاتلتُهم، وتُسبى ذُرِّيَّتهُم وأموالُهم » .

كلٌّ هذا وغيرُهُ ممَّا أوجزَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللَّهُ ممَّا هو مَبسوطٌ مطولٌ في كتبِ السيرةِ أحكَمَتهُ الآيتانِ في تسعٍ وعشرينَ كلمةٍ، فأيُّ إعجازٍ هذا الذي رسمَ بتلكَ الكلماتِ التِّسعِ والعشرينَ صورةَ معركةٍ بكامِلها، من تدبيرٍ، وزحفٍ، وحصارٍ، وإنزالٍ من الحصونِ، وأسرٍ، وقَتلٍ، ومصادَرةٍ للأموالِ، واستيلاءٍ على الأرضِ .

وتُسرعُ الآيتانِ في ذكرِ النَّتيجةِ التي تولَّى اللَّهُ سبحانهُ بنفسهِ تحقيقَها كما تولَّى تحقيقَ نتيجة الغزوةِ التي قبلَها - غزوةَ الأحزابِ - ويطوي ما قبلَها كلَّهُ، لأنَّ العبرةَ بالغاياتِ والنَّتائِج، والغزواتُ كلُّها غايتُها واحدةٌ؛ وهي التَّمهيدُ لإعلاءِ كلمةِ اللَّهِ في الأرضِ .

وَلأهميَّةِ النَّتيجةِ - التي حَرصَ عليها القرآنُ ليُنهي نبأَها إلى أسماعِ الأجيالِ القادمةِ، فتفرحَ بما نالَ أسلافُها، وتطمع في مثلِ ما وصلوا إليهِ -

يؤخِّرُ شيئاً مهمًّا جدًّا له أثرٌ كبيرٌ في إحرازِ مثلِ هذه النَّتيجة وهو : الخوفُ الذي مَلأَ قلوبَ أُولئكَ اليهودِ : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعبَ ﴾[1]، والتَّعبيرُ القرآنيُّ بكلمةِ ﴿ قَذَفَ ﴾ تعبيرٌ تصويريٌّ رائعٌ، فقد جعلَ الرُّعبَ شيئاً يُقذَفُ، صوَّبهُ إلى القلبِ، والقلبُ إذا أُصيبَ أودى إلى الموتِ، وقد كان ذلكَ، فقد استسلموا، وأنفذَ فيهمُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم لحكم سَعدَ بنِ معاذٍ، ومَن بقيَ أُجليَ عَن أرضهِ، فأقفَرَت مِن أهلِها، فلم يبقَ أثرٌ لشيءٍ إلا ما بقيَ من أثرِ الموتِ .

ولم يذكر القرآنُ بني قريظةَ صراحةً، وإنَّما قالَ :﴿ وَأنزلَ الَّذينَ ظاهَرُوهُم ﴾[2] أي : عاوَنوا الأحزابَ وساعدوهُم على حربِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، ولعلَّ التَّكنيةَ عنهم بقولهِ : ﴿ ظاهروهُم ﴾ إشعاراً بالعلاقةِ الوثيقةِ بين الغزوتين : غزوة الأحزابِ وغزوة بني قريظةَ، وإعلاماً بأنَّ الثَّانيةَ كانت نتيجةً من نتائجِ الأولى، وأثراً مِن آثارِها .

والجزاءُ من جنسِ العملِ، فكما أنَّ اليهودَ مالَؤوا المشركينَ، وتظاهَروا على إخافةِ المسلمينَ في غزوةِ الأحزابِ؛ فإنَّ اللَّه سبحانه ردَّ هذه الإخافةَ إلى بني قريظةَ، وملأَ قلوبَهُم رُعباً، فلم تفلح حصونُهم المنيعةُ في ردِّ الرُّعبِ عنهم، وأهبَطهُم الخوفُ منها، فأُسيموا ذُلَّ الأسْرِ، وأُذيقوا ألَمَ التَّقتيلِ، ولَبِثَ الموتُ فيها مليًّا يتربَّصُ بمن تحدِّثهُ نفسُهُ العودةَ إليها، وليسَ شيءٌ آلم للنَّفسِ مِن فِراقِ الإنسان أرضَهُ التي وُلِدَ عليها،

(١) و (٢) الأحزاب : ٢٦ .

وتَرَعرَعَ فوقها، فأُخذَت منهم أرضُهم، وصارَت تحتَ يَدِ الإسلام إلى قيامِ السَّاعةِ إن شاءَ اللَّهُ، وأُودِعَت قلوبَ من بقي منهم حيًّا حَسرَةٌ، وتحركَ فيها حشرجةُ الموتِ في كلِّ لحظةٍ من لحظاتِ حياتِهم التي عاشوها، ولم تفارقهُم إلّا حينَ قَبضتْهم يَدُ الموتِ إليها .

لكن ماذا يقولُ المسلمون اليومَ وهم يسمعون كُبراءَ يهودِ فلسطينَ يرتِّلونَ في حزنٍ وشقٍّ أنَّاتِ أجدادِهم شوقاً إلى أرضِهمُ الأُولى على أفواهِ البنادقِ والرَّشاشاتِ والمدافعِ، وفي هديرِ أصواتِ الدبَّاباتِ والجرَّافاتِ والطَّائراتِ ؟!

وما من شكٍّ أنَّ حصونَ بني قريظةَ هذه لو بقيَت، وبقيَ فيها المكرُ اليهوديُّ يرسِلُ شواظَهُ الخفيَّ على المسلمينَ في المدينةِ، لكان أمرٌ لا يُدرَكُ إلّا بعدَ وقوعِهِ، ولاستطاعَ المشركونَ أن يُعيدوا الكرَّة على المدينةِ بالتَّواطؤِ معَ يهودِ بني قريظةَ، فتقعُ في قبضتِهم، ويوأدُ الإسلامُ في مهدِهِ قبلَ أن يَستويَ على سوقِهِ، ولكنَّ اللَّهَ سلَّمَ، وسُقِطَ في أيدي اليهودِ كما سُقطَ في أيدي الأحزابِ من قبلُ، ورأى المؤمنون بأُمِّ أعينِهم المعجزةَ السَّماويَّةَ تتجلَّى في بهاءٍ واستعلاءٍ، يظهرُها اللَّهُ سبحانه لأوليائهِ ليزدادوا إيماناً مع إيمانِهم، وتطمئنّ قلوبُهم بنصرِ اللَّهِ الذي أحرزوه بفضلِ اللَّهِ وحدَه، بعدَ أن عَلِمَ منهُم الإعدادَ للقتالِ، والعزمَ على بلوغِ الغايةِ وتحقيقِ النَّتيجةِ مهما كلَّفهُم ذلك من ثمنٍ، فأنالَهُم إيَّاهُ كرامةً لهم بجهدٍ قليلٍ .

ولَم تكُن غزوةُ بني قريظةَ بتدبيرٍ من الرّسولِ صلّى اللّه عليه وسلّم، ولا بمشورةِ أحدٍ منَ الصّحابةِ، بل كانت بأمرٍ من الوحي، أعقبَت غزوةَ الأحزابِ، بعدَ جُهدٍ نفسيٍّ وبدنيٍّ ضخمٍ بذلهُ الرّسولُ صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابهُ في حفرِ الخنادقِ، والسّهرِ المتواصلِ، والحذرِ البالغِ، والتّرقُّبِ والفزعِ الشّديدين، فكان أمرُ الوحي بها إيذاناً مِن اللّهِ بالنّتيجةِ التي انتهت إليها، لذلك خفَّ الصّحابةُ إليها في غير تردُّدٍ، ولَم يكن الجهد النّفسيُّ والبدنيُّ الذي بذلوه في الخندقِ ليُقعِدَهُم، بل كان حافزاً لهم على الإسراعِ في إنجازِ ما طلبَهُ الرّسولُ صلَّى اللّه عليه وسلَّم منهم، أوفوا به على شرفِ النّصرِ، وأخافوا به عربَ الجزيرةِ الذين لم يكن عندهُم من وسائلِ الدّفاع والقتالِ ما عند أُولئك اليهودِ، وأوقعوا في قلوبِهم الرّعبَ، وأضعَفوا شوكة المشركين، ولا شكَّ أن نتيجتي الغزوتينِ مجتمعتينِ (الأحزاب وبني قُريظة) – على قربِ العهدِ بينهما – أمضيا أمراً على مشركي الجزيرةِ لم يكن في حسبانهم ألبتّة، كان له – في ظنّي – دورٌ في تخفيفِ الوطأة عن المسلمينَ في المدينةِ، وتوهينِ قوَّتِهم ولفت أنظارِهم إلى التّفكيرِ في أمرِ القوَّة التي أصبحَ لها ذلك الشّأنُ الخطيرُ فوقَ أرضَ الجزيرةِ، بحيثُ صارَت تتابعُ الحربَ في بأسٍ لم يكن لهم به عهدٌ – ولم يكن ليخطرَ في بالهم أن يكونَ – لأنَّهم كانوا يحسبون الأشياءَ حِساباً رقميًّا ماديًّا مَحضاً، وينشؤونها إنشاءاً قياسيًّا يخضعُ للكمِّ وحده .

ولستُ هنا بصددِ المقارنةِ والمقايسةِ بينَ الماضي وبينَ الحاضِر، لأسوقَ النَّبأَ للنَّاسِ من بعدي ما كان من أمر المسلمينَ مع اليهودِ في فلسطينَ، والخوفِ منهم الذي أحاطَ بالمسلمينَ في كلِّ أرضٍ، والإمعانِ في الذلِّ على أيدي بقيَّةِ بني قُريظةَ والنَّضيرِ وقينقاعَ، والمؤامراتِ الدَّنيئةِ التي كانَ يتسابقُ إليها الكبراءُ إرضاءً لسادتِهم سَدَنةِ البيوتِ البيضاءِ والحمراءِ والسَّوداءِ، فإنَّ التَّاريخَ قد أوعبَ ذلك وغيرهُ ليُظهرَ عليهِ الأجيالَ في غيرِ منٍّ ولا أذى، وفي غيرِ تبريرٍ وكذبٍ ومَينٍ، وسيعلمُ أولئكَ أيَّ منقلبٍ ينقلبونَ، ﴿ يَومَ يَخرُجُونَ مِن الأَجداثِ سِراعاً كأنَّهم إلى نُصُبٍ يوفِضونَ خاشِعةً أبصارُهم تَرهَقُهم ذِلَّةٌ ﴾[1]، فلنترك نبأهُم للتَّاريخ، فليُعلَمنَّ نبأهُم بعد حينٍ .

□ خامساً : غزوةُ بني النَّضير :

لليهودِ في تاريخِ الإسلامِ وفي سيرةِ النَّبيِّ الكريمِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قسطٌ وافرٌ من الذِّكرِ، وليسَ كلُّ ذكرٍ ذكراً، فمِنَ الذِّكر ما يبقى عبقاً متألقاً بالنُّورِ، ومِن الذكر ما يكونُ أسودَ مظلماً، يتوارى منه أهلهُ خجلاً، ولو لم يكن لليهودِ من هذا الذِّكرِ الأسودِ إلّا ما سطَّرهُ القرآنُ في آياتهِ لكفى النَّاسَ أن يتَّقوهم ويحذروهم، فمن القرآن ما فيه مُزدجرٌ، يبلغُ بالنَّاسِ مشارفَ الحكمةِ، يأخذونَ منها لأنفسِهم أحسَنها، وكلُّه نافعٌ حسنٌ .

(١) المعارج : ٤٣ و ٤٤ .

ولقد كان لغزوةِ بني النَّضيرِ من القرآنِ رقعةٌ واسعةٌ من آياتهِ كادَت أن تستغرقَ سورةً برمَّتِها، وهي سورةُ الحشرِ، يقول سيِّدُ قطب : « نزلَت هذه السُّورةُ في حادثِ بني النَّضيرِ – حيٌّ من أحياء اليهود – في السَّنةِ الرَّابعةِ مِن الهجرة، تَصفُ كيف وقعَ ؟ ولماذا وقعَ ؟ وما كان في أعقابهِ من تنظيماتٍ في الجماعةِ الإسلاميَّةِ، ترويها بطريقةِ القرآنِ الخاصَّةِ، وتعقُّبُ على الأحداثِ والتَّنظيماتِ بطريقةِ القرآنِ كذلك في تربيةِ تلك الجماعةِ تربيةً حيَّةً بالأحداثِ والتَّوجيهاتِ والتَّعقيباتِ »[1].

وأخرجَ البخاريُّ في « صحيحه » عن سعيد بن جُبير قال : « قلت لابنِ عبَّاسٍ : سورةُ التَّوبةِ ؟ قالَ : هي الفاضِحةُ؛ ما زالت تنزِلُ ومنهم، ومنهم، حتى ظنُّوا أنَّها لم تبقِ أحداً منهم إلّا ذُكرَ فيها، قال : قلت : سورةُ الأنفالِ ؟ قال : نزلت في بدرٍ، قال : قلت : سورةُ الحشرِ ؟ قال : نزلت في بني النَّضير »[2].

كانت هذه الغزوةُ بعدَ أُحدٍ وقبلَ الأحزابِ، وكانَت بدايةَ النَّصرِ على أعداءِ الإسلام المُحدقينَ بالمدينةِ، الذين كانوا يخضعونَ للعهودِ، ويتربَّصونَ في أنفسِهم بالرَّسولِ والإسلامِ والمسلمينَ الدَّوائرَ، وينتظرونَ يوماً لا يريبُهم فيه أمرٌ ينكثون فيه العهودَ المبرمةَ مع الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم في سرٍّ وكتمانٍ، حين تلوحُ لهم الفرصةُ التي لا يستطيعُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ومَن معهُ حيلةً لأنفسِهم يخلصونَ منها إلى

(١) « الظلال » (٢٩/٨) . (٢) « صحيح البخاري » (٥٨/٦) .

سبيلِ نجاةٍ .

ولكن هؤلاءِ الأعداء نسوا في غمرةِ مكرِهم أنفسهُم، وكيدهُم الضَّعيف، أنَّ اللَّهَ هو الذي يتولَّى حمايةَ الإسلامِ والرَّسولِ بنفسهِ، وهو القادرُ على تغييرِ المقاييسِ والنَّواميسِ التي يحتكمُ إليها البشرُ في تدبيرِهم وتقديرِهم، وأنَّ القوَّة التي يستندونَ إليها في هذا التَّدبيرِ والتَّقديرِ هي من صنعِ اللَّهِ سبحانه الذي تخضعُ الأشياءُ كلُّها لإرادتهِ وقهرِهِ، فأينَ يذهبون ؟ وهل في ظنِّهم أنَّهم بمكرِهم وكيدِهم سيفلتون ؟!!

ويستطيلُ شرُّ أولئكَ اليهودِ، ويَنسونَ - أو بالأحرى يتناسونَ - أنَّ في أعناقِهم عهداً يجب أن يظلَّ وفاؤهُم له ماضياً، فيجمعون أمراً زيَّنته أنفسُهم الحاقدةُ الواجدةُ على الإسلامِ ونبيِّ الإسلامِ، وذلكَ حين قتلَ عمرو بن أُميَّة الضَّمريُّ رجلين من بني عامرٍ، ولم يكن قَد عَلِمَ بالعَهدِ الذي أبرمَهُ معهم النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فلما أخبرهُ عمرو بقتلهِ الرَّجلينِ، قال له : « لقد قتلت رجلين، لأدينَّهما »، وكان بين بني النَّضير وبين بني عامر حِلفٌ وعهدٌ، فخرجَ رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم إلى بني النَّضير ليَستعينَهُم في دية ذينك الرَّجلينِ : « قال محمَّدُ بن إسحاقِ ابن يسارٍ في كتابهِ « السيرة » : ثمَّ خرجَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم إلى بني النَّضير يَستعينُهم في ديةِ ذينكِ القتيلينِ من بني عامرٍ اللذين قتَلهُما عمرو بن أُميَّة الضَّمريُّ للجوارِ الذي كان رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم عقدَ لهما - فيما حدَّثني يزيدُ بنُ رومان - وكان بين بني

النَّضيرِ وبني عامرٍ عقدٌ وحلفٌ، فلما أتاهم رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يستعينهم، في ديةِ القتيلينِ، قالوا : نعم يا أبا القاسِم ! نعينُكَ على ما أحببتَ ممَّا استعنتَ بنا عليهِ، ثمَّ خلا بعضُهم ببعضٍ، فقالوا : إنَّكم لن تجدوا الرَّجلَ على مثل حالهِ هذه - ورسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم إلى جنبِ جدارٍ من بيوتِهم - فمَن رجلٌ يعلو على هذا البيتِ فيلقي عليه صخرةً فيريحُنا منه ؟ فانتدبَ لذلك عمرو بنُ جحاشِ بنُ كعبٍ أحدُهُم، فقالَ : أنا لذلك، فصعدَ ليلقي عليه صخرةً كما قالَ، ورسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم في نفرٍ من أصحابه فيهم أبو بكرٍ وعمرُ وعليٌّ رضي اللَّه عنهم، فأتى رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم الخبرُ من السَّماء بما أرادَ القومُ، فقامَ وخرجَ راجعاً إلى المدينة، فلما استلبثَ النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم أصحابهُ، قاموا في طلبهِ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال : رأيتهُ داخلاً المدينة، فأقبلَ أصحابُ رسولِ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم حتى انتهوا إليه، فأخبرَهُم، الخبرَ بما كانت يهودٌ أرادَت من الغدرِ به، وأمرَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بالتَّهيُّؤ لحربِهم والمسيرِ إليهم، ثمَّ سارَ حتى نزلَ بهم، فتحصَّنوا منهُ في الحصونِ، فأمرَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بقطعِ النَّخل والتَّحريقِ فيها، فنادوه أن يا محمَّد ! قد كنت تنهى عن الفسادِ في الأرضِ، وتعيبُه على مَن يصنعهُ، فما بالُ قطعِ النَّخلِ وتحريقِها ؟ »[1].

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٣٣١/٤) .

وَتبدأُ السُّورةُ بالتَّعجيلِ بذكرِ النَّتيجةِ التي انتهَت إليها المعركةُ :
﴿ هُوَ الَّذي أخرجَ الَّذينَ كَفروا مِن أهلِ الكِتابِ مِن دِيارِهم لأوَّلِ الحَشرِ ﴾(١)، وهذا دأبُ القرآنِ في كلِّ الغزواتِ التي انتهَت بالمسلمينَ إلى النَّصرِ، فهو يعجِّلُ بالبشرى، لتبقى صورتُها قويَّةً راسخةً في عقولِ المسلمينَ على مدارِ الزَّمنِ، ولتبقى الفرحةُ بالنَّصرِ حيَّةً نابِضةً في صُدورِهِم كُلَّما قَرؤوا كُلَّ آيةٍ من تلكُم الآياتِ المبشِّراتِ بالنَّصر، فَيظَلُّ الشَّوقُ إلى النَّصرِ عارِماً في صُدورِهِم، يلزِمُهم أسبابَهُ، ويَشدُّهُم إلى دواعيهِ .

وكأنَّ تلكَ النَّتيجةَ التي انتهَت إليها الغزوةُ لم تكن متوقَّعةً للمسلمينَ أو لبعضِهم على الأقلِ في زمنٍ قريبٍ، لأنَّ الحصونَ المنيعةَ التي كانوا يتحصَّنون بها كانت مظنَّةً لردِّ أطماع من تحدِّثهم نفوسهم باقتحامِها، حتى عندَ المسلمين أنفسِهم، وإلّا ما كانَ القرآنُ ليقولَ :
﴿ ما ظَنَنتُم أن يَخرُجُوا ﴾(١)، ولكنَّ هذهِ الحصونَ لم تكن لتمنعَ الرُّعبَ أن يستوليَ على قلوبِهِم ويملأها، فالرُّعبُ لا تصدُّه الحصونُ الشَّاهقةُ المنيعةُ، ولا تردُّه الأبوابُ الضَّخمةُ الثَّقيلةُ، ولا تكفُّهُ الأسلحةُ التي أعدِّت للدِّفاع عنها، فهو شيءٌ فوقَ هذا كلِّهِ، وأقوى من هذا كلِّه، ولا يستأذنُ في أمرِهِ فيؤذَن لهُ، بل إنَّه ليُسخِّرَ أصحابَ هذهِ الحصونِ لتقويضِها وتخريبِها، ليكونوا سخريةً أبدَ الدَّهرِ، قال تعالى : ﴿ ما ظَنَنتُم

(١) الحشر : ٢ .

أن يَخرُجُوا وظَنُّوا أَنَّهُم مانِعَتُهُم حُصُونهُم مِن اللَّهِ فأتاهُم اللَّهُ مِن حَيثُ لم يَحتَسِبُوا وقَذَفَ في قُلوبِهم الرُّعبَ يُخرِبونَ بُيوتَهُم بأيدِيهِم ﴾[1].

ولا يُغفِل القرآن دورَ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم والمسلمينَ في تهديمِ هذه الحصونِ وتخريبِها، فإنَّ الحصارَ الذي فرضوهُ عليها كان العاملَ الكبيرَ في إحلال الرُّعبِ في قلوبِ أصحابِها، الذي انتهى بهم إلى إعمالِ يدِ التَّخريبِ والهدم فيها، قالَ تعالى : ﴿ وأَيدِي المؤمنينَ ﴾[1]، أي أنَّ التَّخريبَ كان بأيدي المؤمنين أيضاً .

ثمَّ يلفتُ القرآنُ نظرَ المؤمنينَ في أوجِ الانتصارِ أن لا يوقعُهم الغرورُ بِهِ فيما أوقعَ فيه اليهودَ بحصونهِمُ المنيعةِ، فإنَّ القوَّةَ للَّهِ وحدَه، ويجبُ على الجندِ المؤمنِ أن يستمدَّها منهُ، فإنَّ اللَّهِ هو خالقُهم وخالقُ القوَّةِ، ولا ينفكُّ خلقٌ عن خلقٍ بسببٍ ممَّا يظنُ أنَّ فيه زيادة قوَّةٍ وبأسٍ يكونُ من تدبير هذا الخلقِ وتقديرِهِ، وذلك قولهُ سبحانه : ﴿ فاعتَبِروا يا أُولي الأبصارِ ﴾[1].

ويسبقُ ذكرَ نتيجة الغزوةِ إعلامُ اللَّهِ سبحانهُ بأن الخلائقَ كلَّها تَسبحُ له، فهو يشبهُ تذكير المسلمينَ بأنَّ عبادَتهم ربّهم، وخضوعَهُم له، وإسلامَهم أنفسَهم له هو السَّببُ في الحصولِ على ثمرةِ النَّصرِ، فعليهم أن يظلُّوا على صلةٍ دائمةٍ بِهِ، فبذلك وحدَه يكونُ النَّصرُ، لأنَّهُ هو العزيزُ

---

(١) الحشر : ٢ .

الذي لا غلبةَ إلّا بعزَّتِهِ، الحكيمُ الذي لا قدرةَ إلّا بحكمتِهِ، فعلى المسلمينَ أن يوثِّقوا صلَتهم بالعزيزِ الحكيمِ .

ولم يكن في هذهِ الغزوة قتالٌ، بَل كانَ حصارٌ أنزلَ اليهودَ من حصونِهم، وألقى الرعبَ في قلوبِهم، من هيبةِ رسولِ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وهذا ما يوضِّحهُ قوله سبحانه : ﴿ فَما أوجَفتُم عليهِ من خَيلٍ ولا رِكابٍ ﴾[1].

لِذا كانَ المالُ الذي أصابهُ المسلِمونَ مِن بَني النَّضير فيئاً مَوضُوعاً تحتَ يدِ النَّبيِّ؛ وهو الذي لا غلبةَ إلّا بعزَّته، ولا قدرةَ إلّا بحكمتِه، فهوَ يتصرَّفُ فيه كما يشاء، وهكذا كلُّ مالٍ يُصيبُه المسلمونَ إلى يومِ القيامةِ؛ يكونُ للإمامِ حقُّ التَّصرُّفِ فيهِ، يضعُه في الجهةِ التي يشاءُ، قال تعالى : ﴿ وَما أفاءَ اللَّهُ على رُسولهِ منهم فما أوجَفتُم عَليه مِن خَيلٍ ولا رِكابٍ وَلكنَّ اللَّه يُسَلِّطُ رسُلَهُ على مَن يَشاءُ واللَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ○ ما أفاءَ اللَّهُ على رسولهِ مِن أهلِ القُرى فللَّهِ وللَّرسولِ وَلذِي القُربى واليَتامَى والمساكينِ وابنِ السَّبيلِ كَي لا يكونَ دولَةً بين الأغنياءِ مِنكُم وما آتاكُم الرَّسولُ فخذوهُ وَما نَهاكُم عَنهُ فانتَهوا واتَّقوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ شديدُ العِقابِ ﴾[2]، وهو أوَّل مالُ فيءٍ يصيبهُ المسلمونَ، تولَّى اللَّهُ سبحانه قِسمتَه كيلا يكون دُولةً بينَ أيدي الأغنياءِ يتصرَّفون فيه بمحضِ الشَّهوات والآراءِ، ولا يصرفُونَ منه شيئاً إلى الفقراءِ، فأنشأ القرآنُ بهذا

---

(1) الحشر : ٦ .   (2) الحشر : ٦ و ٧ .

قاعدةً ثابتةً للمالِ على الدَّهرِ .

وأخرجَ البخاريُّ عن عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي اللَّهُ عنه قال : « كانَت أموالُ بني النَّضيرِ ممَّا أفاءَ اللَّهُ على رسولهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ممَّا لم يوجِف المسلمونَ عليه بخيلٍ ولا ركابٍ، فكانَت لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم خاصَّةً يُنفقُ على أهلِهِ مِنها سنَتهُ، ثمَّ يجعلُ ما بقي في السِّلاحِ والكراعِ عُدَّةً في سبيلِ اللَّهِ »[1].

ويضعُ اللَّهُ في هذهِ الآياتِ قواعدَ تشريعيَّةً إجماليَّةً تَنفسِحُ على امتدادِ رقعةِ الوجودِ الإسلاميِّ، ليظلَّ هذا الوجودُ موثوقاً إليها في قوَّةٍ وإحكامٍ فلا يضلُّ ولا يشقى، منها قاعدةٌ في التَّنظيمِ الاقتصاديِّ : ﴿ كَيْ لا يكونَ دُولةً بَين الأغنياءِ منكُم ﴾[2]، وقاعدةٌ في التَّشريع الدَّستوري : ﴿ وَما آتاكُم الرَّسولُ فَخذوهُ وما نَهاكُم عنهُ فانتَهوا ﴾[2]، وهذا كلُّهُ مِن بَركةِ الجهادِ في سَبيلِ اللَّه الذي عطَّلهُ المسلمونَ بضعفِهم وخذلانِهم، واستيلاءِ حبِّ الدُّنيا على قلوبهِم .

وقد بيَّنَ اللَّهُ سبحانه حالَ المستحقين لمالِ الفيءِ في قولهِ : ﴿ للفُقراءِ المهاجرينَ الذين أُخرِجُوا مِن دِيارهِم وأموالِهم يَبتَغونَ فَضلاً مِن اللَّهِ ورِضواناً ويَنصُرونَ اللَّهَ ورسُولَهُ أُولئكَ هُم الصَّادقونَ ٥ والَّذينَ تبوَّءوا الدَّارَ والإيمانَ مِن قبلهِم يُحبُّونَ مَن هاجرَ إليهِم ولا يَجِدُونَ في

---

(١) « صحيح البخاري » (٦/٧٨) .

(٢) الحشر : ٧ .

صُدورِهم حَاجةً مِمَّا أُوتُوا ويُؤثِرون عَلى أنفسِهم وَلَو كان بهِم خَصاصةٌ ومَن يُوقَ شُحَّ نَفسِه فأُولئكَ هُم المفلحونَ ۝ والَّذينَ جَاؤُوا مِن بَعدِهم يَقُولونَ ربَّنا اغفِر لَنا ولإخوانِنا الَّذينَ سَبقونا بالإيمانِ ولا تَجعَل في قُلوبِنا غِلًّا للَّذينَ آمَنُوا ربَّنا إنَّكَ رؤوفٌ رَحيمٌ ﴾[1] فما من مسلمٍ إلّا وله حقٌّ في هذا المالِ الذي لا يكونُ بإيجافِ خيلٍ وركابٍ وقتالٍ .

وقد التقى على صعيدِ هذه الغزوةِ مَكرُ اليهودِ وكيدُ المنافقينَ معاً في تحالفٍ هزيلٍ ضعيفٍ، ما لبثَ أن خارَ وانهارَ، ولم يبقَ منه إلّا افتضاحهُ أمامَ الأجيالِ التي ستأتي حتى قيامَ السَّاعةِ، ولا شكَّ أنَّ المنافقينَ كانوا يطمعونَ في صمودِ بني النَّضير أن ينكفئَ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وأصحابهُ على أعقابِهم بهزيمةٍ تمكنُهم أن يخرجوهم مِن المدينةِ ويطردُوهم منها، ولعلَّ اليَهودَ أيضاً أذاقوا نفوسَهم حلاوةَ بُشرى خَيالٍ كانت جنايتهُ عليهم أفدَح من جنايةِ خُذلانِ المنافقينَ لهُم .

إنَّ التحالفَ بين فئتينَ أو أكثرَ لا يحقِّقُ نُجحاً للمتحالفين إلّا إذا أَبرأَ كلُّ فريقٍ نفسَهُ مِن طَمعهِ أن يكونَ وَحدَه صاحِبَ الغُنم، وإذا نالَهُ خسارٌ دَفعُه إلى الفريقِ الآخرِ، أو كان مِن تَدبيرهِ بادِئَ ذي بدءٍ أن يدني أسبابَ الغنمِ إليه، وأسبابَ الخسارِ إلى غيرهِ .

لذا فلَم يلبث تحالُف المنافقينَ واليهودِ أن خارَ وانهارَ، وأثبتهُ القرآنُ

---

(١) الحشر : ٨-١٠ .

بكلِّ ضعفهِ وهزالهِ ومكرهِ في قولهِ : ﴿ أَلَم تَرَ إلى الَّذينَ نافَقوا يَقولونَ لإخوانهم الَّذينَ كفَروا مِن أهلِ الكِتابِ لَئن أُخرِجتُم لنَخرُجنَّ معَكُم ولا نُطيعُ فِيكُم أحَداً أبَداً وإن قُوتِلتُم لنَنصُرَنَّكم واللَّهُ يَشهدُ إنَّهُم لكاذِبونَ ٥ لَئن أُخرِجُوا لا يَخرُجونَ معَهُم ولئن قُوتِلوا لا يَنصرونَهم ولئن نَصروهُم ليُوَلُّنَّ الأدبارَ ثمَّ لا يُنصَرون ٥ لأنتُم أشدُّ رَهبةً في صُدورهِم مِن اللَّهِ ذلك بأنَّهُم قَومٌ لا يفقَهونَ ٥ لا يُقاتلونَكُم جَميعاً إلّا في قرىً مُحصَّنة أو مِن وَراءِ جُدرٍ بأسُهُم بَينهُم شَديدٌ تَحسَبُهُم جَميعاً وقُلوبهم شتَّى ذلكَ بأنَّهم قومٌ لا يَعقِلونَ ٥ كَمثلِ الَّذينَ مِن قَبلِهِم قَريباً ذاقوا وبالَ أمرِهم ولهُم عَذابٌ أليمٌ ٥ كمثلِ الشَّيطانِ إذْ قالَ للإنسانِ اكفُر فلمَّا كَفرَ قالَ إنِّي بَريءٌ مِنكَ إنِّي أخافُ اللَّهَ ربَّ العالمينَ ٥ فكانَ عاقِبَتَهُما أنَّهُما في النَّارِ خَالدَيْنَ فِيها وذلكَ جَزاءُ الظَّالمينَ ﴾[1].

ويتقرَّرُ في هذه الآياتِ حَقيقةٌ ينشئُها اللَّهُ لأجيالِ المسلمينَ الآتيةِ لئلّا يصيبهم الوَهَنُ أمامَ أيِّ تَحالفٍ يشبهُ ذلك التَّحالفَ الذي كان بينَ اليهودِ والمنافقينَ، فيقعوا فريسةَ الوهم في خذلانٍ وصَغارٍ، يقرِّرها قولهُ : ﴿ لا يُقاتِلونَكم جَميعاً إلّا في قُرىً مُحصَّنة أو مِن وَراءِ جُدرٍ بأسُهُم بَينَهُم شَديدٌ تَحسَبُهُم جَميعاً وقُلوبهم شَتى ذلك بأنَّهُم قومٌ لا يَعقلون ﴾[2]، وقد ذكرَ اللَّهُ في مواضعَ عدَّةٍ مِن القرآنِ مثلَ هذهِ الحقيقةِ محذِّراً المؤمنينَ أن يهِنوا ويضعُفوا ثمَّ لا يَجِدوا في أنفُسِهم إلّا الاستسلامَ

---

(١) الحشر : ١١-١٧ .

(٢) الحشر : ١٤ .

الذَّليلَ ربَّما لأضعفِ أطرافِ مثل هذا التَّحالفِ، كما هو واقعُ اليومَ للمسلمينَ على امتداد رقعةِ الأرضِ التي يعيشونَ فوقَها .

والآيات التي تذكرُ هذا التَّحالُفَ تذكرُ الحوارَ الذي دارَ بين اليهودِ وبين المنافقينَ فيهِ، وتكشِفُ به دخائِلَ نفوسِهِمُ المتربصِ بعضُها ببعضٍ، حتى لكأنَّ كلَّ طرفٍ منهما يقفُ على بُعدٍ بعيدٍ منِ الطَّرفِ الآخرِ، حذراً أنْ يسمعَ وسوسةَ نفسهِ، أو يرى على وجههِ من أماراتِ الشَّكِّ ما يريبهُ حتى في نفسهِ، فهو إذاً حِوارٌ شديدُ الحذرِ قائمٌ على الشَّكِّ والرِّيبةِ من أوَّلِ كلمةٍ فيهِ حتى آخر كلمةٍ فيهِ .

وترى هذه الرِّيبةَ ظاهرةً بما ترسمُ هذه الآياتُ الكريمةُ بكلِّ كلمةٍ من كلماتِها وقعةً نفسيَّةً واسعةً يبصرُ بها القارىءُ لها الحركةَ الخفيَّةَ لنفوسِ أطرافِ التَّحالُفِ، فلا يملك إلّا أن يقولَ : إنَّ القرآنَ هو العينُ الصَّادقةُ الكاشفةُ للتَّاريخِ الغائبِ عن المسلمينَ في أعقابِ الرِّسالةِ، فما أضلَّهم إن هم أغمضوا أعيُنَهُم لئلّا يَروا ما كشفَ لهم القرآنُ من ذلك التَّاريخِ .

وشهادةُ اللَّهِ هيَ الكلمةُ الفصلُ التي لا يجوزُ لأحدٍ أن يقدِّمَ أو يؤخِّرَ كلمةً بلسانهِ معها، وإذا استطاعَ إنسانٌ ما أو جماعةٌ ما أن تخفيَ من أمرِها شيئاً، فتنخدِعُ بذلك جماعةٌ أُخرى - ولطالما حدثَ ذلك وسيحدثُ - فإنَّ عينَ اللَّهِ الكاشفةَ ستكشفُها ليراها النَّاسُ بأعيُنِهِم، أو

أن يلقي في أرواعِهِم حذراً منها ما يمكنُ أن يتصوَّرهُ الواهمونَ المخدوعونَ، فينقادوا بذلك التَّصوُّرِ إلى ما يريد أعداؤُهُم أن يقودوهُم إليهِ .

ويظاهرُ القرآنُ في هذه الغزوةِ المباركةِ المؤمنينَ بما يكشِفهُ لهم من حالِ المنافقينَ، والدَّورِ الخبيثِ الذي لعبوهُ معَ اليهودِ، فوعدوهم بالنَّصرِ والوقوفِ معهم، والقتالِ إلى جانبِهِم، وأنَّ مثلَهُم في ذلك كمَثلِ الشَّيطانِ الذي يُغوي أتباعَهُ بالوعودِ العريضَةِ، ثم لا يلبثُ أن يتخلَّى عنهُم ويتركَهُم نهباً للحسراتِ، فيقولُ : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيطانِ إذْ قالَ للإنسانِ اكفُر فلمَّا كَفرَ قالَ إنِّي بَريءٌ مِنكَ إنِّي أخَافُ اللَّهَ رَبَّ العالمين ○ فكانَ عاقِبَتَهُما أنَّهُما في النَّارِ خَالِدَيْن فيها وَذلكَ جَزاءُ الظَّالمينَ ﴾[1].

وقد وقعوا فيما وقعَ فيه من قبلَهُم مِن الكفَّارِ واليهودِ - في الغزواتِ التي سبقَت هذهِ الغزوة - إذ اجتالهُم الشَّيطانُ عن مواقعِهِم التي علاهم بها الغرورُ، وأضلَّهم فيها الاستكبارُ عن الحقِّ المبينِ .

وليسَ يعذُر الإنسانُ الذي يُسلمُ قيادَهُ للشيطانِ، فإنَّ اللَّهَ سبحانه قد جعلَ له قلباً يعقلُ به، وعيناً يُبصرُ بها، وأُذناً يسمع بها، وبعثَ له نبيًّا يهديهِ، ودعاهُ إلى التَّقوى، فقالَ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا اتَّقوا اللَّهَ ولتَنظُر نَفسٌ ما قدَّمَت لِغَدٍ واتَّقوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بما تَعمَلُون ﴾[2]، وحذره أن

---

(١) الحشر : ١٦-١٧ .　　(٢) الحشر : ١٨ .

يصيبَ ممَّا يصيبُ الفاسقون من مخالفةِ عمَّا جاءَ به النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم فيذيقَهُ سوءَ العذابِ، فقال : ﴿ وَلا تَكونوا كالَّذينَ نَسُوا اللَّهَ فأنساهُم أنفُسَهُم أُولئكَ هُم الفاسِقونَ ◦ لا يَستوي أصحابُ النَّارِ وأصحابُ الجَنَّةِ أصحاب الجَنَّةِ هُم الفائِزونَ ﴾[1].

والعداوةُ الكامنةُ في النَّفسِ مهما بلغَ مِن قدرةِ صاحبها على إخفائِها فإنَّها لا بدَّ يوماً ما أن تظهرَ لتجعلَ من المتعادينَ مَسرَحاً لكلِّ المفاسِدِ التي ظلَّت مكبلةً في نفسيهِما زمناً، فيُدمِّر أحدُهما الآخرَ - ولا بدَّ - لأنَّه كان أسبقَ في إظهارِ عداوتهِ، أو ربَّما كانَ الغالبُ منهما أقوى سبباً من الآخرِ .

والشيطانُ هو رمزُ قوّةِ الشَّرِّ التي تتحدَّى القُوى مجتمعةً، لأنَّها قوَّةٌ خفيَّةٌ ماكرةٌ تحيطُ بالإنسانِ من كلِّ أقطارِه، وتحيكُ حولَه شبكةً مِن خيوطِ الفسادِ القويَّة لا يستطيع منها نجاةً، وتُمسك بزمامِ الجماعةِ القويَّةِ الكثيرةِ العددِ والعُدَّةِ، فتضعُ رأسها في أسبابِ الدَّمارِ والهلاكِ، فلا يعودُ لها عينٌ تبصرُ بها إلّا عينهُ، ولا أذنٌ تسمعُ بها إلّا أذنهُ، ولا قلبٌ تعقلُ به إلّا قلبهُ، بل إنَّها تُسخِّر نفسها في طواعيةٍ لا تعرف حَسماً من التَّمرُّدِ عليهِ، بل إنَّها لَترى كلَّ شرٍّ خيراً، وكلَّ خيرٍ شرًّا، إلّا أن يعكسَ الشَّيطانُ لها ذلك، ولن يكونَ، لأنَّه لم يكن إلّا لاحتضانِ الإنسانِ فرداً وجماعةً لإزهاقِ روحِ الخيرِ فيهِ، وإذكاءِ روحِ الشَّرِّ، والمصيرُ الذي ينتظرُهم جميعاً

(١) الحشر : ١٩-٢٠ .

ما توعدَهُم اللّهُ به : ﴿ فكانَ عاقِبتَهُما أنَّهما في النَّارِ خَالِدَيْن فيها وذلكَ جَزاءُ الظَّالمينَ ﴾[1].

ولو عَقِلَ يهودُ بني النَّضير لرَأَوْا في مصارعِ مَن قبلَهُم مِن إخوانِهمُ اليهودِ والمشركينَ في غزوةِ بدرٍ وأخواتها عبرةً بالغةً تذكرُهم بالنُّذرِ التي حاقَت بهم جزاءَ غدرِهم، واغترارِهم بحصونِهم، وانخداعِهم بالوعودِ الخاتلةِ التي وسوسَ لهم بها إخوانهم المنافقونَ، فسارَعوا إلى القرآنِ الذي جاءَ مُصدِّقاً للتَّوراةِ والإنجيلِ يؤمنونَ به ويصدِّقون أحكامَهُ وشرائعهُ، وقد عَلِمُوا لَمن آمنَ به ما لهم عليهِ مِن سبيلٍ، وأنَّ المستقبلِ لهم من دونِ النَّاسِ جميعاً، لا في أرضِ الجزيرةِ وحدَها، بَل وفي كلِّ أرجاءِ الأرضِ، يدرك ذلك من يدرِكُ، ويقصرُ عن ذلك من يقصُرُ .

وقد علمَ أُولئكَ اليهودُ علماً لا يقبلُ النَّقضَ ولا الرَّيبَ، ممَّا جاءَهُم في التَّوراةِ وصفَ القرآنِ وقوَّةَ تأثيرهِ : ﴿ لَو أنزلنا هَذا القُرآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيتَهُ خاشِعاً مُتَصدِّعاً مِن خَشيَةِ اللَّهِ وتِلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للنَّاسِ لعلَّهُم يَتفكَّرُون ﴾[2]، فكانَ عليهم أن يَحملوا أنفُسهم مِن الجلاءِ عن أرضِهم وحصونِهم بتصديقِ كلماتهِ، والإيمانِ بأحكامهِ وآياتهِ، واليقينِ بأسماءِ اللَّهِ وصفاتهِ، والانقيادِ المطلقِ لمعانيها التَّامَّةِ، التي دانَت لها بالتَّسبيحِ والتَّنزيهِ الخلائِقُ كلُّها ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذي لا إلهَ إلّا هُوَ عَالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ هُوَ الرَّحمنُ الرَّحيمُ ◦ هُوَ اللَّهُ الَّذي لا إلهَ إلّا هُوَ الملكُ القدُّوسُ السَّلامُ

(١) الحشر : ١٧ .

(٢) الحشر : ٢١ .

المُؤمنُ المُهيمنُ العَزيزُ الجبّارُ المُتكبِّرُ سُبحانَ اللَّهِ عمَّا يُشرِكونَ ٥ هُوَ اللَّهُ الخالِقُ البارئُ المصوِّرُ لهُ الأسماءُ الحُسنى يُسبِّحُ لهُ ما في السَّماواتِ والأرضِ وهوَ العَزيزُ الحكيم ﴾[1]، ولكنَّه الشَّقاءُ الباهظُ الذي أحكموا وثاقَ عقولِهم وقلوبِهم بِهِ .

وقد ناسبَ أن تُبدأَ هذه السُّورةُ التي حكت لنا غزوةَ بني النَّضيرِ بالتَّسبيحِ وأن تُختَم بالتَّسبيح، لأنَّ اليهودَ على عِلمٍ بما يقتضيهِ تَوحيدُ اللَّهِ مِن تَنزيههِ وتجريدهِ مِن كلِّ ما يشُوبُ صَفاءَه، فهُم أهلُ كتابٍ، كان حَتماً عَليهم بهِ أنْ يَكونوا أسرعَ النَّاسِ إلى الإيمانِ برسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، الذي أوضحَ المحجَّةَ وأنارَ السَّبيلَ، وأقامَ البرهانَ على صدقِ كلِّ ما جاءَ بِهِ من عندِ ربِّه عزَّ وجلَّ، مصدِّقاً إخوانَهُ النَّبيِّينَ مِن قبلِهِ .

وكأنَّ هذه البدايةَ والنِّهايةَ أيضاً بمثابةِ الخطابِ لهؤلاءِ أنْ ينزَعوا أنفسَهُم من الأسبابِ التي أخرجتْهم من ديارِهم، وأن يتخلَّوا عمَّا وَقرَ في نفوسِهم مِن الشَّرِّ والسُّوءِ، ليعيشوا مع الآخرينَ بالمودَّةِ والإخاءِ .

◻ السَّادسةُ : صلحُ الحديبية :

كان صلحُ الحديبيةِ امتحاناً لكثيرٍ من الصَّحابةِ لَم يسع بعضَهُم إخفاؤه، فانصرَفوا عنها وقلوبُهُم مترعةٌ حزناً، ولولا إيمانُهم الصَّادِقُ، وتسليمُهم المطلقُ لكلِّ ما يُمضيه النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم عليهم من

---

(١) الحشر : ٢٢-٢٤ .

أَمرٍ أو نهيٍ لأصابَهُم شيءٌ من الوَهنِ أقعدهم عن القيامِ بحقِّ رسولِ اللّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم عليهم فيما بعدُ، غيرَ أنَّهم كانوا في بشريتهم فوقَ ما تطيقهُ بشريَّةُ سواهم من الإخبات والطَّاعة والرِّضا .

أخبرهُم رسولُ اللّهِ صلَّى اللّه عليه وسلَّم قبلَ مخرجِهم إلى الحديبيةِ وهم بالمدينةِ أنَّه رأى في المنامِ أنَّهُ دخلَ مكَّةَ، وطافَ بالبيتِ، فلما ساروا إلى الحديبيةِ كانوا على يقينٍ أنَّهم سيدخُلون مكَّةَ عامَهم هذا، فلما وقعَ ما وقعَ من الصُّلحِ رجعوا وفي نفوس بعضهم من ذلك شيءٌ، وكان منهم عمرُ رضي اللَّه عنه الذي سألَ النَّبيَّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم قائلاً : « أَلَسنا على الحقِّ وهم على الباطِل ؟ أليسَ قتلانا في الجنَّةِ وقتلاهُم في النَّار ؟ِ فقال : بلى، قال : ففيمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في ديننا، ونرجعُ ولمَّا يحكُم اللَّهُ بينَنا، فقال : يا ابنَ الخطاب ! إنِّي رسولُ اللّه، ولن يضيعني اللَّهُ أبداً، فرجعَ متغيِّظاً، فلم يصبر حتى جاءَ أبا بكرٍ رضي اللّه عنه؛ فقال : ألسنا على الحقِّ وهُم على الباطلِ ؟ فقال : يا ابن الخطَّاب إنَّهُ رسولُ اللّه، ولن يضيِّعَهُ اللَّهُ أبداً، فنزلت سورةُ الفتح »(١).

ونزلَ مصداقُ هذه الرُّؤيا بخاصَّةٍ قولهُ تعالى : ﴿ لَقَدَ صَدَقَ اللَّهُ رَسولَهُ الرُّؤيا بالحقِّ لتَدخُلنَّ المَسجدَ الحَرامَ إن شاءَ اللَّهُ آمنينَ مُحلِّقينَ رُؤوسَكُم ومُقصِّرِين لا تَخافُون فَعَلِمَ ما لَم تَعلموا فَجعلَ مِن دونِ ذلك فَتحاً قَرِيباً ○ هُوَ الَّذي أرسلَ رَسولَهُ بالهُدى وَدِين الحقِّ ليُظهرَهُ على

(١) أخرجه البخاري في كتاب « التفسير » .

الدِّينِ كُلِّه وكَفى باللَّهِ شَهيداً ﴾[1] إنباءاً للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وتبشيراً له ولأُمَّتِهِ أنَّه سيكون لهُم الغلبةُ على الأُمَمِ، والعلوُّ والتَّمكينُ في الأرضِ، وظهورُ دينهُم على الأديانِ كلِّها .

ونزلَ في ما حَلَّ في قلوبِ الصَّحابةِ مِن سكينةٍ وتسليم وحبٍّ لمَّا كانَ الصُّلحُ الذي كرِهَهُ بعضُهم باديءَ الأمر قولُه تعالى : ﴿ هوَ الذي أنزَلَ السَّكِينةَ في قُلوبِ المؤمنينَ ليَزدادوا إيماناً معَ إيمانِهم وللَّهِ جُنودُ السَّمواتِ والأرضِ وكان اللَّهُ عَليماً حَكيماً ﴾[2].

وموقفُ المنافقينَ في كلِّ الأحوالِ واحدٌ لا يتغيَّرُ إلّا بأُسلوبهِ وشكلِهِ الظَّاهريِّ، وجزاؤُهم على ذلك أيضاً واحدٌ لا يتبدَّلُ قال تعالى : ﴿ وَيُعذِّبَ المُنافقينَ والمُنافقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ الظَّانِّينَ باللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَليهِم دائرةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عليهم وَلَعَنَهُم وأعدَّ لهُم جَهنَّمَ وَساءَت مَصيراً ﴾[3].

وقَد كانوا يظنُّونَ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وأصحابهُ سَيلقَون بأساً شديداً مِن المشركينَ فيُستأصلونَ استئصالاً، فتذهب شوكَتُهم، وتَغورُ قوَّتُهم ويَخلو الميدانُ لهُم وحدهُم : ﴿ الظَّانِّينَ باللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾، فيعودُ لهم سُؤددُهم في العربِ الذي أذهبهُ مُحمَّدٌ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وأصحابه، وإذا عادَ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم سالماً

---

(1) الفتح : ٢٧ و ٢٨ .
(2) الفتح : ٢ .
(3) الفتح : ٦ .

اعتَذورا إليه قائلينَ : ﴿ شَغلَتنا أموالُنا وأهلُونا ﴾، ويُتبعونَ ذلك بكلِّ قِحةٍ وصفاقةٍ وقلَّةِ ذوقٍ وأدبِ قولهُم : ﴿ فَاستَغفِر لَنا ﴾، ويُسجلُ القرآنُ مَوقفَ السُّوءِ هذا في آياتٍ : ﴿ سَيقولُ لكَ المخلَّفونَ مِن الأعرابِ شَغلتنا أموالُنا وأهلُونا فاستغفِر لنا يَقولونَ بألسِنَتِهم ما ليسَ في قلوبِهم قُل فَمن يَملكُ لكُم مِن اللَّهِ شيئاً إن أرادَ بكُم ضَرًّا أو أرادَ بكُم نَفعاً بَل كان اللَّهُ بما تَعملونَ خَبيراً ○ بَل ظَنَنتُم أن لَن يَنقلبَ الرَّسولُ والمؤمنونَ إلى أهلِيهم أبَداً وزُيِّنَ ذلكَ في قُلوبكُم وظَنَنتُم ظَنَّ السَّوْءِ وكُنتُم قَوماً بُوراً ○ ومَن لَم يُؤمن باللَّهِ ورسولِهِ فإنَّا أعتدنا للكافرينَ سَعيراً ولِلَّهِ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ يغفرُ لمن يشاءُ ويُعذِّبُ مَن يشاءُ وكانَ اللَّهُ غَفوراً رَحيماً ﴾[1].

ومعَ هذا الموقفِ السَّيِّىءِ للمنافقين، فإنَّ اللَّهَ سبحانهُ يأمرُ نبيَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم أن يبلِّغهُم بأنَّهُ سيكونُ بينهُم وبينَ أقوامٍ آخرينَ أقوياءَ ذَوي بأسٍ شَديدٍ في المُستقبلِ قِتالٌ حتى يَذعَنُوا ويسلِّموا للَّه عزَّ وجلَّ، فَعليهِم أن يُبادِرُوا إلى خَلعِ أنفسِهم مِن هذا النِّفاقِ الذي أقعَدَهُم عن الخروجِ معَ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، لعلَّهُم يَرجونَ مِن اللَّهِ توبةً تُكفِّر عنهُم سيئاتِهِم، وتردُّهُم إلى صفِّ الجماعةِ المؤمنةِ، وإن هُم ظلُّوا على موقفِهِم الذي أقعدَهُم عن الخروجِ مَع النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام فليس لهُم نَجاةٌ مِن عَذابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، قالَ تعالى : ﴿ قُل للمُخلَّفينَ مِن الأعرابِ سَتُدعونَ إلى قومٍ أولي بأسٍ شَديدٍ تُقاتِلونَهم أو يُسلِمونَ فإن

---

(١) الفتح : ١١-١٤ .

تُطيعوا يُؤتِكُم اللَّهُ أجراً حَسناً وإن تَتولَّوا كَما تولَّيتُم مِن قَبلُ يُعذِّبكم عَذاباً أَليماً ﴾[1].

ويحدِّدُ القرآنُ الأعذارَ التي تُبيحُ للمُسلم التَّخلُّفَ عَن الجهادِ في سَبيلِ اللَّهِ تعالى، لأنَّ اللَّهَ لا يكلِّفُ نفساً إلّا وُسعَها ولا يُحمِّلُ المسلمَ على غيرِ ما يطيقُ، وهي أعذارٌ تَضعُ عَن المسلم شيئاً مِن العباداتِ التي فَرضَها اللَّهُ عليهِ، فإن احتالَ على التَّخلُّفِ عن الجهادِ بغيرها فهو مُتولٍّ عن الزَّحفِ، قاعدٌ عن الجهادِ مُقبلٌ على الدُّنيا، وليسَ ينجو مِن عذابِ اللَّهِ، قالَ تعالى : ﴿ ليسَ على الأعمى حَرجٌ ولا عَلى الأعرجِ حَرجٌ ولا على المريضِ حَرجٌ ومَن يُطِعِ اللَّهَ ورَسولَهُ يُدخلهُ جنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ ومَن يَتولَّ يُعذِّبهُ عَذاباً أليماً ﴾[2].

وَلِعَظم مَنزلةِ هذا الصُّلحِ الذي كان واحداً مِن طَرفيه الموقِّعين عليه محمَّد صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، سمَّاهُ اللَّهُ سبحانهُ فَتحاً، وذلك قولهُ : ﴿ إنَّا فتَحنا لكَ فتحاً مبيناً ﴾[3]، يقولُ ابنُ كثيرٍ : « فَتحاً مُبيناً، أي : بَيِّناً ظاهِراً، والمرادُ بهِ صلحُ الحديبيةِ، فإنَّهُ حصل بسببهِ خيرٌ جَزيلٌ؛ وآمَن النَّاسُ واجتمعَ بعضُهم ببعضٍ، وتكلَّمَ المؤمنُ مع الكافرِ، وانتشرَ العلمُ والإيمانُ »[4]، أضف إلى ما قالهُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللَّهُ أن هذا الصلحَ صارَ قاعِدةً مِن القواعدِ الأساسيَّةِ في علاقاتِ المؤمنينَ بغيرهِم مِن الأُمَمِ

---

(1) الفتح : ١٦ .

(2) الفتح : ١٧ .

(3) الفتح : ١ .

(4) « تفسير ابن كثير » (١٨٣/٤) .

والشعوبِ .

فحقيقٌ بهذا الصُّلحُ إذاً أن يُسمَّى فَتحاً، وأن يُعتبر في عدادِ الغزواتِ المهمَّةِ الكبيرةِ التي أدَّت دَوراً عظيماً خطيراً على صفحةِ الجهادِ في حياتهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وأرسَت قواعِدَ كليَّةً في عقودِ الصُّلحِ والهُدنةِ والعلاقاتِ الدَّوليَّةِ في حَياةِ المسلمينَ من بعدُ .

من أجلِ هذا كلِّهِ وغيره أتبعَ القرآنُ هذه الآية بقولهِ : ﴿ لِيَغفِرَ لكَ اللَّهُ ما تقدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تأخَّرَ ويُتمَّ نِعمتَهُ عَليكَ ويَهدِيَكَ صِراطاً مُستَقيماً ويَنصُرَكَ اللَّهُ نَصراً عَزيزاً ﴾[1]، والفتحُ هو النَّصرُ، والنَّصرُ هو الفتحُ، وإذ هو كذلك ففيهِ تمامُ النّعمةِ، وليسَ شيءٌ مِن نعيمِ الدُّنيا مهما بلغَ في عِظمهِ ونمائهِ يعدِلُ في لذّتهِ لذَّةَ النَّصرِ، ولا في نشوتهِ نَشوةَ الفتحِ، إلّا أن تكونَ لذَّة الإيمانِ ونشوته عندَ من يعرفُ هذهِ اللذَّةَ، فإنَّها لذَّةٌ تُفرِغُ على صاحبِها الطَّمأنينةَ، وتغشيهِ السَّكينةَ، وتوثِّقُ قلبَه بقوائمِ العرشِ، وتشعرهُ بالقربِ القريبِ من اللّهِ خالقهِ وسيِّدهِ، فيُطمعه ذلك بعفوِ اللَّهِ، ومغفرتهِ لذنبهِ، فإذا هو في نشوةٍ فوقَ كلِّ نشوةٍ، وفي لذَّةٍ فوقَ كلِّ لذَّةٍ، حتى لذَّةِ الإيمانِ ونشوتهِ .

وإذا كان محمَّدٌ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قد جاوزَ هذا المقام، فغفرَ اللَّهُ له ذنبهُ كلَّهُ ما تقدَّمَ منهُ وما تأخَّرَ، فإنَّ أُمَّتهُ ستبلغُ مِن مقامِ نبيِّها

---

(١) الفتح : ٢ و ٣ .

منزلةً تعجزُ عن بلوغِها الأُمم كلُّها إن هي لزِمَت المحجَّة، واستقامَت على الجادَّةِ، وأخذَت نفسَها بأسبابِ النَّصرِ في جِهادِها عدوَّها، والجهادُ هو البابُ الواسعُ الذي تُفضي منه الأُمَّة إلى رحابِ السَّعادةِ في الدُّنيا والرِّضوانِ في الآخرةِ .

وكانت بيعة من المؤمنينَ للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم تحتَ الشَّجرة، أضاءَت آفاقَ الدُّنيا، وحملَت بُشرياتِ النُّورِ للعالمِ كلِّهِ، وبذلَت أشواقَ الرَّجاءِ والتَّضحيةِ في كلِّ صقعٍ وفجٍّ، وسجلَت أنبلَ قدراتِ العطاءِ في تاريخِ الإنسانيَّةِ، وامتدَّت ظلالُها حتى أوى إليها الضَّاحونَ الظَّامئونَ، وظلَّت على الدَّهرِ كلماتٍ راسخةٍ في عقلِ الجهادِ، يحدِّثُ بها الأجيالَ المقبلةَ حديثاً راشداً، يقودها إلى التَّعلُّقِ بسيرةِ مَن كانَ قبلَها، ممَّن أعلوا صرحَ الإيمانِ في الأرضِ، ولامست هاماتهم أديمَ السَّماءِ في عزَّةٍ وتواضعٍ .

عُرِفَت هذه البيعةُ باسمِ بيعةِ الرِّضوانِ، وسجلها القرآنُ فيما سجلَ من أحداثِ هذه الغزوةِ المباركةِ، مُظهراً الكرامةَ التي أكرمَ اللَّهُ بها أصحابَ هذه البيعةِ من رضاهُ المستلزمِ الحبَّ، فقالَ : ﴿ لَقَد رضيَ اللَّهُ عن المؤمنينَ إذ يُبايعونكَ تحتَ الشجرةِ ﴾[1]، ويُصرِّحُ القرآن في هاتين الآيتين بما أجراهُ اللَّهُ من فضلٍ سابغٍ دائمٍ على أُولئكَ المبايعينَ الذي امتدَّت بركتهُ إلى المستقبل، فنالَت منها الأُمَّةُ في كلِّ أعصارِها الخيرَ

(١) الفتح : ١٨ .

الوفيرَ، فيقولُ : ﴿ فأنزلَ السَّكِينةَ عليهِم وأثابَهُم فَتحاً قَرِيباً ٥ وَمَغانمَ كَثيرةً يأخذُونها وكانَ اللَّهُ عَزيزاً حَكيماً ﴾[1]، فالسَّكينةُ المنزَّلةُ مِن السَّماءِ، والفتحُ القريبُ لخيبرَ ومكَّةَ وما تبعهُما، والمغانمُ الكثيرةُ الوفيرةُ، والحمايةُ من اللَّه لذلك كلِّه، كلُّ ذلك كفاءَ ما عمَّرَ اللَّهُ به قلوبَ أصحابِ البيعةِ من صدقٍ في القولِ والعملِ، ووفاءٍ جمٍّ أحكمَ الوثاقَ بين القولِ والعملِ، وحسنِ إصغاءٍ لأمرِ اللَّهِ، وطاعةٍ له لا تعرفُ التردُّد، وذلك قوله : ﴿ فَعَلِمَ ما في قلوبهم ﴾[2].

والأيدي التي امتدَّت إلى يدِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم لتأخذَ منه البيعةَ إنَّما امتدَّت حقيقةً إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ الذي خَلقها، وقدَّرَ لها الهدايةَ، ليأخذَ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم عليها البيعةَ، وإذا كانت البيعةُ كذلك فإنَّ نقضَها أو الإخلالَ بها إنَّما هو نقضٌ وإخلالٌ لبيعةٍ وضَعها المبايعُ في عنقهِ اختياراً، فإن وفَّى؛ فقد وفَّى لنفسهِ وسيوفيهِ اللَّهُ أجرَهُ، وإن نقضَ وأخلَّ؛ فقد أوقعَ نفسَهُ في مهلكةٍ بنفسهِ، فلا يلومنَّ إلَّا نفسهُ .

ويفتحُ اللَّهُ سبحانهُ على أُولئكَ المؤمنين المبايعين أبوابَ البُشرى، فينقلُهُم مِن الحديبيةِ إلى الأرضِ كلِّها ينبِّئُهُم أن سيكونَ لهم في كلِّ أطرافِها فتحٌ ونصرٌ، وأنَّهم إن لم يدركوها هم فسيدركُها ممَّن بعدهُم مَن كانَ على مثل ما هُم عليه مِن الصِّدقِ والوفاءِ والطَّاعةِ، قال تعالى :

(١) الفتح : ١٨ و ١٩ .
(٢) الفتح : ١٨ .

﴿ وأُخرى لم تَقدِروا عَليها قَد أحَاطَ اللّهُ بِها ﴾[1]، فإن ماتوا ماتوا وصدورُهم مملوءةٌ بِشراً ورجاءً وفرحاً لمن بعدَهم ممَّن لم يَروا : ﴿ فَرِحينَ بما آتاهُمُ اللّهُ من فَضلِهِ ويَستبشِرُونَ بالَّذينَ لم يَلحَقُوا بهِم من خَلفِهم ألا خَوفٌ عَليهِم ولا هُم يَحزَنُون ﴾[2].

فيزدادُ أُولئكَ المؤمنون بذلك إيماناً، ويذهبُ ما ألمَّ بقلوبهِم مِن حُزنٍ وألمٍ على فواتِهمُ القتالُ، حين ينزلُ القرآنُ يعلمهُم أنَّ للّهِ إرادة في منعهِم مِن قتالِ المشركين في الحديبيةِ، لا لأنَّ المشركينَ أُولوا بأسٍ يُخشى عليهم منه؛ فلو كان بينهم لكانتِ الغلبةُ والعلوُّ للمؤمنينَ، قالَ تعالى : ﴿ وَلَو قاتَلكُم الَّذينَ كَفَروا لَولَّوا الأدبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وليًّا ولا نَصيراً ﴾[3]، وتلك سنَّتهُ الماضيةُ أن تكونَ الغلبةُ لأوليائهِ على أعدائهِ، وأن تكونَ الرِّفعةُ للحقِّ على الباطلِ : ﴿ سُنَّةَ اللّهِ التي قَد خلَت مِن قَبلُ ولَن تَجدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبديلاً ﴾[4]، وليس يومُ بدرٍ ببعيدٍ، فقد أزهقَ اللّهُ فيه الباطلَ وأرداهُ، ونصرَ الحقَّ وأعلاهُ .

ولكي لا يظلَّ شيءٌ من الحزنِ عَالقاً في قلوبِ الصَّحابةِ أن فاتهُم القِتالُ الذي كانوا يؤمِّلونَ معه النَّصرَ والغلبةَ - وكان واقعاً لا مَحالةَ لو كان قتالٌ - على المشركينَ يومَ الحديبيةِ، يردُّهُم اللّهُ عزَّ وجلَّ في ذلك إلى إرادتهِ وحدَه، ليس لهم من الأمرِ فيه شيءٌ، رغمَ أنَّ الظَّفرَ كانَ في

(١) الفتح : ٢١ .
(٢) آل عمران : ١٧٠ .
(٣) الفتح : ٢٢ .
(٤) الفتح : ٢٣ .

أيديهِمُ، فكفَّ أيدي المشركينَ، لم ينالوا مِن المؤمنينَ أيَّ أذىً يوهنهُم في أجسامِهم ولا في نفوسِهِم، وكفَّ أيديَ المؤمنينَ عن المشركين، كي يظلَّ جهدُهم محروزاً لهم لمعاركَ قريبةٍ متتابعةٍ، فكأنَّ هذه الرِّحلة التي قطعوها بين المدينةِ وبين الحديبيةِ لم تكُن إلّا ترويضاً لهم على الأسفارِ الطويلةِ، واختباراً لصبرهم، وامتحاناً لإيمانِهم، قال تعالى : ﴿ وهُوَ الَّذي كفَّ أيديَهُم عَنكُم وأيدِيكُم عَنهُم بِبطنِ مكَّةَ من بعدِ أن أظفرَكُم عَليهِم وكانَ اللَّهُ بِما تَعمَلون بَصيراً ﴾[1] وبخاصَّةٍ وأنَّهم قد خرجوا مع نبيِّهم صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يبغونَ العُمرةَ، لا يريدونَ قِتالاً، فناسَبَ أن يكون الصلحُ - وفيه حجزٌ للنفوسِ عن الإمعان في التَّفكيرِ في القتالِ - قاعدةً لتحقيقِ السلمِ لفترةٍ مِن الزَّمنِ، ينصرفُ فيها الجهدُ كلُّهُ إلى العبادةِ، لإعدادِ النُّفوسِ وتهيئتِها للمعاركِ القادمةِ .

ولو كان قتالٌ في هذه الغزوةِ وتحقَّقَت فيه سنَّةُ اللَّهِ بإظهارِ المؤمنينَ على المشركينَ، لوقعت مأساةٌ عظيمة - لاختلاطِ أهلِ مكَّةَ مؤمنهم وكافرهم - ما كان يمكن درؤها إلّا بتقديرِ اللَّهِ سبحانه أن يكفَّ أيديَ المؤمنينَ عن المشركين، وهي وقوعُ مقتلةٍ في جماعةِ المؤمنينَ المقيمينَ في مكَّةَ، فتكون خسارةُ المؤمنينَ جسيمةً رغمَ إدراكِهم النَّصرَ على المشركينَ، وهو نصرٌ لا يكافىءُ تلكَ الخسارة، وحِرصُ الرَّسولِ عليهِ السَّلام على كلِّ فردٍ من المؤمنين كان حرصاً لا يعدلُه حِرصُ أحدٍ، حتى

(١) الفتح : ٢٤ .

الذين كان سينالهُم القتلُ والجراحُ، ولم يكن سهلاً على الرّسولِ صلّى اللّه عليه وسلّم وجماعةِ المؤمنين أن يميزوا بين المؤمنينَ وبين المشركينَ، فيجتنبوا أن يقعوا بإخوانهم قتلاً وجراحاً، فتدركهُم معرّةٌ، وهذا ما بيّنهُ اللّهُ سبحانه في قوله : ﴿ وَلَولا رِجالٌ مُؤمنونَ ونِساءٌ مُؤمِنات لَم تَعلَمُوهُم أنْ تَطؤُوهُم فتُصيبكُم مِنهُم مَعرّةٌ بِغيرِ عِلمٍ ليُدخلَ اللّهُ في رحمتِهِ مَن يَشاءُ لو تزيّلوا لعذّبنا الّذينَ كَفروا مِنهُم عَذاباً أليماً ﴾[1] وفائدةٌ أخرى ستَتحقّقُ بعدمِ القتالِ، وهي أن يدخُل عددٌ من المشركينَ الإسلامَ من غيرِ إكراهٍ عليهِ، بل بمحضِ اختيارِهم وعلمِهم أنّ الإسلامَ هو دينُ الحقِّ، وهذا ما يذكرهُ اللّهُ بقولهِ : ﴿ ليُدخِلَ اللّهُ في رحمتهِ مَن يشاءُ ﴾[1].

وفي هذا كلّه تظهَرُ حكمةُ اللّه سبحانه، وتتجلّى - من غيرِ أن تتكلّمَ - لنفوسِ المؤمنين، أو ينتابها حدسٌ أنّ اللّهَ أخلفَهُم وعدَه .

ويتوّجُ اللّه سبحانه تلكَ الأسرارَ الخافيةَ على المؤمنينَ التي ظهرَت لهم بكلِّ حكمها، بُشرى طارَت إلى الدُّنيا، تنقلُ إليهم نبأً عظيماً يراه مَن يدركُه بعينيهِ، ويؤمنُ به - لصدقِ النّبيِّ صلّى اللّه عليه وسلّم - مَن لم يرهُ، وذلك قولهُ سبحانهُ : ﴿ هُوَ الّذي أرسلَ رَسولَه بالهُدى ودينِ الحقِّ ليُظهرَهُ على الدِّينِ كلّهِ وكَفى باللّهِ شَهيداً ﴾[2]، وتلك لَعمرُ الحقِّ بُشرى تملأُ القلوبَ رجاءً وفرحاً، والنُّفوسَ سكينةً وطمأنينةً، والعقولَ ثقةً

---

(١) الفتح : ٢٥ .

(٢) الفتح : ٢٨ .

وحكمةً، فينطلقُ المسلمونَ يحقِّقونَ في الأرضِ وعدَ اللّه لهم، ليظفروا بشيءٍ من تلك البُشرى، فتكونُ كلمةُ اللّهِ هي العليا في الأرضِ كلِّها، لا يزاحِمُها كلمةٌ، وتكون رايةُ الحقِّ هي الخفَّاقةَ في الآفاقِ جميعها، لا تنازعُها رايةٌ، وتكونُ السِّيادةُ للقرآنِ في كلِّ أطرافِ الدُّنيا، لا تنهضُ بجانبها سيادةٌ، ويدخلُ الإسلامُ كلَّ بيتٍ من وَبَرٍ أو حَضرٍ، ويبرزُ إلى ظلِّه كلُّ هاجرٍ ظامئٍ، ويمكِّنُ اللَّهُ لدولةِ الإسلامِ فلا يندُّ عنها إلّا شقيٌّ .

وعندي؛ أنَّ كلَّ ما أظهرتهُ أو أشارَت إليه آياتُ سورةِ الفتح غنائمُ ساقها اللَّهُ بين أيدي المؤمنين، ليعلموا أنَّ وعدَ اللَّهِ حقٌّ، وأنَّ من الغنائم غنائم لا تمسكُها الأيدي، ولا تراها العيونُ، إنَّما هي أخبارٌ يسوقُها اللَّهُ سبحانه في زمانِ الوحي، ليكون ناقلها إلى الأجيالِ الآتية الذين سَمِعوها غضَّةً مِن فَمِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فينالُ أولئكَ النَّقلةُ من الصَّحابةِ السَّعادةَ مرَّتين، مرَّةً بسماعِها غضَّةً، ومرَّةً بنقلِها لمَن وراءَهُم .

وإذا كانَ للغنائمِ العاجلة لذَّةٌ تزولُ؛ فإنَّ لهذهِ - غنائمُ سورةِ الفتح - لذَّةً تبقى في الأعقاب، تؤكِّدُ للأجيالِ المؤمنةِ إيمانَهم، وتوثقُ لهم عُرى الحبِّ المعقودةِ بينهم وبينَ الأجيالِ التي سبقتهُم، وتمضي بهِم في طريقِ المستقبلِ، وينظرونَ من خلالِها في رجاءٍ إلى البشرياتِ الماثلةِ في ذهنِ التَّاريخِ حقائقَ لا تقبلُ النقضَ ولا الشكَّ، وتعلو بهم فوقَ هامِ الأُممِ، ليظلُّوا هم القادة الموجهينَ الأخيار لها، فينالوا مِن الثَّوابِ ما تعجزُ عنه قدراتُهم البشريَّةُ، لأنَّهُ ثوابٌ من عندِ اللّهِ سبحانه، وأيُّ غنائمِ تفوقُ

هذه الغنائمَ أو تربوا عليها ؟!

كلُّ ما تحدَّثنا عنه في سورةَ الفتح - بسطاً أو إيجازاً - هو تأويلٌ لقولِهِ تعالى : ﴿ إِنَّا فَتحنا لكَ فَتحاً مُبيناً ﴾[1] إنَّهُ فتحٌ جليلُ الخطرِ، قويُّ الأثرِ، ليسَ يدركهُ على ما فيهِ إلّا دقيقُ النَّظرِ .

□ السَّابعة : غزوةُ خيبر :

كلُّ نَصرٍ كان بعدَ صُلح الحديبيةِ هو تأويلٌ له، تحقيقٌ لوعدِ اللَّهِ في أرضِهِ، وكشفٌ لغيبٍ أخبرَ اللَّهُ به عبادَه، وتصديقٌ عمليٌّ لآياتِ الكتابِ المبين، ليزدادَ الَّذينَ آمنوا إيماناً، وليرتابَ الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون بما وعدَهُم به كبراؤُهم، فيُسقَط في أيديهم، وتبدو لهم الأشياءُ عاريةً كما هي، شاخصةً بكلِّ هناتها وحَسناتها، فتتداعى في نفوسِهم الثِّقةُ التي بناها المكرُ السَّيءُ، والغرورُ الأحمقُ .

ومن هذا النَّصرِ الذي تأوَّله الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم مع أصحابِهِ في غزواتِهِ التي وليت صُلحَ الحديبيةِ النَّصرُ الذي أحرزوهُ على يهودِ في غزوةِ خيبرَ .

وخيبرُ كانَت حينَ غزاها الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وأصحابهُ آخر معقلٍ من معاقلِ اليهودِ في أرضِ الجزيرة، تجمَّع فيها يهود وتمنَّعوا بحصونها الشَّديدةِ العديدةِ، وأخذوا يعدُّونَ العدَّةَ في خفاءٍ لإفسادِ أمنِ

---

(١) الفتح : ١ .

الجزيرةِ - كالعهدِ بهم دائماً - بالتَّواطؤِ مع بعضِ القبائلِ العربيةِ، فكان لا بدَّ أن يخرُجوا منها أو يؤدَّبوا، لكي يظلَّ أمنُ الجزيرةِ مستقرًّا، لا تنوشهُ سهامُ المكرِ في خفاءٍ ولا في علانيةٍ، لأنَّ الجزيرة هي مهدُ الإسلامِ وحصنهُ، ولا بدَّ أن يُحمى ممَّا يرادُ بهِ .

وأحسبُ أنَّ يهوداً - وهم يمكرونَ بالإسلام في خيبرَ - لم يكونوا على ظنٍّ أو يقينٍ أنَّ يدَ المسلمينَ ستفسدُ عليهم مكرَهم هذا، أو أن يعلمَ المسلمونَ بشيءٍ ممَّا يمكرون إلّا بعدَ أن تبدوا سوءَةُ مكرِهم للنَّاسِ كافَّةً، ونسوا حظًّا ممَّا أنبأتهُم به التَّوراةُ، أنَّ محمَّداً صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم نبيٌّ يُوحى إليهِ من عندِ ربِّهِ، وأنَّهُ سبحانه لا يخلفُ وعدَهُ، وقد وعدَه اللَّهُ فتحاً قريباً، وعجَّل له قبلهُ فتحَ الحديبيةِ، لتقرَّ به عينهُ وعيونُ المسلمينَ معه .

ولم يفصِّل القرآنُ في غزوةِ خيبرَ، واكتفى بذكرِها، والإشارةِ إليها، وما أصابَ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم والمسلمونَ فيها من خيرٍ عظيمٍ، وذلك قوله سبحانه : ﴿ وأثابَهُم فَتحاً قَريباً ○ ومَغانمَ كَثيرةً يَأخُذونَها وكانَ اللَّهُ عَزيزاً حَكيماً ﴾[1].

وأحسبُ أنَّ القرآن إنَّما لم يفصِّل في غزوةِ خيبرَ لسببينِ اثنينِ :

أمَّا الأوَّلُ : فقُربُها من صلحِ الحديبيةِ، إذ لم يكد يمضي شهر

---

(١) الفتح : ١٨ و ١٩ .

وبعض شهرٍ حتى تجهّز الرَّسولُ غازياً، فكأنَّما هي جزءٌ أو كالجزءِ من الحديبية، لذا فقد ذكرَها القرآنُ في سياق قصَّةِ الحديبيةِ بصيغَةِ الماضي لتحقُّقِ وقوعِها، وذلك قولهُ : ﴿ وأثابَهُم فَتحاً قريباً ﴾[1].

أمّا الثَّاني : فلسهولةِ الحصولِ على غنائِمها، فقد وقعَت خيبرُ بكلِّ حصونِها في قبضةِ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بحصارها، من غيرِ أن تُهراقَ دماءٌ كثيرةٌ مِن دماءِ المسلمينَ .

وكان لفتح خيبرَ وقع كبيرٌ في قلوبِ القبائلِ العربيَّةِ التي لم تكن قد دخلت الإسلامَ بعدُ، وبخاصَّةٍ وأنَّ هذه القبائلَ لم يكن لديها مجتمعةً من وسائلِ الدِّفاعِ والقتال بعضُ ما عندَ اليهودِ، فإذا رأوا أنَّ تلكَ القوَّةَ الشَّديدةَ لم تقِف إلّا أيّاماً قليلةً أمام بأسِ المسلمينَ؛ فأولى أن تسقطَ جميعُ هذه القبائلُ في أيّامٍ معدودةٍ على بعدِ المسافاتِ فيما بينَها .

ثمَّ إنَّ خيبرَ كانَت مشهورةً بثروتِها الزِّراعيَّةِ، فآلت إلى أيدي المسلمينَ كلِّها، فزادَتهُم قوَّةً إلى قوَّتهِم، وأمدَّهُم اللَّهُ بها وفرةً في العافيةِ والمالِ .

وَلم يقف الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم عند فتحِ خيبرَ، بل أمعنَ في المسيرِ حتى وافى فَدَك وتَيماءَ ووادي القرى فسارعوا إلى مصالحته، وأبقاهُم على ما في أيديهِم وعادَ إلى المدينة، وقَد تمَّ له إخضاعُ أخطرِ قوَّةٍ

---

(١) الفتح : ١٨ .

في الجزيرةِ كلِّها، يرتقب الإذنَ من ربِّه لغزوةٍ أُخرى .

□ الثَّامنة : عُمرةُ القضاء :

كانَ من بنودِ الصُّلحِ الذي وقَّعهُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم مع المشركين في الحديبيةِ أن يعودَ من العام المقبل هو وأصحابهُ ليدخلوا مكَّةَ معتمرين، ويقيموا بها ثلاثةً .

ولمَّا كان العامُ المقبلُ قَدِمَ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم والمسلمون معه مكَّةَ، واخلتها لهم قريشٌ، فأقاموا بها ثلاثاً، وتحقَّقَت له صلواتُ اللَّه وسلامهُ عليه ولأصحابه رضوانُ اللَّهُ عليهم بذلك البُشرى المناميةُ التي ذكرَها لأصحابِهِ قبلَ أن يَخرُجوا مِن المدينةِ عام الحديبيةِ، وما كانَ أحدٌ منهم يشكُّ أنَّهم سيدخلونَ مكَّة من عام الحديبية فأنسأتها حكمةُ اللَّه سبحانِهِ، وهذا قولهُ سبحانه : ﴿ لَقَد صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بالحقِّ لتَدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللَّهُ آمنينَ مُحلِّقينَ رؤُوسَكُم ومُقصِّرينَ لا تَخافونَ فَعَلِمَ ما لَم تَعلَمُوا فَجعلَ مِن دُونِ ذلكَ فَتحاً قَريباً ﴾[1].

وكانَت عمرةُ القضاءِ هذه أيضاً توطئةً لفتحِ مكَّةَ، فلا ريبَ أن الصَّحابةَ قد استذكروا ما كان قد عراهُ النِّسيانُ في ذواكرِهم من مسالكِ مكَّةَ وشِعابِها بعدَ سبع سنينَ، أو انطمسَ وخفي لإحداثِ أبنيةٍ ودورٍ جديدةٍ، فكانت فائدةٌ لم تكُن لهُم في الحسبانِ، وما أصابَها المسلمون لو

---

(١) الفتح : ٢٧ .

دخلوا مكَّةَ عامَ الحديبيةِ وأهلُ مكَّة لابثونَ فيها .

وهكذا فإنَّنا واجدونَ للّهِ سبحانهُ حِكمَةً في كلِّ شيءٍ لا نحيطُ بعلمهِ إلّا بعدَ وقوعهِ .

□ التَّاسعة : غزوةُ الفتح :

كانَت الجزيرةُ بكلِّ ما فيها ومَن فيها تضطربُ بين مدٍّ وجزرٍ في السَّنتين الأخيرتينِ اللَّتين سبقتا فتحَ مكَّةَ، وقد بلغَت دعوةُ الإسلامِ مسامعَ النَّاسِ فيها، وجاوَزتها حتى استقرَّت فوقَ عروشِ القياصرةِ، وزاحَمت الأكاسرةِ في كراسيهِم، واختلَفت منها فرائِصُ الأحبارِ والرُّهبانِ وجَلاً على مكاسبهِم التي يصيبونَها من أهلِ دينهِم، وكان لصلحِ الحديبية بركةٌ عظيمةٌ مكَّنت للنَّبيِّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم وأصحابهِ من نشرِ الدَّعوةِ وإبلاغِها أطرافَ الجزيرةِ، فأَصابوا كسباً عظيماً لم يصيبوهُ مِن قبلُ .

وتقلصَت رقعةُ الكفرِ بدخولِ كثيرٍ مِن القبائلِ الإسلامَ، أو في حلفٍ مع المسلمينَ، ورأَت قريشٌ وأحلافُها أنفسَهُم في خوفٍ وعجزٍ معاً مِن رسولِ اللّهِ صلَّى اللّه عليه وسلَّم وأتباعهِ وحُلفائهِ، غَير أنَّها لم تُصب من خوفِها وعجزها إلّا التَّرقُّبَ الفزعَ المرهقَ، وأيقَنت أنَّ محمَّداً الذي حيلَ بينهُ وبين مكَّة - مسقطِ رأسهِ، وأحبِّ أرضِ اللّهِ إلى نفسهِ - سيدخلُ مكَّةَ فاتحاً، وأنَّ سلطانَها على مكَّةَ سوفَ يذهبُ من أيديهم إلى

الأبدِ، ولكن متى يكون هذا ؟ أبعدَ أيّامٍ ؟ أو أسابيعَ ؟ أو شهورٍ ؟

وفي ظنّي أنَّهُ ممَّا زادَ في رعبِ قريش ويقينها أنَّ مكَّةَ ذاهبةٌ من أيديها الانتصارُ الكبيرُ الذي أحرزهُ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم على يهودٍ - وهُم القوَّةُ الظَّهيرُ لهم - في خيبرَ وما جاوَرَها، وكانَت خيبرُ من وراءِ المدينةِ، يخشى المسلمون بأسها ومكرَها، فآلت إليهم وأمنوا مكرَها، ولم يبقَ من ورائهم عدوٌّ يخافونَهُ، وتحقَّقت كرامةُ اللّهِ لنبيِّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ولأصحابه التي بشَّرهم بها منصرَفَهُم من الحُديبيَةِ، وامتدَّ الرَّجاءُ السَّماويُّ بالمسلمين إلى مكّة، حيثُ سقطَت كلُّ العوائقِ التي كانت تقفُ من ورائهم وقُدَّامهم تهدِّدُ وصولهم إلى مكَّةَ، مهوى الأفئدة، ومهبطِ الوحي الأوَّلِ، وأصبحَ أهلُ الجزيرةِ ثلاثَ فرقٍ، فرقةٌ دخلتِ الإسلام، وآمنَت به، وصارَت تجاهدُ في سبيله، وفرقةٌ تزعزع إيمانُها فيما هي مقيمةٌ عليه من دين الشِّركِ بما رأت من دخولِ النَّاسِ في دينِ اللّه ووقوفِهم إلى جانب النَّبيِّ صلَّى اللّه عليه وسلّم، وفرقةٌ ظلَّت مقيمةً على دينها غيرَ أنَّها دخلَت في حلفٍ مع النَّبيِّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم ضدَّ قريشٍ وأحلافها، وبذلك وجدَت قريشٌ وأحلافُها أنفسهم في حالٍ من العزلةِ والضَّعفِ، لم تكن تظنُّ أنَّها بالغتُها يوماً بما كان لها من السُّلطانِ العريقِ على القبائلِ لمكانتها الاجتماعيةِ والدِّينيَّةِ من هذهِ القبائلِ .

وقد سكتَ القرآنُ عن ذكرِ فتح مكَّةَ، كما سكتَ عن ذكرِ وقائع

وغزواتٍ أخرى غيرِها، إلّا ما جاءَ من بشارةٍ بها وبغيرها إجمالاً في سورةِ الفتح في قولهِ تعالى : ﴿ وأُخرى لم تَقدِروا عليها قَد أحاطَ اللَّهُ بها وكانَ اللَّهُ على كلِّ شيءٍ قَديراً ﴾[1]، وإلّا ما جاءَ في قصَّةِ حاطبِ ابن أبي بلتعةَ في أوَّلِ سورةِ الممتحنةِ .

ولم أجد في نفسي تعليلاً لهذا السُّكوتِ القرآنيِّ عن فتح مكَّة - رغمَ أنَّهُ الفتحُ الأعظمُ بينَ الفتوحِ - إلّا شيئاً واحداً فقط؛ وهو أن فتحَ مكَّةَ كان أصبحَ مفروغاً منه بعدَ الإجهازِ على اليهودِ بعدَ خيبرَ، ودخولِ بعضِ القبائلِ في حلفٍ مع النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وبلوغِ الإسلامِ أطرافَ الجزيرةِ، بل وتجاوزها، وبالجملةِ فقد تهيَّأت له منَ الأسبابِ الحسيَّةِ ما لم يتهيّأ لسواه من الغزواتِ والوقائع، ممَّا أصبحَ معه الفتحُ أمراً مقضيًّا في أذهانِ أهلِ الجزيرة جميعاً كافرِهم قبلَ مؤمنِهم .

وهذا عندي مِن تعظيمِ القرآنِ لهذا الفتحِ، فالعظيمُ تنبىءُ عنه عظمتهُ وحدها، فلا حاجَة لذكرهِ - وإن كان ذكرُ القرآنِ له يُعدُّ تعظيمَ التَّعظيمِ - وهل يُتصوَّرُ عقلاً أن لا يكونَ النَّاسُ جميعاً - من لَدنِ الفتحِ وحتى تقومِ السَّاعة - على علمٍ بهِ ؟! فإنَّهُ من الممكنِ أن تكونَ بدرٌ أو أحدٌ أو غيرهُما مطويَّةً عن عقولِ النَّاس، أمَّا أن يكونَ كذلك فتحُ مكَّةَ فلا، فالنَّاسُ؛ كلُّ النَّاسِ، يعلمون أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم أُخرجَ هو وأصحابهُ منها، وظلَّت تحتَ يدِ المشركينَ ... فكيفَ آلَت إلى النَّبيِّ

---

(١) الفتح : ٢١ .

وأصحابِهِ ؟! إمَّا أن تكونَ أيلولَتها عنوةً أو صلحاً أو بإيمانِ أهلِها بالإسلامِ ودخولِهِم فيهِ قبلَ أن يَصلَها النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بجيشِهِ .

فالإنسانُ الذي يعرفُ أنَّ مكَّة صارَت للنَّبيِّ وأصحابِهِ ولا يعرفُ كيفَ صارَت إليهم لا بدَّ وأن يسأل كيف صارَت إليهم ؟ والجوابُ لا يعدو واحِداً من تلكَ الأوجهِ الثَّلاثةِ التي قدَّمنا أن صارَت بها مكَّةُ تحتَ يدِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم .

وقد سبقَ أنْ ذكرنا أنَّ القرآن اكتفى بما ساقَ مِن بشارةٍ بفتح مكَّةَ، بشارةً عامَّةً من غيرِ تعيينٍ لها في سورةِ الفتحِ[1]، وإلّا ما جاءَ من قصَّةِ حاطبِ بنِ أبي بلتعةَ في مطلعِ سورةِ الممتحنةِ .

أمَّا البشارةُ فكانت - لعمرُ الحقِّ - حفزاً للمسلمينَ أن تظلَّ السُّيوف بِأيديهم لا يضعونَها إلّا على الرِّقابِ التي استغلظَت بالكفرِ، ولوَت كِبراً عن الحقِّ .

أمَّا قصَّةُ حاطبٍ فهي - عندي - المحورُ الذي دارَت عليه قصَّةُ الفتح برمَّتِها، ومن خلالِها برزَت الحكمةُ النبويَّةُ في تقديرِ الظُّروفِ الزَّمانيَّةِ، والأحوالِ النَّفسيَّةِ التي ألمَّت بالقصَّةِ وأحاطَت بها، وسوفَ نعرضُ لها بشيءٍ من التَّفصيلِ، لنظهرَ عليها ظهوراً تفيضُ به الشكوكُ

---

(١) لعل تسمية السورة بسورة الفتح ليس فقط لافتتاحها بِـ ﴿ إنَّا فتحنا لكَ فتحاً مُبيناً ﴾، ويرادُ به صلحُ الحديبية، بل لأنَّ فتوحاً كثيرةً جاءَت بعد الحديبية، بشَّرت بها هذه السُّورة، فناسبَ أن تسمَّى سورة الفتح .

والرِّيَبُ التي قَد تغشى القلوبَ في أيِّ زمانٍ حين تضعفُ بشريَّةُ الإنسان عن احتمالِها، فلا تجدُ لنفسِها خيراً من اجترارِ تلك الريبِ والشكوكِ، والقذفِ بها في أوجُهِ المؤمنين .

يروي لنا البخاريُّ في « صحيحهِ »، قالَ : حدَّثنا الحميديُ حدَّثنا سفيانُ حدَّثنا عمرو بن دينار قال : حدَّثني الحسنُ بنُ محمَّدِ بن عليٍّ أنَّهُ سمعَ عبيدَاللَّهِ بنَ أبي رافع كاتب عليٍّ يقولُ : سمعتُ عليًّا رَضي اللَّهُ عنه يقولُ : « بعثني رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم أنا والزُّبيرَ والمقدادَ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضَةَ خاخٍ، فإنَّ بها ظعينةً معها كتابٌ، فخذوه منها، فذهبنا تعادى بنا خيلُنا حتى أتينا الرَّوضةَ، فإذا نحن بالظَّعينةِ، فقلنا : أخرجي الكتابَ، فقالت : ما معي من كتابٍ، فقلنا : لتُخرجِنَّ الكتابَ أو لنُلقينَّ الثِّيابَ، فأخرجته من عِقاصِها، فأتينا به النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فإذا فيه : مِن حَاطبِ بنِ أبي بلتعةَ إلى أُناسٍ من المشركينَ ممَّن بمكَّةَ يُخبرُهم ببعضِ أمرِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فقال النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم : « ما هذا يا حاطبُ ؟! » قال : لا تَعجَل عليَّ يا رسولَ اللَّهِ ! إنِّي كنت امرءاً من قريشٍ، ولم أكن من أنفسِهم، وكان مَن معكَ مِن المهاجرينَ لهم قَراباتٌ يحمونَ بها أهليهم وأموالهم بمكَّةَ، فأحببتُ إذْ فاتَني من النَّسبِ فيهِم أن أصطَنِعَ إليهم يداً يحمونَ قرابتي، وما فعلتُ ذلك كُفراً ولا ارتداداً عن ديني، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم : إنَّهُ قَد صدقكُم، فقال عمرُ : دعني يا رسولَ اللَّه ! فأضربُ

عنقهُ، فقال : إنَّهُ شَهدَ بدراً، وما يُدريكَ لعلَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اطَّلعَ على أهلِ بدرٍ فقالَ : اعمَلوا ما شئتُم فقد غفَرتُ لكم ؟ » .

والممتحنةُ هي السُّورةُ الوحيدةُ في القرآن التي بدأت بخطابِ الَّذينَ آمنوا : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا عَدوِّي وعدُوَّكم أولياءَ ﴾، وتقررُ آياتُ هذه السُّورةِ جميعها أحكاماً جديدةً لم تكن معروفةً للمؤمنينَ من قبلُ، وهذا وحدَهُ لو لم يكُن غيرَهُ من بركةِ هذا الفتحِ المبينِ لكَفى أن يُعَدَّ هو فتحاً بذاتِهِ، فكيفَ وقد كانَ ذلك مع الفتحِ ؟!

وما رواه لنا البخاريُّ رحمةُ اللَّهُ يعلِّمنا علمَ اليقينِ أنَّ الوحيَ هو الذي كان من وراءِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يسوقهُ إلى تعيينِ المكانِ والزَّمانِ والأشخاصِ الذين اشتركوا في هذا الأمرِ، حتى إصدارَ العفوِ عنِ الرَّأسِ المدبِّرةِ له، وهو حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ، فإنَّ له سابقةً عظيمةً تكفي في أن ينالَ هذا العفو، إنَّها سابقةُ بدرٍ، وأهلُ بدرٍ هم الصَّفوةُ الصَّافيةُ، والطَّبقةُ الممتازةُ، التي كتبت قرارَ الإسلامِ في الأرضِ بأيديها يومَ بدرٍ، فأن يُرسِلَ بكتابٍ يصطنعُ لنفسهِ يداً عندَ قومٍ ذوي منعةٍ ليحموا قرابتهُ، فهذا اجتهادٌ منه أخطأَ فيه، يبدو من اللَّممِ أمامَ تلكَ السَّابقةِ التي أبلغت أصحابَها منزلةً لم تبلغها فئةٌ من المؤمنينَ .

ثمَّ إنَّها هَنَةٌ ذاهبةٌ إذا ثبتَ أنَّ فتحَ مكَّةَ أصبحَ أمراً محقَّقاً لا ريبَ فيه، تقرَّرَ في عقولِ أهل الجزيرة جميعاً، فلا تؤخِّرهُ خيانةُ خائنٍ، ولا

تُدنيهِ أمانةُ أمينٍ، فقد أبرمَ اللَّهُ فيه أمراً، ولو أنَّ حاطباً ومائةً معه ذهبوا في جهرةِ النَّهار، يرفعون أصواتَهُم محذِّرين أهلَ مكَّةَ من قدومِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم فاتحاً، ما أغنى ذلك عن أهلِ مكَّةَ شيئاً، بل لربَّما زادَ في رعبِهِم وتوجُّسِهم خيفةً .

إنَّ واحداً من هذين يكفي لردِّ سيفِ عمرَ عن رقبةِ حاطبٍ، فكيفَ باجتماع الاثنين معاً ؟! ولا ننسى أنَّهُ كان لصدقِ حاطبٍ سببٌ درأَ عنه بعضاً من غَضب النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وفي قصَّةِ حاطبٍ هذه دروسٌ وعِبرَةٌ، لو لم يكن لفتح مكَّة سواها لكانَ بها الفتحُ أُفقاً يلتقي مع آفاقِ رسالاتِ السَّماءِ .

إنَّ الإيمانَ الصَّادِقَ كان هو الشَّافعُ لحاطبٍ، وإذ الوحي قد انقطعَ ولَم يبقَ لأحدٍ بعدَ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم أن يسوِّغ أو يَلتمسَ العذرَ لمن يفعل فعلةَ حاطبٍ هذهِ، وما يدرينا أن لا يكون الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم موقعاً عقوبةً على غيرِ حاطبٍ مِن أصحابه إن كانَ من غيرِ أهلِ بدرٍ ؟

بدأت الآياتُ - وهي ثلاثٌ - بخطابِ الَّذين آمنوا، وانتهت بقولهِ تعالى : ﴿ واللَّهُ بما تعمَلونَ بَصيرٌ ﴾[1].

والآياتُ كلُّها تحملُ في كلماتِها وألفاظِها التَّحذيرَ للمؤمنينَ أن

---

(١) المتحنة : ٣ .

يوالوا الكفَّار بالمودَّةِ، سرًّا وعلانيةً - فاللَّهُ سبحانه يعلمُ ذلك كلَّه - وقد عصى الكفَّارُ الرّسولَ وكذَّبوهُ، وجحَدوا بما جاءَ به من الحقِّ من عندِ ربّه سبحانه، وألجؤوه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وأصحابهُ إلى الخروجِ من مكَّةَ، ما حملَهُم على ذلك إلّا لأنَّ الإيمانَ باللَّهِ عزَّ وجلَّ أصبحَ يتهدَّدُ الكفرَ بإجلائهِ، لا عن مكَّةَ وحدَها، بل عن أرضِ الجزيرةِ كلِّها، فماذا يبقى لصناديدِ الشِّركِ وجبابرةِ الكُفرِ من بعدُ ؟ إنَّهُ لن يكون لهم إلّا الاستسلامُ الكاملُ لهذا الإيمانِ وأهلِهِ .

وهؤلاء الكفَّار يتربَّصونَ بالمؤمنينَ الدَّوائرَ، ويضمرونَ لهُم العداوةَ والشَّرَّ، وينتظرونَ بفارغِ الصَّبرِ أن يصيبوا منهم غفلةً فيوقعوا بهم هلاكاً وقتلاً بأيديهم، وسوءاً وأذىً بألسنَتِهِم، أو يرتدُّوا عن الإسلام ويعودوا إلى الكفرِ، شأنهُم في ذلك شأنُ أهلِ الكتابِ من قبلِهِم : ﴿ ودَّ كثيرٌ مِن أهلِ الكِتابِ لو يَرُدُّونكُم مِن بَعدِ إيمانِكُم كُفَّاراً حَسداً مِن عِندِ أنفُسِهم ﴾[1]، تشابهت قلوبهُم، والتقَت في وادٍ واحدٍ أفكارهُم، وأَعلوا بنيانَ الشَّرِّ والفسادِ في صدورِهِم، لعلَّهم يرون فُرجةً يدخلونَ منها إلى صفوفِ المؤمنينَ .

وإذا كان الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم هو القدوة العليا في كلِّ شيءٍ للمؤمنينَ، فقد سبقتهُ قدوةٌ أخرى عاشَت في مكَّة، ومكَّنت لدينِ اللَّه فيها، وصرفت جُهداً كبيراً، نفسيًّا وبدنيًّا في ترسيخ قواعده وأُصوله

(١) البقرة : ١٠٩ .

حولَ البيتِ الذي رفعَت قواعدَهُ وأرسَت أُصولَه، وهو إبراهيمُ عليه السَّلامُ، فكأنَّما يذكِّرهُم القرآنُ بأنَّ مكَّةَ أرضُ التَّوحيدِ، ومهدُ الإسلامِ منذُ القديمِ فلا ينبغي أن يكونَ تفريطٌ أو إبطاءٌ في فتحِها، لإعادتِها إلى ما كانت عليه أيَّامَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، حتى يتصلَ عهدُ التَوحيد الجديدِ الخالدِ، بعهدِ التَّوحيدِ الأوَّل الذي لم يبقَ في آفاقِ الجزيرةِ منه إلّا لمحاتٌ عابرةٌ، لم يبصر بها إلّا نفرٌ قليلٌ، أوغلوا بها في الماضي، فشاموا بها شخوصاً وأعلاماً ثابتةً حاولوا في غمرةِ فرحِهم أن يأخذوا بأيدي قومِهم إليها، فأبَوا عليهم، وشمسُوا ونفروا، وظلُّوا مُقيمين على عبادةِ الأصنام، راجينَ منها نفعاً تجلبهُ، أو ضرًّا تدفعهُ، فما زادهُم ذلك إلّا تيهاً وضلالاً، وبُعداً وكَلالاً، وأيقنَ هؤلاءُ النَّفرُ أنَّ سماءً جديدةً ستظلُّ الجزيرةَ كلَّها، ثمَّ تمتدُ إلى جنباتِ الأرضِ جميعاً، تُمطِرها بركةً، وهدى وصلاحاً .

إذاً فكانَ فتحُ مكَّةَ أمراً مهمًّا جدًّا، لكي يعودَ لمركزِ التَّوحيدِ الأوَّلِ جلالهُ وصفاؤُهُ، وعطاؤُهُ ونقاؤُهُ، فمضى إليها صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وقد أيقنَ أنَّهُ فاتحها لا ريبَ، ومزيلٌ من كعبتِها الآلهةَ الصمَّاءَ الواهيةَ، وعاقدٌ فيها ألويةً جديدةً للفتحِ والجهادِ .

وبفتح مكَّةَ اضمحلَّ التَّفكيرُ الوثنيُّ، وتراجعَت حمَّى الشِّركِ، وخنسَت أصواتُ الطغيانِ، والغطرسةِ، وتدافعَت القبائلُ نحوَ الإسلامِ، وتضاءَلت قُدسيَّةُ الوثنيَّةِ في صدورِ أهلها، وجهرَ المسلمونَ بصوتِ التَّوحيدِ الأكبرِ، وتدانَت أطرافُ الجزيرة، وأخذَ التَّفكيرُ النَّبويُّ بالفتوحِ

يتوجَّهُ إلى خارجِ الجزيرةِ .

□ العاشرة : غزوةُ تبوك :

لم يكن يخطر ببالِ المسلمينَ - وقد ألموا بمكاسبَ ومغانم كثيرةٍ من داخل الجزيرةِ، ودانَت لهم أطرافُها، وتسارَعَت القبائلُ تلقي بولائِها أمامَ رسولِ اللّهِ صلَّى اللّه عليه وسلَّم، وتعلنُ نهايَتها بعلائقِ الوثنيَّةِ بين يديهِ - أن ينبِّهم النَّبيُّ صلواتُ اللّهِ وسلامهُ عليهِ أنَّ دورَهم خارجَ الجزيرةِ أكبرُ من دورهم داخلَها، وأنَّهُ قد حانَ حينهُ، وأهلَّ زمانهُ، وأن تكونَ غزوة تبوكٍ هي بداية هذا الدَّورِ .

وقد سلكَ القرآنُ الكريمُ في عرضهِ لهذه الغزوةِ أُسلوباً يختلفُ عن أسلوبه في عرضهِ الغزوات الأُخرى، لأسبابٍ :

أوَّلاً : أنَّها كانت بداية تحوِّلٍ في تاريخِ الغزواتِ النَّبويَّةِ .

ثانياً : أنَّ الإعدادَ لها كانَ أكبرَ وأعظمَ من الإعدادِ لجميعِ الغزواتِ التي سبقتها .

ثالثاً : أنَّها كانَت آخر غزوةٍ غزاها رَسُول اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم معَ أصحابهِ .

رابعاً : أنَّ عُنصرَ النِّفاقِ برزَ فيها بروزاً شديداً .

هذه الأسبابُ مجتمعةٌ فرضَت أسلوباً خاصَّاً متميِّزاً لهذه الغزوةِ،

سارَ معَ آياتِ سورةِ التَّوبة سيراً جليلاً، نبغَت فيه من الآياتِ آياتٌ، وأطلَّت من جلاله براهينُ بيِّنات، مَضَت مع أجيالِ هذه الأُمَّةِ الغابرةِ - وستمضي إلى أن تنتَهيَ آجالُها - تُكتب لها بين أُمَمِ الأرضِ وشعوبِها تاريخاً هبطَ به الوحيُ من السَّماءِ، لتظلَّ موصولةً به وبكلِّ مقوماتِ وجودِها بربِّها، فلا تَني في عطائِها، ولا تكلُّ على الدَّهر أيادِيها .

وأعظمُ قضيةٍ أدارَ القرآنُ عليها آيات سورةِ التَّوبةِ المتحدِّثة عن غزوةِ تبوكَ هي قضيَّةُ النِّفاقِ والمنافقينَ، فقد أسفرَ المنافقون عن أنفسِهم في هذه الغزوةِ إسفاراً لم يعد معهُ شيءٌ من أمرِهم خافياً على أحدٍ، فجاءَت السُّورةُ تفضحُهم بأوصافِهِم وأحوالِهِم، حتى لكأنَّها تشيرُ إلى كلِّ واحدٍ منهُم بإصبع الاتِّهامِ، لكي يحذرهُ النَّاسُ فيجتنبوهُ، ولا يصيبوا منهُ ولاءً يميلونَ به إليه، فتطهرُ منه نفوسُهم، وينقى منه مجتمعُهم، فلا يكون لمكرهِ السيءِ مكانٌ فيهم إلّا بمقدارِ ما يجلى منه .

ندَبَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم المسلمينَ للخروجِ إلى تبوكَ - آخرِ غزوةٍ له، وأوَّلِ غزوةٍ خارجَ الجزيرةِ - والحرُّ يلهبُ وجوهَ النَّاسِ، والأرضُ تتوقَّدُ بهِ من تحتِ أرجلهِم، ولن يَقِيَهُم ممَّا ترسلُ السَّماءُ بهِ عليهم من فوقِهم إلّا الظلالُ الوارفةُ، ولن يُطفئ ظمأَ أجوافِهِم إلّا المياهُ الباردةُ، ولن يرفعَ عن ظهورهم الشدَّةَ اللاهبةَ إلّا السباتُ في جنباتِ البيوتِ، قال تعالى : ﴿ وَقالوا لا تَنفِروا في الحرِّ قُل نارُ جَهنَّمَ أشدُّ حَرًّا لو كانوا

يَفقَهون ﴾[1]، وقَد كان هذا تثبيطاً مِن المنافقينَ للمؤمنينَ، ظهرَ في حالٍ من الإشفاقِ والرَّأفةِ الكاذبةِ، ولكنَّ ذلك كلُّهُ هانَ عليهم جدًّا، ولم يجدوا في أنفسِهم حَرجاً أن يستبِقوا أمرَ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم استباقاً في فرحةٍ تغمرُهم، وكيف لا؛ والقرآنُ يدعوهم بدعوتِهِ الخالدةِ الباقيةِ : ﴿ انفِروا خِفافاً وثِقالاً ﴾[2] ؟ فما تلكَّأَ عن الاستجابةِ للرَّسولِ يومئذٍ إلّا منافقٌ استغلق قلبهُ بنفاقهِ، ولا أبطأَ عن الخروجِ معه إلّا من أنشبَ الرجْسُ أظفارَهُ في صدرهِ، وحتى لا يكونُ - في ظَنِّهِمُ الفاسدِ - حجَّةٌ عليهم عندَ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم أتَوْهُ مستأذنينَ، فأَذِنَ لهم؛ فعاتبه اللَّهُ على إذنه لهم، لكي يتبينَّ له الصَّادقُ من الكاذبِ منهم، وذلك قوله : ﴿ عَفا اللَّهُ عَنكَ لمَ أذِنتَ لهُم حتَّى يَتبينَّ لكَ الَّذينَ صَدقُوا وتَعلَمَ الكاذبين ﴾[3]، ثمَّ يتبعُ ذلك بقوله : ﴿ لا يَستئذِنُكَ الَّذينَ يُؤمِنونَ باللَّهِ واليَومِ الآخرِ أنْ يُجاهِدُوا بأموالِهم وأنفُسِهم واللَّهُ عَليمٌ بالمُتَّقينَ ◦ إنَّما يَستَئذِنُكَ الَّذينَ لا يُؤمنونَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ وارتابَت قُلوبُهُم فهُم في رَيبِهِم يَتردَّدونَ ﴾[4]، حقيقةٌ لا مريَةَ فيها ولا ريبَ، فقد نَفَرَ المؤمنون خِفافاً وثِقالاً، في حينِ شَخِصَت أبصارُ المنافقين وهم يسمعونَ دعوةَ الرَّسولِ للتهيؤِ للغزوةِ، فقد علِموا علمَ اليقينِ أن نفاقَهُم لم يعُد خافياً .

(١) التوبة : ٨١ .
(٢) التوبة : ٤١ .
(٣) التوبة : ٤٣ .
(٤) التوبة : ٤٤ و ٤٥ .

والتّعبيرُ القرآنيّ يظهرُ الشيء غيرَ المحسوسِ في صورةِ المحسوسِ، ويجسدُ خفايا النّفس تجسيداً رابياً، فتُرى بالعينِ، وتُسمعُ بالأُذنِ، وتحسُّ بالأناملِ، أليسَ ذلكَ كلُّه بادياً في قولهِ : ﴿ فهُم في رَيبِهِم يتردَّدون ﴾ ؟ فلا يكون عذرٌ لأحدٍ من المؤمنين بعدَ ذلك إن خفيَ عليه المنافقون أو حالهُم .

ولا ريبَ أنَّ النّفاقَ داءٌ فتَّاكٌ، إذا نزلَ بالمجاهدينَ أودى بهم، وأجلى مِن بين أظهُرِهِم النَّصرَ، وقعدَ بعزائمِهِم أن يدركُوه بعدُ في زمانٍ قريبٍ، فحقيقٌ إذاً أن يكشفَ القرآنُ عَن معدنِ المنافقين، وأن يفضحَهُم، ويميطَ الخفاءَ عنهم في آخرِ غزوةٍ ليكونَ ذلك عوناً للمسلمينَ - والرَّسولُ ليسَ بين أظهرهم - على معرفةِ المنافقين إن ظلَّ لهم رجاءٌ في الإفسادِ بعدَ الرَّسولِ، وليسَ النِّفاقُ بالحبلِ المنقطعِ، فقد نبتَت نابتَتُهُ في المدينةِ، وامتدَّت فروعُها حتى بلغَت آفاقَ العالمِ كلِّه، تذوي تارةً وتسقطُ أوراقُها، وتحيا تارةً وتنبُتُ أوراقُها، لكنَّها في الحالينِ تظلُّ تعملُ في خِفيةٍ بالغةٍ، خشيةَ أن تمتدَّ إليها أيدي المؤمنين فتقطعَها، ولا تُبقي منها ولا تَذرُ .

ويعودُ القرآنُ - بعدَ العتابِ - إلى النّبيِّ صلّى اللّهُ عليه وسلَّم ليُذهبَ ما قَد يكونُ قَد علقَ بنفسهِ من همٍّ، أو أصابهُ من حُزنٍ، ليعلمَهُ أنَّ قعودهُم عن الخروجِ معهُ خيرٌ من الخروجِ معه، فإنَّهم لو خرجوا لَسَعَوا بينَ المسلمينَ بالاختلافِ والأراجيفِ، ولأسرعوا بإفسادِ ذاتِ بينهِم، لا

يريدون إلّا إيقادَ نار الفتنةِ، وفي المسلمينَ مَن قد يصادفُ كلامُهم هوىً في نفوسِهم، لو صَدَقوا وأرادوا الخروجَ لأعدُّوا له العُدَّةَ واتَّخذوا الأهبةَ، وذلك قولهُ سبحانهُ : ﴿ وَلو أرادوا الخُروجَ لأعدُّوا لهُ عُدَّةً ولكن كَرِهَ اللَّهُ انبعاثَهُم فَثبَّطهُم وقيلَ اقعُدُوا معَ القاعِدين ٥ لَو خَرجُوا فِيكُم ما زادُوكُم إلّا خَبالاً ولأوضَعوا خِلالكُم يَبغونَكُم الفِتنَةَ وفِيكُم سمَّاعُونَ لهُم واللَّهُ عليمٌ بالظَّالمينَ ﴾[1].

ويذكِّرُ القرآنُ الرَّسولَ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم والمؤمنينَ بما أرادوهُ مِن فتنةٍ، وما أجالوا فيهِ الرَّأيَ لإبطالِ ما جاءَ من الحقِّ، فمُنوا بالفشلِ والإحباطِ، وذلك قولهُ : ﴿ لَقَدِ ابتَغَوا الفِتنَةَ من قَبلُ وقلَّبوا لكَ الأُمورَ حتَّى جَاءَ الحقُّ وظَهرَ أمرُ اللَّهِ وهُم كَارِهُون ﴾[2].

ويتقدَّمُ بعضُ المنافقينَ ومنهم الجدُّ بنُ قيسٍ بعذرٍ قبيحٍ فاضحٍ للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، ليأذنَ لهُم في القعودِ والتَّخلُّفِ عن الغزوةِ، فيقولُ: « إنِّي أخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفَر ألّا أصبِرَ عنهنَّ، فلا تَفتِنِّي وائذَن لي في القعود وأُعينكَ بمالي »[3]، وهم في الحقيقةِ كاذبون، لا ينتظرون إلّا أن يُصابَ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ومَن معهُ في أنفسِهم، فيبدونَ الشَّماتةَ فيهم، ثم يقولونَ : قد درأنا عن أنفسِنا الموتَ باتِّخاذِ الحيطةِ، ولبثنا في المدينةِ، وذلك قولهُ تعالى : ﴿ وَمِنهُم مَن يَقولُ

---

(١) التوبة : ٤٦-٤٨ . (٢) التوبة : ٤٨ .

(٣) انظر : « الدر المنثور » (٣/٢٤٧-٢٤٨) .

ائذَن لي ولا تَفتنِّي أَلا في الفِتنَةِ سَقَطُوا وإنَّ جَهنَّمَ لمُحيطةٌ بالكافرينَ ○ إن تُصِبكَ حَسَنةٌ تَسُؤهُم وإن تُصِبكَ مُصيبَةٌ يقولوا قَد أخَذنا أمرَنا مِن قَبلُ ويَتوَلَّوا وهُم فَرِحُون ﴾[1]، والفتنةُ التي سقطوا فيها هي فتنةُ النِّفاقِ والتخلُّفِ عن النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وهي أعظمُ من الفتنةِ التي تذرَّع بها الجدُّ بنُ قيسٍ ومَن معهُ مِن المنافقين، فهذه الأخيرةُ فتنةٌ تنزعُ إليها النَّفسُ إذا ما توفَّرت أسبابُها، وأسبابها حينَ ادَّاروُا بها كانَت لا زالت قصيَّةً، أمَّا فتنةُ النِّفاقِ فهي فتنةٌ متحقِّقَةٌ فيهم، وهي تحتوي كلَّ فتنةٍ بعدَها، لأنَّها تصغرُها بكثيرٍ جدًّا، حتى في مجموعِها الكلِّي .

ويقررُ القرآنُ حقيقةً ضخمةً غفلَ عنها أُولئكَ المنافقونَ، أو غشيَتها غاشيةُ نفاقِهم، فغابَت عن عقولِهم، وعَزُبَت عن أذهانِهم، فأراهم نفاقهُم شيئاً غيرَ الَّذي أَرى المؤمنينَ إيمانُهم، تلكَ الحقيقةُ هي قولهُ تعالى : ﴿ قُل لَن يُصيبَنا إلّا ما كَتبَ اللَّهُ لنا هوَ مَولانا وَعلى اللَّهِ فليَتوكَّلِ المُؤمِنونَ ○ قُل هَل تَربَّصُونَ بِنا إلّا إحدى الحُسنيَيْن ونَحنُ نَتربَّصُ بكُم أن يُصيبكُم اللَّهُ بعذابٍ مِن عِندهِ أو بأيدِينا فتربَّصُوا إنَّا مَعكُم مُتربِّصُون ﴾[2]، فالمسلمون مستسلمونَ لقضاءِ اللَّه وقدرِهِ، موقنون أنَّه لا يلحقُهم إلّا ما كتبَ اللَّهُ لهم، متوكِّلونَ عليهِ حقَّ التوكُّلِ، ومع هذا كلِّه فهم راجونَ نصرَهُ وتأييدَهُ أو الشَّهادةَ في سبيلِهِ، لأَنَّهُ باستسلامِهم له، ويقينِهم، وتوكُّلِهم عليهِ كانَ مولاهُم، وصدقُ الولاءِ لا يُنيلُ إلّا التَّأييدَ والنَّصرَ

---

(١) التوبة : ٤٩ و ٥٠ .

(٢) التوبة : ٥١ و ٥٢ .

والعلوَّ والتَّمكينَ في الأرضِ، أمَّا المنافقونَ فلن يُكتبَ عليهم إلّا ذلٌّ في الدُّنيا على أيدي المؤمنينَ، إذا أذنَ اللَّهُ لهم بالقتالِ، أو هلاكٌ يُحلُّه اللَّهُ بهم عقوبةً كافياً المؤمنين همَّ القتالِ صنيعهُ في الأُممِ السَّابقةِ .

وقد وضعَ المؤمنونَ أموالَهم في هذه الغزوةِ تحتَ يَدِ الرَّسول صلَّى اللَّه عليه وسلَّم في طواعيةٍ وصدقٍ وحبٍّ، يُنفقُها كما يريدُ، ويضعُها حيثُ يشاءُ، وحسبَ بعضُ المنافقين أنَّ إنفاقَهم ما لهم كَذباً يسترُ نفاقهم، ولا يفضحُ سرائرهُم، فقدَّموه للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فنبذَ اللَّهُ إليهم على سواءٍ، وقذفَ إليهم تكذيبهُم في وجوههم، وأبانَ بعضَ صفاتِهم التي بها رُدَّت عليهم نفقاتُهم، قالَ تعالى ﴿ قُل أنفِقُوا طَوعاً أو كَرهاً لَن يُتقبَّلَ مِنكُم إنَّكُم كُنتُم قَوماً فاسقين ○ وما مَنَعَهُم أَنْ تُقبلَ منهُم نَفقاتُهم إلّا أنَّهُم كَفَروا باللَّهِ وبرسُولِهِ ولا يأتونَ الصَّلاةَ إلّا وهُم كُسالى ولا يُنفِقونَ إلّا وهُم كارِهُونَ ﴾[1].

والنفاقُ يورثُ صاحبَهُ جُبناً مُفزعاً، ورعباً مُقعداً، فترى المنافقَ إذا أُلجِىءَ إلى قتالٍ يبحثُ عن شيءٍ بعينيه يَلوذُ به؛ حتى إذا وجدَهُ أسرعَ إليه ظنًّا منه أنَّهُ يُنجيهِ منَ الموتِ، فكان قعودهُم عن الخروجِ مع رسول اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم نعمةً عظيمةً أصابَها رسول اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم وأصحابهُ؛ لأنَّ الجبنَ يُعدي، وإذا انتشرَ بين الجندِ انخَذلوا وانكشفَ شجعانهُم، فيقعُ بهم عدوُّهُم فتكاً وقتلاً، ويُلحقُ بهم هزيمةً

---

(١) التوبة : ٥٣ و ٥٤ .

تبقى في أعقابِهم ذِكراً، قالَ تعالى : ﴿ لَو يَجدُونَ مَلجأً أو مَغاراتٍ أو مُدَّخَلاً لَولَّوا إليه وهُم يَجمَحُون ﴾[1]، فلو كانَ قتالٌ في تبوكَ، وخرجَ أولئكَ المنافقون لِلحِقَ بالمسلمين منهم شرٌّ كبيرٌ، فتكونُ هذهِ الآية تحذيراً للمسلمينَ مِن بعدُ أن يَركَنوا إلى المنافقينَ، وأن يأذَنوا لهم في الخروجِ معهُم إلى القتالِ .

ويقعُ نفرٌ من صالحي الصَّحابةِ تحتَ ضغوطِ رغباتِ النَّفس، ويُدركهُم الضَّعفُ البشريُّ الذي لم يكن ينالُ من صحابةِ رسولِ اللَّه صلَّى اللَّه عيه وسلَّم إلّا لماماً، فإنَّ الصَّحابة قد أربَوا بإيمانِهم على إيمان النَّاسِ كافَّةً، ولم يُصِب أحدٌ مِن أصحابِ الأنبياءِ وحواريِّيهم مِن فضلِ ما أصابوا، غيرَ أنَّهم بشرٌ يعتريهُم من شؤونِ البشريَّةِ وأحوالها ما ينالُ سائرَ البشرِ، لكنَّهم لم يكونوا يطلقونَ الأعنَّةَ لأنفسِهم ليلِجوا الضَّبابَ إلّا وقد نالهم من كُدرَتِهِ أو ثقلتهِ نصيبٌ .

ويَحكي لنا القرآنُ نبأَ أولئكَ النَّفر الثَّلاثة - وهم : كعبُ بنُ مالك، وهلالُ بنُ أُميَّة، ومرارَةُ بنُ الرَّبيعِ - في آياتٍ بيِّناتٍ :﴿ وَعلى الثَّلاثةِ الَّذين خُلِّفوا حتَّى إذا ضَاقَت عَليهم الأرضُ بما رَحُبَت وَضاقَت عَليهِم أنفسُهم وظنُّوا أن لا مَلجأً منَ اللَّهِ إلّا إليهِ ثُمَّ تابَ عليهِم ليتُوبوا إنَّ اللَّهَ هوَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ ○ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا اتَّقوا اللَّهَ وكُونوا معَ الصَّادِقين ﴾[2].

---

(1) التوبة : ٥٧ .

(2) التوبة : ١١٨ و ١١٩ .

فَتَنقُلُ هذه الآياتُ العقلَ نقلةً واسعةً تتخطَّى به أبعادَ الزَّمان، وتتجاوَز حدودَ المكانِ، وتطلُّ به على الأجيالِ الآتيةِ إطلالةَ رجاءٍ، تمحو بها عنه ما قد يكون علقَ به من لوثَةِ النُّزوعِ إلى حظوظِ الدُّنيا، أو القعودِ إلى ترابِ الأرضِ وثقلةِ الطِّينِ، فلا يكون له إلّا العروجُ في ملكوتِ السَّماءِ، والنَّظرُ بالبصيرةِ الثَّاقبةِ إلى حوافِ الفردَوسِ، والرَّجاءُ الصَّادقُ فيما عندَ اللَّه من النَّعيم الخالدِ، وقطعُ حبالِ الأملِ فيما أيدي العبادِ، فيكونُ بذلك كلِّه التَّوجُّهُ كلُّه إلى اللَّهِ وحدَهُ .

وحكايةُ أولئكَ النَّفرِ الثَّلاثةِ التي أوجزتها أبلغَ إيجازٍ وأروعَه وأقواهُ وأعلاه آيتانِ مِن سورةِ التَّوبةِ؛ يحكيها لنا الأمامُ أحمدُ رحِمَهُ اللَّهُ في « مسندِهِ » عن عبيدِ اللَّهِ بنِ كعبِ بن مالك، والإمامان البخاريُّ ومسلمٌ من حديث الزُّهري بنحو ما رواه عبيدُاللَّهِ هذا في أربعِ صفحاتٍ أو يزيدُ، فلندع كعبَ بن مالكٍ يقصُّها علينا كما ينقُلها لنا ولدهُ عبيدُاللَّه، يقولُ : قالَ كعبُ بنُ مالكٍ : « لم أتخلَّف عن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم في غزاةٍ غزاها قطُّ ... إلّا غزوة تبوكَ، غير أني تخلَّفتُ في غزاةِ بدرٍ، ولم يُعاتَب أحدٌ تخلَّفَ عنها، وإنَّما خَرجَ رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يريدُ عيرَ قريشٍ حتى جمعَ اللَّهُ بينهُم وبين عدوِّهم على غير ميعادٍ، ولقد شَهدتُ مع رسولِ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ليلةَ العقبةِ حينَ تواثَقنا على الإسلامِ، وما أُحبُّ أنَّ لي بها مشهدَ بدرٍ، وإن كانت بدرٌ أذكرُ في النَّاسِ وأشهرُ، وكان من خَبري حينَ تخلَّفتُ عَن رسولِ اللَّهِ

صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم في غزوةِ تَبوك أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنهُ في تلكَ الغزاةِ، واللَّهِ ما جمعتُ قبلَها راحلتين قطُّ حتى جمعتُهما في تلك الغزاةِ، وكان رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قلَّما يغزو غَزوةً إلَّا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلكَ الغزوةُ، فغزاها رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم في حرٍّ شديدٍ، واستقبلَ سفراً بعيداً ومفاوِزَ، واستقبلَ عدوًّا كثيراً، فخلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهَّبوا أُهبةَ عدوِّهم، فأخبرهُم وجهَه الذي يُريدُ، والمسلمونَ مع رسول اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم كثيرٌ، لا يجمعُهم كتابٌ حافظٌ - يريدُ الدِّيوانَ - قالَ كعبٌ : فقلَّ رجلٌ يريدُ أن يتغيَّب إلَّا ظنَّ أنَّ ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحيٌ مِن اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وغزا رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم تلكَ الغزاةَ حينَ طابَت الثِّمارُ والظِّلالُ، وأنا إليها أصعرُ، فتجهَّزَ إليها رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم والمؤمنونَ معهُ، فطفقتُ أغدو لكي أتجهَّزَ معهُم، فأرجع ولم أقضِ من جهازي شيئاً، فأقولُ لنفسي : أنا قادرٌ على ذلكَ إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمرَ بالنَّاسِ الجدُّ، فأصبحَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم غادياً والمسلمونَ معهُ، ولم أقضِ من جهازي شيئاً، وقلت أتجهَّزُ بعدَ يومٍ أو يومين ثمَّ ألحقه، فغدوتُ بعدما فصلوا لأتجهَّزَ، فرجعتُ ولم أقضِ من جهازي شيئاً، ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتَّى أسرعوا وتفارطَ الغَزوُ، فهمَمتُ أن أرتحلَ فألحقَهُ، وليتَ أنِّي فعلتُ، ثمَّ لم يُقدَّر ذلك لي،

فطفِقتُ إذا خرجتُ في النَّاس بعدَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يحزُنني أنِّي لا أرى إلّا رجلاً مغموصاً عليه في النِّفاقِ، أو رجلاً ممَّن عذرهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، ولم يذكرني رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم حتى بلغَ تبوكَ، فقالَ وهو جالسٌ في القوم بتبوكَ : « ما فعلَ كعبُ بنُ مالكٍ ؟ »، فقال رجلٌ مِن بني سلمَةَ : حبسَهُ يا رسولَ اللَّهِ ! برداهُ ونظرهُ في عِطْفَيهِ، فقال معاذُ بنُ جبلٍ : بئسَ ما قلتَ، واللَّهِ يا رسولَ اللَّه ! ما علمنا عليهِ إلّا خيراً، فسكتَ رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم .

قال كعبُ بنُ مالكٍ : فلمَّا بلغني أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قد توجَّهَ قافِلاً مِن تبوكَ، حضرني بثِّي، وطفقتُ أتذكَّرُ الكَذِبَ، وأقولُ بماذا أخرجُ من سخطِهِ غداً، وأستعينُ على ذلك بكلِّ ذي رأيٍ من أَهلي، فلمَّا قيل : إنَّ رسولَ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قد أظلَّ قادماً، زاحَ عنِّي الباطلُ، وعرفتُ أنِّي لم أنجُ منهُ بشيءٍ أبداً، فأجمعتُ صدقَهُ، فأصبحَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وكان إذا قَدِمَ من سفرٍ بدأَ بالمسجدِ فصلَّى ركعتينِ ثمَّ جلسَ للنَّاسِ، فلمَّا فعلَ ذلكَ جاءَهُ المتخلِّفونَ يعتذرونَ إليه ويحلفونَ له، وكانوا بضعَةً وثمانينَ رجلاً، فيَقبلُ منهم رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم علانيتَهم، ويستَغفرُ لهم، ويكِلُ سرائرهُم إلى اللَّه تعالى، حتى جئتُ، فلمَّا سلَّمتُ عليهِ تبسَّم تبسُّمَ المُغضِبِ، ثمَّ قال لي : « تعالَ »، فجئتُ حتى جلستُ بين يديهِ، فقال لي : « ما خلَّفك ؟ ألم تَكن قد اشتريتَ ظهراً ؟ »، فقلتُ : يا رسولَ

اللَّه ! إني لو جلستُ عندَ غيركَ من أهلِ الدُّنيا لرأيتُ أن أخرجَ من سَخطِهِ بعذرٍ، لقد أُعطيتُ جَدلاً، ولكنِّي - واللَّهِ - لقد علمتُ لئن جئتُكَ اليومَ بحديثٍ كذبٍ ترضى به عنِّي ليوشِكنَّ اللَّهُ أن يُسخطَكَ عليَّ، ولئن حدَّثتُكَ بصدقٍ تجدُ عليَّ فيهِ إنِّي لأرجو عُقبى ذلك من اللَّهِ عزَّ وجلَّ، واللَّهِ ما كان لي عذرٌ، واللَّهِ ما كنتُ قطُّ أفرَغَ ولا أيسرَ مني حينَ تخلَّفتُ عنكَ، قال : فقال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم : « أمَّا هذا فَقَد صَدَق، فقُم حتى يَقضيَ اللَّهُ فيكَ »، فقمتُ، وقام إليَّ رجالٌ من بني سَلمةَ وأتبعوني، فقالوا لي : واللَّهِ ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم بما اعتذَرَ به المتخلِّفون، فقد كان كافيكَ من ذنبكَ استغفارُ رسولِ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم لك، قال : فواللَّهِ ما زالوا يؤنِّبوني حتى أردتُ أن أرجعَ فأُكذِّبَ نفسي، قالَ : ثم قلت لهُم : هل لقي معي هذا أحدٌ ؟ قالوا : نَعم، لقيَهُ معكَ رجلانِ قالا مِثلما قلتَ، وقيلِ لهما مثلما قيلَ لكَ، فقلت : فمَن هما ؟ قالوا : مرارةُ بنُ الرَّبيعِ العامريُّ، وهلالُ بنُ أُميَّةَ الواقفيُّ، فذكروا لي رجلينِ صالحينِ قد شَهدا بدراً لي فيهما أُسوةٌ، قال : فمضيتُ حين ذكروهُما لي .

قالَ : ونهى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم المسلمينَ عن كلامِنا أيُّها الثَّلاثةِ من بين مَن تخلَّفَ عنهُ، فاجتنَبنا النَّاسُ، وتغيَّروا كثيراً، حتى تنكَّرَت في نفسيَ الأرضُ فما هي بالأرضِ التي كنتُ أعرفُ، فلبثنا على

ذلك خمسين ليلةً، فكنتُ أشهدُ الصَّلاةَ مع المسلمينَ، وأطوفُ بالأسواقِ، فلا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم وهو في مجلسهِ بعدَ الصَّلاة، فأُسلِّم وأقول في نفسي : أحرَّك شفتيهِ يَردُّ السَّلامَ عليَّ أم لا ؟ ثمَّ أُصلِّي قريباً منه، وأُسارِقهُ النَّظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليَّ، فإذا التفتُّ نحوَه أَعرضَ عني، حتى إذا طالَ عليَّ ذلك من هجر المسلمينَ، مشيتُ حتى تسوَّرتُ حائطَ أبي قتادَةَ، وهو ابن عمِّي، وأحبُّ النَّاسِ إليَّ، فسلَّمتُ عليه، فواللَّهِ ما ردَّ عليَّ السَّلام، فقلتُ له : يا أبا قتادَة أنشدُكَ اللَّهَ هل تعلمُ أنِّي أُحبُّ اللَّهَ ورسولَهُ ؟ فقالَ : فسكتَ، قال : فعدتُ لهُ فنشدتهُ فسكتَ، فعدتُ له فنَشدتهُ فسكتَ، فقالَ : اللَّهُ ورسولهُ أعلمُ، قالَ : ففاضَت عينايَ وتولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدارَ .

فبينما أنا أمشي بسوقِ المدينةِ، إذا أنا بنبَطيٍّ من أَنباطِ الشَّام ممَّن قَدِمَ بطعامٍ يبيعهُ بالمدينة، يقولُ : مَن يدلُ على كعبِ بنِ مالكٍ ؟ قال : فطفقَ النَّاسُ يشيرونَ له إليَّ حتى جاءَ، فدفعَ إليَّ كتاباً من مَلكِ غسَّانَ – وكنتُ كاتباً – فإذا فيه : أمَّا بعدُ، فقد بلغنا أنَّ صاحبكَ قَد جفاكَ، وأنَّ اللَّه لم يجعلكَ في دارِ هوانٍ ولا مضيَعَةٍ، فالحَق بنا نُواسِكَ، قال : فقلتُ حينَ قرأتهُ : وهذا أيضاً مِن البلاءِ، قال : فتيمَّمتُ التَّنُّورَ، فسجرتهُ به، حتى إذا مَضت أربعون ليلةً من الخمسينِ، إذا برسولِ رسولِ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يأتيني يقولُ : يأمركَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه

وسلَّم أن تعتزلَ امرأتَك، قال : فقلت : أطلِّقها أم ماذا أفعلُ ؟ فقالَ : بل تعتزلُها ولا تقربُها، قال : وأرسلَ إلى صاحبيَّ بمثلِ ذلك، قال : فقلتُ لامرأتي، الحقي بأهلكِ فكوني عندهُم حتى يقضيَ اللَّهُ في هذا الأمرِ ما يشاءُ، قال : فجاءَت امرأَةُ هِلالِ بنِ أُميَّةَ رسولَ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، فقالَت : يا رسولَ اللَّهِ ! إنَّ هلالاً شيخٌ ضعيفٌ، ليس له خادمٌ، فهل تكرهُ أن أخدمهُ ؟ قال : « لا، ولكن لا يقربكِ »، قالت : وإنَّهُ واللَّه ما به من حركةٍ إلى شيءٍ، وإنَّهُ واللَّه ما زالَ يبكي منذُ كانَ من أمرهِ ما كانَ إلى يومهِ هذا، قالَ فقال لي بعضُ أهلي : لو استأذنتَ رسولَ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم في امرأتكَ، فقد أذِنَ لامرأةِ هلالِ بن أُميَّةَ أن تخدمهُ، قال : فقلتُ : واللَّهِ لا أستأذنُ فيها رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم وما أدري ما يقولُ فيَّ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم إذا استأذنتهُ وأنا رجلٌ شابٌ .

قال : فلبثنا عشرَ ليالٍ، فكمُلَ لنا خمسونَ ليلةٍ من حينِ نَهى عن كلامِنا، قال : ثمَّ صلَّيتُ صلاةَ الصُّبح صباحَ خمسين ليلةٍ على ظهرِ بيتٍ من بيوتِنا، فبينما أنا جالسٌ على الحالِ التي ذكرَ اللَّهُ تعالى منَّا، قد ضاقَت عليَّ نفسي، وضاقَت عليَّ الأرضُ بما رحُبَت، سمِعتُ صارخاً أوفى على جَبلِ سلْعٍ، يقولُ بأعلى صوتهِ : أبشِر يا كعبَ بن مالكٍ ! قالَ: فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أنَّهُ قد جاءَ الفرجُ من اللَّه عزَّ وجلَّ بالتَّوبةِ علينا، فآذنَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم بتوبةِ اللَّهِ علينا حينَ صلَّى

الفجرَ، فذهب النَّاسُ يبشِّروننا، وذهبَ قِبَلَ صاحبيَّ مبشِّرونَ، وركضَ إليَّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلمَ وأوفى على الجبل فكانَ الصَّوتُ أسرع من الفرسِ، فلمَّا جاءَني الذي سمعتُ صوتَهُ يبشِّرني نزعتُ له ثوبيَّ فكسوتُهما إيَّاهُ ببشارتِه، واللَّهِ ما أملكُ يومئذٍ غيرهُما، واستعرتُ ثوبين فلبستُهما، وانطلقتُ أَؤُمُّ رسول اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم، وتلقَّاني النَّاسُ فوجاً فوجاً، يهنِّئوني بتوبةِ اللّه، يقولونَ : لِيَهنكَ توبةَ اللَّه عليك، حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم جالسٌ في المسجد والنَّاسُ حوله، فقامَ إليَّ طلحةُ بنُ عبيدِ اللَّهِ يهُرولُ حتى صافحني وهنَّأني، واللَّهِ ما قامَ إليَّ رجلٌ من المهاجرينَ غيرُه - قالَ : فكان كعبٌ لا ينساها لطلحةَ - .

قال كعبٌ : فلمَّا سلَّمتُ على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، قالَ وهو يبرقُ وجهُهُ مِن السُّرورِ : « أبشر بخير يومٍ مرَّ عليكَ منذُ ولدتكَ أُمُّك »، قال : أمِن عندِكَ يا رسول اللَّه ! أم مِن عندِ اللَّهِ ؟ قالَ : « بل مِن عندِ اللَّهِ »، قالَ : وكان رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم إذا سُرَّ استنارَ وجهُهُ حتى كأنَّهُ قطعةُ قمرٍ، حتى يُعرفُ ذلك منه، فلمَّا جلستُ بين يديهِ قلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ! إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى اللَّهِ وإلى رسوله، قال : « أمسك عليكَ بعض مالك فهو خيرٌ لك »، قال : فقلتُ : فإنِّي أُمسكُ سهمي الذي بخيبرَ، وقلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ! إنَّما نجَّاني اللَّهُ بالصِّدقِ، وإن مِن توبتي أن لا أُحدِّثَ إلَّا

صدقاً ما بقيتُ، قال : فواللَّهِ ما أعلمُ أحداً من المسلمينَ أبلاهُ اللَّهُ مِن الصِّدقِ بالحديثِ منذُ ذكرتُ ذلكَ لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أحسنَ ممَّا أبلاني اللَّهُ تعالى، واللَّهِ ما تعمَّدتُ كذبةً منذُ قلتُ ذلك لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم إلى يومي هذا، وإنِّي لأرجو أن يحفظَني اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيما بقيَ .

قالَ : وأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَقَد تابَ اللَّهُ على النَّبيِّ والمهاجرينَ والأنصارِ الَّذينَ اتَّبعوهُ في ساعَةِ العُسرَةِ مِن بعدِ ما كادَ يَزيغُ قُلوبُ فَريقٍ منهُم ثمَّ تابَ عليهم إنَّهُ بهم رؤُوفٌ رحيمٌ ○ وعلى الثَّلاثةِ الَّذينَ خُلِّفوا حَتى إذا ضَاقَت عليهِم الأرضُ بما رَحُبَت وضَاقَت عَليهِم أنفُسُهم وظنُّوا أن لا مَلجأَ مِن اللَّهِ إلَّا إليهِ ثُمَّ تابَ عَليهم ليَتُوبوا إنَّ اللَّهَ هو التَّوَّابُ الرَّحيمُ ○ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللَّهَ وكُونوا معَ الصَّادِقين ﴾[1] إلى آخرِ الآيات .

قالَ كعبٌ : فواللَّهِ ما أنعمَ اللَّهُ عليَّ من نعمَةٍ قطُّ بعدَ أن هداني للإسلامِ أَعظم في نَفسِي مِن صِدقي مع رسولِ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يومئذٍ، أن لا أكونَ كذبتهُ فأهلكَ كما هلكَ الَّذينَ كَذَبوه، فإنَّ اللَّه تعالى قالَ للَّذينَ كَذَبوه حين أُنزلَ الوحيُ شرَّ ما قالَ لأحدٍ، فقالَ اللَّه تعالى : ﴿ سَيَحلِفونَ باللَّهِ لكُم إذا انقَلَبتُم إليهِم لتُعرِضُوا عنهُم فَأعرِضوا عنهُم إنَّهُم رِجسٌ ومأواهُم جهنَّم جَزاءً بما كانوا يَكسِبونَ ○ يَحلفُونَ

(١) التوبة : ١١٧ - ١١٩ .

لكُم لترضَوا عنهُم فإن تَرضَوا عَنهُم فإنَّ اللَّهَ لا يَرضَى عنِ القومِ الفاسِقينَ ﴾[1].

وكنَّا أيُّها الثَّلاثةُ الذين خُلِّفنا عن أَمر أولئكَ الذين قَبِلَ منهم رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم حين حَلفوا، فبايعهُم واستغفرَ لهم، وأرجأَ رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أمرُنا حتى قضى اللَّهُ فيه، فلذلك قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وعلى الثَّلاثةِ الَّذينَ خُلِّفوا ﴾، وليس تخليفُهُ إيَّانا وإرجاؤه أمرَنا الذي ذُكرَ ممَّا خُلِّفنا بتخليفنا عنِ الغزوِ، وإنَّما هو عمَّن حَلَفَ لهُ واعتذرَ إليه فقبِلَ منه »[2].

إنَّها قصَّةٌ باقيةٌ في أعقابِ ذلك الجيلِ العظيمِ، جيلِ الصَّحابةِ، تبرقُ ثناياها نوراً في لجَّةِ الظَّلام، وتهتزُّ أعطافُها رقَّةً في عبوسِ الأيَّام، وتسيلُ رضاباً حلواً في مرارةِ الشَّدائدِ، وتتهدَّلُ ثمارُها لذيذةً شهيَّةً في تلهُّبِ المحنِ .

وتضعُ لنا هذه القصَّةُ الرَّائعَةُ أدقَّ القواعِدَ التَّربويَّةَ العمليَّةَ، وأمثلَها، وأقومَها، وهذه ولا شكَّ أنَّها من بركاتِ هذه الغزوة الحسانِ، التي لم يُعرَف لها نظيرٌ في الزَّمانِ، ولم تكتُبها يدُ إنسانٍ، بل نزلَ بها الوحيُ على قلبِ محمَّدٍ رفيعِ الشَّانِ .

وكان في الإنفاقِ تفاوتٌ ظاهرٌ بين المؤمنينَ، فمنهم المقلُّ، ومنهم

---

(١) التوبة : ٩٥ و ٩٦ .

(٢) « مختصر ابن كثير » (٢٧٣/١-٢٧٧) .

المكثرُ، كلٌّ بقدرِ طاقته، ويسجل القرآنُ الإنفاقَ والبذلَ في هذهِ الغزوةِ فيقولُ : ﴿ ولا يُنفِقونَ نَفَقَةً صَغيرَةً ولا كَبيرَةً ولا يَقطَعونَ وادِياً إلّا كُتِبَ لهُم لِيَجزِيَهُم اللَّهُ أحسَنَ ما كَانوا يَعمَلونَ ﴾[1].

غيرَ أنَّه كانَ لعثمانَ رضيَ اللَّهُ عنه قَصبُ السَّبقِ والظُّهورِ عليهم جميعاً، فعن عبدِالرَّحمنِ بنِ خبَّابَ السلميِّ، قال : « خطبَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم فحثَّ على جيشِ العسرةِ، فقال عثمان رضيَ اللَّهُ عنه : عليَّ مائة بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها، قال : ثمَّ حثَّ، فقالَ عثمانُ بنُ عفَّانَ : عليَّ مائةٌ أخرى بأحلاسِها وأقتابِها، ثمَّ نزلَ مرقاةً من المنبرِ، ثمَّ حثَّ، فقالَ عثمانُ : عليَّ مائةٌ أخرى بأحلاسِها وأقتابِها، قال : فرأيتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قالَ بيدِهِ هكذا يحرِّكُها (أي متعجِّباً) وقالَ : ما على عُثمانَ ما عَمِلَ بعدَ هذا »[2].

ويُقيمُ المنافقونَ مسجِداً بأمرٍ من أبي عَامرٍ الرَّاهب، ليكُونَ لهُ مرصَداً، يرقُبُ فِيه أمورَ المسلمينَ، ومعقِلاً يمتنعُ فيه مِن إذايتهم، ويحسَبون أنَّهم قد وصلوا إلى ما بيَّتوا من مَكرٍ، وطلبوا من الرَّسولِ صلَّى

---

(١) التوبة : ١٢١ .

(٢) رواه أحمد، والترمذي، وفي سنده مجهول، وروى أحمد والترمذي عن عبدالرَّحمن ابن سمرة قال : جاءَ عثمان إلى النَّبي صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بألفِ دينار في ثوبه حين جهَّز النَّبي صلَّى اللَّه عليه وسلَّم جيش العسرة، قال : فصبها في حجر النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فجعل النَّبي صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يقلِّبها بيده ويقول : « ما ضرَّ ابن عفَّان ما عملَ بعد اليوم »، وإسناده حسن .

اللَّه عليه وسلَّم أن يصلِّي فيه، فوعدهُم أن يفعلَ ذلك بعد عودتِهِ من تبوكَ .

وينزلُ عليه الوحيُ ينبِّئهُ بما ألمَّت نفوسُ المنافقينَ مِن شرٍّ بهذا المسجدِ الضِّرارِ، ويفضحُ اللَّهُ مكرَهُم وهو بائرٌ، في أوبتهِ مِن تبوكَ .

فبعثَ رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم إلى هذا المسجدِ مَن هَدَمَه قبلَ وصولهِ المدينةَ، فكان أيضاً هذا مِن بركاتِ هذه الغزوةِ، فَلم يُصِب أولئكَ المتآمرونَ المنافقونَ إلّا زيادة في فضيحةٍ كانوا يستَترونَ بهذا المسجدِ منها، قالَ تعالى : ﴿ والَّذينَ اتَّخذوا مَسجِداً ضِراراً وكُفراً وتَفريقاً بينَ المؤمنينَ وإرصاداً لمن حَاربَ اللَّهَ ورسُولَه مِن قَبلُ وليَحلِفنَّ إن أرَدنا إلّا الحُسنى واللَّهُ يشهدُ إنَّهم لكاذبونَ ۝ لا تقُم فيه أَبداً لَمَسجدٌ أُسِّسَ على التَّقوى مِن أوَّل يَومٍ أحقُّ أن تَقُومَ فيهِ فيهِ رِجالٌ يُحبُّونَ أنْ يَتطهَّروا واللَّهُ يُحبُّ المطَّهِّرينَ ۝ أَفَمَن أسّسَ بُنيانه على تَقوى مِن اللَّهِ ورِضوانٍ خيرٌ أم مَن أَسَّس بُنيانَهُ على شَفا جُرفٍ هارٍ فَانهارَ بهِ في نارِ جهنَّم واللَّهُ لا يَهدي القومَ الظَّالمينَ ۝ لا يزالُ بُنيانهُمُ الذي بَنَوا ريبَةً في قُلوبهم إلّا أن تقطَّعَ قُلوبُهم واللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴾[1].

وإذا كان الوحيُ هو الذي يُطلعُ النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم على ما تُخفي صدورُ المنافقين من شرٍّ وسوءٍ، فإنَّ الأعصارَ التي أعقبت عصرَ

---

(١) التوبة : ١٠٧-١١٠ .

النبوّة - وقد انقطعَ الوحيُ فيها - في حاجةٍ إلى قُدراتٍ نفسيَّةٍ ومواهبَ عقليَّةٍ توثقُ نفسَها بعرى الإيمان، وتُحكم أمرَها بعقيدةِ التَّوحيدِ، لكي توفَّق في الكشفِ عن كلِّ شرٍّ وسوءٍ يُرادُ بها، فإنَّ مَن استوثقَ بعُرى الإيمان، واستحكمَ بعقيدةِ التَّوحيدِ أُلهمَ الأمورَ إلهاماً سديداً، وعرِّيَت له الحقائقُ في ليلٍ أو نهارٍ، فيراها جميعاً كما وجدَت، وإذا كانَت الأُمَّةُ كلُّها في حاجةٍ شديدةٍ إلى مثل هذا؛ فإنَّ الرَّاعي لهذه الأُمَّةِ لهو أشدُّ حاجةً إليها، وذلك يَحتاجُ منه إلى دُربةٍ ومِراسٍ، ودُربتهُ قيامُهُ بحقِّ اللَّهِ كلِّهِ مخلصاً فيه، ومراسهُ سعيهُ الدَّؤوبُ لاحتواءِ هذا الحقِّ بين يديهِ، فلا ينِدُّ منه إلّا ما يكونُ من سهوٍ أو غفلةٍ أو خطإٍ، ثمَّ لا يلبثُ أن يعيدَه إليه إذا زالَ عنه سهوُه أو غفلتهُ، أو ذكرَ خطأَه، فاستغفرَ ربَّهِ وأنابَ بهِ إلى الصَّواب الذي كان قَد هُديَ إليهِ من قبلُ .

وسيظلُّ هذا الدَّرسُ البليغُ من غزوةِ تبوك وغيره من دروسِها محوراً يدورُ حولَه التَّفكيرُ الإسلاميُّ، ويأخذُ منه القدرةَ على استقطابِ الأحداثِ العالميَّةِ كلِّها، إذا سَلِمَ من الآفاتِ التي تتآمرُ على الوجودِ الإسلاميِّ برُمَّته، ومن أعظمِ هذه الآفاتِ، وأشدِّها فتكاً ومكراً؛ النِّفاقُ الذي لن تخلوَ منه الأرضُ يوماً، بل سينالُ منه المسلمون أنفسُهم قِسطاً وافِراً، يَفِدُ إليهم من بقاياهُ في المدينةِ، ثمَّ يفشو في أرضِ المسلمينَ حتى يعمَّ أطرافَها جميعاً، يُسقى بأسنِ الانحرافِ المذهبيِّ، وكُدرةِ التَّفرُّقِ العَقديِّ، وجشعِ الطَّمعِ الدُّنيويِّ، وجموحِ الأهواءِ المتقلِّبَةِ، وانفلاتِ

الرَّغباتِ الملتهبةِ .

ويقرِّرُ القرآنُ للمسلمينَ قاعدةً ثابتةً لا يجارُ عليها ولا ينبغي لها ذلك، وهي : « المبدأُ هو الذي يحدِّدُ الولايةَ، وهذه الولايةُ باقيةٌ ما بقي المبدأُ »، فالنِّفاقُ نُصراؤُهُ وأولياؤُهُ المنافقونَ : ﴿ المُنافقونَ والمُنافِقاتُ بعضُهُم مِن بعضٍ يأمُرونَ بالمُنكَرِ وينهَونَ عَن المعروفِ ويقبِضُونَ أيديَهُم نَسُوا اللَّهَ فنَسِيَهُم إنَّ المنافقينَ هم الفاسِقُون ﴾[1]، والإيمانُ نصراؤهُ وأولياؤهُ المؤمنون : ﴿ والمُؤمنونَ والمؤمنات بعضُهم أولياءُ بَعضٍ يأمُرونَ بِالمعروفِ ويَنهَونَ عن المنكُر ويُقيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤتُونَ الزَّكاةَ ويُطيعونَ اللَّهَ ورَسولهُ أُولئكَ سيَرحمُهم اللّه إنَّ اللَّهَ عَزيزٌ حَكيمٌ ﴾[2].

وقد تقرَّرَت هذه القاعدةُ وظهرَت جليَّةً في غزوةِ تبوكَ، ونبذَ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم فيها إلى المنافقين نفاقَهم، وبترَ الحبلَ الذي كان بينَه وبينَهم، ولم يعد أمرُ أولئكَ المنافقينَ خافياً على أحدٍ، فلكلِّ شيءٍ نهايةٌ كما كانت له بدايةٌ، وإذا كانت بدايةُ النِّفاقِ قد ظلَّت تتردَّدُ بين الخفاءِ والظُّهورِ أحياناً، فلم يبقَ للنِّهايةِ مكانٌ تَنخَنِسُ فيه فتفجأُ المسلمينَ يَوماً بِفَجيعةٍ لا يكونُ لهُم قُدرةٌ على رَدِّها، أو النَّجاةِ منها، فكانت لغزوةِ تبوكَ هذه بركةٌ عظيمةٌ في كشفِ المنافقين، وإعلانهم للمؤمنين كافَّةً بأماراتِهم وأوصافِهم إلى أن يَرِثَ اللَّهُ الأرضَ ومَن عليها،

---

(١) التوبة : ٦٧ .   (٢) التوبة : ٧١ .

فلا يبقى عذرٌ لأحدٍ من المؤمنينَ في ممالأةِ منافقٍ أو موالاتِهِ .

إنَّ غزوةَ تبوكَ كانت خاتمةَ الغزواتِ، فكان لا بدَّ أن يُظهرَ القرآنُ فيها ما بقي خافياً على المؤمنين في غيرها، فكانت أشبَهَ ما تكونُ في الأحكامِ والتّشريعِ بآخرِ آيةٍ نزلَت، وهي قولهُ تعالى : ﴿ اليومَ أكمَلتُ لكُم دينَكُم وأتمَمتُ عَليكُم نِعمَتي ورَضِيتُ لكُم الإسلامَ ديناً ﴾[1].

فبقدرِ ما نالَ الرَّسولُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم والمؤمنونَ فيها من مشقَّةٍ وبقدرِ ما بذلوا من مالٍ وجهدٍ؛ كان نوالُهم من بركتِها، أَفاءَها اللَّهُ عليهم فضلاً منه وإحساناً، ظلَّت سبيلاً مُيسراً لمن جاءَ مِن بعدِ جيلِ الصَّحابةِ رضوانُ اللَّهِ عليهم، وغذاءً لعقولهم وقلوبِهِم سائغاً لمن يأخذُ سمتهُم لزوماً وعملاً بالحقِّ ونُصرَةً له ولأهلِهِ .

□ خبر بني المصطلق :

حين يوافي الحقُّ أهلَه يكونون أهلاً له، فينزلُ منهم منزلَ القبولِ، وتغمرُ قلوبهُم فرحة يرَونَ أنفسَهُم دونَها بكثيرٍ، فيصيرونَ إلى رجاءٍ عظيمٍ عندَ اللَّه سبحانَه أن تدركَهُم مغفرةٌ منهُ ورضوانٌ، فيحسُّونَ بذلكَ إحساساً لا يعرفونَ مأتاهُ إلى نفوسِهم، فيزدادونَ تعلُّقاً باللَّهِ، ويُقبلونَ عليهِ بكلِّ ما عندَهم من بلاغٍ إلى أسبابِ هذا التَّعلُّقِ .

وحين خرجَ بنو المصطلقِ من غياهبِ الكفرِ، ووردوا منابعَ النُّورِ

(١) المائدة : ٣ .

الإلهيّ، قطعوا ما بينهم وبين ماضِيهم من علائقَ، ورأوا في الإيمان حقيقةَ النَّجاةِ التي كانوا بعيدين عنها، ولم يَنوا في امتثالِ كلِّ ما جاءَهم من عندِ رسولِ اللَّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم .

ويأتيهمُ الوليدُ بنُ عقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ يوماً بأمرٍ من رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم يستوفي منهم الصَّدقات، فيكونُ من أمرِهِ مع بني المصطلقِ ما يرويه لنا الإمام أحمدُ في « مسندهِ » عن الحارثِ بن أبي ضرارٍ والدِ جويرية أُمِّ المؤمنين رضيَ اللَّهُ عنهما، قال الحارثُ : « قَدِمتُ على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فدعاني إلى الإسلام، فدخلتُ فيه وأقرَرتُ به، ودعاني إلى الزَّكاةِ، فأقرَرتُ بها، وقلتُ : يا رسولَ اللَّه ! أرجِع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداءِ الزَّكاةِ، فمن استجابَ لي جمعتُ زكاته، وترسل إلى رسول اللَّهِ ! رسولاً إبانَ كذا وكذا ليأتيكَ بما جمعتُ من الزَّكاة، فلمَّا جمعَ الحارثُ الزَّكاةَ ممَّن استجابَ له، وبلغَ الإبان الذي أرادَ رسولُ اللَّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم أن يبعثَ إليه، احتبسَ عليه الرَّسولُ ولم يأته، وظنَّ الحارث أنَّهُ قَد حدثَ فيه سخطةٌ من اللَّه تعالى ورسوله، فدعا بسروات قومه، فقال لهم : إنَّ رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم كان وقَّت لي وقتاً يرسلُ إليَّ رسولَه ليقبضَ ما كان عندي من الزَّكاة، وليسَ من رسولِ اللَّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم الخُلف، ولا أرى حبس رسوله إلّا من سخطةٍ كانت، فانطلقوا بنا نأتي رسولَ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم .

وبعثَ رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم الوليدَ بن عقبةَ إلى الحارثِ ليقبضَ ما كانَ عندَه مما جمعَ من الزَّكاةِ، فلمَّا أن سارَ الوليدُ حتى بلغَ بعضَ الطَّريقِ، فَرِقَ - أي خافَ - فرجعَ حتى أتى رسولَ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فقالَ : يا رسولَ اللَّهِ ! إنَّ الحارثَ قد منعني الزَّكاةَ وأرادَ قتلي، فغضِبَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وبعثَ البعثَ إلى الحارثِ رضيَ اللَّهُ عنه .

وأقبلَ الحارثُ بأصحابِهِ، حتى إذا استقبل البعثَ، وفصلَ عن المدينةِ، لقيهُم الحارثُ، فقالوا : هذا الحارثُ، فلمَّا غشيهم قال لَهم : إلى من بُعثتُم ؟ قالوا : إليكَ، قالَ : ولِمَ ؟ قالوا : إنَّ رسولَ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بعثَ إليكَ الوليدَ بن عقبةَ، فزعمَ أنَّك منعته الزَّكاةَ وأردتَ قتله، قال رضيَ اللَّه عنه : لا والَّذي بعثَ محمَّداً صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بالحقِّ، ما رأيتهُ بتَّةً، ولا أتاني، فلمَّا دخلَ الحارثُ على رسولِ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قال : « منعتَ الزَّكاة وأردتَ قتل رسولي ؟! »، قال : لا والذي بعثكَ بالحقِّ، ما رأيتهُ ولا أتاني وما أقبلتُ إلّا حينَ احتبسَ عليَّ رسولُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، خشيتُ أن يكون كانَت سخطةٌ مِن اللَّهِ تعالى ورسولِهِ، قال : فنزلت سورةُ الحجراتِ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إن جَاءَكُم فاسِقٌ بِنبإٍ ﴾[1] إلى قولِهِ : ﴿ حَكيمٌ ﴾ »[2].

---

(١) الحجرات : ٦ .

(٢) « تفسير ابن كثير » (٤/٢٠٨-٢٠٩)، وقال عن الحديث : « وقد روي من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد، وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ورجال أُحمد ثقات » .=

ويظلُّ خبرُ هذهِ الآيةِ عبرةً قائمةً في ذاكرةِ التَّاريخِ، تدرأُ عن الإسلامِ ونبيِّ الإسلامِ تهمة المواطأةِ على أمر حقٍّ أو باطلٍ معَ مَن يكونُ له سابقةٌ في الإسلامِ، ولا تحميه هذه السَّابقةُ مِن أن يُلقَّى لقباً يستوي فيهِ هو ومَن لم يدخلِ الإسلامَ بعدُ، لمَ ذلك ؟ لأنَّهُ ابتدرَ اليقينَ بالظَّنِ، وألمَّ بالجزمِ بالحدسِ، فحقَّ عليه قولُ ربِّنا : ﴿ إن جَاءَكُم فَاسِقٌ ﴾ .

○ ○ ○ ○ ○

= قلت : وفي سنده لين .

النِّهايــة

« فداكَ أَبي وأُمِّي ما أَطيبَكَ حيًّا ومَيِّتاً » .

بهذه الكلماتِ التي تقطرُ حزناً وعذوبةً، وحبًّا وشوقاً، وتسليماً وصدقاً، وافى أبو بكرٍ خليلهُ رسولَ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم وهو مسجىً على فراشِ الموتِ، والدَّمعُ ينسكبُ من عينيهِ، لا يملكُ لها فيهما حبساً ولا عن وجنتَيهِ صرفاً .

وخرجَ من عندِ نبيِّه وحبيبهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ليجِدَ الخَطبَ الفادحَ يُنشِبُ أنيابَهُ الكريهة في عقلِ عُمَر وقلبه، يريدُ أن يقضي على الحصنِ المنيع الذي يلوذُ به المسلمون في النَّوائب، والذي تنزَّل الوحيُ من فوقِ سبعِ سماواتٍ ليوافِقَ رأيَهُ البصير في مواطِنَ كثيرةٍ .

وأدركَ أبو بكرٍ - وهو يَرى عمرَ تعصِفُ المصيبةُ به عصفاً - أنَّ الأمرَ لا يحتملُ التَّريُّثَ والتَّصبُّرَ، فأسرعَ يقرأُ بصوتٍ مسموعٍ كلماتِ الوحي يعلِنُ بها أنَّ المصيرَ المحتوم الذي آلَ إليهِ الأنبياءُ جميعاً قَد آلَ إليه سيِّدهُم وعظيمهُم محمَّدٌ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم : ﴿ وما مُحمَّدٌ إلّا

رَسولٌ قَد خَلَت مِن قَبلِهِ الرُسلُ أفَأن ماتَ أو قُتِلَ انقلبتُم على أعقابِكُم ومَن ينقَلِبُ على عقِبيه فَلَن يَضُرَّ اللّه شيئاً وسَيجزي اللّهُ الشّاكرين ﴾[1]، ﴿ إنَّكَ ميّتٌ وإنَّهُم ميّتون ﴾[2]، ﴿ كُلُّ شيءٍ هالكٌ إلّا وجهَهُ لهُ الحُكمُ وإليهِ تُرجَعُون ﴾[3]، ﴿ كلُّ مَن عليها فانٍ ○ ويبقى وجهُ ربِّكَ ذُو الجلالِ والإكرامِ ﴾[4]، ﴿ كلُّ نَفسٍ ذائقةُ الموتِ وإنَّما تُوَفَّونَ أُجورَكُم يومَ القيامَةِ ﴾[5].

ويفيقُ عمرُ من هولِ الفاجعةِ، يعانقُ قَلبَهُ حزنٌ لم يفارقهُ طولَ حياتهِ، حتى نامَ النَّومةَ الكبرى، قريرَ العين إلى جانبِ نبيِّهِ وصاحبِهِ الأوَّل .

هذا الحشدُ من الآياتِ يدفعهُ أبو بكرٍ من لسانهِ يذكِّر به عمرَ وإخوانه من الصَّحابة أنَّ الموتَ هو نهايةُ المطافِ في هذهِ الحياة، ولن يقصرَ عن بلوغِها أحدٌ حتى الأنبياء، وليسَ رسولُ اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم إلّا أحدهم : ﴿ وما مُحمَّدٌ إلّا رَسولٌ قَد خَلَت مِن قَبلِهِ الرُسلُ ﴾[6]، فإن ماتَ فقد ماتَ الأنبياءُ جميعاً قبلهُ، واللّهُ لا يختصُّهُ من دونهِم بالخلودِ، فإذا حَمَّ القضاءُ عليه فلا يكونُ إلّا التَّسليمُ والاسترجاعُ : ﴿ إنَّا للّهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ ﴾[7].

---

(١) و (٦) آل عمران : ١٤٤ .
(٢) الزمر : ٣٠ .
(٣) الزمر : ٨٨ .
(٤) الرحمن : ٢٦ و ٢٧ .
(٥) آل عمران : ١٨٥ .
(٧) البقرة : ١٥٦ .

وقد نعاهُ اللَّهُ لنفسهِ قبلَ موتهِ تحذيراً وتنبيهاً لئلّا يُفجأَ المسلمونَ بموتهِ، فتصيبَهُم سهامُ الفاجعةِ في دينهِم، فتكونَ الفاجعةُ أعظمَ وأدهى؛ تكون بموتهِ، وبانقلابهم على أعقابِهم : ﴿ أَفإن ماتَ أو قُتلَ انقَلَبتُم على أعقابِكُم ﴾[1]، ومن معاني الانقلابِ الردَّةُ التي تكونُ من هولِ المصيبةِ، وعِظَمِ الفاجعةِ .

وكأنَّ اللَّهَ سبحانه أرادَ أن ينبِّه المسلمينَ جميعاً إلى هذهِ الحقيقةِ الثَّابتةِ الباقيةِ، فيقرّرها لهم بأُسلوبِ التَّأكيد القاطعِ الذي تنتفي به الشُّكوكُ، وتندفعُ به الرِّيَبُ، ولا يبقى لغير الحقيقة في نفوسهِم موضعٌ : ﴿ إنَّكَ ميِّتٌ وإنَّهم ميِّتون ﴾[2]، فَيمضونَ بعدَ موته يقيمون العَدلَ، ويَشيدونَ بُنيانَ الإيمانِ، ويرفعونَ عن النَّاس الآصار والأغلال، وينشرون ألويةَ العلم والتَّوحيد في كلِّ أرضٍ، لا يخذلهم موته، ولا يحفزهم إلى ذلك حياته، فقد مضى إلى ربِّه، وتركَ لهم من بعدهِ كتابَ اللَّه وسنَّته، لا يفترقان حتى يردا عليه الحوضُ يوم القيامة فليس لهم عذرٌ في نقصٍ لواجبٍ، أو زيادةٍ بباطلٍ، ولا يكون في قلوبهم تعظيمٌ لغير اللَّه، إلّا ما كان في حدودِ ما أمرهم اللَّهُ لتعظيم نبيِّه : ﴿ الَّذينَ آمَنوا به وعزَّروهُ ونَصَروهُ واتَّبعوا النُّورَ الَّذي أُنزِلَ معَهُ ﴾[3]، « لا تُطروني كما أطرَتِ النَّصارى المسيحَ ابن مريمَ »[4].

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

(٢) الزمر : ٣٠ .

(٣) الأعراف : ١٥٧ .

(٤) رواه البخاري .

وإذا كانت الأُمَم السَّابقةُ قد تركَتها أنبياؤُها لاجتهاداتٍ تبني عليها صلتَها بخالِقها من رهبانيةٍ ونَحوِها، ومضى كلُّ نبيٍّ إلى ربِّه، ومضَت معهُ رسالتهُ، فإنَّ محمَّداً صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قد مضى إلى ربِّه، وأبقى لأُمَّته من بعدِهِ رسالتَهُ التي أوحى بها إليه ربُّه كاملةً غيرَ منقوصةٍ، فلا تضلُّ بها ولا تشقى، إلّا إن هي أرادَت لنفسها الشَّقاوَةَ والضَّلالَ بالمخالفةِ عنها : ﴿ كُلُّ نفسٍ ذائقَةُ الموتِ وإنَّما تُوَفَّونَ أُجورَكُم يومَ القيامَة ﴾[1]، فمصير كلِّ من يضلُّ ويشقى بمخالفته عن هذه الرِّسالة إلى اللَّهِ، ثمَّ يُوفَّى جزاءَ عملِهِ، الذي قدَّمهُ فرآهُ قائماً أمامهُ، فيستذكرهُ ثم يُطرحُ في النَّارِ بهِ .

والبقاءُ صفَةٌ تفرَّدَ بها الخالقُ سبحانهُ، فلا ينازعُهُ فيها شيءٌ، وكانَ من أسمائه الباقي، والخلائقُ كلُّها مُحدثةٌ بخلقهِ سبحانه، وكلُّ مُحدَثٍ موجودٌ بعدَ عدمٍ، ولا بدَّ أن يعودَ إلى العدمِ، فلو كان المخلوقُ غير فانٍ لشابَهَ الخالقَ في بقائه، وهذا أمرٌ إدٌّ عظيمٌ، تُحجمُ عنه حتى العقولُ الزَّائغةُ، إذ ﴿ ليسَ كَمثلِه شَيءٌ ﴾[2]، ومحمَّدٌ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم شيءٌ أوجدَهُ اللَّه عزَّ وجلَّ كما أوجدَ كلَّ شيءٍ، ليسَ من نوره ولا من ذاته، فهو بشرٌ منَ البشر :﴿ قُل إنَّما أنا بَشَرٌ ﴾[3]، يزولُ عن الحياةِ كما تزولُ الأشياءُ كلُّها، إلّا ما خصَّهُ اللَّهُ به من كرامةِ حفظِ جسدِهِ، هو

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .

(٢) الشورى : ١١ .

(٣) الكهف : ١١٠ .

(٤) الرحمن : ٢٦ و ٢٧ .

وإخوانه الأنبياء جميعاً، أمَّا الرُّوح فليسَ لها حظٌّ يزيدُ عن حظوظِ الخلائق كلِّها، إلّا ما يكونُ لها من شرفٍ وفضلٍ في عالمِ البرزخ، وليس يعلمه إلّا اللّهُ وحدَهُ سبحانه، قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَن عَليها فانٍ ۝ ويَبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرامِ ﴾[1].

وهنا مسألةٌ هامَّةٌ في التَّوحيد، لا بدَّ من الإشارةِ إليها، وهي أنَّ التَّعبيرَ ببقاءِ وجهِ الربِّ سبحانه : ﴿ ويَبقى وجهُ ربِّكَ ﴾ أُسلوبٌ نطقَت به العربُ وتحدَّثت به في لغتها، ولا يفيدُ ما قَد يخطرُ ببالِ بعضِ الجهلاء، أو بعضِ أهل الزَّيغِ والضَّلالِ من أنَّهُ إذا ذهبنا نُثبتُ البقاءَ للوجهِ وحدَه، فذلك يقضي بالتَّجزئة على اللّه - عياذاً باللّه سبحانهُ - فلا مناصَ من أنَّ معنى الوجهِ هنا هو الذَّات كلِّها .

أقولُ : هذا إفكٌ وجهلٌ يحسُنُ بالمؤمن أنِ لا يخوضَ فيهما، وأن يبرِّئَ قلبَهُ ولسانَه معاً منهما، فإنَّ اللّه إذ يقولُ : ﴿ ويَبقى وجهُ ربِّكَ ﴾[2]، يقصدُ به إطلاقَ صفةِ البقاء على نفسه سبحانه، بما يفهمُهُ العربيُّ الذي أُنزلَ القرآن بلغته، وهذا كما قُلنا أُسلوبٌ عربيٌّ نطقَت به العربُ وتحدَّثت، كما يقال : هذا وجهُ الصَّواب، ووجهُ الأمرِ، والمرادُ : الصَّوابُ والأمر، والخوضُ فيهِ بأكثرَ من ذلك يُؤذِنُ بالفِتنَةِ، فيحسُنُ اجتنابهُ، فلماذا يكون تجزئةُ النَّصِّ القرآنيِّ وتقطيعُ الكلام الذي سيؤدِّي بالضَّرورةِ إلى تحميلِ الكلامِ أكثرَ ممَّا يطيق، وصرفهُ عن وجهِه الذي لا

---

(١) الرحمن : ٢٦ و ٢٧ . (٢) الرحمن : ٢٧ .

يفهمُ منه العربيُّ سليمُ الفطرةِ إلّا أنَّ اللَّه سبحانه يريدُ من هذا النَّصِّ إطلاقَ صفةِ البقاءِ على نفسه لكي ينزهَهُ خلقةُ بما هو أهلٌ ؟

قضى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم حياتَه بشراً من البشرِ، يأكلُ ويشربُ ويمشي في الأسواقِ، وماتَ كما يموتُ سائرُ النَّاس، علا في الدُّنيا ذكرهُ، وارتفعَ في الآخرَةِ قَدرُه، بشراً رسولاً، بنى مجتمعاً سَويًّا، وربَّى أُمَّةً ماجدةً، وأسَّسَ حاضرَةً أكلَت الحواضِرَ والقرى، وصارَت في دنيا النَّاس مثلاً يُرادُ ويُحتذى، وشرعَ للباديةِ طرائقَ الخيرِ، وقُضيَ صلواتُ اللَّه وسلامهُ عليه، موعوداً بشفاعتين : إحداهما عامَّةٌ، والأُخرى خاصَّةٌ؛ يكونُ لأُمَّته من كلتيهما أوفرَ حظٌّ وأمكنَهُ .

فهنيئاً لأُمَّةٍ هذا رسولها، عاشَ لها في الدُّنيا، باذلاً من ذاتِ نفسهِ معروفاً لا تقوى عليه أُمَّةٌ مجتمعةٌ، ثمَّ هو على ريثِ انتظارٍ لها في الآخرةِ، ليكون السَّاعيَ لها بينَ يدي ربِّه سبحانهُ بالشَّفاعةِ .

والحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات

فهرس الموضوعات